المكتبة الأهلية . بمصر

تحت راية القرآن

المعركة بين القديم والجديد

مقالات الأدب العربي فى الجامعة المصرية ، والرد على كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين ، واسقاط البدعة الجديدة التى يريد دعاتها تجديد الدين واللغة والشمس والقمر ...

بقلم
مصطفى صادق الرافعي

الطبعة الأولى — حق اعادة الطبع محفوظ لمؤلفه

المطبعة الرحمانية بمصر
١٣٤٥ — ١٩٢٦

مؤلفات صاحب الكتاب

تاريخ آداب العرب (صدر منه مجلدان)

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية

ديوان الرافعى — ثلاثة أجزاء

ديوان النظرات — الجزء الأول

رسائل الأحزان ، فى فلسفة الجمال والحب

السحاب الأحمر — تكملة على رسائل الأحزان

كتاب المساكين

حديث القمر

النشيد المصرى الوطنى وتاريخه — فى الطبعة الثانية

نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه

تنبيـــــــه

نلفت القراء الى أننا فى هذا الكتاب إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة اذا هي قامت اليوم بفلان الذى نعرفه فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه ونحن نرد على هذا وعلى هذا بردٍّ سواء لا جهلنا من نجهله يلطّف منه ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ؛ والفكرة لا تسمَّى بأسماء الناس وقد تكون لألف سنة خلت ثم تعود بعد الف سنة تأتى فما توصف من بعدُ إلا كما وُصفت من قبل مادام موقعها في النفس لم يتغير ، ولا نظنه سيأتى يوم يذكر فيه ابليس فيقال رضى الله عنه ... ونحن مستيقنون أن ليس في جدال من نجادهم عائدة على أنفسهم إذ هم لا يضلون الا بعلم وعلى بينة فمن ثم نزعنا فى أسلوب الكتاب الى منحًى بيانى نديره على سياسة من الكلام بعينها فان كان فيه من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهكم فما ذلك أردنا ولكننا كالذى يصف الرجل الضالّ ليمنع المهتدى أن يضلْ فما به زجر الأول بل عظة الثاني ولهذا في مناجى البيان أسلوب ولذلك أسلوب غيره ؛ ألاَ وان أقبح من القبح ما جعله يسمى قبحاً وان أحسن من الحسن ما جعله حسناً ولكل معنى باعتباره موضع ولكل موضع فى حقه وصف ولكل وصف فى غرضه تعبير ولكل تعبير أسلوبه وطريقته فهذا ما ننبه اليه

ولو كان أصحابنا غير من هم فى الأثر والمنزلة لكان أسلوبنا غير ما هو فى النمط والعبارة والسلام ؟

الرافعى

بين يدى الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على رسله وأنبيائه

اللهمَّ هيِّئْ لنا الخير واعزم لنا على الرشد وآتِنا من لَدُنْكَ رحمةً واكتب لنا السلامة فى الرأي وجَنِّبْنَا فتنةَ الشيطان أن يقوى بها فنضعفَ أو نضعفَ لها فيقوى ، ولا تَدَعْنا من كوكب هداية منك فى كل ظلمة شك منا ، واعصمنا أن تكون آراؤنا فى الحق البيِّن مكانَ الليل من نهاره ، أو تنزل ظنوننا من اليقين النيِّر منزلة الدخان من ناره ، نسألك بوجهك ونتوسل اليك بحمدك وندعوك بأفئدة عرفتك حين كذَّب غيرها فأقرَّت ، وآمنت بك فزُلزل غيرها واستقرَّت

وأما بعدُ فانى قد نظرت فاذا كل ما كنت أريد أن أقوله فى هذه الكلمة قد كتبته فى هذه المقالات فهي لا تدع مسئلة ولا تترك شبهةً ولا تزال تأخذ بيد القارىء فتضعها على غلطات أصحابنا (المجدِّدين) بل المبدِّدين واحدةً بعد واحدة وشيئا بعد شيء فهو منها فى برهان لائح من حيث بدأ الى حيث ينتهي كالنجم لا يزال بِعَيْن منه أين مشى وكيف تلفَّت

وما رأيت فئة يأكل الدليلُ الواحد أدلتَها جميعا كهؤلاء المجددين فى العربية فهم عند أنفسهم كالجمرة المتوقدة لا يُشبعها حطبُ الدنيا ولكنَّ غَرْفَةً من الماء تأكل الجمرة ، وهم مخذولون بقوة الله إذ ليس

فيهم رجل فصيح بليغ يكون لهم كالتعبير من الطبيعة عن هذا المذهب حتى يثبت مذهبهم فلا يُدْفَع ويقوم فلا ينْقَض، ولن يأتيَ لهم هذا الرجل فلو أنه اتفق لهم لكان أشد أعدائهم ولأغلظ فيهم النكايةَ فما يزال ينقصهم أبدا ولن يتموا به أبدا، وذلك من عجيب تقدير الله فى العربية لمكان القرآن منها حتى لا يدخل فى طمع أحد ولا تناله يد متناول فهو محفوظ بالقَدَر كما ترى والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

وإن طائفة من الذباب لو أصابت لها حامياً مدافعاً من النسور فجاءت تطنُّ بأجنحتها لتلوذَ به وتنضويَ اليه ثم قَصَفَ النسر قَصْفَةً بجناحيه لأهلكها أو بَعْثَرَها وشرّدها وهو كان في وهمها مَلاذاً وكان عندها حِمًى فذلك مثل القوم وما يحتاجون اليه من الرجل البليغ اذا التمسوه فأصابوه

*
* *

أما إنه ليس يقوم العقل على ما يسمى عقلا ولكن على ما يسمى غرضاً وحاجةً ورغبة واضطراراً فأهواء امرىءٍ من الناس جاعلة له عقلاً غير عقل من لم تَدْعُه نفسه الى مثل هذه الأهواء وان كان أمرهما واحداً بعدُ، ومن ههنا اختلافنا مع هؤلاء (المجددين) فان لهم أغراضا لامناص أن تجعل لهم عقولا بحسبها وعلى مقاديرها فى المصلحة والمَفْسَدة وهم صُوَرٌ من ضمائرهم فليس فى الملحد يكون ضمير مؤمن ولا فى الفاجر ضمير تقي ولا فى المُسْتَهْتَر ضمير وَرِع. ومن ثمّ وجب أن تتحذّرهم الأمة وأن تُقرهم فى ذلك الحيِّز من تخيلاتهم وأوهامهم فهم من الأمة اذا

غلبت هي عليهم وليسوا منها اذا غلبوا عليها وما مثلهم الا كالرمل والحصى تكون في مجرى الماء العذب فتكون شيئاً من طبيعته وتحدث فيه لونا من الحسن والرونق واذا هي خيال من شعر النهر حتى اذا خرجت مع الماء وانساغت في حلق من يجرعه كانت بلاءً وأذى وانقلبت للماء سُبّة ورُمي بها ورميت به

وهم يريدون بآرائهم الأمة ومصالحها ومراشدها ويقولون في ذلك بما يسعه طغيانهم على القول واتساعهم في الكلام واقتدارهم على الثرثرة حتى اذا فتّشت وحققت لم تجد في أقوالهم الا ذواتهم وأغراضهم وأهواءهم يريدون أن يبتلوا بها الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم كالمسلول يصافحك ليبلغك تحيته وسلامه فلا يبلغك الا مرضه وأسباب موته

ولقد كان من أشدهم عُراماً وشراسةً وحمقاً هذا الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية فكانت دروسه الأولى « في الشعر الجاهلي » كفراً بالله وسخرية بالناس فكذّب الأديان وسفّه التواريخ وكثر غلطه وجهله فلم تكن في الطبيعة قوة تعينه على حمل كل ذلك والقيام به الا المكابرة واللجاجة فمرّ يهذي في دروسه لاهو يثبت الحقيقة الخيالية ولا يترك الحقيقة الثابتة وأراد أن ينساب أهل العلم ما يعلمونه كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق وبالحيلة لا بالإقناع وعن غفلة لا عن بيّنة . وما يضحكني الا أن أرى هذا الاستاذ واثنين أو ثلاثة من أشباهه يريدون أن يكونوا ثورة في الأدب العربي ونسوا أنهم انما يريدون ذلك لأنهم خلقوا لذلك فكان (طه) في الجامعة كالممثل إنما وسيلته أن يتصنّع ويجترىء ويزوّر فلما نزعنا عنه ثوب الرواية . . . . نزعنا في الثوب

الحادثة والروايةَ والممثلَ جميعاً ورجع طه حسين وهو طه حسين . وأين هو أو مثله من وسائل القدرة وماوسائلها الا القلم الذى لايُجارى والفكر الذى لايُنْقض والخيال الذى لايُلحق والقوة المستحصدةُ والطبع المستجيب والكلام الذى تراه حياً سامياً فتحسبه ينبع من موضع يد الله فى النفس الانسانية ؟

على أن أستاذ الجامعة إنما يقلد الهدَّامين من جبابرة العقول فى أوربا وإنه منهم ولكن كما تكون هذه الكرة الجغرافية المدرسية التى تصوَّر عليها القاراتُ الخمس ، من كرة الأرض التى تحمل القارات الخمس . . . . ولأ يسرُ عليه أن يملك أوربا أو أمريكا من أن يملك عقلا كتلك العقول التى يحاول مثل عملها فى غير هندستها ولا حكمتها ولا سموها ولا معانيها . وظُنَّك أنت قد غرستَ فى جناح غراب ريشةً من الطاووس لتكون زرعا يُنبت الريش من مثله فينقلب الغراب من ذلك يوما يزدهي ويتخايل ويَبْرُقُ ويرف بألوانه وتحاسينه ، فانه لينقلب طاووسا قبل أن تعدَّ طه حسين عبقريًّا فيلسوفا . . . . فالرجل متخلِّف الذهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها ، وأكبر ما معه أنه يَتَحَذْلَقُ ويَتَدَاهى ويتشبَّه بالمفكرين ولكن فى ثوب الرواية . . . .

هو وأمثاله المجددون يسمون كتابا وعلماء وأدباء إذ كان لا بد لهم من نعت وسِمَةٍ فى طبقات الأمة غير انهم على التحقيق غلطات إنسانية تخرجها الأقدار فى شكل علمي أو أدبي لتعارض بها صوابا كاد يهمله الناس فيخشى الناس أن يَتحيَّفَ الخطأ صوابهم أو يذهب به فيستمسكون بحبله ويشدون عليه ويعود ذلك الصواب بعد ظهور الخطأ الذى يقابله

ووقوفه بإزائه موقف العدو من العدو كأنما ظهر دليله لا نقيضه فيعرف الناس وجه الحاجة اليه ومكان الغناء فيه وضرورة المنفعة به وكان وشيكاً أن يضيع فكأنهم استنقذوه، وكل ذلك مما يكبر دويرفعه ويُبين عنه أحسن إبانة وأوضحها وكل ذلك مما يُغري به الحرص على سنة طبيعية قاهرة لا تُدافع، وما زالت هذه من عجائب حكمة الله فيما يحوط به هذا الدين الإسلامي وكتابه العربي الخالد فكلما وهن عصر من عصوره رماه الله بزنديق فاذا الناس أشد ما كانوا طَيْرةً وأبلغ ما كانوا دفعاً ومحاماة واذا الدين أقوى ما كان فيهم وأثبت. واذا الزنديق كأنما سِيقَ اليهم من جهنم ليقول لهم هلمّ اليها فيقول بِيَسم النار عليه إياكم وإياها .

فالمجددون الملحدون هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب وما أشبههم بالمواد السامة يُداف قليلها فى الدواء لتكون قوته من قوتها فاذا ما زجته عادت فيه غير ما كانت وهي فى نفسها لا تزال كما هي .

وما نريد أن نزيد (طه) على ما قلنا فيه مما ستقرأه فى هذا الكتاب ولكننا نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود إليها فانه إلا يكن بها لا يكن بغيرها وإنها إلا تكن به تكن بغيره .

وقد كان أمره وأمر أصحابه كما يكون من الوباء يمر بالدنيا مرة فيصيب منها ولكنه يترك فى أيدى أطبائها المصل الواقي منه أبد الدهر . ولقد تركوا لنا هذا الكتاب فالله نسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم نافعاً بهذه النية مثوباً بهذا النفع وله الحمد فى الأولى والآخرة

مصطفى صادق الرافعي

المذهبان

القديم والجديد

« كتب أحد الكتاب فصلا في مجلة الهلال الغراء نحلنا فيه زعامة المذهب »
« القديم وسمى جديداً وسمى قديماً واحتج ونازع فرددنا عليه بهذا الفصل »

زعم الكاتب فيما كتب أن ما نقول به من احتذاء العرب في أساليبهم والارتياض بكلامهم والحرص على لغتهم وأن يكون الكاتب في هذه اللغة حسن البيان رشيق المعرض رائع الخلابة يتثبت في ألفاظه وينظر في أعطاف كلامه ويفتنّ في أساليبه — كل هذا وما إليه « مذهب قديم » « ووطنية أدبية » ترجع العلة فيها إلى ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والأدب العربي. ثم قال « وإن أهل المذهب القديم يهملون العلم لأن العلوم تتعارض ومعتقدات العرب ». وظاهر أنه يعني بالعرب المسلمين لا غيرهم فان الجاهلية أصبحت من أكاذيب التاريخ وبليت معتقداتها بلى أدخلها في قبور أهلها

فالمذهب القديم إذن هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزله أمة من العرب الفصحاء وأن يكون الدين العربي لا يزال هو هو كأنما نزل به الوحي أمس. لا يفتننا فيه علم ولا رأي. وأن

يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً

ولكن ما هو المذهب الجديد ؟ أنأخذ بالمقابلة فنقول إذا كان الأبيض هو القديم فالأسود هو الجديد . وإذا كانت الفصاحة وإذا كان الحرص على ميراث التاريخ وإذا كان القانون الطبيعي للفضيلة الاجتماعية وإذا كنا نولد بجلود كجلود آبائنا ، فالركاكة وإهمال القومية التاريخية والتحلل من قيود الواجبات والانسلاخ من الجلدة لأنها ليست أوربية... كل هذا جديد لأن كل ذلك قديم ؟ أم هناك حقيقة ثابتة محدودة خفيت على عِظَمها وخطرها فى هذه اللغة خفاء أمريكا فى هوْل المحيط . . . حتى بعث الله لها فى أيامنا هذه من يرميها ببصره فكشفها وسماها وكان منها المذهب الجديد وكانت هي إياه ؟

لو تأمل أصحابنا تاريخ هذه اللغة وآدابها لرأوا فى كل عصر من عصورها شيئاً كان يمكن أن يسمى مذهباً جديداً ولكنا لم نجد أحداً سماه كذلك ولا بناه على أنه شيء بنفسه إلا فى هذه الأيام الأخيرة ثم لم نجده إلا فى هؤلاء الذين غلبت عليهم صناعة الترجمة ورجعوا من العربية إلى طبع ضعيف ومادّة واهنة فورد عليهم من الصناعة ما لا تقوم به أداتهم وسال بهم الوادى عجزاً فلم يكن بدٌّ من أن تُدخل اللغات الأعجمية الضيمَ على عربيتهم وصار أكثرهم بلغتيه كالميزان ثقلت كفة منه فرجحت وخفّت الأخرى فظهرت فارغة . . . ولو هو وضع فى هذه وزنَ ما فى تلك وكافأ بينهما لانقلب الأمر وكانتا على سواء فلا وافٍ ولا ناقص

العلة فى الحقيقة لاترجع إلى مذهب قديم أوجديد بل إلى الضعف فى لغة والقوة فى أخرى وأن صاحب المذهب الجديد . . . أخذ بالحزم فى واحدة وبالتضييع فى الثانية وأكثر من الاقبال على شيء دون الآخر فتعلق به وأمضى أمره عليه وحسنت نيته فيه واستمكنت فصارت إلى نوع من العصبية للأدب الأجنبي وأهله . فلما ضربت هذه العصبية واستحكمت وجّهت الذوقَ فى الأدب وأساليبه إلى تفسير معيّن بحكم المذهب والهوى ثم جعلت الفهم من وراء الذوق . وأنت تعلم أن الذوق الأدبي فى شيء إنما هو عن فهمه وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . ومن ههنا جاء ذلك الخطأ الذى يحسبونه صواباً على أنك واجد فى القوم من لاتتهم فهمه ولكنك لاتبرّىء إنصافه، ومن لاتتهم فيه هذا ولا ذاك ولكنه مع ذلك يجيء فهمه خطأ لأنه لايريد أن يجيء إلا هكذا . . . لمكان العصبية من نفسه لرأي على رأى أو شخص على شخص أو دين على دين مما لايكون الشأن فيه إلا للحسّ الباطن

وقد قال علماء الأدب إنه لما اتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القُرى وفشا التأدب والظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شيء ذى أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها مسمعاً وألطفها من القلب موقعاً وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها كما رأيتهم يختصرون « الطويل » فانهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة أكثرها بَشِع شنع . . . فنبذوا جميع

ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان . وقع هذا ومثله في عصر بعد عصر وما رأينا أحداً سماه مذهباً جديداً أو زعمه . والقرآن نفسه مذهب جديد بكل معاني هذه الكلمة وما قال فيه أحدهذا القول لا من أهل اللغة ولا ممن دخلوا عليها ؛ وقد نقل عبد الحميد الكاتب أشياء من الأساليب الفارسية فأدخلها في كتابته وترجم العلماء عن اللغات المختلفة أكثر مما يترجم كتاب هذه الأيام ومنهم من كان يرجع في التصحيح وتحرير الألفاظ إلى رجال أهدفوهم لذلك من العلماء باللغة ، وظهرت الأفكار المتباينة وتعددت الأساليب في الكتابة وافتنّ المتأخرون من القرن الرابع إلى التاسع في فنون من الجد والهزل وفي نكت بديعية لم يعرفها العرب إلى أن اختلط لسانهم ، وفي كل ذلك لم يقل أديب ولا عالم ولا كاتب أن له مذهباً جديداً من مذهب قديم لأنهم كانوا أبصر باللغة وأقدر على تصريفها وأعلم بحكمة الوضع فيها وأحرص على وجوه الفائدة منها والانتفاع بها ثم كانت أسباب اللغة ميسّرة لهم ينشأ الناشئ منهم على حفظ ورواية ويتلقى عن أشياخ ثقات قد أخلصوا نيتهم للعلم ونا َصحوا عن أنفسهم فيه وجمعوا واستوعبوا وكأنما ُعصرت أرواحهم من الفنون عصراً وكأن في الواحد منهم روح مكتبة كبرى

فلما تعطل الزمن وأصبح الأدب َصَحفيًّا . . . وآلت العربية وآدابها إلى بضعة كتب مدرسية وانزوى ذلك العلم المستطيل (١) وأصبحت

(١) كانوا يسمون الرواية العلم المستطيل وكانت الرواية عند العلماء سراً من أسرار النشأة الفصيحة وبها نهض الأدب قديماً كما فصلناه في الجزء الأول من [تاريخ آداب العرب]

المكاتب له كالقبور المملوءة بالتوابيت .... وفشت العصبية بيننا للأجنبي وحضارته — رجع الأمر على مقدار ذلك فى صغر الشأن وضعف المنزلة واحتاج أهل هذا القليل من العربية إلى أن يعتبروه كلاً بنفسه لا جزءاً من كله فكان لذلك مذهباً وكان مذهباً جديداً . . .

وإذا أنت لم تجد فى كل علماء المتقدمين من استطاع أن يقول إنه صاحب مذهب جديد فى اللغة أو يرى لنفسه رأياً إلا أنه يعمل لحفظها ونمائها ورونقها وإلا أنه يُرقِّق ما استطاع ويتصرف بما أطاق — فإنك واجد فى أهل سنة ١٩٢٣ . . . (١) من يقول فى هذه اللغة بعينها: « لك مذهبك ولى مذهبي . ولك لغتك ولى لغتي . . . » فمتى كنت يافتى صاحب اللغة وواضعها ومنزِّل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذّها . ومن سلَّم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك فى ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الإيجاد ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك ؟ إنه لأهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدئ فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئاً فيها — من أن تلد مذهباً جديداً أو تبتدع لغة تسميها لغتك فإنك عُمر واحد فى عصر واحد بين ملايين من الأعمار فى عصور متطاولة وإن ماتحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولن يبقى أبداً إلا كما تبقى العلة على أنها علة فلا يقاس عليها أمر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتلّ

إن أرادوا (بالمذهب الجديد) العلم والتحقيق وتمحيص الرأي

(١) تاريخ كتابة هذا الفصل

والإبداع فى المعنى على أن تبقى اللغة قائمة على أصولها وعلى أن يكون التفنّن (طرائق) كما قيل مثلاً فى ابتداع القاضي الفاضل الذى سموه الطريقة الفاضلية ؛ لامذاهب يراد بها إثبات ومحو — فإننا لا ندفع شيئاً من هذا ولا ننازع فيه بل هو رأينا بل هو رأي الحياة بل هو قانون الطبيعة . ولكننا مع هذا نزيد عليه أن الأصل فى كل ذلك سلامة اللغة وسلامة القومية فلا ننظر فى آراء الأمم إلا على أننا شرقيون ولا ننتقل من لغات الافرنج إلا على أننا أهل لغة لها خصائصها ولا تصرفنا مدنيتهم عن أنفسنا ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا وبنزغاتهم لقلوبنا « وكوكايينهم لأنوفنا . . . » بل نؤثر الفضيلة على الرأي وإن كان من رأس المجنون « نيتشه [١] » ونرغب فى المصلحة الجافية الخشنة على المفسدة اللينة الناعمة وإن كانت نعومة الأنوثة الباريسية .

وانظر كم بين من يسلم لفلان وغيره من علماء أوربا لأنهم من علماء أوربا وبين من لا يسلّم إلا عن اقتناع وعن بينة من المصلحة والعائدة وبعد أن تبلغ الحجة مبلغها . فهذا فلان كاتب شرقى ينزع إلى الاشتراكية ويدين بها ويراها مائدة الخالق التى مُدت فى أرضه للناس جميعاً . وينعى علينا أننا نتجاهلها كأننا لم نلمّ بهـا ، على أننا نراها تلك المائدة بعينها غير أننا نزيد عليه أنها ممدودة للناس جميعاً ليتدافع عنها الناس جميعاً فلا يصل إليها أحد . . . ونفضل على كل هذه المائدة الخيالية بما حفلت به من لذائذها وألوانها تلك اللُّقَيمات التى يفرضها نظام الزكاة فى الإسلام فرضاً لا يتم

---

(١) هو فيلسوف ألمانى تركته الانسانية مجنوناً فأراد أن يتركها مجنونة . . . .

الإسلام لأحد إلا به . وعلى هذا فاعتبر .

ولا يفوتن صاحبنا أن كثرة الآراء فى هذا العصر وكثرة العقول المفكرة والاستقلال الفكري التام . . . بلا قيد ولا شرط ثم الرغبة فى أن يكون لكل عقل أثر فى الاجتماع ولكل أثر دليل عليه ولكل دليل أتباع . كل ذلك سينتهي إلى أن تكون علة الاجتماع الانساني لا بُرْءَ منها إلا بالقيود الالهية التى تسمى « الأديان » وها نحن أولاء نرى فى أوروبا وأمريكا أن من الغفلة ماهو مذهب ومن الرقاعة مذهب ومن تسفّل الشهوات مذهب ومن الجنون مذهب ومن كل شذوذ مذهب ومن غير المذهب مذهب أيضاً . . .

تلك واحدة والثانية أنهم إن أرادوا « بالمذهب الجديد » أن يكتب الكاتب فى العربية منصرفاً إلى المعنى والغرض تاركا اللغة وشأنها متعسفاً فيها آخذاً مايتفق كما يتفق وما يجري على قلمه كما يجري معتبراً ذلك اعتبار من يرى أن مخه بلا غلاف من عظام رأسه وأن عظام رأسه كعظام رجليه وأن أصابع قدميه كأهداب عينيه وأن مطلق التركيب هو مطلق النظام والمناسبة وأن اللغة أداة ولا بأس بالأداة ما اتفق منها ولا بأس أن ينزع الجراح مزعا من جلد العليل بأسنانه أو بأظافره أو بنصل الفأس . . . . مادامت معقّمة وما دام ذلك بعينه هو فعل المِبْضَع لايزيد المبضع عليه إلا فى الدقة . . . . ان أرادوا بهذا أو أشباهه ما يسمونه المذهب الأدبي الجديد قلنا لا ثم لا ثم لا ثلاث مرات .

فاما الأولى فان خيراً من ترك الجاهل فى جهله أن يُزجر عن جهله. وإذا كان مذهب الضعف أن لا يحمل عليه إلا بقدره وفى طاقته فهل يجعل ذلك أصلا للقوة . والضعف إنْ هو الا استثناء منها وقاعدة الاستثناء أن يقيد بنصه ولا يتوسع فيه ؟

ثم أيما خير لآدابنا وعلومنا وكتابنا ؟ أن نحرص على الأصل الصحيح القوي الذى فى أيدينا ونحتمل فيه ضعف الضعفاء ونصبر على مدافعتهم عن إفساده حتى ينشأ جيل أقوى من جيل وتخرج أمة خيراً من أمة فتجد الأصل سليما فتبني عليه وتزيد فيه ، أم ندع الصلاح للفساد ونتراخى فى القوة حتى تحول ضعفاً فاذا جاء من بعدنا وجد الأصل فاسداً فزاده فساداً ويعود « مذهبنا الجديد » بعد حين من الدهر مذهباً قديماً فيُستحدث منه جديد على نمط آخر ثم يتقادم هذا أيضا على السنّة نفسها وهلم إلى أن تصير هذه العربية فى بعض أزمانها لغةً على كل أزمانها فتُنسخ جملة واحدة ويصبح الكلام المأنوس الذى نراه اليوم سهلا ليناً وهو الجاسي الجِلْف الغليظ الذى لا يحسن ترجمته يومئذ إلا عالم بصير بما كان يسمى من قبل فعلاً واسماً وحرفاً . . . وإلا فليقل لنا أصحاب المذهب الجديد ما هو حد التجديد عندهم ولم يقصرونه على حد معين بل كيف يقصرونه وفى الناس من هو أضعف من ضعيفهم فوجب أن يكون له جديد من جديدهم على مقدار ضعفه ما دام شكل القياس واحداً والقضية فيه واحدة والعلة لا تختلف ؟

وأما الثانية فان هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن

الكريم وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا َحفْل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . فاذا كان المُعْجز فى لغة من اللغات بإجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها خاصة فهل يكون الجديد فيها كمالاً يسمو أم نقصاً يتدلىّ ؟

ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومه ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء عليها وإحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها . وكل هذا مما يجعل الترخُّص فى هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد والجهل فلا تزال اللغة كلها مذهباً قديما وإنما يكون المذهب الجديد فيها رجلاً إلى حين . . . ثم يدخل مذهبه القبر . وما عسى أن يصنع كاتب وعشرة ومائة وألف فى لغة يخفق على كتابها المعجز أربعمائة مليون قلب ؟ وكم من أسلوب ركيك أو ضعيف أو عامي ظهر فى هذه اللغة منذ دونوا وكتبوا وكم من فكر فاسد أو زائغ أو مدخول وكم من كتاب كان يصلح أن يسمى بلغة اليوم مذهباً جديداً . فاين كل ذلك وأين أثره فى اللغة وأساليبها بعد ثلاثة عشر قرناً ؟ لقد ابتلعته ثلاث عشرة موجة فانحدر إلى أعماق الموت الطامى

على أنى رأيت لأصحاب « المذهب الجديد » أصلا فى تاريخ الأدب العربي كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه حتى قال الجاحظ فى بعض رسائله يعنى هؤلاء وأولئك: « فكل سخنةِ عين رأيناها فى أحداثنا وأغبيائنا (تأمل) فمن

قِبَلهم كان أولها » . ورحم الله أبا عثمان إن التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسخنة عين جديدة » . . . . (١)

وأما الثالثة فان الخاصية فى فصاحة هذه اللغة ليست فى ألفاظها ولكن فى تركيب ألفاظها كما أن الهزة والطرب ليست فى النغمات ولكن فى وجوه تأليفها وهذا هو الفن كل الفن فى الأسلوب لانه يرجع الى الذوق الموسيقي فى حروف هذه اللغة وأجراس حروفها . وأشهدُ ما رأيت قط كاتبا واحدا من أهل « المذهب الجديد » يحسن شيئاً من هذا الأمر ولو هو أحسنه لانكشف له من إحسانه مالا يُبقي عنده شكا فى إبطال هذا المذهب وتوهينه . ولذا تراهم يعتلُّون لمذهبهم الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء الا الفصاحة . واذا فَصُحُوا جاءوا بالكلام الفجّ الثقيل والمجازات المُسْتَوْخَمَة والاستعارات الباردة والتشبيهات المجنونة والعبارات الطويلة المضطربة التى تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الارض لاتزال تنبو عن موضع الى موضع حتى تهمد

ولا نريد أن نطيل فى هذا الوجه فقد استوفينا أكثر الكلام عليه فى الجزء الثانى من « تاريخ آداب العرب » وانما نقول إن الكلام الوحشي الغريب ينقسم الى قسمين : ما كان خشنا مُستغرَبا لايعلمه إلا باحث مطلع . وما كان مأنوسا واقعاً فى غير موقعه كما ترى فى أساليب بعض كتاب هذه الأيام التى تنفجر بما لا يطاق على رقتها وتهب عليك هبوب النسيم ولكنه بين موضع وموضع لابد أن يكنس الارض . . .

(١) سترى تفصيلا لذلك فى مقالات الادب العربي فى الجامعة

فالقسم الأول نافر بنفسه فهو وحشي على حالة واحدة لاتختلف والثانى نافر بموضعه فهو وحشي يعلو ويسفل على مقدار اضطرابه . ثم هي وحشية المذهب الجديد اختص بها ولا يكادون يتنبهون اليها

هذه كلمة لم نعرض فى إجمالها للتفاصيل وانما حدرناها حدْرا ، واذا أنت أردت تشبيها فى مخاصمة المذهب الجديد للقديم وما يتوهمه هذا الجديد وما ينتهي اليه أمره فانما لك التمس رجلا يرى ظل رأسه على حائط فيضربه برأسه الذى على عنقه . . . .

ولكن اعلم أنا وإياك إلا نحذّره ونمنعه فقد جنينا عليه وان لم نمسه بأذى وان كان هو برأسه فلق رأسه . . . .



الميراث العربي (١)

كان أبو خالد النُّميري في القرن الثالث للهجرة وكان ينتحل الأعرابية ويتجافى في ألفاظه ويَتَبَادَى في كلامه ويذهب المذاهب المنكرة في مضغ الكلام والتشدق به ليتحقق أنه أعرابي وما هو به وإنما ولد ونشأ بالبصرة . قالوا فخرج الى البادية فأقام بها أياما يسيرة ثم رجع إلى البصرة فرأى الميازيب على سطوح الدور فأنكرها وقال : ماهذه الخراطيم التي لا نعرفها في بلادنا . . . ؟

فهذا طرَف من العربية يقابله التاريخ في زماننا هذا بطرف آخر من جماعة قد رُزقوا اتساعاً في الكلام الى ما يفوت حد العقل أحيانا ، ووُهبوا طبعاً زائغاً في انتحال المدنية الاوروبية إلى ما يتخطى العلل والمعاذير ورأوا أنفسهم أكبر من دهرهم ودهرهم أصغر من عقلهم ؛ فتعرف منهم أبا خالد الفرنسي وأبا خالد الانجليزي وغيرهما ممن أجازوا إلى فرنسا وانجلترا (٢) فأقاموا بهما مدة ثم رجعوا إلى بلادهم ومَنْبِتهم ينكرون الميراث العربي بجملته في لغته وعلومه وآدابه ويقولون ما هـذا الدين القديم وما هذه اللغة القديمة وما هذه الأساليب القديمة ؟ ويَمُرُّون جميعاً في هدم أبنية اللغة ونقض قواها وتفريقها ، وهم على ذلك أعجز الناس عن

(١) نشرت في مجلة الزهراء الغراء

(٢) ولو على المجاز فيسافرون في رواية أو كتاب أو جريدة . . .

أن يضعوا جديداً أو يستحدثوا طريفاً أو يبتكروا بديعاً وإنما ذلك زيغ الطبع وجنون الفكر وانقلاب النفس عكساً على نشأتها حتى صارت علوم الأعاجم فيهم كالدم النازل اليهم من آبائهم وأجدادهم وصار دخولهم في لغة خروجاً من لغة وايمانهم بشيء كفراً بشيء غيره كأنه لا يستقيم الجمع بين لغتين وأدبين ولا يستوي لأحدهم أن يكون شرقياً وإنَّ فى لسانه لغةَ لندن أو باريس

ومنهم كتاب يكتبون بالعربية ويرتزقون منها وأدباء يبحثون فى آدابها وفنونها وكلهم مجيد محسن الا حيث يكتب كاتبهم في إصلاح الكتابة ويبحث باحثهم فى إصلاح الأدب فهنالك ترى أكبر همّ الأول أن تسلم له عاميته فلا ينكر عليه ضعف ولا لَحْن ولا يهجّن له أسلوب ولا عبارة وأن يكون كل ما يعرض له من النقص معتبرا من الكمال العصري . . . وترى همّ الثاني أن يُكرِهَ الآداب العربية على أساليب غيرها ويقتسرها جرّاً وتلفيقاً وتزييفاً ويبسط فيها المَعَاريض الكلامية، فهذا عنده كذب ولا دليل عليه وهذا محال ولا برهان فيه وهذا قائم على الشك وذاك على ما لا أدري ولا يدري أحد

حدثني كاتب شهير من هذه الفئة فكان من أعجب ما قال إن ابن المقفَّع فصيح بليغ وهو مع ذلك ليس بمسلم ولا عربي ولا شأن له بالحديث ولا بالقرآن ولا بالدين وساق ذلك ردّاً على ماقلته من أن لا فصاحة ولا لغة إلا بالحرص على القرآن والحديث وكتب السلف وآدابهم . وما أدري والله كيف يفهم هذا وأمثاله ولكنك تتبين فى عبارته مبلغ الغفلة

التي تعتري هذه الفئة من نقص الاطلاع وضعف الفكر وبناء الأمر على بحث صحفي بلا تحقيق ولا تنقيب وترى كيف يذهبون عن الأصل الذي يقوم عليه الغرض ثم يحاولون أن يؤصلوا له على قدر عقولهم وأفهامهم ، وقد تفلح الفلسفة في كل شيء إلا في تعليل ما علته معروفة ، وهل نشأ ابن المقفع إلا على اللغة العربية والأدب العربي والرواية العربية وكان من أقوى أسباب فصاحته المشهورة أخذه هذه الفصاحة وهذا الأسلوب عن ثور بن يزيد الأعرابي الذى قالوا فيه إنه كان من أفصح الناس لسانا . ولكن أين من ينقب عن هذا ونحوه فى تلك الجماعة أو يتوهمه فيقف على حده ، وهل علموا أن ابن المقفع على انصرافه إلى النقل من الفارسية واليونانية اختار يوما أسلوب العامة فى زمنه أو استجاده للنقل والترجمة أو خرج على الأدب الذي تأدب به أو حاول فيه محاولة أو قال بوجوب هدم القديم لأنه لا يرى للعرب مثل الذى يعرف للفرس واليونان من العلم والحكمة والخيال وأساليب الحكاية الكتابية أو نزل بأسلوبه وكتابته منزلة من يمكر الحيلة في اللغة أو يكيد للأدب أو يساهل نفسه لغرض كالذى فى نفوس هؤلاء المجددين ؟

قال لي ذلك الكاتب فى بعض كلامه : ان الميراث العربي القديم الذى ورثناه يجب هدمه كله وتسويته بالعدم . قلت : أفتحدث أنت للناس لغة وأدبا وتاريخا ثم طبائع متوارثة تقوم على حفظ اللغة والأدب والتاريخ ؛ أم تحسب أنك تستطيع بمقالة عرجاء فى صحيفة مقعدة . . . أن تهدم شيئا أنت بين أوله وآخره كعود من القش يؤتى به لاقتلاع جبل من أصوله ؟

من أين جاء الميراث العربي وكيف اجتمع وتكامل الا من القرائح التي جدّت فى إبداعه وإنمائه وأضافت أعمارها صفحات فيه واستخلصت له آداب الفرس والهند واليونان وغيرهم فأعربت كل ذلك ليندمج فى اللغة لا لتندمج اللغة فيه وليكون من بعضها لا لتكون من بعضه وليبق بها لا لتذهب به . ومنذا الذى يزعم أن العرب هم كل الأرض وأن آدابهم خُلقت على الكفاية لاتحتاج إلى تحوير أو تبديل ، ولكن منذا الذى يرضى أن يجعل لكل أرض عربية لغة عربية قائمة بنفسها ولكل مصر أدبا على حِيَالِه ولكل طائفة من الكتاب كتابة وحدها ؟ ومنذا الذى فعل ذلك أو حاوله فى التاريخ الاسلامي كله على طول ما امتد وتَسَاوق ؟

لقد كانت القبائل العربية مادة هذه اللغة وسبب اتساعها واستفاضتها وكان فحول الشعراء من الجاهلية كأن كل واحد منهم قبيلة في التفنن والإبداع مجازاً واستعارة وبديعاً ثم جاء القرآن الكريم فكان الغاية كلها ثم تتابع الشعراء والكتاب والأدباء فمن لم يزد منهم على الموجود لم ينقص منه ، ثم جاء أدباء المترجمين وفيهم من جمع البراعة من أطرافها فكانوا هم القبائل الحديثة فى معاني اللغة وفنونها وكان مذهبهم في كل ماترجموه وما اقتبسوه هذه الكلمة التي قالها العتابي (اللغة لنا والمعاني لهم) يريد العجم وكان ينسخ من كتبهم وقد يسافر في طلب الكتاب شهراً . والعتابي من أبلغ من أخرجتهم العربية كان واحد دهره في الأجوبة المسكتة ولولا فصاحته ما بقي إسمه.

فلو صنعت القبائل الحديثة من أبي خالد الفرنسي إلى أبي خالد الانجليزي هذا الصنيع لكان رأس أمرهم الحرص على اللغة ثم إن شَدُّوا عليها أيديهم فسيحرصون على كتبها التي هي مادتها ثم إن جمعوا هذه فسيدرسونها ويتناقلونها ثم إن هم تدارسوها فقد رسخت فيهم الملكة واستحكم عندهم الذوق وانقاد لهم الطبع واستفصحوا واستجادوا ، فإذا انتهينا إلى هذا لم يبق من موضع يخالفون عليه وصار أدباء اللغة جميعاً جنساً واحداً ولم يبق إلا النقد يُبِين شخصاً من شخص وطريقة من طريقة، واللغة بعدُ محفوظة سليمة وإليها المرجع كله ولها العمل كله وهي الأمر كله ، وهذا ماتقوم عليه آداب الأمم المستقلة المنفردة بجنسيتها ومقوّماتها

ألا يرى أبو خالد الانجليزي وأبو خالد الفرنسي كيف تباهي كل أمة فى أوربا بلغتها وكيف يفخر الفرنسيون بلسانهم حتى إنهم ليجعلونه أول مايعقدون عليه الخنصر إذا عدوا مفاخرهم ومآثرهم وهل أعجب من أن المجمع العلمي الفرنسي يؤذِّن فى قومه بإبطال كلمة انجليزية كانت في الألسنة من أثر الحرب الكبرى ويوجب إسقاطها من اللغة جملة وهى كلمة (نظام الحصر البحري) وكانت مما جاءت مع نكبات فرنسا في الحرب العظمى فلما ذهبت تلك النكبات رأى المجمع العلمي أن الكلمة وحدها نكبة على اللغة كأنها جندي دولة أجنبية فى أرض دولة مستقلة بشارته وسلاحه وعلمه يعلن عن قهر أو غَلَبة أو استعباد . وهل فعلوا ذلك إلا أن التهاون يدعو بعضه إلى بعض وأن الغفلة تبعث

على ضعف الحفظ والتصوّن وأن الاختلاط والاضطراب يجيء من الغفلة ، والفساد يجتمع من الاختلاط والاضطراب ؟

إنما الأمور بمقاديرها في ميزان الاصطلاح ، لا بأوزانها فى نفسها فألف جندي أجنبي بأسلحتهم وذخيرتهم فى أرض هالكة بأهلها ربما كانوا غوثاً تفتحت به السماء ، ولكن جندياً واحداً من هؤلاء في أمة قوية مستقلة تنشق له الأرض وتكاد السماء أن تقع . فالمذهب الجديد فساد اجتماعي ولا يدري أهله أنهم يضربون به الذلّة على الأمة

وتلك جنايتهم على أنفسهم وجنايتهم على الناس بأنفسهم وهم لا يشعرون بالأولى فلا جرَم لا يأنفون من الثانية



الجملة القرآنية (١)

نبهتني إحدى الصحف العربية التي تصدر فى أمريكا عند ماتناولت الكلام على « رسائل الأحزان » (٢) بقول جاء في بعض معانيه أني لو تركت « الجملة القرآنية » والحديث الشريف ونزعتُ إلى غيرهما لكان ذلك أجدى علي ولملأت الدهر ثم لحطَمتُ فى أهل المذهب الجديد حَطْمةً لا يبعد فى أغلب الظن أن تجعلني فى الأدب مذهباً وحدي

ولقد وقفت طويلا عند قولها « الجملة القرآنية » فظهر لي في نور هذه الكلمة مالم أكن أراه من قبل حتى لكأنها « المكرسكوب » وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفياً فيَستَعْلِن ودقيقاً فيستعظم وما يكون كأنه لاشيء ومع ذلك لا تُعرف العلل الكبرى إلا به

وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموّها وقيامها فى تربية المَلَكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقامَ نشأة خالصة فى أفصح قبائل العرب وردَّها تاريخنا القديم الينا حتى كأننا فيه وصِلَتنا به حتى كأنه فينا وحفظها لنا منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة هي تدور في أفواهنا وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها — إذا أنا فعلت ذلك ورضيته أفتراني أتّبعُ أسلوب

---

(١) نشرت فى مجلة الزهراء (٢) كتاب وضعناه فى فلسفة الجمال والحب ثم وضعنا له « السحاب الأحمر » تكملة فهما كالكتاب الواحد

الترجمة فى الجملة الانجيلية . . . وأرسف إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة وأرتصخ تلك الألكنة المعوجة وأعين بنفسي على لغتي وقوميتي وأكتب كتابة تميت أجدادي في الاسلام ميتة جديدة فتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميت . وأنشىء على سنتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذي كان يجب أن يكون أحب الأشياء إليها ؟

كنت أعرف أن صاحبنا الكاتب البليغ المدقق الشيخ ابراهيم اليازجي لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل رغب إليهم أن يصرّف قلمه في الترجمة فينزلها منزلتها من اللسان ويتخيّر ألفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف ويفرغ عليها جزالة ويجعل لها حلاوة فأبوا عليه كل ذلك ومنعوه منه وأقاموه فيها بمنزلة من يُعرب آخر الكلمة فعليه أن يترك الكلمة الا آخرها . . .

كنت أعرف ذلك وما فطنت يوما إلى سببه حتى كانت قولة « الجملة القرآنية » كالمَنْبَهَة عليه فرأيت القوم قد أثمرت شجرتهم ثمرها المرّ وخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا العربية بعربيتهم وأفسدوا اللغة بلغتهم ودفعوا الأقلام في أسلوب ما أدري أهو عبراني إلى العربية أم عربي إلى العبرانية لا يعرفون غيره ولا يطيقون سواه وترى أحدهم يهوي باللغة إلى الأرض وإنه عند نفسه لطائر بها فى طيارة من طراز زبلن . . .

وليتهم اقتصروا على هذا فى أنفسهم وانصفوا منها بل هم يدعون إلى مذهبهم ذلك . ويعتدّونه المذهب لا معدل عنه ويسمونه الجديد لا رغبة

من دونه ويعتبرونه الصحيح لا يصح إلا هو . وكلهم يعلم أنه ليس بصاحب لغة ولا هو مَعْنيٌّ بها ولا كان ممن يتَّسمُونَ بعلومها . ثم ينقلهم هذا العبث إلى آراء كآراء الصغار فى الأمور الكبيرة فيحاولون أن يختلقوا فى اللغة فطرة جديدة غير تلك الأولى التي وضعت عليها جِبِلَّتها واستقام بها أمرها وتحقق إعجاز الفصاحة العربية بخصائصها

ومرجع هذا البلاء كله أن عربية الجملة الانجيلية تغزو عربية الجملة القرآنية من حيث يدري أولئك أو لا يدرون . فما أشبه هذه الأساليب الركيكة فى مَقَرها من الآداب العربية بالمرض الموروث الكامن فى الجسم الصحيح يتربَّص غفلة أو علة أو تهاونًا فيظهر فاذا هو مَشْغَلَة للصحة ثم يسْتشري فاذا هو مفْسَدة لها ثم يضرب فيتمكن فاذا هو مزاح جديد ثم إذا هو الموت بعدُ

على أني لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلا واحداً من ثلاثة فإما مستعمرون يهدمون الأمة فى لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذى هي أمة به ولن تكون أمة إلا به ، وإما النشأة فى الأدب على مثل منهج الترجمة فى الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف فانه ليس كل كاتب يبلغ ولا كل من ارْتَهَن نفسَه بصناعة نبغ فيها وإن هو نسب اليها وإن عُدّ فى طبقة من أهلها . والكتابة صناعة لها أدواتها وفيها النمط الأعلى والأوسط وما دون ذلك .

أفمن الرأي أن نعين المستعمرين على خصائصنا ومقوّماتنا أو نتخذ في اللغة أدياناً شتّى أو نجعل قياس العلم من الجهل فى بعضه والضعف عن بعضه ؟ وإلا فماذا بقي بعد هذه الثلاثة مما ينفسح له جانب العذر ان نحن قلنا بمذهب جديد في اللغة ؟

أحَسِبَ اخواننا فى مصر أنهم كانوا يحسنون اليوم شيئاً من الكتابة الفصيحة لو لم يكن في العصر الذي خلا من قبلهم أمثال السيد جمال الدين ومحمدعبده وعلي يوسف والبارودي والمويلحي وغيرهم ممن دفعوا الاستعمار عن اللغة ببلاغتهم وردوا أساليب السياسة اللغوية بأساليب الفصاحة وأشرعوا دون الميراث العربي أقلامهم وحاطوه بألسنتهم وحفظوه بعقائدهم حتى أمنوا عليه أن يُنتقص أو يمحق أو يزول

ألا فليقرأوا هذه البلاغة الجديدة .... التي أنقلها بحروفها عن صحيفة عربية اسلامية تصدر في طنجة وليتأملوا أكان فيهم من يكتب اليوم أبلغ منها بعد أربعين سنة ونيِّف من — الاحتلال الإنجليزى — والاحتلال الآخر الأوربي في زيغ الطباع وفسادها ، لولا تلك النفوس الشرقية العربية الكبيرة التي كانت فى هذا السبيل كنفوس الأنبياء قائمة على أنها حمًى للحق وشعار فيه ودعوة اليه وجهاد من دونه ؟

قالت الصحيفة وهى تبحث فى تاريخ الحج وتكتب كلاماً لم يبق منه معنى ولا لفظ ولا صيغة إلا وردت فى الكتب المختلفة بأفصح عبارة وأبلغ أسلوب بل هو من بعض دين ذلك الكاتب واقرأ ماذا قالت :

« زيارة الكعبة المعظمة فريضة على كل مسلم ومسلمة لو عندهم استطاعة صحية ومالية . ومن مناسك الحج سبع مرات طواف حول الكعبة كل عام فى المحل المقدس المذكور يجتمع 200000 من المؤمنين والمؤمنات هم الحجاج الكرام لابسين كلهم لسوة بيضاء وسامعين الخطبة المفتى الأنام فى جبل عرفات وتهللوا لبيك اللهم لبيك . الكعبة مبنية من طرف ابراهيم خليل الله ولكن بمرور الدهر والأزمان وبتأثير سيلان وأمطار قد خربت مراراً ولكن تصلحت من موادها القديمة وأحجارها الابتدائية . وحجر الأسود موضوعة بمحلها بيد المبارك المحمدية صلى الله عليه وسلم .

« نظراً للتواريخ القديمة ان ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا اسماعيل ومن المعاني والمعالى . . . زيارة بيت الله المقدس أهم المادة هى اجتماع مسلمين العالم فى كل سنة فى الأراضى المقدسة الحجازية بتأبيد الولا والمخالصة بين عالم الاسلامى » انتهى وأشهد أن لا إله إلا الله

وأما بعد فهذه الألفاظ التى نقلناها إنما تنزل من أصولها الجزلة الفصيحة منزلة أولئك الكتاب المفتونين من أصولهم فى البلاغة والرأي والتدقيق فلو خلق اللفظ من هذه الجملة إنساناً لكان واحداً منهم ولو مسخ الواحد منهم لفظاً لكان كلمة منها . أفيقبل منا بعد ذلك أن نغفل عنهم أو نتسامح فى أمرهم أو نترخص معهم فى أسلوب أو قاعدة أو كلمة ؟

ألا إن الأوزان إنما هى بمقاديرها فى الميزان وفاء ونقصاً . لا بمقاديرها فى أنفسها زَعْماً ودعوى . فلا تزعمنَّ لي أنك أنتَ من أنت وأن لغتك

هي ما هي وأن الرأي ما ترى والكتابة ما تكتب . بل هلمَّ إلى ميزانك من علماء الكلام وإلى ميزان لغتك من اللغة وإلى رأيك من الحقيقة وإلى كتابتك من الكتابة وأنت بعدُ وقبلُ أيضاً لاتستطيع أن تهجم على علم من العلوم فتقول فيه قولا إلا على قياس من العلم نفسه تردّ إليه قولك وتقيم به حجتك ثم لا يقبل قولك مع هذا ولا يُعد قولا حتى تكون من أهل هذا العلم وممن لابَسُوه وقتلوا مسائله درساً وبحثاً . وأنت كذلك إذا عرضت لك مسئلة فى فن من الفنون رجعت إلى كتبها وإلى أهلها ففتشت أقوالهم قبل أن تقول شيئاً وعرفت حكمهم قبل أن تحكم بشيء واتقيت الخطأ بصوابهم وتحاميت التقصير باجتهادهم . ثم ما هو إلا أن تنزل على رأيهم فى العلم والفن لاتحاول مكراً ولا تتكل على خداع من الرأي ولا تتعلل بعذر من العذر ، فليت شعرى لِمَ يكون ذلك منك في كل علم وفى كل فن ولا يكون كذلك فى اللغة وأصولها والكتابة وأساليبها والبلاغة ومذاهبها ؟

ثم ماهي اللغة ؟ أفرأيت قط شعباً من الدفاتر قامت عليه حكومة من المجلدات وتملك فيها ملك من المعجمات الضخمة . . . أم اللغة هي أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهن . فاذا أهملناها ولم نأخذها على حقها ولم نحسن القيام عليها وجئت أنت تقول هذا الاسلوب لاأسيغه فما هو من اللغة ويقول غيرك وهذا لاأطيقه فما هو منها وتقول الأخرى وأنا امرأة أكتب كتابةً أنثى . . . . وانسحبنا على هذا نقول بالرأي ونستريح إلى العجز ونحتج بالضعف ويتخذ كل منا ضعفه أو هواه مقياسا يحد به.

علم اللغة فى أصله وفرعه ؛ فماذا عسى أن تكون لغتنا هذه بعدُ وما عسى أن يبقى منها وأين تكون نهايتها . ثم أي علم من العلوم يصلح على مثل هذا أو يستقيم عليه . وفيم تكون المجاذبة والمدافعة وبمَ يقوم المِراء والجدل اذا اتفقنا على أن بعض الجهل لا يمكن أن يكون قاعدة فى بعض العلم ؟

إن هذه العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت لأنها أعدت من الازل فَلَكاداأراً للنيّرين الارضيّين العظيمين : كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن ثَمّ كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أُخْذَة السحر لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع . وأنا أتحدّى كل أصحابنا الذين أشرت اليهم أن يأتونى بكاتب واحد تنقّل فى منازل البلاغة وأطاق أساليب الكتابة العالية ثم نزل عنها إلى الركاكة أو المذهب الجديد أو ما شئت من الأسماء ولزمها مذهباً وجعلها طريقة . وهذا التاريخ بين أيديهم وبعضهم بين أيدي بعض فليأتوني بمثل واحد أسلم لهم كل ما فى يدي من الأدلة على سخفهم واجعل واحدهم هذا بألف من عندي

فأما أن لا تقدر يا أبا خالد وتزعم العفة وأن تعجز ثم تجنح إلى الرأي وأن تضعف ثم تتمدّح بالسلامة ، فهذه أساليب ابتدعها من قبلك ثعلب من أذكياء الثعالب . . . . وزعموا انه اقتصر على القول بأن العنقود حامض .(١) وأراه ما اقتصر على ذلك الا لأن زمنه كان أحسن من زمننا

(١) هذا مثل مشهور زعموا أن ثعلبا وقف على دالية من العنب فأبصر عنقودا يتميز ماء وحلاوة فواثبه مرارا فلم يصل اليه اذ كان عاليا فلما أعجزه قال هذا عنقود حامض لا يؤكل وانصرف وهو يرى ان العنقود لم يعجزه ولكنه هو تركه لعلة الحموضة .

وأسلم وأقرب إلى الصدق . . . فلو هو كان من ثعالبنا . . . لزعم انه ابتاع زجاجة من الخل وصبها بيده فى حبات العنقود الحلو وبذا صار إلى الحموضة ولهذا تركه

وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يثني عليه وهو لو أثنى عليه لطولب به ولو طولب به لبان عجزه وقصوره ولو ظهر الناس منه على العجز والقصور لما عدوه فى شيء ولذهب عندهم قليل مالا يحسنه بالكثير الذي يحسنه ؟

لقد سألت بعضهم ماهو هذا الجديد الذى تحامون عنه ؟ قال هو مايكتب به فى الصحف . قلت فان فيما يكتب الضعيف والساقط والمرذول ثم ماهو الى الجزالة والفصاحة ثم مايلتحق بجيد الكلام فأي هذه تريد وأيها ليس قياساً من أصله العربي المعروف ؟ أفتجعلون النقص مذهباً من كماله ثم لا تكتفون بخطأ واحد وتدّعون أن الكمال فى نفسه يجب أن يعد مذهباً من النقص ؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف تعني لأنك أنت تكتب فى الصحف . . . . ؟

أما إننا لاندفع أسلوبهم فهو على كل حال خير من العامية . ولسنا نقول إن كل الناس يجب أن يخاطبوا فى كل أمور دنياهم ودينهم من فوق المآذن . ولكن الخلاف بيننا وبين هؤلاء جميعاً ينحصر فى أمر واحد هو تفسير لكل فروعه ، وذلك أن هؤلاء الكتاب لايريدون أبداً أن تسمى الغلطة باسمها . . . فاذا أخطأوا فلا تقولنّ اخطأوا ولكن قل إنه صواب جديد . . . . . .

ماوراء الأكمة ! [١]

حضرة الاستاذ العبقري نابغة الأدب وحجة العرب السيد مصطفى صادق الرافعي نفع الله به

أراك قد استغربت قول إحدى الجرائد العربية الصادرة في أمريكا انك لو تركت « الجملة القرآنية » والحديث الشريف لكنت الآن المرجع الذي لا ينازع ولبذّ مذهبك في البلاغة المذاهب كلها من قديم وحديث .

ويحق لك ولغيرك وايمُ الله أن يستغربوا هذا التمني الدال على مرض روحي عند بعض الناس لانه قد يجوز أن انساناً لا يعتقد بتنزيل القرآن ولكن لا يوجد عربي سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولعمري أن الأمر لكما قال ذلك الذي سأله سائل : هل يقال « فأذاقها الله لباسَ الجوع » فأجابه ويحك هبك تتهم محمداً بأنه لم يكن نبياً أتتهمه بأنه لم يكن عربياً ؟

ولكنك لم تلبث أن فهمت مغزى هذه النزعة الغريبة وعبرت عما ظهر لك في تلك الجملة الموجزة من المرامي والمقاصد البعيدة فقلت وأنت سيد القائلين « فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من

---

(١) لما نشرت مقالة (الجملة القرآنية) أرسل حجة الأدب وسيد كتاب العصر الأمير شكيب أرسلان هذا الفصل الممتع الى مجلة الزهراء فنشر فيها .

قبل حتى لكأنها (المكرسكوب) وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفيا فيستعلن ودقيقاً فيستعظم وما يكون كأنه لاشيء ومع ذلك لاتُعرف العلل الكبرى إلا به »

نعم إن وراء الأكمة ما وراءها وإن هناك دسائس خفية تظهر بعض أطرافها فى هذه الجملة ولكن دعني أقول لك أنه ليس مرادهم العدول إلى الركاكة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً . وليس الأمر من قبيل ما ذكره احمد فارس فى (الفارياق) من أن بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ . ولا هو من نمط مارواه فى (كشف المخبا عن فنون أوربا) من أنه كان يعرب التوراة وهو فى انجلترا فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انجليزى شدا شيئاً من العربية فكان كلما رأى لأحمد فارس جملة شم منها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة فكان الشدياق يعجب من أمره وقد نقل عنه من هذا النسق جملا يستغرب لها الانسان من الضحك إذ يرى كيف كان ذلك القسيس يتعمد قلب العالى بالساقط والجيد بالرذل تعمداً ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرح بأنه انما يتوخى بذلك إبعاد الكلام عن شَبه القرآن

كلا يا أيها الأخ إن هذه الفئة لاتمج الفصاحة من حيث هي ولا تدين بالركاكة التي كان يدين بها قسوس احمد فارس فيسخر بهم مايسخر ولا تحارب اللغة العربية نفسها ولكنها تحارب منها القرآن . . .

إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية . وتريد أن تتبدل بهـا كلام الجاهليـة وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرمين والمولّدين وكل كلام لا يكون عليـه مسحة دينية . وهذه الفئة قد تعددت غاياتها فى هذا المنزع ولـكن قد اتفقت في الوسائل . فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى ولـكنه يدس الدسائس من طرف خفي لأقصائه عن دائرة الأدب العربي وتزهيد النشْء فيه بحجة كونه قديمًا وأن كل قديم هو بالٍ ؛ حتى إذا تم لهم ما يبتغون من غض مكانة القرآن فى صدور الناس يكونون قد طعنوا الإسلام طعنة سياسية فى أحشائه . . . . على حين هم يزعمون أن الموضوع موضوع لغوي لا مدخل لسياسة فيـه فيُزلِقون بهذه الدعوى المِدْحاض كثيرين ممن لو تفطنوا لما وراء هـذه الدعاية البارزة فى زي لغوي أدبي من المآرب السياسية الخبيثة لـكانوا منها على حذر بل لا نقلبوا عليها وصاروا قرآنيين . ولـكن مع الأسف نقول إن الحوادث الأخيرة لاسيما ماجرى قبيل الحرب الـكبرى إلى ما بعدها قد أثبتت أنه مازالت هناك فئة تامب بفئة وتسوقها إلى حيث تريد فلا تستفيق هذه من سكرتها إلا وقد قضي الأمر الذى فيه تستفتيان وهذه الدسيسة التي ظهر لـكم مكنونها من جملة واحدة إن هي إلا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الاسلام لا القرآن من حيث كونه قرآناً ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة . .

ولقد أشرتم إلى ذلك فى مقالكم الجليل فقلتم « لا أعرف من السبب فى ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلا واحداً من ثلاثة . فإما مستعمرون يهدمون الأمة فى لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذى هي أمة به ولن تكون أمة إلا به . وإما النشأة فى الأدب على مثل نهج الترجمة فى الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها . وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف »

فأنا أقول إن الوجوه الثلاثة متوفرة فى السبب ولكن الوجه الأول هو أقواها . وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الأمة في لغتها وآدابها خدمة لمبدىء الاستعمار الأوربي ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية بحجة أنها أقرب إلى الأفهام ولكن منهم من لا يحاول هدم الأمة فى لغتها وآدابها لا حباً باللغة والآداب ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم . ولذلك ترى هؤلاء دعاة إلى اللغة والآداب على شرط أن لا يكون ثمة قرآن ولا حديث وأن تكون الصبغة لا دينية وحجتهم فى ذلك حب التجدد وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم الذى لا يتلاءم مع الروح العصرية فى شيء . وآخرون حجتهم في ذلك النزعة القومية التى هي بزعمهم تناقض النزعة الدينية وأصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون إنها من باب التجدد وإن روح القومية هي السائدة فى هذا العصر . فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان . فأما إذا سألهم سائل قائلا : إنكم وأنتم من دعاة التجدد وممن قراء الآداب

الأوربية لا تذكرون أن كتاب أوربا اليوم من فرنسيس وألمان وانجليز وطليان واسبانيول وروس الخ الخ . . انما آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانيـة واللاتينية وان آيات التوراة والانجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهـم جارية فيها مجرى الأمثال لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب حتى إن المنفضين منهـم من العقيدة يتكلمون بلغة الانجيل والتوراة وهذا كليمنسـو الذى لايوجد على الدين حرب أشد منه كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض نقاط فى معاهدة فرساي قائلا : ادخلوا فى فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون . ومعلوم أن جملة « دخل فى الفرح »هى آية انجيلية أدخل فى فرح سيدك . وهـذا شيء لا يمكن أن يحصى إلا إذا أحصيت رمال يَبْرِين . وانما نريد أن نثبت به كون التجدد والمعاصرة لم يمنعها بقاء لغات أوربا وآدابهـا على صيغتها القديمة وما آخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء يونان وخطباء رومة وأن أدباء أوربا فى هـذا العصر يستهجنون اختراع إنشاء جديد وأسلوب غير مألوف ويحسبونه مخالفاً للذوق ويتمثلون بمعانٍ غابرة لم يبق لها أثر . انظر هل بقي أثر للقوس والنشَّاب فى أوربا وهل يوجد أعرق فى القُدْمَة من القوس والنشاب وإلى هذا اليوم يقولون :

« IL fait flêche de tout boit »

وترجمتها : يأخذ نشابا من كل خشب . ومرادهم بهـا أنه يستعين بأي قوة حصلت فى يده . أفتراهم وقد أرادوا مراعاة الأحوال العصرية يقولون : يعمل بندقية من كل حديد أو : يصنعُ قنبلة من كل

ديناميت[1]؟ كلا لا يقولون ذلك ولا يرون الخلط بين العلوم والآداب ولا يجدون التجدد في الفنون والصناعات داعياً إلى تغيير أسلوب الكتابة بحجة أن هذه التعابير كانت يوم لم يكن تلغراف ولا تليفون ولا أشعة رونتجن. أفرأيت كاتبا أوربيا يقول : حلقت بمنطاد الفكر في سماء الموضوع كلا ولا ما أشبه ذلك . ولا ينكر أنه قد جدت في أوربا فرائد وجمل لم تكن مألوفة في الأعصر السابقة كما جدت اصطلاحات في كل عصر من أعصر اللغة العربية فليس جميع ما اصطلح عليه الناس في أيام العباسيين كان معروفا في صدر الاسلام أو في الجاهلية ولكن كل ما يتجدد هنا أو هناك لابد من أن يرجع إلى نصاب اللغة وينزل على حكمها ولن تُترك اللغة فوضى لا في شرق ولا في غرب . طالما ترنحت الأعطاف عند ذكر الكاتب الفرنسي العظيم أناتول فرانس الذي توفي منذ بضعة أشهر وكان هذا الكاتب هو الصدر المقدم في الانشاء عند قومه لا يرون أحداً في منزلته بعد رنان وكان مما تميز به النزوع إلى المذاهب الاجتماعية الجديدة والغلو في كره العقائد الدينية والعادات القديمة والنفور من النصرانية بأجمعها حتى لقد صفه كثيرون مع الشيوعيين . وبالرغم من هذا فقد اتفق جميع من ترجموه لدن وفاته حتى من أدباء الفئة الاشتراكية والشيوعية على أنه كان في إنشائه أصوليا أستاذيا مقلداً يحذو حذو راسين الشاعر

---

(١) أذكرنا هذا ما كتبه بعض شباننا يوما اذ رأى أنه لامعنى لان يقال اليوم أحرز قصب السبق لان هذا القصب لم يعد يوضع في المضمار وان صحة العبارة يجب ان تكون هكذا : أحرز خشب السبق .... أو حديد السبق . ولسنا ندرى أهذا من هؤلاء الصغار مما يصغر الوجود أو يكبره ...؟ « ر »

الذى عاش قبل هـذا العهد بمائتي سنة وانه حافظ على الطريقة الكتابية الاصولية المسماة عندهم « كلاسيك » أى الطريقة المدرسية [1] . وقيل للكاتب المشهور موريس باريس — وكان من أنصار الديانة والكثلكة — أفلا ترى مبادىء أناتول فرانس وغلوه فى الاشتراكية الخ. فأجابهم : قولوا فيه من هـذه الجهة ما شئتم إلا أنه حفظ اللغة . وهي جملة شهيرة يحفظها الجميع فى باريس .

نعم يقدر العربي أن لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلما ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف لأنها هى الطبقة العليا

---

(١) كان أناتول فرانس كاتب أوربا كلها في اجماع قومه وقد نشر بحثا فى سنة ١٩٢٠ قرر فيه ان عصر البلاغة فى اللغة الفرنسية انما هو القرن السابع عشر وان المثل الأعلى فى النثر انما هو بوسويه وان القرن الثامن عشر هو عصر للبلاغة كذلك غير أن بينهما درجة في السمو ؛ ولما هلك هذا الكاتب أراد أحد النقاد أن يوجز فى وصفه بالبلاغة ايجازا معجزا فقال : انه أعظم كتاب القرن الثامن عشر . فتأمل كيف يقع هذا فى أوربا ثم نحن اذا جئنا بمثل هذا أو نحو هذا قالوا قديم وجديد وطبع وتكلف فهل ترى فى الحماقة أحمق ممن يبخس شيأه لانه شيأه حتى اذا رأى مثله لغيره قال هذا هذا ؟

ولقد ذكروا ان اناتول فرانس كان من التوفر على التنقيح والتلوم على السبك والحوك فى كتابته وأسلوبه بحيث يكتب الجملة الواحدة مرة الى مرتين الى مرار الى سبع مرات أو ثمان فى كل ذلك ينقح ويهذب ويتعمل ؛ فهذا عندهم طلق مباح ولكن بعضه عندنا وان جاء بالمعجزات يكفى ان يقلب المعجزة الى حيلة وشعوذة

أظن ان اللغة العربية لن ترتفع منزلتها عند هؤلاء الحمقى المجددين الا اذا اصبحت لغة فرنسا أو انجلترا . . . فيومئذ يكون الجاحظ جاحظا بقوة الاسطول وعبد الحميد بقوة الجيش وابن المقفع بسلاح الطيران اذهم وأمثالهم أسلحة التاريخ التى يقاتل بها مجد الامة ليغلب وينتصر. وهذا بعينه هو من دليلنا على ان هؤلاء الخمسة أو الستة المجددين هم خمسة أو ستة مجانين في أمراض العقل الاجتماعي (الرافعى)

التي تصح أن تكون مثلا . ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حربا وتورّي بغيرها تبغي نقض قواعد القرآن — التي هي السد الأمنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الافرنجية وغيرها — وتأتي ذلك من طريق نبذ القديم والبالي والأخذ بالجديد والحالي . ولا يوجد مع الأسف كثيرون ممن يتنبهون لهذه السفسطة ويعلمون مرمى هذه الدعاية بل إن كثيراً من نشئنا ومن عامتنا هم من فخ إلى فخ . . . ومن جملة هذه الأشراك أن القرآن حائل دون القومية العربية لايفسح لها مجالا فتراهم ينصبون لها العداوة وأمراض العقول كثيرة كأمراض الأبدان ولكن أمراض القلوب هي التي لاحيلة فيها . . . هذا وإن بعضاً من أدعياء الجديد — لادعاة الجديد — لايحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث وتدقيق ومقايسة ومقابلة يتبعون المعقول قديماً كان أوجديداً ويرتادون المفيد مُعْرِقاً كان أو محدَثا ، كلا بل هم قد اختاروا مذهبهم من قبل فرججوا كل جديد كيف كان وبدون محاكمة وذلك ليقال إنهم رقاة عصريون ، أما نظرية أخذ الأحسن من كل شيء واختيار الأوفق من أي جهة جاء فهذه ليسوا منها بسبيل وانما يؤثرون الشيء إذا علموا أن بعض أمم الأفرنجة أخذت به . ولما وافقت هذه الفئة في تركيا على منع المسكرات لم يكن السبب في هذه الموافقة ضرر المسكرات أو النهي الشرعي بل حرموا الخمور لمجرد كون أمريكا حرمتها

وخذ لك هذا المثال :

كنا في مجلس المبعوثين في الأستانة وكان من زملائنا زهراب افندي

الأرمنى الشهير ولم يكن علمه وذكاؤه بأقل من شهرته وكان يصعب على مبعوث مهما كان قوي العارضة قاطع الحجة أن يخاصم زهراب لاسيما فى التشريع . فاتفق أن بعض مبعوثى الترك من المولعين بالجديد — لمجرد ادعاء الرقي العصري — اختلفوا مع زهراب فى سن مادة قانونية فعقدوا لها مجلساً خاصاً وانبرى لزهراب اثنان من هؤلاء العصريين يجادلانه ويحاولان أن يحملاه على رأيهما فبعد حوار طويل تغلب زهراب عليهما وألزمهما الحجة ولم يبق أمامهما إلا السكوت . إلا أن زهراب أخطأ فى شيء وهو عدم معرفته عقلية هذه الفئة فبعد أن أخرسهما فى الجدال عاد فقال لهما : وهذا أيضاً وفق أحكام شريعتكم (الاسلامية) التى تقول كذا وكذا . حدثنا الأستاذ الفلكى الرياضي فطين افندى مدير مرصد الأستانة . أنه لما قال لهما زهراب هذا القول عادا فنبرا بغتة قائلين : إذا كان الأمر كذلك فلا نقبل هذا الرأي . ومن بعد تلك الفلتة لم يعد زهراب قادراً أن يقنعهما بوجه من الوجوه فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة بل هو مصدر الشيء بدون نظر إلى أي اعتبار آخر فان علموا كونه آتياً من طريق الدين أو ملائماً لحكم وارد فى الشرع استمرّوا مذاقه قبل أن يذوقوه . وليس هذا منحصراً فى الترك وفى الفئة التورانية منهم بل عندنا نحن من هذا النخل فسيل فى مصر والشام وغيرهما

ويا ليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقق بالجديد فيما يلزم فيه الأخذ بالجديد من علم نافع أو فن مفيد أو صناعة دارّة . فان العلم

لا يجب أن يكون فيه قديم وجديد بل هو أصل يتفرع منه فروع كل يوم يتحتم على الانسان أن يتتبعها كلها ناظراً إلى حقيقتها وصدق تجربتها وفائدتها للاجتماع

كلا يا سيدي قلّما رأيت من هذه الفرقة إلا الادّعاء الفارغ والنزوع إلى الثورة على ما يسمونه بالقديم وهم ينسون أن هناك مبادىء ثابتة وبديهيات ليس فيها قديم وجديد وأن الاثنين والاثنين أربعة من مائة ألف سنة فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة وأن المقولات العشر مما لا تتناوله الثورة وأن الثورة إنما هي واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم ، وأن العلم لا يكون قديماً وأن الأدب لابد أن يراعى فيه ذوق الأمة وتاريخها وعاداتها وعُرفها وأنه ليس بتجربة كيماوية

هذا يا أخي هو المرمى الصحيح ممن أخذ عليك « الجملة القرآنية » فأما الفِئام الأخرى ممن عجز عن الفصيح فأبغضه وممن يستأنس بالركيك لأنه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه فهذه خطبها يسير وقلعتها أوهى من أن يحمل مثل قلمك عليها

لوزان ٨ فبراير سنة ١٩٢٥

شكيب أرسلان

الرأي العامىُّ فى العربية الفصحى [1]

هذا مذهبٌ من الكلام فى اللغة كثيراً ما يشتبه فيه اليقين حتى لا يُنْفَذ إلى تمحيصه ، ويلتوي الظن حتى لا يُطاق على تخليصه ، وأنت كيف مددتَ عينك فى هذا الجيل فلست آمناً أن تقع من صغار نَشْئه الذين يطمحون إلى مشيخة الكتاب . . على كل ضيِّق المَجَمّ [2] ضئيل الهم الَفّ اللسان [3] ملتفّ البيان ، كالجبَل عند نفسه ويوضع فى بندقة . . وكالبحر ويصبّ فى فستقه ، وهو مع ذلك يُسمِّع بالفصاحة والفصحاء [4] ، ويستطيل فى البلاغة والبلغاء ويبسط فى هذا الرهان من جلده على هُزاله ، ويفُسح فى هذا الميدان من خطوه على كلاله ، ومهما أخطأك فيما يُعَمَّى عليك من حقيقة أمره ، ويكاتِم مهبّ ريحك من دخانه وجمره ، فلا يخطئك أن تستبين منه رأياً كأنه فى رأسه نزوة ألم ، وعقلا مُدْنَفاً لو هو مات لما قطرت له دمعةٌ من قلم

ومن آفة الجهل أنه على استواء واحد فى نظر أهله على ما يتحرّون بزعمهم من النّصَفَة والمعْدَلة [5] فلو تدسَّس أحدهم إلى كل مكروه وأصعد فى كل بلاء لكان ذلك بعضُه كبعضه سواء فى بادىء الرأي وعند تقليب النظر لا يدرك فرق ما بين درجاته ، ولا فصل ما بين صفاته ، حتى

(١) نشرت فى مجلة البيان سنة ١٩١١ (٢) ضيق الصدر أو الوعى (٣) اللفف من عيوب النطق (٤) يعيبهم ويسمع الناس فيهم (٥) الانصاف والعدل

إذا ضرب كل سبب فى غايته ، واتصل كل مبدأ بنهايته ، ووقعت الواقعة بركن أمة كان قائما وثعثرت المصيبة بشعب كان متقدما عرف ذلك الجاهل من مقدار الرزيئة مقدارَ جهله وعلم حينئذ أنه كان يملك من الكفّ عن هذا البلاء مثل الذى ملك من التسبب له وأشفّ [1] من ذلك ولكن بعد أن يكون السهم قد مرق والأمر قد مضى وبعد أن لا يكون قد أفاد من الجناية إلا معرفته كيف جناها فكأن المصيبة على هولها إنما حلت لتفهمه أنه جاهل وما أعزها كلمة لا تفهم إلا من مصيبة

وليس ينفك الجاهل بالشيء إذا رأى فيه رأيا من خصال : فأما واحدة فاقتضابه الرأيَ لا يُغِبُّه للخبرة [2] ولا يبلوه بالتثبت ولا يكاد يرى فيه مذهبا لتقليب النظر فما هو إلا أن ينزو فى رأسه نزوة أو نزوتين حتى يكون قد وزنه ورازه وعرف مقداره صوابا من خطأ وخطأً من صواب فيصدره على أنه مما أنبطه الزمن من قَلِيب قلبه وافتكّه من عِقَال عقله وعلى أنه الحق لا مراء فيه وعسى أن لا تجد فى باب المراء مثلاً أدل منه على الرأي الفائل كيف يهلك أو يفيل

وأما الثانية فتزيين ذلك الرأي له على سخفه حتى يدفع عنه كل الدفع ويحوطه بكل حجة مُلَجْلَجَة وحتى يرى أن الكد فى ذلك هو يثبته وأن الثبات على الكد هو يحققه فلا يزال يخور بمقدار ما يشتد فى أمره تعنتاً ثم لا يصيب من وجه الأمر إلا ما يضل فى مجاهله فيكون قد تأتّى من

---

(١) وأزيد منه (٢) لا يتركه حتى يختبره ويبلوه

سبيل الثقة إلى الغرور ومن سبيل الغرور إلى الباطل وكَبُرَ ذلك مقتاً وساء سبيلا .

وأما الأخرى من تلك الخصال فان الرأي متى تماسك بما يجمُ حوله ويستمر عليه من الخواطر فانه سيكون منه عقد [1] يخرج عن أن يكون رأياً موضوعاً إلى أن يصير وحياً مرفوعا ويكبر عن أن يكون مضطرباً فى العقل بين الحجج والبراهين ، فينحدر إلى القلب عند مستقر العاطفة والدين ، ثم لا يكون من هذا إلا ما تراه فى كل جاهل من الرأى يصدره وكأنما يصدره شرعاً معصوما لا يزيغ عنه الزائغ إلا بخذلان من الله . . . فان هو لم يُتَّبَع عليه ولم يتشيع له فيه أحد كان هذا الجاهل نبيَّ نفسه لا يبالى ما ترك الناس مما اتَّبع هو ولا ما اتبعوا مما ترك .

وتلك خصال فى نسق واحد وعلى نظام مطرد لا هوادة بين أولها وآخرها فهي وإن تعددت إلا أنها كما يتعدد الموج للغريق تنتصب منه أشباه الجبال ثم لا يستند الغريق من جميعها إلا إلى الماء الذى يغرق فيه وهذا تفسير القول آنفاً أن الجهل على استواء واحد فى نظر أهله

لا جَرَمَ كان العنت كل العنت والبلاء كل البلاء أن تُفهم من لم يستجمع أداة الفهم لما تاقي اليه وأن تناظر صاحب الرأي وليس له مما قبلك إلا أنه يرى وإلا أنك تدفع فان الحجة فى مثل هذا وإن وضحت واستبانت بيد أنها لا تصيب من غرض يستهدف لها فلا تلزم ولا تُقنع وإنما تستعرض كما يستعرض السهم من الهواء يمر فيه منطلقاً لا يلتوي

(١) اعتقاد

فمها نلت من ذاك لا تنال سبباً إلى الاقناع وليس لك بعدُ إلا أن تطيب نفساً عن نتيجة أنت فرغت من مقدماتها ، وترتد عن غاية كنت في ظل قَصَباتها، لأن الحجج لا تنتهي إلى الحق إلا إذا كانت متكافئة فهي تختلف متدابرةً ولكنها متى تواجهت وأخذت كل حجة برقبة الأخرى فاختصمت ثم ارتفعت إلى العقل قضى بينها وكشف عن وجه الحق فيها. أما الحجة الواهية التي لا يشد منها علم ولا ينهض بها يقين فهذه تظل مدبرة وإنما قوتها في إدبارها ولِياذها بكل مُنطَلَق فانت تجد في كل الناس إلا في صاحبها مقْنعاً ومَعْدَلاً وما إن تزال مقبلاً منه على مدبر عنك حتى تنكص عنه غالباً كمغلوب وتنقلب طالباً كمطلوب. وأنا لا أدري ولا جرم ما الذي زيّن لفلان أن يكون صاحب رأي في العربية وآدابها وأن يتمحّل لرأيه ويشتد للنضال عنه ولا يعدوَ بالخصومة فيه من لا يقارُّه عليه . أذلك حين بذلت له اللغة مَقَادَتَهـا أم حين جمحت عنه ، وحين استطاع له عامه ، أم حين طوّع له وهمه ، وما فلان هذا والعربية وآدابها والمراءَ في كل ذلك وهو بعدُ في حاجة من هذا العلم الى استئناف الطفولة كرة أخرى . . . أإن التوى عليه أمر اللغة منذ دارسَهُ فيها طائفة يسمونهم معلمين فلم يفيدوه من المعرفة حتى ولا معرفة كيف يعلّم نفسه . . . رمى هذه اللغة بالنقص وجعل الكمال لله ثم له فأراد أن يحيلها عن وضع رآها منحرفة فيه وما انحرف بها الا حَوَلُ عينه فذهب في طنطنته الضئيلة كل مذهب وافترش لسانه البكيء فيما يسميه جديداً وفلسفة جديدة ، وهل اللغة ألا علم بعد أن انتقضت فينا الفطرة واختبلت الألسنة وهل يناظر في كل

علم إلا أهله . ولم لا ينصب هذا وأمثاله لمن يقوم على أداة من الآلات البخارية فيقول له لو كانت هذه القطعة مكان تلك ولو كان هذا التركيب القبيح أجمل مما هو ولو أخرتَ أوقدمت ولو زدتأو أقللت ولو نقضتَ أو أقت ولو فعلت وفعلت ؛ وليت شعرى ما يكون أمره وأمر صاحبه ذاك وكيف يرادويرىفيه من قول كله عيّ وحصَر، وعلم كله جهل وفضول ؛ ألم يَأنِ أن يعلم هؤلاء أن من الرأى غرَرا وأن راكب الخطر من ذلك إنما يركب رأسه وأن الأمة لم توقَف شرعا على فرد ولا أفراد وأن فى الصمت زاوية باردة مظلمة توارى المخزيات لوعرف الجاهل معنى المخزية..!

ان العجز مِطْواع وإن كل ما يعيي أهلَ الحزم يهم به العاجز ويراه سهلا لأن ذلك هو الذى يحقق معنى عجزه وما زال من يعجز عن الكتابة هو الذى يريد أن يصلح لغتها وأساليبها ومن يعجز عن الشعر هو الذى يقول فى اصلاحه أوسع القول وهلمّ إلى أن تستوعب الباب كله فقد قالوا إننا نخاطب الدهماء والأجلاف ومن يسفُ إلى منازلهم بكلام أهل نجد وألفاظ أهل السّراة [1] ونتوهم من سبل الحضارة بَواديَ قيس وتميم وأسد وبالجملة فنحن نضرب فى حدود الفوضى التى لا وجه فيها ولا مخرج منها وفى ذلك مَزْراةٌ بالأدب ومضرة على الأمة وفساد كبير.

قالوا هذا وما يجرى مجراه ويذهب فى نزعته ولم يستحوا أن يصدعوا به وهم يرون إلى جانبهم من المستشرقين أعاجم قد فَصُحوا وأقبلوا على

---

(٢) كان أهل نجد وجبال السروات من أفصح العرب حتى يقال فى صفة الالفاظ الفصيحة الجيدة انها نجدية

آدابنا وتاريخنا فوسعوها بما اتسع لهم من العلم وأحاطوا بها على ما أطاقوا بل كادوا يكونون أحق بها وأهلها ولقد كانوا فى غنى عن كل ذلك بلغاتهم وآدابهم وما أفاء الله عليهم ومكَّن لهم فيه. ثم لم يشفق أصحابنا أن يبتلوا تاريخهم بالعقوق وهو الثُّكل الذى لا عزاء معه فأرادونا على أن نخلع بأنفسنا هذا التاريخ لا نعطيه طاعة، ولا نبايع له منا عن جماعة، ثم نكون كزنوج أفريقيا اذا غابت عنهم الشمس غاب عنهم التاريخ واذا طلعت عليهم استأنفوا تاريخاً جديدا . . .

أليسوا ينقمون منا أننا نشد أيدينا على لغة ليست لنا فلم لا ينقمون أننا نصرف وجوهنا إلى قبلة ليست فى أرضنا ؟ ثم يقولون إنهم يهجِّنون التصرف فى اللغة وإرسال الألفاظ والأساليب على وجوهها العربية ويريدون أن يزيلوا التدبير فى هذه الصناعة عن هذا الوجه لأنهم لا يحسنونه ولا ينفذون فيه إذا تعاطوه ويريدون فوق ذلك أن يطرحوا عنا كدّ الصناعة لتكون خاتمة عجائبنا فى هذا الجيل صناعة بلا كد .

ولعمرى كيف يؤاتيهم هذا الأمر أو يستوسق لهم إذا قلبوا أوضاع الكلام وزايلوا بين أوصاله وذهبوا فيه مذهب الترقيع فى الخلق بالجديد وفى الجديد بالخلق .

لقد أهملنا اللغة ثم أهملناها حتى صارت معنا إلى حال من الجفوة جعلتها كالواغلة علينا والغريبة عنا وجعلتنا من نقص فهمنا فيها بحيث نضطر إلى التماس شيء غيرها نفهمه فصار اصلاح اللغة كأنه دُرْبة لافسادنا وإفسادها فيما نتوهم دربةً لاصلاحنا وانما هما خطتان لا تفضي كلتاهما

إلى شر من أختها مبدأ أو مُنْقَلَبًا وإن أقبح ما ترى من شيئين أن يكون أحسن الرأي تركها جميعاً

زعموا أنهم يريدون أن تسهل الألفاظ وتنكشف المعاني وتكون الكتابة في استوائها وجمالها كصفحة السماء فهل البلاغة العربية إلا تلك وهل هذا أمر غير عربي ؟ بلى وهل يعرفون أصلحهم الله أن الطفل يرى كل ما يدور في مسمعه من ألفاظ والديه كأنه إنما يتفق لهما اغتصاباً واعتسافاً واستكراهاً إذ لا يفهم من كل ذلك شيئاً إلا بمقدار ما يعتاد وعلى حسب ما تبلغ حاجته وإذ هي لغة أوسع من لغته مادة وصناعة ، فلم لا يكون الرأي أن ينزل الآباء إلى لغات أطفالهم ويقتصر هذا المنطق الانساني على المترادف والمتوارد من أسماء الألعاب الصبيانية وما يلتحق بها . . . ؟

ثم ما هو حكم العامي — وهو في كل أمة الطفل العامي — بجانب أهل العلوم أتراه يَلْقَفُ عنهم إلا بميزان تلك الغريزة الفطرية في الطفل الصغير مع أبويه ؟ فلم لا تمحى العلوم وألفاظها ومصطلحاتها وأساليب التعبير عنها ونحو ذلك مما تتراخى به شُقّة الفهم إذا تعاطاه ذلك العامي أو حاوله ويكون جهد العلماء فيما تطيقه العامة وسداد العامة فيما يطيقه الأطفال . . . ؟ وأنت إذا تخطيت أمر الطفل اللغوي والطفل العامي وأسندت في الحد الأعلى لهذه الطفولة لم تر إلا طراز أصحابنا وهم أطفال الأدب ، فهل يكبر عليهم أن يكبروا ويشتدوا وأن يساوقوا الفطرة في مجراها فيأخذوا الشيء بأسبابه ، ويأتوا الأمر من بابه ،

ويدَعوا الرأي الى يوم يكونون من اربابه ؟ يصدرون رأيهم على جهل فاذا كشفت لهم معناه وبصرتهم بمصاير دووقفت بهم على حدوده وأريتهم وجوههم فى مرآة النصيحة أنكروا ما جئت به وحسبوك تفتري الكذب وأصروا واستكبروا استكباراً لأن رأس علمهم أن يظنوا لا أن يحققوا مايظنون فالرأى عندهم هو الرأى فى ذاته لا ما يتعلق به ولا مايتأدّى اليه . انمـا اللغة مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الأمة والأمة تكاد تكون صفة لغتها لأنها حاجتها الطبيعية التى لا تنفك عنها ولا قوام لها بغيرها فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها واشتمالها جِلدَة أمة أخرى فلو بقي للمصريين شيء متميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من اللغة الهيروغليفية ولو انْتَزَتْ بهم أمة أخرى غير الأمة العربية لهجروا العربية لا محالة وكذلك يتوجه هذا القياس طرداً وعكساً كما ترى، وإن فى العربية سراً خالداً هو هـذا الكتاب المبين (القرآن) الذى يجب أن يؤدّى على وجهه العربي الصريح ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر . ثم هذا المعنى الاسلامي (الدين) المبني على الغلبة والمعقود على انقاض الأمم والقيم على الفطرة الانسانية حيث توزعت وأين استقرت ، فالأمر أكبر من أن تؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل وأعضل من أن يزيله قلم كاتب ولو تناهت به سن

الدهر حتى يلتقى من الأمة أربعة عشر جيلا كالتي مرت منذ التاريخ الاسلامى إلى اليوم .

والقرآن الكريم ليس كتاباً يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسبُ إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقده وان كانت وثيقة ولأتى عليه الزمان أو بالحريّ لنُقّص من أمره شيء كثير عن الأمم ولاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غالٍ أو مُبْطِلٍ ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذراً للعوام والمستعجمين فى إحالته الى أوضاعهم اذا ثابتْ لهم قدرة على ذلك ولو فعلوه لما كان بدعاً من الرأي ولا مستنكراً فى قياس أصحابنا . . لأنهم لم يعدُوا منفعة طلبوها من سبيلها وخطة انتهجوها بدليلها .

وليس يقول هذا الاظَنينٌ قد انطوى صدره على غلّ واجتمع قلبه على دِخْلَة مكروهة والا جاهل من طراز اولئك لا يستطيل نظره بتجربة ولا ينفذ بعلم وانما هو آخذ بذنَب الرأي لا يُوَجّهه ولكن يتوجه معه ولا يُقبل به ولكن يدبر به الرأي .

انما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة الى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما حتى يتأذّن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط . ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس وردهم اليها وأوجبها عليهم لما اطّرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الأيام الى ما شاء الله ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ولا استقلت بها

الوحدة الاسلامية ثم لتلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ونضب ما بينهم فلم يبق الا أن تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية — لا السياسية — فلا تتبين من آثارهم فى أنفسهم بعد ذلك الا كما يثبت من طرائق الماء اذا انساب الجدول فى المحيط .

انما يصب الله علينا بلاء فتياننا لأنهم ينشؤن فى أرضنا نشأة المستعبَد الرقيق وإن غُنْماً لهم أن نحرص على ما بقي من جنسيتنا العربية وأن نَشْعَب لحفظ هذه الصلة وتوثيق تلك العقدة بيننا وبين أسلافنا ونمد من ذلك سببا إلى حاضرنا ثم إلى مستقبلنا فلا يكون فى تاريخنا اقتضاب ولا بَتْر ثم لكيلا نكون على ديننا ولغتنا ما كان اولئك الأوشاب والزعانف من الترك والديلم إلى غيرهما من أصناف تلك الحمراء التى اجتاحت العرب منذ الدولة العباسية ورتعت فى أمور الناس وجعلت بأسهم بينهم لعلة المباينة فى الجنسية اللغوية حتى لم يكن فى ثمانمائة سنة من استبدادهم ما يعدل ثمانين سنة كانت منذ أول العهد بالاسلام؛ ولكن أنى لفتياننا ذلك وهم لا يأخذون من لغتهم ولا يصيبون من آدابها الا كما يأخذ الاسفنج من الماء ينتفخ بقليل منه ثم لا يلبث أن يمجه أو يتطاير منه ولا يثبت فيه شيء

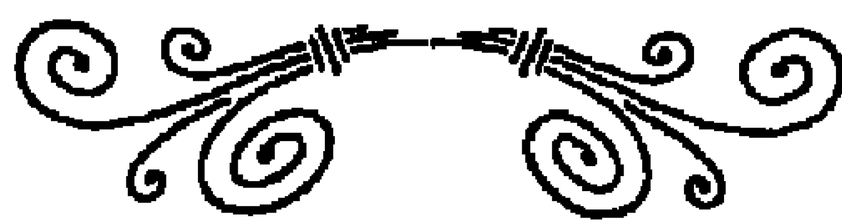
على انك لو اعترضت كل من يهجّن العربية ويُزري على سبكها لرأيته أجهل الناس بتركيبها وحكمة اشتقاقها ووجوه تصريفها ثم لرأيت له غرَّةً فى تاريخ قومه فهو ان عرف منه شيئاً فقد تجرد من ثمرة المعرفة كأنه يحفظ طلاسم لا يتخبط فيها حتى يتخبطه الشيطان من المس ثم ترى،

الآفة الكبرى أنه مُسْتَدْرَج من حيث لايعلم فهو يكافىء محبة لغة أجنبية أحكمها بعداوة لغته التى جهلها ويجزي منفمة تاريخٍ علمه بمضرة التاريخ الذى لم يعلمه والناس أعداء ما يجهلون .

نعم بقي لأصحابنا مذهب آخر ينتحلونه ويستدفعون به الظِّنَّة وهو من أحسن رأيهم الذى يعانون عليه لوفهموه على الوجه الذى يفهم منه ولو أبدوا لنا صفحته دون قفائه . . . وذلك أنهم يقولون إننا نريد أن نلائم بين حاجة الأمة من الكلام وبين الكلام الذى تُبلغ به هذه الحاجة ونريد الاصلاح ما استطعنا فنلبس تاريخنا وعاداتنا ديباجا من الكلام بطراز وغير طراز (١) ولا نترك أمتنا على سَوْم (٢) بين العربية واللغات الاجنبية . ونحن نقول إن هذا أمر ليس له مَتْرك ولا عنه مَحيص ولكن أين ما ينزعون اليه مما ينزعون به وهم انما خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئاً وانما يُؤْتَوْن من حساب العربية الفصحى لغةً أثرية لاتمادّ الزمن ولا تشايع روح التاريخ فيرون أنها لابد أن تكون قد انقرضت مع أهلها فلا تبقى الا لقوم فى حكم اولئك المنقرضين ثم يُفْضون من هذا الوهم الى تلك المخرقة التى أشرنا اليها فى صدر الكلام لأنهم لم يمارسوا هذه اللغة وانما علموها عن عُرْض وهذا ولا جرم ضرب من الجهل العلمي — . ولو هم فقهوا سر العربية ووقفوا على طرق تركيبها وجاذبوا من أزمّتها وصرّفوا من أعنتها واكتنهوا محاسنها الفطرية التى خرجت

(١) أى نظما ونثراً (٢) يقال هذا المتاع على سوم أى فى المزاد كل من شاه سامه وزاد فيه

بها من ثلاثمائة تركيب الى ثمانين ألف مادة كما فصلنا القول فيه [١] لعرفوا كيف يتسببون للاصلاح اللغوي الذى ينشدونه وكيف يكشفون لفظ الاصلاح عن معنى غير فاسد كما ذهبوا اليه ولتقلدوا البَلِيَّة من حيث يدفعونها لا من حيث تدفعهم ولكنهم كما ترى يصفون لنا الفوضى وهم صفاتها ، ويَطِبُّون للأمة وهم آفاتها ، ويبادرون حسمَ الأمور بما يتفاقم به صَدْعُها ، ويضعون أوزار النوائب بما يثور به نَقْعها ، وما عليهم اذا تبينوا أن يصيبوا قوماً بجهالة ، أو يردوهم عن الهدى الى ضلالة ؛ فاللهم بصِّرنا بأقدارنا ، ولا تذلّنا بصغارنا ، ولا تخذلنا فى الأمل وأنت الرحيم ، دون غايه أتحتَ لنا وقتها ، ولا تجعلنا فى العمل كأهل الجحيم ، كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها . . . .



(١) أنظر الجزء الاول من تاريخ آداب العرب

تمصير اللغة (١)

نريد بهذا التمصير ماذهبت اليه أوهام قوم فضلاء يرون أن تكون هذه اللغة التي استُحفِظوا عليها مصرية بعد ان كانت مُضَرية وأن تطّرد لهم مع النيل بعدد الترع وعداد القرى حتى ترسل الكلمة من الكلام فلا يجهلها فى مصر جاهل ويصدر الكتاب من الكتب فيجري في أفهام القوم على طريقة واحدة ويأخذ منهم مأخذاً معروفا غير متباين بعضُه من بعضه ولا ملتو على فئة دون فئة ومن ثم يزين لهم الرأي أنه لا يبقى فى هذا الجم الغفير . . . من علمائنا وكتابنا وأدبائنا من لايعرف أين يضع يده من ألفاظ اللغة ومستحدثاتها اذا هو كتب أو مصّر عن لغة أجنبية — ولا نقول عرّب فأن هذا بالطبع غير ما نحن فيه — بل يأخذ من تحت كل لسان ويلقف عن كل شفة ولا يُبعِد فى التناول الى مضطرب واسع ولا يمضي حيث يمضى ألا مُخِفًّا من هذه القواعد وتلك الضوابط العربية إذ تهادن يومئذ العدوّتان هذه العامية وهذه الفصحى وتُصلحان بينهما أن لا ترفع احداهما فى وجه الأخرى قلماً ولا لساناً وعلى أن تبيح كلتاهما للثانية حرية الانتفاع بما يشبه حرية التجارة الا فى «المواد» السامة التى يعبر عنها دهاة السياسة اللغوية بالألفاظ العامية المبتذَلة والالفاظ العربية الغريبة — ثم على أن لا تحفل احداهماماتركت الأخرى

(١) نشرت في مجلة البيان سنة ١٩١٢

مما سوى ذلك فتستمر العامية على ما هي و تذهب الفصحى على وجهها .

يقولون إن هذه هي شروط الصلح بين اللغتين أو هي المعاني التي ترجع إليها وتترادف بها متى أرادوا أن يبسطوا من هذه الشروط ويخرجوا بها الى التعدد والكثرة ؛ وإنما تلك آراء كان يتعلق عليها بعض فتياننا إفراطاً في الحمية ومبالغة في الحفيظة لمصر وأملاً مما يكبر في صدورهم على ما ترى من تهافتها وضعف تصريفها واضطراب أولها وآخرها لأنهم لا يُثبتون النظر فيها ولا يحققون خطوة ما بين الارادة والقدرة وفَوْتَ ما بين الأمل والعمل ثم لايعرفونها إلا أحلاما قريبة الأناة ساكنة الطائر فكان ذلك عذر العقلاء إذا مروا بها لماماً ، وتروّحوا بالإعراض عنها سلاماً ، حتى تناولها الأستاذ مدير « الجريدة » [1] فحذفها وسوّاها وأخرج منها طائفة من الرأي تصلح أن تسمى عند المعارضة رأياً . فقال بالاصلاح بين العامية والفصحى على طريقة تجعل هذه تغتمر تلك وتحياها إليها فعسى أن يأتي يوم لا تكون العامية فيه شيئاً مذكوراً

بيد أنه أخرج هذا الرأى البليغ من غير بابه ، وتسبب إليه في النظر بما ليس من أسبابه ، وجاء به قولاً إن يكن فيه صواب فهو ما آثره من تقريب ما بين العامة والخاصة وازالة الجفوة بين هؤلاء وهؤلاء وتوثيق العقدة المنحلة بين الألسنة والأقلام ، أو بين لغة الكتابة ولغة الكلام ، ثم ما رآه من التخطى بالعربية إلى الأمام ؛ وإن يكن

(١) هو اليوم مدير الجامعة المصرية

فيه خطأ فهو ما وراء ذلك مما أرسله فى أقواله البليغة سِناداً لرأيه وتثبيتاً لحجته

وإن مُجَمّ هذا الرأى ومُسْتَجْمَعَه أن الأستاذ يرى (أخذ أسماء المستحدثات من اللغة « اليومية » وإمرارها على الأوزان العربية بقدر الامكان فان لم يكن لها ثمة أسماء فمن معاجم اللغةوكتب العلم — لأن هذه عنده دون اللغة اليومية — فإن لم يصب ذلك فى هذه أيضاً وضع لها الواضع ما شاء . وإن فى استعمال مفردات العامة وتراكيبها إحياء للغة الكلام وإلباسها لباس الفصاحة إذ يكون من ذلك رفع هذه اللغة إلى الاستعمال الكتابي والنزول بالضروى من اللغة المكتوبة إلى ميدان التخاطب والتعامل . ذلك وإن ما استعملته العامة إنما هو « قرارات » الأمة فى هذه الكلمات التى لانريد النزول عنها وإن الطريقة الوحيدة لاحياء اللغة هي إحياء لغة الرأي العام من ناحية وإرضاء لغة القرآن من ناحية أخرى . وأننا إذا أردنا الصلح بين اللغتين فأقرب الطرق لهذا الصلح أن نتذرع إلى إحياء العربية باستعمال العامية ومتى استعملناها فى الكتابة . . . اضطررنا إلى تخليصها من الضعف وجعلنا العامة يتابعون الكتاب فى كتاباتهم الخ الخ

هذا هو تحصيل رأى الأستاذ وأكثر ما أوردناه إنما هو من ألفاظه بحروفها فان طال عليك ذلك السرد وبَرِمتَ به جملة فان لك أن تدمجه فى كلمتين ثم لاتكون قد أخللت من جميعه بشيء وذلك أن الاستاذ يرى « تمصير اللغة » لأننا إذا تابعناه فاننا نلتمس كل ما أشار اليه من

العامية المصرية وحدها ونعطي هذه العامية سَعَةَ أنفسنا وبذلَ أقلامنا[1] فنلبسها بالفصيح ونخلط منهما عملا صالحا وآخر سيئاً ولعل هذا الرأى أن يشيع من ناحيتنا نحن المصريين ويطمئن فى كل أمة لها عربية فتأخذ مأخذنا فى عاميتها وتنزع إلى ما نزعنا إليه فاذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم كان لعمري أسرع فى فناء العربية ومحوها وجَدًا عليها شؤم هذا الرأى مالا يجدو تألب الاعداء ولو استأصلوا أهلها ، وبلغ منها مالا يبلغه الفاتحون ولو ملكوا تلك الأرض كلها ؛ ثم نحن نتسامح فى استعمال المفردات والتراكيب العامية وسينقاد لذلك من بعدنا ثم من بعدهم إلى أجيال كثيرة يتراخى بعضها عن بعض فيوشك أن يأتي يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى فى كتابها الكريم ضرباً من اللغات الأثرية لأننا لا ننظر فيما نترخص فيه الآن من كلمات معدودة صدرت بها « قرارات الأمة » أن لا تزال على وجه الدهر عامية ولكننا ننظر إلى الاصل فى قاعدة التسامح والترخيص فاذا أثبتناه وأخذ به غيرنا ولم يكن عندنا لذلك نكير فما أشبهها أن تكون كالقاعدة الاستعمارية التى تبتدىء بالتسامح للمستعمرة والغزاة فى أخذ الشيء القليل ثم تنتهي بالتسامح فى كل شيء قلّ أو كثر

ونحن فان كنا نفهم رأياً من هذه الآراء الحاضرة فاننا لا نفهم كيف يكون إحياء العربية باستعمال العامية وكيف نرضي لغة القرآن التى تأبى ألا ان تتقيد بها اللهجات الأخرى كما محت من قبل لغات

(١) جهدنا من الكتابة

العرب جميعها على فصاحتها وقوة الفطرة فى أهلها وردّها الى لغة واحدة هي القرشية ثم نرضي من جهة أخرى هذه اللهجات العامية التى تأبى أن تتقيد بشيء وهي أبداً دائمة التغير بالأسباب المختلفة التى تؤثر فيها وتديرها فى الألسنة حتى صارت فى بعض قُرى مصر كأنها مالطية « متمصرة » وصار بعض هـذه القرى لايفهم عن بعض كما ترى بين أقصى الدلتا وأقصى الصعيد . واذا حاولنا مذهب الإصلاح العامي فليت شعرى من أى لهجة نأخذ وأي لهجة فى مصر هي غير مصرية فننبذها . واذا ابتغينا بهذا الاصلاح استدراج العامة ليتابعوا الكتاب والخطباء فيما يكتبون ويخطبون فهل يتابعونهم على العامي وحده حتى يُنزّل فى الفصيح إذ يستمرئونه ويسيغونه حتى اذا عرض لهم الفصيح خالصاً أنكروه وغصُّوا به أم تكون المتابعة على العامي والفصيح جميعا . واذا جاز على القوم أن يتابعوا الكتاب والخطباء على الفصيح الممزوج بالعامي فلم لايكون ذلك اذا كان الفصيح خالصاً مأنوسا وكانت القرائن قائمة على مافيه من جديد أو غريب وكانت ألفاظه لاتبرأ من معانيه ولا هذه تَشُقُّ على تلك ؟

نحن لانماري فى وجوب الإصلاح اللغوي ووجوب أن يكون للغة فى هـذه النهضة مجمع يحوطها ويصنع لها ولو على الأقل « كمصلحة الكنس والرش » . . . ولا نقول إن هذه العربية كاملة فى مفرداتها ولا إنه ليس لنا أن نتصرف فيها تصرف أهلها فإن من يذهب الى ذلك لايعدو باللغة وسيلة من وسائل العيش وأداة من أدوات الاجتماع الفطرى . وليت شعرى ما يصنع اولئك اذا صارت العربية لغة العلوم والفنون

الحديثة وجاؤا الى طائفة واحدة من الحشرات يقسمها العلماء الى عشرين ألف ضرب اعتبروا فى وضع أسمائها تباين ما بينها فى طبقات التشريح ؛ ثم ماذا يصنعون بضروب سائر الحيوان وبالنبات وغير النبات مما لا يأتي عليه الاحصاء من متعلقات العلوم وفروعها وهل تُجزىء فى ذلك كله ألفاظ لسان العرب وكتب الحيوان والنبات العربية وما اليها مما أطلقت ألفاظه واضطربت أوضاعه واختلفت معانيه واستفاضت حدوده حتى ليصح أن تعم اللفظة الواحدة بكثرة ما تطلق عليه فى هذه اللغة شطراً من معانى العلم التى هي فيه ؟

ألا وإن أعجب ما فى أمرنا من المعروف والمنكر أن تختلف الأمم فى معانى الألفاظ واختراعها وتحديدها ووجوه الانتفاع بها ولا نختلف نحن الا على ألفاظ هـذه المعانى وأنها عربية أو معربة وهل نتقبلها أو نردها ونثبتها أم ننفيها وننسخها أو نمسخها . . . وقد فاتنا أن العرب أنفسهم لم يكونوا يعرفون شيئاً يسمى لغـة إنما كان همهم استيعاب أجزاء البيان فى كل ما ينطقون به على أصول الفطرة اللغوية التى ينشأون عليها وقد ضبطت هذه الأصول فيما انتهى الينا من قواعد اللغة وما نقل من ألفاظها فصار لنـا حكمهم اذا نحن تدبرناها ونفذنا فى أسرارها وأحسنّا القيام عليها . وليس عندنا فى وجوه الخطأ اللغوي أكبر ولا أعظم من أن يظن أمرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب فإن اللغات المرتقية هي تلك التى تمتاز بوجوه تركيبها ونسق هذه الوجوه فيها ولا يمكن ألبتة أن تكون لغة من اللغات

ذات وَفْر وثروة من الألفاظ إلا أن تدعو الى ذلك وجوه أوضاعها وتراكيبها . ولا تجد عندنا من الإنكار على من يقول بإباحة التصرف فى تراكيب العربية ثم التكذيب له والاستعظام لما جاء به الا كما عندنا من الرد لقول من يمنع التصرف فى مفرداتها — بالتعريب وغير التعريب — ما دامت الحاجة الى ذلك ماسة وما دام ذلك لا يخرج اللفظ الموضوع عن الشبه العربي الذى يُجريه فى اللغة ويجعله اليها ويلحقه بمادتها ثم ما دمنا نعمل هذا العمل فنقضيه صريحًا محكمًا ونستنُّ فيه سنةَ العرب فى طريقة الوضع اللغوي وحكمة هذه الطريقة ووجه هذه الحكمة

فأنت ترى أنه لا ينقصنا من اللغة شيء وهي على ما هي من إحكام الأوضاع والتراكيب والاتساع للمفردات ولو أقبلت كأعناق السيل ولكن ينقص هذه اللغة رجال يعملون ويحسنون اذا عملوا ويعرفون كيف يتأتى عملهم الى الاحسان وكيف يكون عملهم عملا . ولقد كان من سوء الصُّنع لهذه العربية أن قامت لإحيائها « مجتمعات » كلها كان يكدح فى هذا العمل الجديد على قاعدة قديمة فلا يَعْدُون فى طريقة العمل وجهة القصد منه أن يبدلوا لفظًا بلفظ وحرفًا بحرف وينبهوا إلى خطأ فى بعض الاستعمال وصواب فى بعض الإهمال مما يستخرجونه أو يقفون عليه أو يتفق لهم اتفاقاً . وهذا عمل تكون الجماعة فيه مهما اعتزمت واشتدت كأنها فرد واحد ويقوم الفرد المضطلع بالجماعة بل قد يفي بها ويمسح وجهها (١) ويكون منها مكان الإمام ممن خلفه وإن كانوا صفوفًا

(١) كناية عن تقدم عليها

متراصة متقابلة وهو أمر كان قديماً فإن العلماء والكتاب كانوا يتلقون الرواة والحفّاظ بالمسئلة عن صواب الكلمة وعن وجه استعمال الحرف من اللغة وكان المأمون العباسي قد أرصد من هؤلاء طائفة فى دار الحكمة ليرجع اليهم المترجمون ثم ليتصفحوا عليهم فيصلحوا خطأ أو يقيموا وزناً أو يغيروا كلمة وكذلك فعل بعض الأمراء المتأخرين فى دواوين الإنشاء حين ضعف الأدباء عن اللغة والتوت الألسنة وغلبت العامية وقد تولى ذلك للفاطميين طاهر بن بابشاذ فى القرن الخامس وابن برّى فى القرن السادس وتولاه غيرهما من بعد الى هذه الغاية فى عصور ودول مختلفة على أن كل ذلك قد مضى مع أهله وبقيت اللغة تضرب فى حدودها مقبلة مدبرة لم يزد فيها ما زادوا ولم ينقص منها ما نقصوا

ولسنا نرتاب على حال انه لو قام فى صباح كل يوم مجمع لغوي على هذه الطريقة لانتقض فى مساء كل يوم مجمع منها لأن القوم يَدَعُون الجهات الملتبسة الى الصريحة ويتخطون الأصول الى الفروع ويعملون فى سدّ خلة محتملة ويتكلفون لضرورة فى الوِسْع والطاقة ؛ واللغة وافية بكل ما يأتون به لا يصدّعنها الا الجهل والاهمال والا سوء طلب الطالب وتحصيل المحصّل وهذا أصلحك الله أهون الخطب وأخف الضرر وأيسر ما التاثَ علينا من أمر هذه العربية . فان المحنة فيها باقية أبداً ما بقي فى الأرض معنى ليس له فيها لفظ وما دمنا لا نُطرّق فيها لهذه الألفاظ المحدَثة بقواعد ثابتة وعلى طرق نَهَجْته وما دامت فى أيدينا جامدة لا نغمز منها ولا نعيدها سيرتَها الأولى فى الوضع والاشتقاق بما لا يفسدها ولا

يضارّ أصولها ولا يأتى بنيانها من « القواعد »

وإن ذلك لأمر أول التبعة فيه على متقدمى العلماء ممن دونوا الأمهات فى اللغة وممن كتبوا فى العلوم أو ترجموا من كتبها . لأنهم عفا الله عنهم لم ينظروا لمن بعدهم ، فلم يضعوا فى ذلك ديوانًا جامعًا ولا أمضوا فيه بإجماع معروف ينتهى إليه علم أو يقف عليه طريق من طرق الرواية . إنما كان لكل واحد منهم رأيه ونظره ومبلغ علمه وإحاطة روايته . فإن اضطر أحدهم إلى ما يُعجِله عن الأناة وإجالة الرأي فى اختيار اللفظ وتعريبه ودُفع إلى الكتابة والتأليف من هذه المضايق لم يبال أن يتناول اللفظ كما هو فى لسان أهله ولغة واضعه ما دام لا يرسله إلا فى أسلوب محكم من اللغة ولا يحيطه إلا بالتركيب العربي المبين وهم كانوا أبصر بما قررناه من أن اللغة بالأوضاع والتراكيب لا بالمفردات بالغةً ما بلغت ، وأن الشأن فيما ينتظم الكلمة الأعجمية انتظاما عربياً لا فى الكلمة نفسها

وهذا الجاحظ عالم كتاب هذه الأمة وفرد بلغائها المتّسعين فى الكتابة تتصفح كتبه فتعثر بالشيء من أسماء الأدوات ومصطلحات الفنون . وبعض ذلك لا سبيل إلى فهمه ومعرفة مدلوله إلا بالرجوع إليه فى الفارسية والهندية والرومية ونحوها والا إن اتفق للباحث أن يعثر على بيانه وتفسيره فى بعض المعجمات العربية أو كتب الفنون . وقد كان دأب هذا البليغ أن لا يتوقف عند اللفظة المحدثة يقلبها ويشققها ولا يتردد عند الكلمة الدخيلة ينظر فيها ويحققها وهو قد نص على ذلك فى

موضع من كتابه الحيوان فقال : بعد أن ساق الفاظاً من مصطلحات الزنادقة كالساتر والغامر والبطلان وغيرها وأنكر غرابة الدلالة فيها وانها مهجورة عند أهل دعوته وملته وعند العوام والجمهور : « إن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والمادة فيها على أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام مع خاص أهل الكلام . فان ذلك أفهم عندى وأخف لمؤنتهم علي

ولكل صناعة ألفاظ قد جعلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت بينها وبين معاني تلك الصناعة مشاكلات، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته أو في حديثه إذا حدث أو خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » اه .

على أننا لا نستقصى القول في هذه الجهة فان موقع النية أن نتكلم في « تمصير اللغة » وإنما أفضينا إلى الكلام من هذه الناحية إذ كانت هي سبيلنا إليه . فان القائلين بهذا الرأي والغالين فيه والمكابرين عليه انما يدعون به الاصلاح ويذهبون إلى أنه خير ما ينتهي اليه الصواب من رأي وخير ما يمكّن لهم في جانب تلك الغاية فانهم زعموا يريدون الاصلاح

من أقرب السبيل ويطلبون الحاجة الراهنة والمنفعة الدانية وقد رأوا سواد الأمة عامياً فلا بأس أن يكون من هذا السواد ظل فى اللغة أو على اللغة أو قريباً من اللغة وفاتهم أن من دون هذه السبيل سبيلا أخرى هي أقرب في منحاهم وأدنى الى غايتهم لو كانوا يرمون الى تعليم الأمة والى الغاية من هذا التعليم . فإن الزمن الذى تعرب فيه الكتب أو تمصر ثم تطبع وتنشر ثم تقرأ وتدرس لا يذهب باطلاً اذا هو ذهب فى تعليم لغة أجنبية من لغات العلوم ثم القاء هذه العلوم بها . ويكون من ذلك أن الأمة تستفيد العلوم والفنون محققة وتربح معها فضلا كبيراً . وان تربح إلى لغتها لغة أخرى برمتها وتجمع اليها آدابها وفوائدها . وهذا ما لا يتيسر بعضه اذا مصرنا العربية لتلك الغاية التى زعموا وما يطلبون بها من الكفاية والاصلاح

وقد أخذت بهذا الرأي جمهورية الصين الحديثة فانها فرضت اللغة الانكليزية على كل من يطلب علماً أو صناعة حرصاً على الوقت أن تضيع به الترجمة والطبع والدرس وتفاديا مما تدخله الترجمة على مصطلحات العلوم والفنون من الضيم فى الشرح والتعيين وتحديد الدلالة ونحوها مما ليس منه بد فى النقل بين اللغات المتباينة لغة الى لغة

على انه ان يكن فى رأي التمصير خير فليس يقوم خيره بشؤمه . وهب أن أمراً من ذلك كائن . وانا أجرينا التراكيب العامية فى الفصيح وأقحمنا مفردات القوم فى اللغة ومكّنّا للعامة على ما يتوهمون من مقاليد الكلام واتبعناه مقادتهم فما جداء ذلك عنهم وماذا يردّ على الأمة ونحن نعلم ان جمهورها اذا احتاجوا الى كتب فى العلم فانما هى كتب الف بلد

تاء . . . قبـل كتب المصطلحات العلمية والفنية . وانه لعجيب أن نبدأ بالتربية من آخرها وأن نجيء إلى حال من الضعف فنتوهم فيها القوة ثم نمضي على ما نُخَيِّل نعتدُّه حقاً فنقرر الأحكام ونؤصِّل الأصول ونقابل شيئاً بشيء ونستخرج حالا من حال . وليس لنا مما قِبَل ذلك جميعه الا أنه ظن توهمناه يقيناً وفرض حسبناه قياساً . والا أنها العامية جعلنا نَسومها ما ليس فى طبيعتها وحسبناها أصلا بائناً بنفسه متميزاً من سواه بالصفات التى تجعل الاصل أصلا وتنفيه من صفات فروعه . مع أن أصل هذه العامية لا يزال فى ألسنتنا وأقلامنا . ولا نبرح نردها إليه ونحكمها به ونقيمها على طريقه . ومع أن هذه العامية لا تصلح فى تراكيبها وصيغها للـكتابة مالم تفصّح على وجه من الوجوه . وهى بعدُ لا وزن لها فى كل ما ابتعدت به عن الفصيح إلا فى عبارات قليلة مما يكون أكبر حسنه أنه أخرج على نسق معروف فى البلاغة العربية . كضروب المجاز والـكناية وما الى ذلك . فاذا هى نافرت الفصيح لفظاً أو نسقاً فلستَ واجداً فيها إلا أطلالا من كلمات عربية يأباها من يعرفها صحيحة ماثلة ، ويعدها من النقص من يقيمها سوية كاملة . وكيفما أدرتها لا تعرف لها إلا رقة الشأن وسقوط المنزلة بازاء أصلها الفصيح الذى خرجت منه ولا تزال فيهـا مادته . فما اختلافنا في لغة هى فى طبيعتها اللغوية تأبى أن تكون أصلا وأن تعد لغة ومهما جهدت بها لا تتحول إلا إلى أصلها المعروف المتميز فاذا أريدت على غير ذلك التاثت واضطربت وفرت الى الأسواق والسبل ؟

فان عارضنا القوم بأنهم يريدون تقريب الفصيح من العامة لامن العامية ليسهل عليهم أن يتأدبوا أو أن يتعلموا قلنا ذلك وجه وسبيله غير ما يقولون به من تمصير هذا الفصيح العربي فان لهم مندوحة في طرق مختلفة يفصّحون بها العامية نفسها بردها الى أصولها القريبة على نحو ما كانت عليه أيام الأمويين والعباسيين . فإني لأحسب أن العامي من أهل ذلك الزمن لو بُعِث اليوم لرأى أكثر أساليبنا الفصيحة دون عاميته . وقد كنا بسطنا جانباً من القول فى مقالتينا اللتين نشرتا فى « البيان » عن الرأي العامي فى العربية الفصحى والجنسية العربية فى القرآن (١) وأبنا ثمة فساد الرأي فى احالة الفصحى عن وجهها فلا نعيد شيئاً مما بسطناه وانما نرسل كلمة فى تحقيق استحالة هذا الرأي وان القائلين به مهما عملوا فإنهم لايعدون أن يجتذبوا اليهم طائفة من ضعاف شباننا المتفرنجين يناصرونهم بما تعده الأمة خذلانا ، ويزيدون فيهم بما لاتشعر به الأمة زيادة أو نقصانا ؛ . وذلك أنهم يغفلون عن الروح الدينية التى عليها ينشأ المسلمون — أهل هذه العربية — فى جهات الأرض وان هذه الروح قائمة على نفي العصبية الوطنية كالمصرية وغيرها . فقد كانت هذه العصبية عامة فى قبائل العرب حتى محاها الاسلام . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وجعلهم إخوة . ثم نفاها النبي صلى الله عليه وسلم . ونفى المؤمنين منها بقوله « ليس منا

(١) تجد هذا البحث فى كتابنا اعجاز القرآن

من دعا الى عصبية » الحديث . وما عصبية قبيلة وقبيلة فى المعنى الا كعصبية بلد وبلد ومصر ومصر . وما يقولون به من تمصير اللغة لا يعدو أن يكون وجهاً من وجوه هذه العصبية الممقوتة . فإنك لتجد المسلمين يختلفون فى كل شيء حتى فى الدين نفسه ، ولا تجدهم الا شعوراً واحداً بالروح الدينية العربية التى مسَّا كها الكتاب والسنة فى عربيتهما الفصيحة . وهي لا سبيل الى التغيير أو التبديل فيها لا على وجه التمصير ولا على وجه آخر وسواء كان فى ذلك اصلاح بين العامية والفصحى أو لم يكن .

فان شذ عن الجماعة فئة من شباننا قد أخذوا بغير أخلاق هذا الدين ونشأوا فى غير قومه وعلى غير مبادئه فرأوا فيه بظنونهم وقالوا برأيهم ورضوا له ما لا يرضاه أهله فهؤلاء مهما كثروا لا يستطيعون أن يحدثوا حدثاً بل يفنون والجماعة باقية ، وينقصون والأمة نامية ، ويذهبون الى رحمة الله ومن رحمة الله أنهم لا يعودون ثانية . . . . ولن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين الا وجدت له مثلها فى اللغة . وان كنا لا نقول بالعكس . فان فينا من الفضلاء من يخطىء فى الرأى يراه أو يعجل به دون أن يطيل ترديده وتقليبه . فاذا بصَّرته بما فيه أعانك على نفسه وأحكم ناحية الصواب منها وأعطاك عن رضا وكان فى عمله خليقاً أن تعرفه بالحكمة وأن ترى تحوله عن الخطأ صواباً ان لم يكن أحسن من صوابك فليس بدونه .

هذا وإن أصحابنا لا يجهلون ان الأصل فى التربية العامة بالحمل على الاخلاق لا على العقول وعلى روح الأمة التى تتميز بها وتتفق فيها لا على صفاتها الأخرى ونحن لا نجد فى ذلك شيئاً فى المسلمين كافة من

المصريين وغيرهم الا ما أومأنا اليه من الروح الدينية التى تشملهم جميعاً والتى هي أساس هذا الدين . فلاسبيل لتمصير العربية واعتبار هذه المصرية أصلاً لغوياً مجمعاً عليه الا بتمصير الدين الإسلامي الذى تقوم عليه هذه العربية . فإن بعض ذلك سبب طبيعي الى بعضه . فمن كشف لنا عن الوجه الذى يكون به الدين مصرياً وطنياً . . . وبصّرنا بأسباب ذلك ونتائجه قلنا له أخطأنا وأصبت « وكذلك أخذُ ربك اذا أخذ القُرى وهى ظالمة ».

جلدة هرة .....

كان الأُستاذ الكاتب البليغ الذى يكتب (ليالى رمضان) فى جريدة السياسة قد سئل ما الجديد وما القديم وما مثل كل منهما وماذا يُبينُ أحدهما من الآخر فأحال فى الجواب على قوم سماهم ممن يتّسِمُون بهذا وذلك وعدّنا فيهم فكتبنا اليه هذه الكلمة الموجزة:

إلى كوكب الليالي المباركة

كنتُ قررت أن أُمسك عن الجواب حتى أرى ما عسى أن يكتب الذين سميتّهم فأتعقب أقوالهم فان آرائي معروفة منشورة ولكن حجة أهل الجديد لا تزال هى كلمة الجديد ...

أحسبك لا تظفر بشيء منهم بعد كلمة (الدكتور) صبري وهو بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وإن ظفرت بعد أيام بكلمة أو كلمات

فمن لك بليلة أو ليال تزيدها يا شوّال على رمضان ... أم تريد أن تتخذ لك في التاريخ الاسلامي مذهباً جديداً كمذهبهم في الأدب العربي فتدعي لشيء ما ليس له وتنحل شهر رمضان من شهر يوليو ....

لم أقرأ إلى يوم الناس هذا في معنى هذا (الجديد) كلاماً يبلغ أن يصوّر منه برهان أو تؤلف منه قضية صحيحة . وكل أقاويلهم ترجع إلى ثلاثة أبواب : جديد . ومجدّد . ولنجدّد . فأما الأول فهو عندهم تقبيح القديم والزراية عليه والتنفير منه . وأما الثاني فهو العائب والشاتم والمتهزّئ . وأما باب قولهم (ولنُجَدّدْ) فهو لا يزال إلى الآن مقصوراً على قول كل واحد منهم للآخر (ولنجدد) ....

على أن القديم هو الواقع الثابت الذي يقوم به الماضي والحاضر معاً وقد رأيتَ أن الجديد لا يعدو أمراً يتوهمونه أمراً وهو بعدُ لم يقع فليس الممكن أولى به من المستحيل ولا المستحيل أحق به من الممكن وإنما أضيعُ الناس في الناس رجلان : واحد يأتي قبل زمنه والآخر لا يكون إلا وقد مضى زمنه . أفلا ترى والحالة هذه أن كل السائغ الممكن لأهل الجديد هو أن يجادلوا أهل المستقبل ...

وأنا والله لا أعرف أهؤلاء القوم يجدّون أم يسخرون ولكن الذي لا أجهله أن في بعض الناس أرواحاً وأمزجة انطبعت فيها صور الاجتماع الأوربي بما يحوى من فضائله ورذائله — لأن هذه نتائج تلك ما منها لهم بد — فتريد هذه النفوس الرقيقة الجميلة أن تنسخ الرسم الاسلامي الشرقي وتقر كل ذلك الأوربي في مكانه وتلك هي نزعة الجديد

وأنت فاذا كنت محامياً أفلا يكون من واجبك أن تلبس اللص إذا دافعت يوما عن لص فتتقف الوقفة الشريفة وإنّ فكرك وذكاءك ومنطقك كل ذلك يحتال احتيال اللصوص ويتصل بمعانيهم ويستنبط من الوسائل ما لعل اللص نفسه يعجز عن بعضه ؟

هذا هو المثل لا غيره ، ولأقل لك فى صراحة إن مساجد القاهرة ترى ألف سائح كل سنة ولا ترى فى السنة كلها واحداً من أهل الجديد . فهذا هو مَرَدُّ تلك النزعة ، ثم إن هناك فئة قليلة من الصَّحفيين ترى فى كلمة الجديد معنى بديعاً من معاني « لغة الاعلانات » وهذه اللغة لا تبالى ما ينفع مما يضر ولا ما يصدق مما يكذب ولكن ما يروج وما يكسد وما يربح وما يخسر . فالجديد العربى عندهؤلاء انما هو كذلك فى تسميته أما فى معناه فهو جديد أمريكانى . . . . .

إن كان الخلط أيها الناس يسمى جديداً فقد كان فى القوم من يخلط ، وان كانت الركاكة ففي القديم ما شئتم منها حتى ومن أساليب « جراميق الشام وأمريكا » (١) وإن كان التحامل والطعن والعيب فذلك كله قديم ، وإن كانت الانسانية فهي قديمة وإن كان العقل فان أعظم العقول البشرية من القديم وحده فماذا إذن ؟

لعلكم تريدون الذوق . فكيف تصنعون وأنتم ترون لكل امرىء

---

(١) كان الأصمعى يقول في الكميت الشاعر « انه جرمقانى من جراميق الشام لا يحتج بشعره » والجراميق والجرامقة قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الاسلام فشبهه بهم في اللغة . والجرمقانى بضم الجيم والميم بينهما راء ساكنة

ذوقه وتبصرون الاحوال تجرى فى ذلك بأشياء غريبة حتى فى أجمل ما فى الجمال فلقد يكون أثقل ما فى الثقل على بعض الطباع كثقل الفصاحة على طباعكم وثقلكم أنتم على طباعنا فليس لكم فى الذوق شىء لا يكون لنا مثله .

أم تريدون من الجديد تصوير الحياة العصرية بمذاهبها فى الشعر والنثر فمن الذى يدفعكم عن هذا ومن الذى يقول بغيره منا أو منكم فنحن فى ذلك سواء لانختلف

أم تريدون الأسلوبَ واللغةَ والسهولةَ فى السبك والضعفَ فى التأليف . والتسمحَ فى القواعد وأخذ اللفظ من حيث يتفق وكيف قدر عليه كاتبه ؟ فهذا لايسمى جديداً وإنما هو فى الجملة ضرب من العجز واحتيال فقهي . . على جعل ما ليس بقاعدة قاعدة . . .

لقد سئمت نفوسنا هذه الدعاوى الفارغة فاعملوا ثم سموا عملكم وصيدوا الدب ثم بيعوا للناس جلده فلعلكم وأنتم تبيعون فروة دب لاتحصلون إلا على جلدة هرة . . . .



مقالات

الأدب العربى

في

الجامعة المصرية



للتاريخ

ظهرت الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨ للميلاد وكانت يومئذ فكرة وطنية سياسية انشقّ لها مكانها في الحوادث فجاءت كما تجيء الحادثة الوطنية قائمة على ما قبلها ليقوم عليها ما بعدها وبذلت فيها الأمة وشمّرت لها وجدّ بها الجد فاذا هي ما هي

ولم يكن في ذلك العهد ما يعرف « بتاريخ آداب اللغة العربية » الا كراسة صغيرة الحجم لفقها بعض الاساتذة على طريقة المستشرقين وكانت تدرس في مدرسة دار العلوم والا بعض فصول كان كتبها على هذه الطريقة صديقنا العلامة جورجي زيدان صاحب (الهلال) ونشرها في مجلته ثم كتابان في علوم اللغة العربية الاثني عشر أحدهما كتاب الوسيلة الادبية للاستاذ الشهير الشيخ حسين المرصفي وهو كتاب قديم الى كتب أخرى مما يجمع من مختارات النظم والنثر أو مما يجمع من كل شيء كالمواهب الفتحية للاستاذ الحجة الكبير الشيخ حمزة فتح الله . فكتبنا يومئذ في (الجريدة) مقالا تراه بعد ولنسمه « مقال الجريدة الاول » وكان مدير الجريدة هو الاستاذ النابغة مدير الجامعة اليوم . فكان من أثر ذلك المقال أن نشرت اللجنة الفنية للجامعة دعوة على

الادباء الى تأليف كتاب فى « أدبيات اللغة العربية » جعلت جائزة الفائز فيه مائة جنيه وضربت أجلاً لتقديمه اليها سبعة أشهر فكتبنا المقال الثانى فى الجريدة فعادوا ونشروا المسابقة لتأليف كتاب فى أدبيات اللغة العربية » وجعلوا المدة سنتين والجائزة مائتي جنيه وقالوا « ولأجل مساعدة المؤلف على نشر الكتاب تتعهد الجامعة بالطبعة الأولى على نفقتها . . . فان لم يستحق الجائزة أحد تتجدد الدعوة لهذه المسابقة مرة ثانية لميعاد آخر مدته سنتان بهذه الشروط بعينها » (١)

وكان ذلك من عملنا ولله الحمد والمنة — هو السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية وهو السبب كذلك فى وضع ما وضع من الكتب فى هذا العلم ولكن أحداً لم يعرض كتابه على الجامعة الى اليوم ثم كان أسبق تلك المؤلفات ظهوراً الجزء الأول من كتاب العلامة جورجى زيدان ثم الجزء الاول من كتابنا تاريخ آداب العرب سبقه ذلك بشهر أو شهرين سبقاً مطبعياً .

ثم ألحقت الجامعة بوزارة المعارف وفتحت سنة ١٩٢٥ فاختاروا لتدريس الأدب العربي فيها الاستاذ الدكتور طه حسين وكنا نعلم انه يلقي دروسه « فى الشعر الجاهلى » غير انا لم نقف على شيء منها ولا أردنا ذلك ولا فكرنا فيه اذ لم يخطر لنا أن كائناً من كان يزيّن له الغرور أن يحمل كرة الارض فيلقى بها فى غير مدارها كما فعل طه شبيهاً من ذلك

---

(١) الجريدة عدد ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٩

فى الادب حتى نبهنا مقال الاستاذ عباس فضلى الذى نشرته له (السياسة). ثم كتب بعده صديقنا الجليل كاتب الشرق الاكبر الأمير شكيب أرسلان مقاله (التاريخ لا يكون بالافتراض) فى جريدة كوكب الشرق فكتبنا نحن بعد ذلك هذه المقالات فى الكوكب وقد تركناها كما هي لم نمسها الا فى الفرط والندرة والحمد لله على ما وفق من قبل ومن بعد

مقال الجريدة الاول

الأدب العربى فى الجامعة المصرية

قالوا إن فئة القائمين بأمر هذه الجامعة قد تعجلوا لنا العمل فى هذه السنة فلم يُطَيِّبوا ولم يُنْضِجوا لمكان العجلة من تلك الحال وعقم الامة بالنابغين من الرجال ولذلك جعلوا الدروس فيها محاضرات من مُستَطْرَف الأحاديث ومستظرف النوادر والأمالى فى تاريخ الحضارة والبلدان والآداب الأجنبية وطرف مما تُعتبر به اللغة ثم هم فى الغابر يستحدثون الجديد ويطرحون أيديهم فى العمل المفيد متى تمت لهم الأداة واجتمعت القوة ولفّ شملهم بأولئك الفضلاء الذين أنفذوهم إلى أوروبا . وكذلك قالوا انهم بادروا العمل وما تلبثوا إلا يسيراً تنزيها لعهدهم وتفادياً من سوء المؤاخذة على الرّسْلة ووناء الهمم ولأن الفائدة لا ينفيها أن تكون من القليل اذا لم يتهيأ أكثر منه فان لجلجة المضغة عند الجوع خير من جمود الفكين

ونحن نؤمن بكل ذلك ولا نحاول أن ندلس على عيب أمتنا ونكتم نقائصها فقد لا يستقيم هذا الأمر عندنا اذا ابتدأ كاملا وإن من يركم أحجار البناء كلها فى فضاء الأرض لا يبلغ أن يكون بذلك قد رفع بناء بل لا بد من إمساك الحجر بالحجر على نسبة معينة فى التنسيق والاطراد وما قطُّ ابتُغِيَتْ حاجة من غير مَبْغَاتها.

وزيدهم على هـذا أيضاً اننا أمة ترك بها الزمان ما ترك من عادة وخلق بين سيء وحسن فلا تجتمع على بغض ولا رضا ولا يزال بعضها حربا لبعض فى العادات والاخلاق كما تكون الأمم فى أول جهادها للتقدم وتلك هى المزلَّة التى يهوي فيها الأساة والمنزلة التى يحارُ بها الهداة فلو قذفتنا المقابر بمن فيهـا من الفلاسفة وحكماء المجتمع ما زادوا على أن يبتدئوا تعليمنا بالقليل ولكن ليس كل قليل لازما بل أحْرِ فى ذلك أن يكون شيء ألزم من شيء

فلا سبيل إلى عذر القوم فى إغفال أمر الأدب العربي وهم قد نصوا فى دستور الجامعة على نوعين من الآداب الأجنبية فإما أن تكون هذه أحق من ذلك بالتقديم وأقرب إلى فائدة الأمة منه أو هم يَتَمَهَّدون اليوم لحاجتهم فينشئون لنا فى أوربا أديبـاً ويخرجون بعلوم الأعاجم عربياً صليبياً أو لا هذا ولا ذاك ولكنهم يمضون على غير هدى كما تخيل النفس ما دامت هـذه الأمة قد بذلت وتابعت على ما يريدون

فان كان الأول فهو الرأي الفائل والسوءة التي لا يسترها إحسانهم بأجمعه إذ لا يكون ذلك فى أمة لا يزال يغلط كبار كتابها غلطا قبيحاً فيما

يستعملون من لغتهم لايرون فى ذلك هُجنة ولا نقصاً حتى أصبحت اللغة فى الأيدى كالثياب المتداعية كلما حِيصَتْ من جانب تهتكت من آخر .

وانظر كيف يتسمى الكتاب المترسلون فى الجرائد (بالمحررين) وأنت إذا سألت عن سواد الكتاب فى الأمة قيل هم أولئك ولكنهم مع ذلك لايعلمون أنها مذمة لهم فان المحرر فيما سبق به الاصطلاح هو كاتب الخط لاغير (الخطاط) لأنه يحرر الأصول ويضبط الأحرف ويراعي اعتدال النسب بين ما يعزله من البياض فى القرطاس أو الكاغَد عن يمين الكتاب وشماله وأعلاه وأسفله وتباعد ما بين السطور وسعة الفصول وضيقها ومرجع ذلك جميعه إلى مفاد لفظة التحرير (١)

ولا أخوض فى تفصيل الرأى الثالث وبسطه فانى أنزه رجال الجامعة عن هذه الشبهات . أما أن يكونوا منتظرين أن ينشئوا فى أوربا من يدرس الأدب العربي أو يستعين بما يدرسه عليه فذلك ما نرمى اليه بهذه الكلمات وإن علينا بيانه

لا أعلم ماذا يراد بقولهم « آداب اللغة العربية » إلا أن يكون ذلك إحاطة الأديب بفُصَح اللغة وتمكنه من استعمالها فى تنزيل الكلام ومعرفة الإعراب والأبنية والتصاريف وبعد النظر فى معاني البلاغة وأساليب الفصاحة والاقتدار عليها نظماً ونثراً ثم معرفة الرجال ومراتبهم

(١) قال الجاحظ فى المحرر وكاتب الرسائل ومكانتهما من الديوان : لايحضر كاتب الرسائل لنائبه ولا يفزع اليه فى حادثة فاذا أبرم الوزراء فيها التدبير ووقفوا منها على التقدير طرحت اليه رقعة بمعانى الامر لينشق فيه القول فاذا فرغ من نظامه واستوى له كلامه أحضر له محورا . وقال فى المحرر : وبخطه يكون جمال كتب الخليفة .

وطبقات كلامهم وآثارهم واختلاف العصور بهم مع البصر بالنقد ومواضع المؤاخذة إلى الطبع السمح والفطنة المؤاتية حتى لا يكون بَرِمًا بالحجة إذا نزع بها ولا ضعيف الدليل إذا حاول الاستخراج والتعليل ثم الاحاطة بذلك كله احاطة تاريخية فلسفية وتدبُّره على اختلاف وجوهه وأسبابه وهو كله جملة واحدة لا يغني فيه بعضه عن بعض وعلى مقدار ما يبلغ منه الأديب يكون أدبه فقد يقال للعالم باللغة لغوي ولصاحب النحو نحوي ولمن يقرض الشعر شاعر وبالجملة ينسب كل ذي علم إلى علمه إلا الأديب فلا علم له إلا مجموع تلك العلوم وإحسان المشاركة فيها جميعاً

ولا أذهب بك بعيداً في انتزاع المثال أو أحيلك على أن تتبع ذلك في أوصاف الرجال ولكني أسوق لك هذا الخبر عن ابن عبدون الأديب الشاعر الاندلسي لتستبين منه أصل الأدب فيمن كانوا يسمونه أديباً

ذكروا أن أبا بكر بن زهر الوزير الاندلسي حضر إليه في داره وهو فتى ، شيخ كان ينسخ له كتاب الأغاني ومعه كراريس مما كتب ولكنه نسي أن يحضر أصولها من الكتاب فبينا هو يكلم شيخه إذ دخل عليه رجل بذُّ الهيئة غليظ الثياب على رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان فتقدم إليه أن يستأذن له على أبيه الوزير أبي مروان فحملته نزوة الصبي وما رأى من خشونة هيئته على أن تكلف جوابه وكَرَّهَ له من وجهه فسكت عنه الرجل ساعة ثم سأله عن الكتاب الذي في يده وإلى أين بلغ الكاتب منه وما له لا يكتب ؛ فعبث به أبو بكر وجعل يسخر منه ويضحك على قالبه وشكله ومع ذلك لا يتكلف له إلا النبذ من خبر ما يسأل . فلما علم الرجل أن أصل الكتاب غير موجود لدى

الناسخ ليعارض به قال له يا بنيّ خـذ كراريسك وعارض فاني كنت أحفظ الـكتاب فى صباى [1] فتبسم الفتى ضاحكا من قوله فقال الرجل بعد أن تراءى ذلك منه يا بنيّ أمسك عليّ وجعل يقرأ . قال ابن زهر فوالله إن أخطأ واواً ولا فاءً حتى قرأ نحواً من كراسين [2] ثم أخـذ له فى وسط السفر وآخره فاذا حفظه فى ذلك كله سواء ، فقام مسرعاً حتى دخل على أبيه وذكر له الخبر وصاحبه نخف الوزير أبو مروان من فوره وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفّه على نفسه وابنُه بين يديه ؛ وهو يقول يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الجِلْف الا الساعة وجعل يسب ابنه والرجل يخفّض عليه ويقول ما عرفني فيقول الوزير هبه ما عرفك فما عذره فى حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً حتى خرج « والوزير » بين يديه على هيئته تلك فاما أن ركب وانفصل قال الفتى لأبيه من هذا الذى عظمته هذا التعظيم . . . قال اسكت ويحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى (علم الآداب) هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغاني . انتهى

ومن ذلك نعرف كيف ابتذل هذا اللقب العظيم (لقب الأديب) فى زمننا حتى لم يحرم منه إلا العامة من الجهلاء ، والانفر ممن لا يدفعون ثمنه للجرائد فى أخبار الهناء والعزاء . . .

---

(١) طبع كتاب الاغانى فى أحد وعشرين جزءا

(٢) الـكراسة عندهم عشر ورقات أى عشرون صفحة

وقد نظرت فى كتب يقول أصحابها إنهم صنفوها فى (آداب اللغة العربية) وماأظن كتاباً طبع فى ذلك للمحدثين ولم أقف عليه ولا أظن كأنى وقفت من ذلك على كتاب . . . فهم يثبتون فى كتبهم بعض فصول فى تاريخ اللغة ونظمها ونثرها ويومئون إلى طائفة من الكتاب والشعراء غير منتقدين ولا مميزين ويأتون بشىء من كلامهم يصيبونه كما يقول النحاة حيثما اتفق . وقد يتكلمون فى العلوم الاثني عشر ويسردون لك أسماء من الكتب المؤلفة فيها وإنك ما أصبت من فائدة فى بعض كتبهم فذلك حكم الجمع ومما يطرده لك التأليف ولا أقبح من كتاب تستعرض فيه العقول وتتصفح الآراء الا عقل صاحبه ورأيه

وهم وإن ذكروا أن اختيار المرء قطعة من عقله إلا أن ذلك على جهة نوع المختار ومنزلته من الأشباه والنظائر لا على جهة أن للعقل فى ذلك عملا يلزمه التبعة ويأخذه بالعهد إذ كان الاختيار على حسب ما تنبعث له الرغبة وكانت الرغبة على مقدار ما يهيئه الطبع وتعطيه القوة فلا يحسن عند الفقيه مثلا اختيار الطبيب من الفقه ولا عند هذا اختيار صاحبه مما هو بسبيله وهكذا

وليت شعري أين من عهدنا طبقات الرواة والحفاظ وأهل النقد والجرح والتعديل فانهم منا كطباق السماء من الأرض وما ذلك لانقطاع الرواية وذهاب أثرها فان فى دراسة الكتب وتصفح الأسفار بعض الغناء ولكنه من فساد التلقين وسوء التلقي بما نشأ عن موت الذين يصلحون للافادة ولقد كانت الرواية فى ذلك الصدر درساً من أحسن الدروس

الجامعة إذ يتناول مجلس الراوية الأدبيات بانواعها بحثاً وشرحا وإيراداً وتمحيصاً فيعي الطالب من ذلك فى الساعة الواحدة ما لو ترك فيه لنفسه ومبلغ همته لدأب فى تحصيله بضع سنين

وما أرى الجامعة مفلحة فى الأدب إذا هي لم تحي ذلك العهد ولم تطو الأيام إليه فان الأمة لاتحيا إذا ماتت لغتها ولن تموت لغة أمةحية وما دامت العربية على أصلها فأدبها ما أخرجه لنا السلف لاينقص منه ولكن يزاد عليه بما تمثله الأيام وتبتدعه الأفهام وتستأنفه القرائح وتتدبره المقول ويمحصه التحقيق وتبدعه مذاهب النقد وذلك منشأ الحاجة فى الأديب العربى إلى الآداب الأجنبية وهى حاجة إذا مس اليها فضل الاتقان وزيادة الاحسان فإنها لا تبلغ أن تجعل أدبنا حَمِيلةً على غيره لايقوم إلا به ولا يتعلق إلا عليه وإنما شأننا فى ذلك شأن أدباء الغربيين فيما أخذوه عن اليونان والعرب وغيرهم إلى أن اتجهت لهم هذه الطريقة التى هم عليها اليوم

فان كان رجال الجامعة يتوخون تلك الطريقة التي أشرنا إليها فلا عذر لهم فيما أهملوه وإلا فهم قد أعذروا من أنفسهم وهيهات يفيد من لايعرفون آداب لغتهم أن تلقى إليهم « المحاضرات عليها باعتبار علاقتها بأهل أوربا وخصوصاً بايطاليا(١) »

فهذا رأينا قدمناه لرجالنا الفضلاء « وإن تُعْتِبَ الأيام فيهم فربما »

(١) هذه العبارة من منهج الجامعة يومئذ

مقال الجريدة الثانى

الأدب العربي في الجامعة

عزيزي . . . . . الرافعي

لم تزل مقالتك « عن الأدب العربي والجامعة » التي نشرتها الجريدة، في مستقرها من الأذهان ولن تذهب هذه الفترة بين تنبيهك القائمين على ذلك الأمر وإجابتهم مقترحك فى هذه الأيام بما لك من حسن الأثر وفضل السابقة . قلت إنهم تعجلوا العمل فلم يطيبوا ولم يُنْضِجُوا لمكان العجلة من تلك الحال وعقم الأمة بالنابغين من الرجال . فهم اليوم قد طيبوا وانضجوا وفرضوا جائزتهم لمن يضع الكتاب الوافي فى أدبيات اللغة العربية وتاريخها .

ولا إخالك إلا قد هيأت مادة هذا الكتاب وأخذت فى إبرازه متثبتاً فى اعتزامك وإني لأعلم أن الزمن إلى موعدهم قصير ، وأن العمل فى اقتراحهم كثير ، وأن القلم لن يصبح من أجامهم طائراً يطير ، ولكنها أيضاً مجلة الفوز فى الزحام ، ومثار الهمة من الهمام ، وموضع الفصل بين التأخر والاقدام ، فلعلك محقق أملي فى أدبك والسلام

. . . . ابراهيم

سيدي الفاضل

أنت أعزك الله قَسِيمٌ فى المعرفة بأني لا أتكلف مالا أحسن ولا

أحسن مالا أُتقن ولا أُتقن عملاً يضيق به وقته ولا تبلغ فيه وسائله. وإن استفرغتُ له الجهد وأقمت فيه الوهَجَ المتعب وجعلت الليل والنهار عليه أنفاساً حِراراً

وهؤلاء الذين قرروا « تعميم الدعوة على الأدباء لوضع كتاب واف في أدبيات اللغة العربية وتاريخها » وجعلوا لذلك العمل إلى فِصاله سبعة أشهر ، إنما مست بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه في ضوء الجائزة . . ولو كان هذا الأمر على حكمهم لجاز أن يمضي على إرادتهم ولـكنه على الخلاف إلا أن يكون في الأدب مالا نظنه ولا نعلمه ، وفي الأدباء من لا نعرفه ولا نتوهمه ، وفي ذلك الأمر ما أحكموه وليس في الناس من يحكمه

إني إذا أغمضت عيني فتمثلت لي الـكتب هيأت لي منها خواطري، كتاباً ممتعاً في الآداب العربية يوفي على الغاية وأشفّ من الغاية ولـكني التمست ذات مرة طرفاً من أخبار الرواية والرواة عند العرب في فصل من هذا الباب فجعلت أستقصي وأتصفح وأتقصص حتى نفضت على القلم سواد خمس عشرة ليلة ولم يكن هذا البحث مما جُردت فيه رسالة أو أفردت له مقالة فما بالك بكتاب يكون هـذا بعض فصوله وفرعاً من أصوله ؟

وعندنا مباحث أخرى كمبحث التنظير والموازنة ومبحث الصناعات اللفظية وتحقيقها وتاريخها وهي المادة الخبيثة التي لم يقم لها الأدب بعد أن فشت فيه وكانت مسقط البلاء عليه وناهيك من مبحث لم يضبط

منه كتاب فى الأدبيات إلا كما يحفظ الماء من أثر السابح وإن هو ضرب فيه بيديه ورجليه . هذا إلى ما يعترض من أبواب كثيرة لابد من كتابتها بما يستوفي حق التاريخ وحق النقد وحق الأدب وذلك مَقذف الحصا والجمار، والنصَب الذى لايستخف به إلا من يقتحم على الرجال والأقدار ، والرمض الذى لايُسار فيه إلا على مثل حر النار . ثم التراجم على طريقة النقد والتمحيص وأنت خبير بأن تاريخ العظماء إذا لم يكن فى كتابته ابتسام العظمة وبشاشة الحياة وأثر الأخلاق فانما هو صور ميتة منهم وإنك اذا كتبت أن فلاناً الشاعر الكبير ولد سنة كذا وتوفي سنة كذا . . ومن شعره قوله : وقوله : وقوله : وكان الناس لا يعلقّون حساب أعمالهم على سنة ولادته ولا سنة وفاته فما عدوت أن نشرت لهم من ذلك الميت صورة ميتة أيضاً

ولعلك تذكر أيها العزيز ما بسطته فى المقالة الأولى من نمط التأليف الذى جرى عليه المعاصرون فى ذلك وكيف يجيئون بالطّم والرّم (١) ولا يَميزُون خبيثاً من طيّب وهم مع ذلك يظهرون الاستبصار فيه ويتكلفون التبجح به وقد قيل فى رجل محروم منحوس الحظ يتعاطى مثل هذا الشأو من الطمع والرغبة إنه ما رؤي أحد عشق الرزق عشقه ولا أبغضه الرزق بغضه وكذلك أرى أصحابنا وأولى لهم

ألم يكن فى الأدب إلا بعض فصول التاريخ ومختارات النظيم والنثير ثم يمسح القلم ويرسل الكتاب وفى صدره اسم صاحبه يسعل به

---

(١) مالا يقصد به الا الى الكثرة

في الناس كما يسعل المصدور ، وأنت لو تصفحت الكتاب واعتبرت بعضه ببعض لرأيته على ما احتفل فيه كورم الأنف فى غير الكريم يبلغ ما يبلغ به الغضب ثم ينجلى بكلمة الزجر والتأنيب أو صفعة للمؤاخذة والتأديب .

ولقد أستشف أن القوم إنما يريدون فى تأليف ذلك (الكتاب الوافي) هذا النوع الذي يسميه الظرفاء من أهل الصحافة «التحرير بالمقص» فمن كل كتاب فصل إلى فصل حتى تجتمع كلها فى كتاب

فان لم يكن مرماهم إلى هذا ولا إلى قريب منه فما هذا الموعد الذي ضربوه أجلاً (للمسابقة) وما بالهم تعجلوا آخراً بقدر ما أبطأوا أولاً دون أن يزنوا صواب العجلة بخطأ الإبطاء ونحن إنما أخذنا عليهم أنهم (بدؤا) بتدريس الآداب الأجنبية وحدها فإما أن يكونوا قد انحطوا فى هوى أو شالت كفة الرأي منهم أو لهم غرض يتربصون به أسبابه وذرائعه . فلو أنهم إذ أخطأوا فى الاولى أصابوا على قدر ذلك فى الثانية لكان الأمر بينهما ولخرج آخره كفّارة لأوله . أما وقد نشروا الدعوة إلى أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ووثقوا من أنفسهم بأول خاطر ظنوه صوابا وأمّلوا فى مهب الريح أول غبرة توهموها سحاباً — فقد صار لنا أن نظن أنهم لم يتبينوا مواضع النُفْرة فى ذلك النمط السخيف المبتذل فكان بعيداً عليهم أن يوافقوا مكامن الرغبة فى الممتع الممتنع

إعتبر ذلك بأنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر

التلقين فاذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة فى حكم الجامعة لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه وإلا فما بالهم لايعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس . وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الكبير . . . ؟

ثم من هم أولئك الذين سيحكمونهم فى التفضيل والتنظير والمقايسة بين الكتب الوافية التى تنتهي إليهم ؟ لاجرم أن أولى الناس بالحكم أبصرهم بالمحكوم فيه وإلا كان حكمه فى الخصومة خصومة أخرى تحتاج إلى حكم من غيره ، وليس أولئك المحكَّمون فى وزن من فرضت لهم الطاعة والتسليم على الناس كفئة القضاة فى الشرع والنظام فلا يكون ثمة دليل على كفايتهم للحكم إلا تسليم الأدباء لهم بهذه الكفاية ، واذا كان ذلك كذلك فلم تنفض ادارة الجامع يدها من قوم هم رؤساء الصناعة وظهور مناصبها العالية وألسنة الحكم فيها ثم تلتمس من ضعف الأفراد مالم تؤمله فى قوة الجماعة وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكف يهون على الرقاب ؟

هذه أصلحك الله بعض أسباب الفساد فى ذلك الاقتراح فان كانت فيه جهة صالحة لم تنكشف لي فذلك لأن هذا الأمر عندي أمر ليلٍ مشتبه مظلم وما أحتسبك الآن إلا وقد ضنت (بسبعة أشهر) من عمري وعرفت أني سأكون من قراء الكتاب ومنتقديه ان شاء الله لأني وان كنت أحمل القلم غير أني لم أعوّده أن يكون ناسخاً يتمسك بحروف

الكلام ، ويمشى فى الكتاب مشية الضرير لايستفيد من ضوء ولا يستضيء من ظلام ، فأما وقد أرادوا القلم على ما أرادوه فالسلام على الأقلام ،

الدكتور طه حسين وما يقرره

تفضل الأستاذ الدكتور طه حسين بالقاء محاضرته عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي وانتهى منها إلى نتيجتين

١ — أن لاتأثير للوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي والجاهلي منه على الأخص .

٢ — أن ما وجد من الشعر مشتملاً على مبادىء للوثنية أواليهودية أو النصرانية إنما هو مدسوس على من نسب اليهم وإنه لم يكن موجوداً فى عصرهم .

وأرجع هاتين النتيجتين إلى ما يأتى : —

١ — إن الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادىء هذه الديانات مما يخالف سنن الاسلام ومبادئه ومحوه جميعه

٢ — إن أهل هذه الملل بعد سكون حركة الفتوحات واستتباب السلم وتيقظ الحركة الفكرية فى ميدان الأدب والعلم قد دفعهم تعصبهم لشعراء ملتهم السابقين إلى التقول عليهم بما لم يقولوه ونسبة أشعار اليهم لم تكن من نسج بيانهم ولا هى من منتجات عقولهم

وإننا نستميح الأستاذ الفاضل ونتقدم اليه بحق حرمة حرية البحث

أن يتفضل علينا بالاجابة على ما تلجلج فى صدورنا من أثر ما قرره حضرته ويفيدنا بما وسعه علمه الغزير عن المسائل الآتية :

١ — قرر حضرته أن لا أثر للوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربى لأن العرب بعد الاسلام محوا جميع الاشعار التى تشتمل على مبادىء هذه الديانات أو على مبادىء تختلف مع الدين الاسلامى وتناقض أصوله وهذه تهمة لايعزب عن فطنته أنها على جانب من الخطورة لايصح السكوت عليها على أنهـا من مقررات العلم المسلم بها لأن الأبحاث العلمية ليست أساسها المشاعر وقيام نزعات وميول خاصة عند من يقررها وإنمـا أساسها دائما اليقين الذى يطمئن إليه الباحث فى بحثه ويقتنع به كل من يدلي اليه بهذا البحث

وإذا كان الأمر كذلك فليتفضل علينا الأستاذ ويقل لنا من من ملوك المسلمين وحكامهم هو الذى أمر بوأد الشعر الوثنى واليهودي والنصراني ومحوه ؟ ومن من أعوان هؤلاء الحكام الذى تولى ذلك ؟ وكيف كانت طريقة المحو ؟ وهل كتب لها النجاح فى كل بلاد الاسلام ؟ وهل لم تجد لها فى البلاد الأخرى ملجأ تلجأ إليه ؟

وهنا نستلفت حضرته إلى أن الشعر كان يتناقل بالرواية وتعيه صدور الحفاظ وإن هؤلاء الحفاظ كانوا على ما وصل اليه علمنا فى أكثرية ممن يعرفون القراءة والكتابة وأنه إذا كان لحاكم أيا كان أن يمحو ما حوته بطون الكتب فكيف السبيل له أن يذهب بما وعته صدور الحفاظ من أهل هاته الملل وأن يعقل ألسنتهم عن أن ينقلوا إلى أهل

ملتهم من بينهم ومعاشريهم ومخالطيهم وأصدقائهم وإلى غيرهم ممن لهم ضلع معهم من صداقة أو صلة عامية ؟

وهل بعد هذا يمكننا أن نسلم بأنه لم يتسرب الينا من شعر هاته الملل شيء أصلاً ؟

وهل بعد هذا يمكننا أن نسلم فى راحة من الضمير أن ما نسب إلى شعراء هاته الملل من الشعر المشتمل على مبادىء دياناتهم واعتقاداتهم ليس هو من شعرهم وانه مافق كله ولا يشتمل على أي مأثور من أقوالهم ؟

واذا تجوزنا وقلنا باحتمال الشك فيما نقل الينا من الاشعار المنسوبة إلى هؤلاء القوم فهل لا يحسن بالاستاذ أن يبين لنا مميزات الشعر الجاهلى والأموي والعباسى بحيث يمكن التفريق بين كل منهم فى كل فن من فنون الشعر ؟

وهل له أن يبين لنا أن هاته الفروق هى من الاصول الثابتة التى لم يخرج عليها أحد من أهل تلك العصور ؟

وهل لم يكن من بينهم (على ما نعهده فى رجال الأدب من معاصرينا) من يميل إلى الغريب والمهجور ويتعمد التعقيد فى العبارة أو يميل إلى الابتذال وأنه لم يكن من بينهم المتعصب إلى القديم والثائر عليهم المتعشق لكل جديد ؟

وهل يحسن بالاستاذ أن يبين لنا ما طباع كل شاعر ممن نسب اليهم هذا الشعر ، كالاعشى وزهير وعبيد بن الأبرص وغيرهم من أصحاب المعلقات وشعراء الجاهلية ؟

وهل له أن يتنبأ لنا عما قام بنفسه وما كان يتملكه من الاحساس

طول حياته في غضبه وحامه وزهده وتفاخره وسرائه وضرائه وما تكيفت به نفسيته في حله وترحاله وصحته ومرضه وجده ومجونه وعبثه ولهوه وفرحه وحزنه وعبادته وعمله وشبابه وهرمه ؟

وأن يبين لنا وجه استحالة أن يصدر منه ما نسب اليه من الشعر ؟

أظن — وليعذرني الاستاذ في ذلك — أن الوصول الى شيء من هـذا الذي يبناه ليس هو بالشيء الهين إن لم يكن من المستحيل وبعبارة أخرى انه يستحيل الجزم بحال من الاحوال بأنه لم يصدر من واحد من هؤلاء أي شعر مما هو منسوب اليه الآن

واذا كان الامر كذلك كان من المستحيل أن يقرر بطريقة علمية وعلى وجه الجزم واليقين بعدم تسرب شعر أهل هاته الديانات الينا وأن الموجود منه بين أيدينا متقول على أصحابه

وهناك دليل آخر نسوقه إلى حضرته وهو أن ديناً يحث على نشر العلم ويزهو نبيه بقوله : أنا مدينة العلم يستحيل عقلا أن يعمل على دثر آثار شعراء هاته الديانات لمجرد مخالفة مبادئهم لمبادئه فقد جاء في الكتاب العزيز : (لكم دينكم ولي دين) كما دلت الآثار على أن المسلمين كانوا على فهم تام لهذا المبدأ إذ بينما يحرم دينهم الخمر ويلعن رسولهم شاربها وحاملها وساقيها تراهم قد وسعت صدورهم ما ضمنه الشعراء عنها في أشعارهم بل زاد بهم التسامح حتى أن زعيم المتصوفة والكثير منهم أتوا بخمريات في أشعارهم في حين أن بين هؤلاء من لامطعن عليهم في دينه ولا مطعن في أخذه بمبدأ تحليل الخمر

والأبلغ من ذلك تلك القصائد الكثيرة التي تضمنتها مجموعات الادب الكبرى والطبقات الوافية من كتبه المعتبرة كالأغاني والامالي والعقد الفريد وغيرها مما هو صريح في مسائل الملامسة والغزل وما ورد في المساحقة وغيرها من مسائل الاختلاط الشهواني والتعبير عن وسائل هذا بالفاظ هي غاية في الصراحة وبالاخص في خروجها على آداب الدين ومبادئه وهي مع ذلك لم يمتنع تداولها ولا أمكن توقيف تيار تسربها من قائليها الينا مع طول الفترة التي تفصل بيننا وبينهم .

وسواء قلنا بان هذه الاشعار وصلت الينا بسبب تسامح المسلمين أو بسبب استحالة عملية الوأد والمحو فالنتيجة المنطقية لذلك واحدة وهي أنه لا يمكن التسليم بحال من الاحوال بما أراد حضرته أن يصل اليه وهو أن جميع الشعر المنسوب إلى شعراء الملل غير الاسلامية في الجاهلية على الأخص هو شعر مدخول عليهم مدسوس بحكم التعصب ونُعرة الانتصار لأهل الملة .

هذا وإن مجرد القول بعدم وجود شعر لاهل الملل غير الاسلامية من شعراء الجاهلية وعصور الخلفاء الراشدين ودولتي بني أمية وبني العباس هو قول يناقضه الواقع ويكفينا ما حكاه الاستاذ الفاضل في محاضرته بان هناك مجموعة كبيرة اسمها « شعراء النصرانية » وأن هناك طائفة أخرى منسوبة إلى شعراء أهل الملل والديانات الاخرى إذ الاصل في الناس اذا ما رووا أن يحكوا الصدق ولا يصح نسبة الكذب اليهم

لغير علة ظاهرة . وكل رواية لا تناقض العقل ولا تتنافى مع المشهود عن أخلاق من نسبت اليه والمتعارف من عاداته وطباعه ووسطه الذى نشأ فيه وبيئته التى تربى فى أحضانها لا يمكن ولا يصح أن يسلم بالشك فيها كما انه لا يتفق مع كرامة العلم واعتلاء عرش الاستاذية أن يتبرع الاستاذ بسرد التهم جزافاً إلى طوائف وجماعات بغير حجة قائمة عليهم تبعث اليقين إلى كل من عرضت عليه من أهل الحصافة ومن باب أولى إن الامانة تقضى بالتريث فى الحكم بالادانة فى أية تهمة لان من ألزم اللازوميات لمبادىء العلم رجوعها إلى قضايا يقينية والا فقدت قيمتها لان ما يرتكن على قضايا تخمينية أو تصورية انما يرتكن إلى أساس لا هو بالمأمون ولا هو محل للثقة والاعتبار .

واذا كانت هذه هي المبادىء الأولية المسلم بها فى كل بحث علمى والواجب اتباعها عند الحكم على أية مسألة من المسائل فان اتهام العرب من المسلمين أو حكام دولهم بانهم محوا الشعر المشتمل على مبادىء لأهل الوثنية واليهودية والنصرانية تختلف عن مبادىء الدين الاسلامى هو قول لا يرتكن إلى شىء من الحقيقة اليقينية . وكان أيضاً القول بتلفيق كل الموجود من شعر هؤلاء القوم مما هو منسوب إلى العصر الجاهلى أو الأموى أو العباسي هو الآخر قول لم يقم الدليل على صحته فضلاً عن مخالفته لمقتضى المعقول الذى يجزم باستحالة منع تسرب شعر هؤلاء القوم .

وأظننى وقد وصلت إلى عكس ما ذهب اليه الاستاذ ولم يطاوعني

لاذمتى ولا ضميرى على مشايعته فى حكمه القاسى الذى حكمه قد بينت لحضرته مثار الشك فى كل ما قرره

عباس فضلى
القاضى بالمحاكم الاهلية

قلنا وقد نشرنا هـذا المقال بحروفه لانه كان سبباً فى أن الدكتور طه حسين أسقط من كتابه ما كان قرره فى الجامعة مما أشار اليه صاحب المقال حتى لتستطيع أن تضع يدك على مكان التمزيق من تلك المرقعة . . . ولم يردّ طه على هذا المقال ولكن ردت الطاء من طه . . . فكتب لاحد تلاميذه أو كتب أحد تلاميذه وهو وتلميذه كما قيل فى حمار الأخطل :
هو وذيل حماره سواء



التاريخ

لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم

لا أريد أن أناقش أحداً ولا أن أسمى أشخاصاً ولا أن أحمل على باحث أديب بتجهيل . وانما ألمح من خلال الكتابات التي يجود بها بعض أدباء الوقت منزعاً ، إن كان في حد ذاته محموداً فقد ينقلب في إساءة استعماله مذموماً ويصير ضلالاً .

ولع بعض الأدباء [1] باتهام التاريخ الاسلامى الذى لدينا وسلوك طريقة فى التعليل لم يسلكها الأولون ، ارتياداً لوجوه جديدة وأسباب للحوادث لم تكن معروفة بحيث يقال : إنهم كشفوا حقائق تاريخية لم يعرفها غيرهم أو عرفوا أسراراً أعماها التاريخ الديني أو عمتها السياسة وأهواؤها على الجمهور ويسمون ذلك تمحيصاً وتحقيقاً ، ويظنون أن التمحيص والتحقيق هما بمجرد المخالفة والخروج عما عليه الرأي العام . والحقيقة أنه ان كان مقصدهم مجرد المخالفة وتغيير الأسلوب لعدم الصبر على طعام واحد فقد أصابوا الغرض . ولكن ان كانوا يزعمون ان هذه التعليلات الغريبة هي الأصل فى تلك الوقائع فليسمحوا لنا أن نستعفيهم من التصديق . لأننا نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية وملاحظة ماسبق وما لحق واستنباط النتائج من المقدمات ولا نعرفه تخرصات

(١) يشير الأمير الى الدكتور طه حسين

وافتراضات وأبنية على غير أساس . فان كان هذا هو التمحيص التاريخى الذى يتوخى بعض العصريين أن يقلد به الافرنج فلا كان هذا التمحيص الذى هو عبارة عن قلب الحقائق لأجل الاتيان بالبدع . ويجلُّ علماء الافرنج عن أن يكون تمحيصهم من هذا النمط . وقد خلط منهم من خلط فى معرض التمحيص ولكن نبه المدققون منهم على أنهم خلطوا

فعند ما يقوم واحد فيذهب الى ان تاريخ حرب اليمامة محاط بالغموض وأن مقاتلة أبى بكر لأهل الردّة لم تكن من أجل إقامة الدين بل من أجل تأسيس الملك . وما أشبه ذلك من التوجيهات التى لم يقم عليها أدنى دليل نعلم أنه حاول أن ينهج مناهج المحصين فظن التمحيص مجرد الخروج عن الإجماع ولو كان الاجماع صحيحاً فلم يصب المرمى

وعند ما يقوم آخر فيدعى ان السلف فى صدر الاسلام وضعوا « سانسورا » على الشعر الجاهلى المُشْرَبِ مبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية نعلم أن هذه الدعوى مبنية على الافتراض والتخيل وأنها لا تستند على دليل بل الواقع يناقضها من كل الجهات

أعجبتنى جداً عبارة الذى رد على هذه الفئة [1] فقال لهم « مَنْ مِنْ ملوك المسلمين وحكامهم أمر بوأْد الشعر الوثنى واليهودى والنصرانى ومحوه ؟ ومَن مِن أعوان هؤلاء الحكام تولى ذلك ؟ وكيف كانت طريقة المحو ؟ وهل كتب لها النجاح فى كل بلاد الاسلام ؟ الخ »

والحقيقة أنه ليس لهم من جواب على هذا السؤال . ولا حيلة لهم

(١) يشير الى مقالة الاستاذ عباس فضلى وقد مرت

فى التخلص منه الا بايراد أدلة واهية لا تدفع شيئاً من حقيقة حرية الرواية فى ذلك العصر ومن كون بابها بقى مفتوحاً على مصراعيه . ولا تنفى أن عصر الصحابة لم يعرف «السانسور» ولا مراقبة الرواية . ولا كمّ الافواه، ولا شيئاً من أوضاع « ديوان التفتيش » .

واذا تأملت فى كلام هذه الفرقة رأيتهم يشيرون من طرف خفي الى نزول درجة الحضارة التى كان عليها الصحابة ، وإن شرائعهم وقوانينهم إنما كانت شرائع قوم فى طفولة المدنية ، وإنها « لا تمس الحياة إلا قليلا » ، وما أشبه ذلك . ثم ينسون أن مراقبة الكتابات والروايات إن هى إلا من أوضاع الهيئات الاجتماعية المتمدينة التى استبحر فيها العمران وتأثّل الملك وأن « السانسور » لا يتأتى مع بداوة المجتمع ولا يعقل وجوده فى أيام السذاجة كالتي عاش فيها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم .

فمراقبة الكتب والخطب كانت تقع فى رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القياصرة . وفى أيام سلطة البابوات وفى عهد ملوك فاتحين كلويس الرابع عشر وقد بالغ فيها نابليون الأول ثم نابليون الثالث . وقد وقعت من أيام العرب فى عهد العباسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم ، أو الملوك العرب الذين اتخذوا أطوار الأعاجم . فاما القول بأنها كانت فى عهد الخلفاء الراشدين وفى أيام الصحابة فمحض تحكم ومكابرة

نعم كان هؤلاء الناس من شديدى التحمس بالدين الجديد الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم ولكن حماستهم هذه لم تقلع ما فى قلوبهم،

من حب الحرية التي نشأوا عليها في الجاهلية والتي لا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمة بلغت شأو العرب فيها . ومن قال « إن العرب أعرق الأمم في الحرية » فغير مبالغ . لهذا تجدهم رووا بألسنتهم وكتبوا بأقلامهم جميع مطاعن المشركين في النبي (صلى الله عليه وسلم) وصحبه ولم يخفوا منها قليلاً ولا كثيراً . ونقلوا الشبه والاعتراضات التي كانت تقع على الرسول ورهطه . وذكروا كثيراً مما كان يرد به بعض العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف أن اثنين تخاصما إليه فحكم لاحدهما فقال المحكوم عليه : هذا حكم لم يُرَدْ به وجه الله . فقال عليه الصلاة والسلام : « أوذى موسى من قبلي بأكثر من هذا » . وغير ذلك مما هو مستفيض في كتب السيرة النبوية وأخبار صدر الاسلام . ومما رواه الرواة المسلمون وحرره الكتبة المسلمون وأقرأه العلماء المسلمون ولم يكن عندهم حرج في نقل تلك الاحاديث وابرازها كما جاءت ، لانهم كانوا على بينة من دينهم الذي دانوا به ، وكانت قلوبهم مطمئنة بالايمان ، وكانت سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) معلومة عندهم بدقائقها فلم يكونوا يحتاجون فيها إلى « السانسور » دَرْءاً للشبهات عنها وخوفا من أن يُفضي تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الاسلام التي لم تكن منذ جاء بها صاحبها (صلى الله عليه وسلم) إلى اليوم على شفا جُرُفٍ هار ، إن الاسلام مولود رزق الصحة ووثاقة التركيب منذ ولادته

نعم في هاتيك الأيام وما يليها كانوا يرون أهاجي بعض الشعراء

للصحابة والانصار و « لبني النجار » وفي تلك الأيام كان يعاتب الرسول ويقال له :

ما كان ضرك لو عفوت فربما   مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحنَقُ

فى أيام السلف كان ينادي الأخطل :

ولستُ بصائم رمضانَ عمري   ولستُ بآكل لحم الأضاحي
ولستُ بقائل ما عشتُ يوماً   قبيل الصبح « حيَّ على الفلاح »

كان يقول هذا ويدخل على الخلفاء ويجيزونه الجوائز السنية . وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم ويعلنونه فى أشعارهم التى كان يرويها المسلمون ويقيدونها فى دفاترهم . ولما جاء الملكَ النعمانَ بنَ المنذر رجلٌ « نصراني فى اليوم الذى كان عنده يوم بؤس وأمر النعمان بقتله استماحه النصراني مهلة أن يذهب ويودع أهله فأذن له على أن يقدم كفيلا يحل محله في القتل اذا هو لم يرجع فرجع وتعجب النعمان من وفائه فسأله ماحملك على هذا الوفاء ؟ فأجابه النصراني : حماني ديني . فقال له النعمان : وما دينك ؟ قال له : النصرانية . وتنصر النعمان بعد هذه . فكانت هذه الرواية مما حرره المسلمون ولم يغمطوا النصرانية حقها . ولا غمطوا اليهودية أيضاً حقها . وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموأل وكان السموأل يهوديا وما زال السموأل مَضرباً للأمثال فى علو النفس وكرم السجية الى يومنا هذا حتى قال شوقي — شاعر العصر — منذ أيام قلائل :

كأنّ من السموأل فيه شيئا   فكل جهاته كرمٌ وخُلُقُ

فكيف يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنق كل صوت غير صوتهم ومحوَ آثار النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب ؟

ثم ان شعر شعراء النصرانية فى الجاهلية يملأ الدواوين . وما منهم الا من حرص علماء الاسلام على التنبيه أنه كان نصرانياً . وقد نقلوا خطب قس بن ساعدة الذى كان مطرانا . ونقلوا ثناء النبي (صلى الله عليه وسلم) عليه

وأما كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع فى بيروت موضوعا وأن الشعراء المروية أشعارهم فيه لم يكونوا نصارى بل جعلهم صاحب الديوان نصارى وهم جاهليون لاغير فمن يقول هذا ؟ ومن يصل به المراء إلى إنكار أن أكثر اولئك الشعراء كانوا نصارى ؟ غاية ما يقال إن بعض اولئك الشعراء لم تثبت نصرانيتهم . وهذا لا ينفي أن شعراء كثيرين مثل العِبَادي والأخطل والقطامي كانوا نصارى مجمعاً على نصرانيتهم . وأن المسلمين نقلوا أشعارهم كما هي ولم يحذفوا منها شيئاً . وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم وكان جرير يقول

قال الأُخيطل أن رأى راياتهم   يامار سرجس لانريد قتالا

فالقول بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه لم يبقوا على أي نزعة تخالف دين الاسلام وأنهم طووا شعر النصارى واليهود والمشركين محضُ تحكم لم يقم عليه أدنى دليل بل قام الدليل على حرية الاسلام وتساهله في الدين

ونقل رواة المسلمين ليس شعر النصارى واليهود المشركين فقط بل أهاجي كثيرة قالها هؤلاء في النبي وأصحابه وأنصاره

يا اخواننا إنه في صدر الاسلام كانوا يتناقلون مثل قوله :

لعبت هاشم بالدين وما نبأٌ جاء ولا وحيٌ نزَلْ
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزعَ الخزرجِ من وقع الأسَلْ (١)

روى هذا المسلمون وما زالوا يروونه ، وفي زمان بني أمية كان العهد بسذاجة الجاهلية قريباً فكانت الحرية في القول تامة والألسنة منطلقة ومما عُزِيَ إلى يزيد يوم جيء برأس الحسين رضي الله عنه:

مذ أقبلت تلك الرؤوس وأشرقت تلك الشموس على رُبَى جيرونِ
صاح الغراب فقلت صح أو لا تصح إني قضيت من النبي ديوني

ثم عُزِي إلى الوليد أنه قال وقد سكر ومزق القرآن :

إذا ما جئتَ ربك يوم حشرٍ فقل يا رب مزقني الوليد

نعم رويت هذه الاشعار وأمثالها مع لعن قائليها ولكنها رويت وقيدت في التواريخ ولم تمنع روايتها ، ولا كان قلم مراقبة ولا ديوان تفتيش ولا كتب جائزة ولا كتب ممنوعة

وأما عدم حرمة النبي والصحابة للشعر وقولهم إن روايته ضلال فهذا زعم باطل مخالف للإجماع ، فقد روى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) الشعر من قصيدة لابن الزبعرى شاعر مشركي قريش وقد اسلم بعد واعتذر الى النبي (ص)

الشعر [1] واستحسنه وقال « إن من الشعر لحكمة » ورواه عمر وعلي وسائر الصحابة وتناشدوه وطربوا له وكان فكاهة مجالسهم . وقصة كعب بن زهير مع رسول الله وانشاده إياه « بانت سُعاد » واهتزاز النبي لهذه القصيدة وانعامه على كعب ببُردته الشريفة كل ذلك لايحتاج إلى بيان . ولكن الشعر كسائر الأشياء إذا أسيء استعماله انقلب إلى الضرر ، وإذا كان وقع من عمر رضى الله عنه — وهو من أبصر الناس بنقد الشعر وأشدهم اهتزازاً لجيده — تضييق على الشعراء فيكون فى المواطن التى أسيء فيها استعمال الشعر وصار باباً للمشاحنات والفتن ، وكما أن للخليفة طبيعة ينفش بها إلى الأدب ويعجب بسحر البيان فان عليه واجباً هو حماية الأعراض وحفظ السلام

وأما إزراء الشعر بالعلماء وما قاله بعض هؤلاء فى الإعراض عنه والتعوذ منه فهو من باب التورُّع من بعض الفقهاء . وذلك لأنهم كانوا يرون فيه مبالغة وغلوا وعبثاً فاشفقوا من أن يؤثر الاعتماد عليه فى أخلاق النَّشيء ويصرفهم عن العبادة . ولكن هذا الزهد فى الشعر لم يحملهم ولاحمل الخلفاء والسلاطين على منع قرض الشعر وروايته والتأدب به ، وذلك كما أن نصرانية الأخطل والقطامى وأمثالهما لم تمنع متأدبي الاسلام من رواية أشعارهم وحفظها والتأدب بها . وإن وثنية أكثر شعراء الجاهلية لم تحل دون انطباع طلاب الفصاحة من المسلمين بأساليبهم ونسجهم على

(١) كان ينشد الشعر فلايقيم وزنه وقد بينا حكمة ذلك فى كتابنا « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » ولكنه كان يستنشد الشعر كثيراً (الرافعى)

منوالهم ومَنْ مِن العلماء والمؤرخين المحققين يقدر أن يقول إن أدباء العرب بعد الاسلام رغبوا عن شعر الجاهلية وأهملوا روايته من اجل أن قائليه كانوا مشركين ؟ أو أن المسلمين طووا كلام قس بن ساعدة لانه كان نصرانياً ؟ او لم يعجبوا بقصيدة «إذا المرء لم يَدنس من اللؤم عرضه» لأن صاحبها كان يهودياً ؟ مَن يارب يقول هذا إلا الذين يبنون التاريخ على الاهوا والخيالات ؟

وقع التشدد فى مثل هذه الأمور فى أيام الدولة العباسية . ليعد العهد بسذاجة الدور الاول ، وميل هذه الدولة إلى مناحي الاعاجم ، وفشو الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية فى دار السلام ، مما أخاف الخلفاء ووزراءهم على العقيدة الدينية وحفزهم على الاحتياط لعدم انحلالها وهذا أشبه بما كان فى أوربة فى القرون الوسطى لا بل فى القرون الاخيرة لا بل بما لا تزال بقاياه إلى هذه الآونة وبرغم ما كان من هذا الاحتياط فى أيام العباسيين ومَنْ فى عصرهم من ملوك الاسلام فقد كان الناس يروون أهاجيهم ومثالبهم ويتناشدون المطاعن الفاحشة فى أعراضهم حتى فى مجالس أقرب الناس إليهم ، وقد قال المأمون للقاضي يحي بن أكثم من ذا الذي يقول :

قاضٍ يرى الحد فى الزناء ولا يرى على من يلوط من باس ؟

يشير إلى أن هذا البيت قيل فيه ، فاجابه : هو الذى يقول يا أمير المؤمنين :

لا أرى الجور ينقضي وعلى الأمة والٍ من آل عباس

وقد شاعت أقاويل التعطيل والالحاد فى هاتيك الايام برغم الضبط والمراقبة ودونت أقوال الملحدين والدهريين

ورويت أشعار المعري ومن في سبيله حتى فيما يخالف الدين الاسلامى مثل قوله :

وقوم أتوا من أقاصي البلاد　　لرمي الجمار ولثم الحَجَر

وكثير غير هذا من أقواله . ورسالة الغفران وصلت إلينا ولولا أنها تدوولت بالنسخ من قراب الف سنة ما وصلت الينا . ولو كان هناك « سانسور » ما أبقى على رسالة الغفران

وتجادل نصراني فى الدين مع أحد بنى العباس ونال النصراني من العقيدة الاسلامية . وبلغ المأمون ذلك فقال مامعناه : ماكان أغنى ابن عمنا عن تعريض دينه للطعن

والكتاب الذي كتبه أبو بكر الخوارزمي لشيعة نيسابور أشهر من « قفا نبك » وليس بكتاب خاص أو رسالة مكتومة بل هو خطاب لأهل بلدة كانت من أشهر البلاد . وفيه من السب لمعاوية ما فيه ومن النعوت لخلفاء بني أمية وبني العباس والخوض فى أعراضهم مالا يرد فى أقذع الجرائد . وهو الذي يقول عن الرشيد « هارون بن الخيزران » وعن المتوكل « المتوكل على الشيطان لا على الرحمن » وهلم جرّا . وكان أبو بكر الخوارزمى فى زمن بنى العباس وكان إذا قال أثر الناس قوله وتدارسوه

ولا أنفى — مع ذلك — أن الدولة الإسلامية فى القرون التالية

كانت تحجر أحيـانًا على الفلسفة التي يراد منها التعطيل أو الإلحاد . ويسمون الزندقة . فأما ازالة شعر النصارى أو اليهود أو المشركين ومنع روايته فشيء لم يقع لا في زمن الصحابة ولا في أيام بنى أمية ولا أيام بنى العباس. وقد ألف النصارى فى تعظيم دينهم فى زمان بنى العباس كتبًا كثيرة وتواريخ أيدوا بها مذهبهم وما اعترضهم أحد ولا منعت الدولة كتبهم .

وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر بان لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان وأجلَى عمرُ النصارى واليهود عنها فلم يكن ذلك لينقص شيئًا من حرية النصارى واليهود فى دينهم فى سائر بلاد الاسلام بل من حرية الصابئة والمجوس . وما قال مؤرخ غربي ولا شرقي إن الاسلام أكره أحداً في الدين أو منع كتب الملل الأخرى

فيا إخواننا إن التاريخ لا يكون بالظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا . وهذا نتف من كثير. ووشل من بحر ولو كانت بيدنا الآن كتب لأحلناكم على شواهد لا تنتهي . فان كنتم مع هذا تصرون على المخالفة لأجل المخالفة فليس هذا مما يزيد الثقة بعلمكم بل هو مما ينقصها وبدلاً من أن يضع العلم على قواعد اليقين يضعه على قواعد أوهى من بيت العنكبوت . . . .

رومه فى ٨ مارس سنة ١٩٢٦

شكيب أرسلان

اسلوب طه حسين

لم ينفرد الأستاذ طه حسين بانتحال الجديد والتجديد ولا هو أول من زعم ذلك أو حامىَ عنه أو كابَرَ عليه فقد سبقه آخرون ؛ لكنه أول من اجترأ على الأدب العربي بالمسخ والتكلف وقال فيه بالرأي الأحمق وأداره على الوهم البعيد وتناوله من حيث يأخذه علماً ليتركه جهلاً وهو يحسب أ آخذُهُ جهلا وتاركه علماً ؛ ثم كان أول من استعمل الركاكة فى أسلوب التكرار كأنه يمضغ الكلام مضغاً فنزل به إلى أحط منازله وابتلى العربية منه بالمكروه الذى لاصبر فيه والمرض الذى لاعلاج منه وصار ذلك له طبعاً بالإدمان عليه فلا يأتي بالجملة الواحدة إلا انتزع منها الانتزاعات المختلفة ودار بها أو دارت به تعسفاً وضعفاً وإخلالا بشروط الفصاحة وقوانين العربية . والآفة الكبرى أنه كان يحتسب ذلك إبداعاً منه فى الأسلوب وإحكاما فى السبك وطريقة بين المنطق والبلاغة ؟

وإن من عجز أن يعلوَ لا يعجز أن يسفل بيد أنا لم نجد ولم نعرف غير هذا الأستاذ أحداً يرضى لنفسه أن يتمدح بالعيب ويتحسن بالقبح ويرفع المنازعة مما لانزاع إلا فيه فكان يزعم أنه لاينساغ لأديب أن يرد عليه هذه الطريقة وأنه هو لايحصي من قلدوه فيها حتى رميناه فى جريدة السياسة بهذه الكلمة التى تراها فجعل من بعدها يتحفظ على نفسه ويتوقى التكرار بجهده . وقد أثبتنا الكلمة لأنها ستأتى الإشارة إليها ثم لأنها

مما يحسن أن يحفظ للتاريخ ليعرف من بعدنا كيف كان « جديد » من قبلهم . . . وترى الكلمة على طريقة السؤال والمداراة وفى وجهٍ غير النقد أو التصريح لأن الأستاذ كان يتولى « صحيفة الأدب » فى جريدة السياسة الغراء ويقوم على كل ما ينشر فيها فكان لا يجيز إلا ما أراد نشره أو وقع من نفسه موقعاً وليس مع رأيه فى ذلك رأي ألبتة فاحتلنا عليه بتوجيه الخطاب وجهةً لا ينفر منها إن لم يأنس إليها ولا ينكرها إن لم يقرها وجازت عليه الحيلة فوقع فيها ثم فطن لها من بعدُ نبهه صديق كنا حكيناها له فأسرّها فى نفسه

إلى الأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين

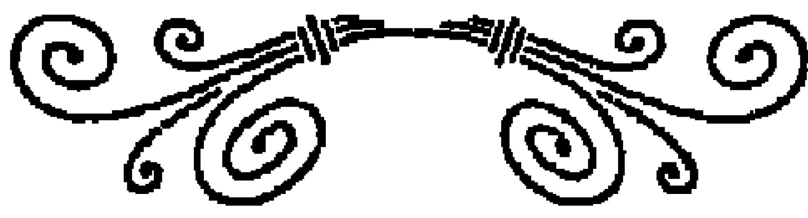
عرفنا أنك تدعو إلى نمط جديد فى الكتابة تنتقل به أساليب الإنشاء أو تتغير به رسوم هذه الأساليب أو تَعْفُو طرائق هذه الرسوم وأن هذا مما تبعث عليه سنّة التطور لأنه فصل ما بين القديم والحديث ثم هو هو الذوق الأدبي الجديد الذى تزعمه والذى يختلج إليه الطبع فى هذا الزمن وتقتضيه ضرورة العلم والاتساع فيه ، والأدب والتحقق به ، واللغة والرغبة في إحيائها .

وقد كشف لنا الأستاذ الفاضل ومن يجاهدون فى سبيله ويكتبون على طريقته أو يحتذونها — عن حقيقة ذلك النمط وعرضوا أمثلته وحققوا معنى مصاحبة الطبع ومفارقة التكلف فى هذه اللغة الفصحى التى لا يولد أحد فيها ولا ينشأ أحد عليها . . . . وبينوا كيف يكون الكاتب حضَرِياً فى رأيهم وكيف يتسمّح لهذا الذوق ويترقق فيه ،

ويتظرف به ، وكل ذلك بما كتبوا ويكتبون من هذه المقالات السائغة اللينة الحلوة . . . التي تسرع في تلاوتها إلى الطبع بأشد مما تسرع كتابتها إلى المطبعة ، غير أني حفظك الله رجل قد جعل الله فيما جعل من محنتي وبلائي أني دائب على الاستقراء لهذه اللغة والتتبع لأساليب الكلام فيها مما يسمح أو يلتوي ومما يأبى أو ينقاد ومما يتسهل ويتوعر ، ومما يؤمن به عصر ويكفر به عصر آخر . لأن فلسفة ذلك باب من أبواب كتاب أضعه . ولكني في كل ما قرأت من بدء اتصال الرواية بالعرب إلى اليوم لم أُصب مثل هذا الأسلوب الذي تكتب به كقولك في صدر قصة المعلمين التي نشرتها السياسة اليوم « نعم قصة المعلمين . فللمعلمين قصة وللمعلمين قضية . وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة وألا تكون للمعلمين قضية لأننا نربأ بمقام المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية ولكن أراد الله ولا مرد لما أراد الله أن يتورط المعلمون في قصة وأن يتورط المعلمون في قضية . ليست قضيتهم أمام المحاكم وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم وليست قصتهم مفزعة مُهامة (كذا كذا) وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة » فهذه عشرة أسطر صغيرة[1] دار (المعلمون) فيها عدد أيام الحسوم... وحكيت (القصة) ست مرات وكان (للقضية) ست جلسات غير ما هناك من مفزعة ومهلعة قد أفزعت وأهلعت مرتين وغير ما بقي مما

(١) بأسطر الجريدة

هو ظاهر بنفسه. ولا ريب أن الاستاذ إما أن يكون قد نحا بهذا نحواً لا نعرفه وقصد إلى وجه لم نتبينه فهو يدلنا عليه لنُجربه فيما أجرينا من أساليب البلاغة ونؤرخ له فى الذوق الجديد ، وإما أن يكون عند ظننا به فى اعتبار هذه الكلمات رقى وطلاسم للتسخير بقوتها وروحانيتها . . . فاذا قرأ المعلمون هذه المقالة عشر مرات انحلت المشكلة وجاءهم الرزق وهم نائمون ولكن يبقى يا سيدى أن تختم الكلام بعد هذه الهمهمة والغمغمة بقولك الوحَى الوحَى العجَل العَجَل الساعة الساعة . . . والسلام



القنبلة الاولى

ولما أهدينا إلى جريدة السياسة كتابنا « رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب » كتب عنه الدكتور طه حسين فى صحيفة الأدب — بعد مجلس كان لنا معه عند رئيس التحرير أغضبناه فيه بقولة الحق — فما زاد فى كتابته على المماحكة والسفه وما عُرِف به من التحامل وزعمه أنه لم يفهم الكتاب وهذا الزعم خَلَّة قديمة فيه لايبالي معها أن يُبَاهِتَ بها نفسه ويُزري على عقله ورأيه فقد كتب فى سنة ١٩١٢ فى (الجريدة) نقداً لكتابنا (حديث القمر) كان كله دائراً على أنه لم يفهم من الكتاب شيئاً ، ولما جرى يومئذ فى كلامه ذكر الجزء الأول من كتابنا (تاريخ آداب العرب) قال فيه « هذا الكتاب الذى نُشهد الله على أننا لم نفهمه أيضاً » ثم جاء هو نفسه فى سنة ١٩٢٦ نخص هذا الجزء الذى « أشهد الله على أنه لم يفهمه » بأجمل الثناء ونوّه به احسن تنويه فى كتابه « الشعر الجاهلي » فتأمل واعجب

وقد رددنا فى السياسة على نقده للرسائل بهذا الفصل وهو أول ما نشرته السياسة نقداً صريحاً على الأستاذ الفاضل وكانت قبل ذلك فى يده كالقلعة المحصنة تخرج منها القذائف ولا تدخل إليها ...

رسائل الاحزان

فى فلسفة الجمال والحب

إلى الأستاذ الفهامة الدكتور طه حسين

يسلم عليك المتنبي ويقول لك : —

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ولقد رووا أن كيسان مستملي أبى عبيدة كان يكتب غير ما يسمع ويقرأ غير ما يكتب ويفهم غير ما يقرأ وكنت أحسب الخبر موضوعا يُتَملّح به للظرف والنكتة أو معدولاً به عن وجهه إلى ناحية المبالغة ولكنى رأيت فيك دليلا على أنه إن لم يكن صحيحاً فليس بعيداً وإن لم يكن واقعاً فليس يمتنع . أكتب إليك فتفهم غير ما تقرأ وأحدثك فتحسب غير ما تسمع وأراك إذا انتقدت كلامي دارت بك الأرض حول نفسك فأخذتك الغشية ولم يبق في الالفاظ ولا في المعاني ولا في الاساليب ولا في الشعر ولا في النثر إلا صورة تمر بسرعة دوران الأرض فلا تتبين منها شيئاً ولا تفهم منها شيئاً

هن ثلاثة أيها الفاضل : فإما طبيعةٌ فى النفس مبنية على المكابرة والمراء لا تبالي معها أن تحذف العقل وتُسقط الخُلق وتمتهن الكرامة وتقول هذا الذهب حجر وهذا الحجر ذهب وتمضي في تعليل ذلك وإقامة

الدليل عليه والدفع عنه ثم اللّجاج والسفسطة واثبات المنفي ونفي الثابت كما يفعل كل أهل الجدل فى غير طائل ولا منفعة إلا غلبة ثرثرة على ثرثرة ؛ وإما طبعٌ فى الكتابة مستوخَم بارد تجذب إليه أصول ضعيفة فى الخيال والفكر فلا يرتفع ارتفاعا ساميا وإنما يُسِف ويخبط ؛ وإما عقلٌ لا كالعقول ونسأل الله السلامة . فما من واحدة من هذه لك بد

قرأت يا سيدي ما كتبتَه عن « رسائل الأحزان » مما أتسمح فى تسميته نقداً وألمتُ بالغاية التي أجريتَ إليها كلامك وما كان يخفى علي أن فى الحق ما يسمى تعسفاً وفى النقد ما يدعي تهجماً وفى المنطق ما يعرف بالمغالطة وفى كل صناعة ماهو انتحال ودعوى وتلفيق . وإلا ففيم يخالف بعضُ الناس على بعضهم وكيف ترى الرجل الذى لا بأس بعقله يكون عليه الدّين مؤكداً بالأيمان والوثائق حتى لا سبيل إلى إنكاره ثم ينكره ويحلف على ذلك ويكابر فيه كأن الذى حلف به عند ما أخذ منك غير الذى يحلف به عند ما أنكر عليك ، ثم يديرك معه على كل أساليب الباطل ويمر بك فى كل قضايا المغالطة وإنَّ فى دمه ولحمه مالو شُق عنه لأنطقه الله بأنه كاذب . ولعمري لقد كنت تكتب غير ما كتبت لولا أنك سمعت مني ما سمعته فى تخطئتك والرد عليك حين قام الجدال بينك وبين الأستاذ هيكل ورأيتك وقتئذ تكاد تبتلعك ثيابك وكان كلامي منك كالماء يسقي شجر الحنظل المر فما يزيد إلا مرارة ، ولو عقلتَ أيها الشيخ لعرفت أني أغضبتك عامداً متعمداً وأفرطتُ عليك حتى اقتلعت نفسك من المجاس اقتلاعا وما أردتُ بذلك إلا أن أعرف مبلغ

إنصافك وأمتحن هذه الحرية التى تدعيها فى كل ما تكتب فانه ليس ينفعني أن تثني علي وليس يضرني أن تجهد فى ذمي ولا أنا أحفل بشيء من ذلك وما أحسبك تظنني ألتوي فى يدك أو ألين لغمزاتك . فلقد بلغ من إنصافك حين تغضب أن تنفس على كلمة واحدة من اللغة فلا تذكرنى بها فقلت فيما علقت على كتاب الاستاذ هيكل « أنكرت عليه استعمال كلمة مهوب بالواو لا بالياء ونبهنى (بعض الأدباء) إلى أن هذا الاستعمال صحيح فرجعت الى المعاجم » فمن الذى نبهك وردك الى المعاجم ؟ ولماذا لم تذكر اسمه وحقدت عليه حتى فى الصواب الذى تعترف به وأنت قد اندرأتَ عليه طعنا فى ثلاثة أنهر من الصحيفة التى تقول فيها هذا القول . أفيشق عليك أن تذكرلي حسنة واحدة في كلمة كنت لا تعرفها ثم تسمي نفسك بعد هذا ناقداً حراً منصفاً وتريد أن يقبل الناس منك ويستمعوا لك ولا يعرفوا الذهب ذهباً صحيحا حتى ينظروا « دمغتك » عليه ولا الجوهر جوهراً كريما حتى يسمعوا شهادتك فيه . . . ؟

ثم أنزلت نفسك منزلة دون هذه وكنتُ والله أرفعك عنها فقلت « كنت أصف العقاد فى فصل مضى بشدة الغموض أحيانا وقد رضي الاستاذ الرافعي عن هذا الفصل وأنبأني أنه لم يرض عن شيء مما كتبت كما رضي عن هذا الفصل » . ولكن كيف أنبأتك هذا النبأ بل متى تفهم دقائق الكلام وأغراضه وتكون حكيما فى سياسة المعانى وأساليب الفكر ؟ لقد كتبت اليك انه لم يعجبنى شيء مما قرأت لك ما أعجبنى ما كتبته فى هذا الاسبوع والذى قبله » أى انتقادك من انتقدت فلانة

وفلانا وفلانا والعقاد جميعاً لا العقاد وحده كما تزعم وهذا هو ظاهر اللفظ ولكن ما باطنه أيها الفهامة فانه يقال إن للكلام ظهراً وبطناً وحدًّا ومَطْلَعاً لو كنت تعرف هذا أو تفهمه . أفلا تسأل نفسك لم لم تعجبني كل الفصول التي كتبتها فى الادب وتاريخه وأنت تتخبّط منذ سنتين وتكتب فى كل أسبوع مرة . فان سألتها فهل تستخرج من ذلك إلا أن هذه الفصول هي في رأيي خلط مخلوط تركب فيها الشطط ثم تعتسف الطريق ثم تضع التاريخ كما تخلقه أنت لا كما خلقه الله وتصول على الاموات الذين لا يملكون دفعاً ولا ردًّا ولا حِوَارا ولا جوابا . فاذا استخرجت هذا فهل ينتج لك الا أن إعجابى بهذين الفصلين خاصة انما كان لانك تصادم الأحياء الذين يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم وأن يردوك إلى الطريقة المسلوكة والنهج القاصد إن كانوا على شيء مما يسمى به الكاتب كاتباً والأديب أديباً ولم يكونوا بهذا الجبن الهالع المخزي الذى ميز اباحيةّ بسيفه الخشبي . . . . وجعله بطل المعركة وأنت تعرف القصة بعد [1]

ثم رأيتك تنحط فى منزلة دون المنزلتين مما يدل على بعدك من الانصاف وذهابك عن حقيقة النقد فتزعم أن « كل جملة من جمل الكتاب تبعث فى نفسك شعوراً قويا أن الكاتب يلدها ولادة وهو يقاسي فى هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع » . كذا كذا لقد نبغت فى

(١) كان أبو حية هذا رجلا اعرابيا به لوثة وكان له سيف من الخشب يسميه « لعاب المنية » والدكتور طه حسين كان يعتقد أن قلمه لعاب المنية . . . .

الخيال بعد أن قرأت « رسائل الأحزان » وستنبغ أكثر من هذا بعد أن تقرأ « السحاب الاحمر »(١) الذي أهديتك إياه . على أني لو أردت أن آخذ معك في كتابي هذا المأخذ لجعلتك تتلوى من الكلام المؤلم على مثل أسنان الإبر ولاستقبلتك بما لا تدري معه أين تذهب ولا كيف تتوارى كالإعصار الذي يأخذ عليك الجهات الأربعَ من آفاقها . أفأنت تقوم لي في باب الاستعارة والمجاز والتشبيه ؟ ولكني أدع هذا الآن فحدثني من أين علمت أني أكتب على هذه الهيئة لعلك أخذت هذا المعنى البذيء من قولي لك « أتظن أني أكتب هذه الكتابة وأنا نائم ألا إني أتعب نفسي لتجديد الآثار الفنية في البيان العربي » هذه هي كلماتي بالحرف الواحد فانا لا أكاد أنسى ما أقول ولا ما يقال لي . ولقد كتبتُ رسائل الاحزان في ستة وعشرين يوما فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهراً وأنت فارغ لهذا العمل وأنا مشغول بأعمال كثيرة لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت الا قليلا . هأنا أتحدّاك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها وإن لم يكن الأمر عندك في هذا الاسلوب الشاق عليك الا ولادة وآلاماً من آلام الوضع كما تقول فعليّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدتَ بسلامة الله . . . واني لأتحداك وأنا أخبر الناس بما تطيق ومالا تطيق . وسبحان من خلق النسر خلقة والديك الرومي خلقة أخرى . . . .

---

(١) هو الكتاب الذى وضعناه تكملة لرسائل الاحزان فكلاهما في فلسفة الجمال والحب

ومنزلة رابعة هى أحط وأدنى من كل هذه الثلاث فقلت « أنا أعلم أن الاستاذ الرافعي قد تكلف مشقة لا تكاد تعد لها مشقة في وضع هذا الكتاب . . . وهو تكلف العناء فى طبعه ونشره وأنفق مالاً فى هذا الطبع والنشر فقد يكون من الاسراف فى القسوة أن نعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال فنعلن أنه غير جيد الخ الخ » فما أنت والمال والطبع والنشر ولكن اعلم أن هذا الكتاب لم يمض على صدوره أربعون يوما معدودة حتى رد كل ما أنفق عليه غرشاً غرشاً وسل كل طابعي الكتب العربية وكل المؤلفين هل اتفق لهم حادث واحد مثل هذا ؟ ألا عدِّ عن هذا الاسلوب أسلوب شفقة الضرة على الضرة وأبق مثل هذا الكلام، لكتبك وأمثال كتبك

*
* *

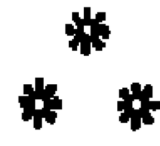
اني والله على إعجاب كان بك أصبحت مستيقنا أن الله تعالى لم يهبك إلى اليوم قلم الكاتب ولا أودعك دهاء السياسى ولا خصك بفهم الحكيم . وكيف يكون لك من ذلك وأنت تصف رئيس تحرير السياسة (١) فى ظرف ولطف . . . بأنه يزدرى القراء ويزدرى الناس ويتخذ هذا قولاً ومذهبا وفلسفة . ففي أى شيء يكون عمل الرجل في الجريدة الكبرى، فى أمة هي أشد الأمم حاجة إلى من يتألفها ويتولى إرشادها وهدايتها، بأخلاق كأخلاق الانبياء تتسع كلما ضاقت الصدور وتنعطف كلما نفرت.

---

(١) كان طه انتقد فى السياسة رئيس تحرير السياسة فكتب فصلا هو اية من الآيات فى الحمق

القلوب ولا ترى فى الناس طبيعة تزدري ولكن خطأ يُستصلح؟

عساك تحسب هذا مني دهانا ومصانعة لرئيس التحرير فسل أديب هذا العصر الامير شكيب أرسلان ماذا كتبت له منذ سنة خلت فى ردي على بعض كتبه وهل أثنيت له على غير الدكتور هيكل وهل وصفت غيره بالذكاء وعمق الفكر وحسن الوصف وبلاغة التعبير على حين لم تكن بيني وبينه شابكة ولم يكن رآني ولا رأيته الا مرة واحدة جاء فيها إلى طنطا مع الاستاذ الجليل لطفي السيد. ولكن الانصاف ياسيدي إن لم يكن فوقه إلا الحق فذلك لأنه هو أساس الحق. ولقد أخبرتك أن هذه الحرية التى تزعمونها فى الكتابة والنقد إن لم تكن مقيدة بالانصاف وقواعده فهي سخافة ودعوى. وطلبت مني هذه القواعد ولعلي أكتبها لك يوماً إن شاء الله.



ولننظر الآن فى نقدك « رسائل الأحزان » والعلة في أنك لا تفهمها. فأما النقد فليس هناك إلا أنك لا تفهم كما تدعي على نفسك. وماذا علي من ذلك ولقد قلت لك إن الذى لا تفهمه أنت يفهمه سواك وإن الله خلق رؤوساً غير رأسك وعقولا غير عقلك وانه ليس من أحد يعترف أنك مقياس للعقل الانساني في الارض فسخت هذا كله وزعمت انى قلت لك « لِم تتخذ نفسك مقياساً للناس » ثم رددت على هذه الكلمة بقولك « اني أتخذ نفسي مقياساً لنفسي » ففسر لي أصلحك الله كيف

تكون نفسك مقياساً لنفسها . أليس المقياس آلة لقياس غيره فكيف يأتي لك أن تكون نفسك التي تقيسها غير نفسك التي تقيس عليها . أم أنت ستلجأ إلى أصول البلاغة وتحمل العبارة على التجريد فلم لا تفهم الكلام البليغ على هذه الاصول بعينها ؟ وما هذا التحذلق وما هذا التداهي ؟ « أفَمَن يمشي مُكِبًّا على وجهه أهدى أم من يمشي سَوِيا على صراط مستقيم » .

وأما انك لم تفهم فلست أرد عليك بفلان وفلان ممن فهموا الكتاب وأعجبوا به وأثنوا عليه وأنت تعرفهم وتذعن لهم وتبالغ في تقديمهم ولا أرد عليك بان الطلبة فهموه ولا بأن النساء فهمنه وانظر ماذا كتبت مجلة السيدات في مصر وماذا كتبت مجلة منيرفا في سورية فانك لا تطمع في سطر واحد من مثل هذه الكتابة . لا أرد عليك بهذا ولا بنحوه ولكني أقول لك إن العسكري روى عن الأنصاري قال : قلت لبعض الكتاب (كتاب الخراج وأشباههم من رجال الديوان) ما فعل أبوك بحماره ؟ قال بَاعِهِ قلت فلم تقول باعِهِ . قال وأنت فلم تقول بحمارهِ . فقلت أنا جررته بالباء . قال فمن الذي جعل باءك تجر وبائي أنا ... لا تجر (يعني الباء التي في فعل باع) ....

أليس هذا فهماً يا دكتور وقد اجتهد الرجل في القياس وانتهى إلى هذه النتيجة فما عسى أن تقول ولمن نشكو مثل هذا الفهامة ؟ إلى السلطان إلى أهل اللغة ، إلى الأطباء ... ولكن هل كان فهمه أن الباء في (باعه) حرف جر مما يفسد مقاييس النحو ويكره اللغة على أن تتسع لحكمه

وتطّرد على قياس فهمه ؟ وأنت أفلا ترى معي ومع الناس أن سوء الفهم وخطأ الفهم وعدم الفهم كل ذلك فى مَرَدِّهِ إلى معنى واحد هو سقم الفهم ؟

إنك لتجمع الكتب وتحفظ التاريخ وتدرس الأدب فهل نفعك ذلك فى قول الشعر حتى ذهب ديوان طه حسين بديوان المتنبي .... وأنت تدرس البلاغة وتعرف قواعدها وأمثالها فهل أعانك ذلك فى قطعة بليغة يعرفها لك الناس ويتنافلونها ويرونها من البيان فى موقع ومن الجمال فى منزلة ، وهل جئت قط في كتابتك بشيء من الوصف أو قضى لك الناس بخيال ابتدعته أو مجاز اخترعته ، وهل كتبت شيئاً فى الحب والجمال وفلسفتها وأوصافها ؟ فهذا كله من بعض العلة فى إنك لا تفهم « رسائل الأحزان » إن صح قولك أنك لا تفهم

وعلة أخرى . لِمَ تكرر الكلام دائما فى غير حاجة إلى التكرار مع أن أصحابك يرون هذا من أقبح العيوب ويقولون أن المذهب الجديد .. قائم على الأسلوب التلغرافي فإذا كتبت فقدِّر أنك سترسل المقالة بالتلغراف وتدفع أجرة ارسالها . لقد كنتَ أفلستَ من زمن بعيد يا دكتور لو حققوا معك هذه القاعدة وأرسلوا مقالاتك بالتلغراف . . ولكن لِمَ تلتزم هذه الطريقة حتى أصبح كالشعوذة المطبعية أن تكتب ستة أنهر وهى ثلاثة بعد حذف المكرر والحشو ؟

كنت أقرأ مقالة افتتاحية فى السياسة ومعي أديب فدفعتها إليه وقلت لمن ترى هذه المقالة ؟ فنظر فلم يجد عليها توقيعاً فقلت له لا يجب أن يكون التوقيع فى ذيل المقالة بل قد يكون فى أثنائها . قال فأين هو

قلت اسمع هذا هو التوقيع : «فعلوا هذا نعم فعلوه ، فعلوه . أقسم لقد فعلوه فعلوه . . . » أفمن يكتب هذا الهُراء ونحوه يرتقي به الفهم إلى دقائق المجازات والاستعارات والكناية والاشارة ونحوها مما قامت عليه هذه اللغة فى بيانها وبديعها ومالو حذف منها لتعطلت من كل محاسنها ولما صح أن يكون فيها كلام معجز ولا مقبول ألبتة .

ما العلة فى هذا وما السبب فى أنه لا يتفق لك أبداً خيال رائع ولا تبدع شيئاً مما يبدعه الكتاب فى كل الأمم إلا مرة واحدة أردت أن تصف المرأة الجميلة فى رواية ,, الإغواء ،، منذ أسابيع فقلت : «صورتها . حركاتها . ألفاظها . زيها . مذهبها فى الحوار والكلام . هى فتنة تتحرك»

فتنة تتحرك لا أعرف لك فى كل كلامك أحسن ولا أبدع من هذه الكلمة وأنت تعرف من أين أخذتها وإن كنت لم تحسن السرقة وإلا فما قولك حين تكون هذه (الفتنة) نائمة ؟ أفتريد أن أدل قراءك في أي رسالة « من رسائل الأحزان » وصف الألفاظ والحركات والزي والمذهب في الجدال والشكل والدل وأنها فتنة خلقت امرأة ؟ (١)

تقول فى نقدك « يجب أن أكون منصفاً (كذا كذا) فانت تستطيع أن تقطع كتاب الرافعي جملا جملا وأن تجد من هذه الجمل طائفة غير قليلة (اسمعوا اسمعوا) فيها شيء من جمال اللفظ يخلبك ويستهويك (تنويم مغناطيسى بالبلاغة) وفيها معان قيمة لا تخلو من نفع . ولكن المشقة كل المشقة فى أن تصل هذه الجمل بعضها ببعض وتستخرج منها

(١) تجد ذلك في الرسالة الرابعة من رسائل الاحزان

شيئاً » . إذن فالمشقة عليك ليست فى الفهم ولـكن فى صلة الجمل بعضها ببعض . وأظن هذه المشقة بعينها هي التي تجعل من طبعك تكرار الـكلام دائماً في غير طائل ولا منفعة . واذن فمن سبيلك أن تحسن فهم كتب التاريخ والحوادث وحدها دون سواها مما لا يقع في الذهن متصلاً بعضه ببعض وإذن فلك مذهب لا ينبغي أن نعرض له كما لا ينبغي لك أن تجعله قياساً تقيس عليه.

ثم كيف يكون في الـكتاب (معان قيمة) وجمل تستهوى وتخلب وهى مع ذلك طائفة غير قليلة مع أنك تصرح قبل هذا الـكلام بنصف سطر أبيض . . . . (يعني مباشرة بالـكلام الذى تفهمه) فتقول « أتممت الـكتاب ولم أفهم منه شيئاً » . لابد أن لك منطقاً خاصاً بك إذا كانت المقدمة فيه أنك أتممت كتاباً برأسه لا تفهم منه شيئاً فالنتيجة من هذه المقدمة أن فى الـكتاب طائفة غير قليلة تستهوى وتخلب وفيه معان قيمة أيضاً . . .

وهل هذا أقبح في التناقض أم قولك « ورأيي في الـكتاب أني لا أفهمه فلا (أستطيع) أن أقول إنه جيد أو ردىء بل (أستطيع) أن أقول إني لم أفهمه وإذن (فلا يمكن) أن يكون جيداً . . . » فأية الاستطاعتين هى الـكاذبة المردودة ؟ وإذا كنت لا تفهمه وكان من أجل ذلك (من أجل ذلك وحده) لا يمكن (يعني يستحيل) أن يكون جيداً أفلا يعد هذا اعترافاً منك بما أنـكرته من أنك تعتبر نفسك مقياساً للعقل الإنساني فى الأرض المؤمنة بالله وكتابه وسنة نبيه ؟

ألا يرى القراء كيف يتهافت الشيخ كأن فى جوفه شيئاً يغلي على شيء يتضرم . وكيف تقول « لا يمكن » إلا إذا كنت أنت الممكن كله يا مولانا . . . ؟

* * *

ألا ليت شعرى كيف يجمع الكلام العالي بعضه إلى بعض ويستخرج منه شيئاً وهو يراه ملء كتاب إذا كان لا يستطيع جمع كلامه هو فى مقال صغير حتى ينفي عنه مثل هذا التناقض العجيب الذى يأتيك بسطر مؤمن يلعنه سطر كافر ؟

أنا لا أقول إن الأستاذ طه ليس شيئاً فى فضله وأدبه وعلمه بل هو عندي أشياء كثيرة بل هو مكتبة تنطق كتبها ولكنه لم يلابس صناعة الشعر ولا أساليب الخيال ولا أخذ نفسه فى ذلك بمزاولة ولا عمل فليس له أن ينقد هذه الصناعة ولا أن يقول فى هذه الأساليب إلا بعد أن يجيء بمثل ما يكتب أهلها ؟ فان لم يكن ذلك فى طبعه ولا فى قوته ولم يستو له شيء منه فلا يغرنه أن يكون مؤرخاً ولا يخدعنه أن يكون منطيقاً ولا يحسبن فهم شيء هو فهم كل شيء . ولو كان الأمر موضوعاً فى الأدب على الاتساع في الكلام والقدرة على القول الكثير صواباً وخطأ لما كان أكبر أديب هو أكبر الأدباء ولكن أكبر الثرثارين . . . .

ويقول الأستاذ إنه يفهم القرآن وكذا وكذا ولا يفهم كتابي وأنا لا أصدق من هذا شيئاً وأين حقائق البلاغة المعجزة فى القرآن ممن إذا انتقد بيت شوقى

يا لُطْفُ أنت هو الصدى   من ذاك الصوت الرخيم (١)

فهم أن الشاعر يقول إن أرسطو كان ذا صوت رخيم . . . وأورد على ذلك أنه لاهو ولا شوقى سمع هذا الصوت . . . علم الله لو تقدم صاحب هذا القول إلى الامتحان فى الأزهر وفسر لهم فى البلاغة هذا التفسير لأعطوه « المكعب » كما يقول الأزهريون والمكعب عندهم هو الصفر فى درجات الامتحان

أيفهم هذا حقائق البلاغة فى القرآن ودقائق الاشارات التى فيه وقد قال صاحب المثل السائر وهو من كبار المجتهدين فى علوم البلاغة ومن أبلغ كتاب الدهر « كنت أقرأ فى اليوم ختمة ثم فى الشهر ثم فى السنة ثم هأنا أقرأ فى ختمة واحدة منذ كذا وكذا سنة ولم أفرغ منها وكلما أعدت النظر ظهر لي مالم يكن ظهر من قبل » هذه هي أصول البيان العربي المعجزة وهذه هي طريقة فهمه فخذ أو فدع

*
* *

ان المجاز وهو أساس البيان يمنعك أن تفهم إلا بالقرينة والعلاقة فلا يطلق لك الفهم بل يقيده بهما ولا يترك لك أن تقول أفهم ولا أفهم بل إحدى اثنتين : إما أن تقر للكلام واما أن تقر على نفسك . وقد كان العرب أصحاب أذهان حديدة وكانوا لا يكتبون فاضطرهم ذلك إلى الابداع فى ألفاظهم وطي المعانى الكثيرة في الكلمات القليلة والاكتفاء

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها شوقى في تقريظ كتاب ارسطو الذى ترجمه الاستاذ الكبير أحمد لطفى السيد بك مدير الجامعة اليوم .

باللمحة الدالة والاشارة الموجزة والكناية الرائعة والتفنن فى أساليب القول على وجوه شتى ومذاهب كثيرة . فليس يتولى هذا البيانَ العربي إلا الذهنُ الدقيق والفطنة الحادة والبصيرة النقادة وإلا مَن جرَى مجرى العرب أنفسهم ينزعه طبع أو يجذبه أصل . فان لم يكن هناك فأبعده الله والسلام

الى الجامعة المصرية

قرأت في بعض الحكم هذه الكلمة : « تحرَّز من سكر السلطان وسكر المال وسكر العلم وسكر المنزلة » ولست أعرف أحداً قد سكر من هذه الاربعة حتى عربد وخرج إلى السخف والهذيان غير الاستاذ المربّع ... الدكتور طه حسين منذ ولي تدريس تاريخ الأدب في الجامعة . ووالله ما ندري كيف لا يعهدون اليه مع درس تاريخ الأدب بدرس آخر كشرح القانون المدني مثلاً . . . فانه لقادر على هذا قدرته على ذاك إذ كان لا مادة له إلا أن يفكر فيما يقول ، ثم يقول كما يفكر ماهو إلا الظن قبل العلم ، والا الشك قبل اليقين ، والا الوهم قبل الحقيقة ، ولا أكثر من الكلام عند كل رجل يُسقط الخطأ والصواب من حسابه ولا أيسر من الانكار على من يكون رأس المال فى علمه العناد والمكابرة

سكر الدكتور طه حسين لانه سلّم إلى وزارة المعارف مع الجامعة

بعقد واحد [١] ... وهذا هو سكر السلطان ؛ ثم حثوا له من خزانة الدولة قبل أن يسمعوا منه حرفاً في تاريخ الأدب أو يعرفوا له وزناً فيه أو يبلُوا منه بلاء وتلك سكرة المال ، ثم ابتدع للجامعة علماً يلقيه على من يذهب اليه من عُرض الطريق وان كان لا يميز بين أبي جهل وأبي زرع ... فجاءت من ذلك سكرة العلم ، ورأى مع كل هذا أنه قارٌّ في منزلته يريدون أن يجعلوه آمناً من العزل ممنوعاً من الصرف فتم له سكر المنزلة [٢]

لانحسب هذه الجامعة تملك الأدب بعقد ولا وثيقة شرعية فتنزل عنه لهذا الأستاذ ولا نظنها تدعي حقاً على التاريخ فتسوّغ له أن يهدم فيه ويبني فهي وحدها مأخوذة بعبثه مسئولة بخطئه محاسبة على ما يجني ونحن على ذلك نرفع إليها هذه المسائل التي نريد أن نناظرها فيها لتكشف لها عن حقيقة أستاذها ولتعلم إن كانت لمّا تعلمْ أن الرجل مفسد لا مصلح . ومافق لا محقق . وأن مَأْتَى ذلك فيه من ضعف اطلاعه على مادة التاريخ الأدبي فهو يتوسع بالثرثرة ، ومن نقص خياله فهو يتزيّد بالشك ومن انحطاط قوته البيانية فهو يتماسك بمَحَامل الجدَل .

نسأل إدارة الجامعة : —

١ — هل قرر أستاذها أن المسلمين محوا شعر النصارى واليهود ومنعوا روايته خوفاً على الاسلام فمن أجل ذلك لم ينته الينا من شعرهم شيء

---

(١) كانت الجامعة المصرية قائمة بنفسها تنفق من الاوقاف المحبوسة عليها فلم تفلح فسلموها لوزارة المعارف في سنة ١٩٢٥ ابقاء عليها أن تندرس وسلموا معها طه حسين واشترطوا بقاءه مدرسا فبهذا الشرط لا بعلمه بقي فيها ... (٢) كانت الجامعة قد شرعت تضع قانونا يمنع كل اساتذتها من العزل والمراد من كل اساتذتها أحد اساتذتها ...

٢ — وانه لايوجد شعر جاهلى بل هو مصنوع بعد الاسلام وأن هذا الجاهلى لايستشهد به على القرآن بل القرآن هو الذى يحتج به لاشعر

٣ — وأن العصر الجاهلى الذى ضاع شعره قد حفظ لأن القرآن الكريم يمثله . . . . .

٤ — وأن الغزل المروي لامرئ القيس هو لعمر بن أبي ربيعة ؟

ونقتصر من خلط الرجل على هذه المسائل الأربع

نسأل إدارة الجامعة هل قرر استاذها كل ذاك فى دروسه التى تأجره عليها من مال الأمة أم لا ؟ وما هي أدلته ؟ لا بل ماهي أداتها فلم يعد الرجل كاتباً فى جريدة السياسة لا يجيب إلا بالشتم ولا يبالي وهي تنشر له ولا تعبأ . ولا نغنى يملك أن يقول لمدير الجامعة كما قال لرئيس تحرير السياسة : أغضبتك فى السنة الماضية فأثنيت على الرافعى في مقال صدرت به كتابك وهأنذا أعتذر إليك فانس السنة الماضية وانزل لي عن هذا الفصل . . . أما إنه قد باعد الله بين صاحب هذا القول وبين الفهم كأن رئيس تحرير السياسة لا يكتب للحق ولا يرى من رأي للحق بل للغضب والرضا ولا ثالث لهما . أليس من المضحك أن يكون صاحب هذا الكلام المعكوس هو أستاذ الأدب العربي فى الجامعة .

« وماذا بمصرَ من المضحكات » وحَسْبُكَ طه حسينٌ بِهَا
« ولكنه ضحكٌ كالبكا » على عامها وعلى كُتْبِهَا

والى الجامعة أيضا

كتبنا نسأل إدارة الجامعة فى تلك المسائل الأربع مما يخلط فيه أستاذها الدكتور طه حسين لنناظرها فيما يقول الرجل وما يقول إلا اسخفاً ؛ وإنها لتعلم وكأنها لا تعلم وإنها لترى وكأنها لا ترى وإنها لعلى حال تتكرها أشد الانكار فيما تسميه مجازاً درس تاريخ الأدب وما هو فى الحقيقة إلا درس نفسية طه بما يضطرب فيها من الزيغ والشك وما تضطرب فيه من سوء الفهم وضعف الرأي وفساد القياس . فالجامعة تبتلي طلبتَها بالرجل في درسه ثم درسُهُ يبتليهم بطباعه وطباعُه تأتيهم بدواهيه ومن دواهيه ما عرفنا من جُرأة فى الباطل لا تعبأ بالحق وحماقة فى الرأي لا تعرف القصد وإسراف فى الظن لا يصلح معه اليقين

وعلى أنه لو كان أستاذ الجامعة بليغاً معروفاً وشاعراً ممدوداً وحكيماً متفلسفاً ثم كان فيه شيء من تلك الخلال السوء لنزلت به وغضّت منه فكيف وهو هو ذاك الذي عرف الناس جميعاً أنه سيئ الفهم في أساليب البيان إذ كان بطبعه لا يحسن منها شيئاً ، قاصر الذهن فى معاني الشعر ومناحي البلغاء لأنه بعيد منهم ، وليس فيه إلا أنه غليظ الحس ، بليد التصور ، منطفئ الخيال ، ثم هو مع هذا كله يجمع فى كل هذا الدعوى الفارغةَ والاستطالةَ والشر وبذاءة اللسان حتى ليس فى مصر سبّاب لعّان يعرف له من مقالات السب واللعن ما يعرف لاثنين أحدهما أستاذ الجامعة ، ولذلك من سوء الأثر فى عقل الرجل ورأيه ما لا بد من مثله فى مثله حتى

ما نرى شذوذه وخروجه على الآراء المجمع عليها فى التاريخ إلا أسلوباً من أساليب شتم التاريخ ...

نحن نقرر للجامعة أنه لا سبيل إلى تصديق الدكتور طه حسين فيما يهرف به إلا على اعتبار واحد وهو أن يكون هذا الرجل روحاً متناسخة لا تزال تنحدر فى مَهْواة الزمن فإذا هو استوى على كرسي الجامعة مرت هـذه الروح بأدوارها فى التاريخ فذكرت صحبتها ... لامرئ القيس فى سنة ٢٠٠ قبل الاسلام ... ثم يكر شريط السينما ... من دهر الى دهر إلى يوم الناس هـذا والاستاذ فى كل ذلك يحكي عن عيان ويخبر عن مشاهدة وهو على كرسي الجامعة فى حلم مغناطيسى، نائم أشد ما كان يقظة .. ويقظان أبعـد ما استغرق نوماً ولا سبيل فى هذا إلا هذا . وعلى ادارة الجامعة أن تتبينه فلعله ولعله ...

إن مجلس الجامعة ليعرف أن هذا الذي يسميه الناس تاريخ الأدب العربي انما هو علـم حديث النشأة لم يتولّه أهله ولا وضع فى زمنه ولا أصاب وسائله ولا تنبه اليه أحد أيام كان العلماء والرواة وكانت مصادر النقل متوافرة ولم يتناوله المعاصرون إلا تقليداً وعلى قِلّةٍ من الكتب وفى موت الرواية وبَعد انقطاع الدهر الاسلامى من مواضع كثيرة، ولو أنه وجد بيننا رجل قرأ كل مطبوع ومخطوط من الكتب العربية المبعثرة فى نواحي الدنيا لم يفته منها ورقة ولا بعض ورقة ثم استخرج منها هـذا العلم لجاء به ناقصاً مضطرباً ضعيفاً لضياع أكثر الكتب فى النكبات التاريخية المختلفة ولفساد طريقة التأليف فى أكثر الكتب التي انتهت

الينا ، فما هو كالعلوم التي دونت وضبطت وفُرغ منها وصار الكتاب الواحد يغني فيها عن الكتب الكثيرة كالنحو والصرف والبلاغة وأشباهها ولا هو كالفنون التي يكشف منها الاختراع وتستحدث الحاجة والتجربة كالطب والقانون والكيمياء ونحوها ؛

فمن ثَم لا تستطيع الجامعة أن تسمي أستاذها أستاذاً كما تقول أستاذ القانون وأستاذ الطب ولا أن تعتبره كذلك أو تُجري عليه حكم هؤلاء بل هو أستاذ على المجاز ومدرس للضرورة ويجب أن يستثنى بخصوصه من كل ما يتمتع به الأساتذة فقد ينكشف يوماً عن أقبح العجز وأفحش الخطأ وهو ما نعرفه ونؤكده ولا نرتاب فيه ، ومن ثم يجب على الجامعة أن تسمع لكل قول في هذا الأستاذ وتحسن اعتباره أيّ قول كان وعلى أيّ وجه جاء ومن أيّ شخص تلقّته ، وإنها لتعلم أن أستاذ الأدب يجب أن يكون من أوسع الناس اطلاعاً لا في الروايات التمثيلية الفرنسية.[1] ولكن في كتب الأدب العربي وأن يكون على اطلاعه من أبلغ الناس كتابة وأشعرهم شعراً وأسماهم خيالا وأدقهم حساً وأذكاهم فهماً .

بَيد أن هذه هي الصفات التي حرمها كلها الدكتور طه حسين . فهو أستاذ بالوظيفة واسمها ومرتبها لا بعلمها وحقها وكفايتها . ومن أجل ذلك قلنا إن الجامعة مأخوذة بعبثه وملزمة أن تجيب عنه فانه يدرس علماً غير مدوّن ولا مجتمع الأسباب ولا يزال الرجل يمتاز فيه عن الرجل بنَص أو بسطر أو بكلمة أو برأي كل ذلك أو بعضه فلتعلم الجامعة إن كانت لا تعلم.

---

(١) كان طه ينقل الى السياسة بعض هذه الروايات فلا يختار الا أفحشها يريد بذلك افساد الطلبة وتجديد الاخلاق .... بل تجديد الفضيلة

وشهد شاهد من أهلها

كتب قس فاضل فى النسخة الأسبوعية من جريدة السياسة يذكر تاريخ القديس بفنوس الذى تناوله أناتول فرانس فى رواية تاييس فعبث به وسخر من تقواه وصلاحه ورماه بامرأة بغي تركته فى الاثم وسقوط النفس وليس بينه وبين أمثالها منزلة ولا فرق ، على حين سما بها الكاتب فى آخر الرواية فجعلها قديسة تنفتح لها أبواب السماء وتتلقاها الملائكة . وبيّن القس الفاضل أن ذلك مما تعمد أناتول فرانس أن يفسد به التاريخ وأنه كذب عَمْد وإفك صُراح ، فعلق الدكتور هيكل على هذا بأن لكاتب فرنسا رأياً فى التاريخ فهو يعتبره نوعاً من القصص خاضعاً لأهواء الناس وشهواتهم وقد وضع لجان دارك الفرنسية الشهيرة تاريخاً بين فيه أن شيئاً اسمه جان دارك لم يوجد وليس أهون من إقامة الأدلة على أن شيئاً لم يوجد فحسبك أن تظهر ما في الادلة على وجود شيء فى الاشياء من الضعف لتبعث إلى النفوس الشك فى وجوده . ثم قال : وقد لا ترى فى عمل أناتول فرانس موضعاً للدهشة إذا أنت رجعت الى ما يأخذ به أساتذة الأدب فى الجامعة المصرية فهذا صديقنا الدكتور طه حسين يرى رأي الذين يقولون ان غير واحد من الشعراء الذين يقال إنهم وجدوا لم يوجدوا قط فان ذهب اناتول فرانس مثل هذا المذهب مع الراهب بفنوس فذلك انه أخذ بمثل هذه النظريات التى أخذ بها كثير من العلماء والكتاب ومن بينهم صديقنا الدكتور طه فى شأن الشعراء

وغير الشعراء ممن يتناقل الناس أخبارهم» انتهى ملخصاً

فعلم أستاذ الجامعة « ليس أهون منه » وهل أيسر من الإنكار ؟ ولكن هل أدل على الحمق من هذا الانكار بعينه وهل الانكار بلا دليل إلا نوع آخر من الكذب والاختلاق كما يخترع الوضّاعون أشخاصاً لادليل على وجودهم ؟ إنهم يزعمون كذباً أن شاعراً وجد وقال كيت وكيت وكان من خبره كذا وكذ وأنت تزعم أن شاعراً لم يوجد فما الذى يجعل الكذب منهم صدقا منك وكيف تريد وأنتم سَواسِيَةٌ كأسنان الحمار أن تكون بعض هذه الأسنان ناب الليث فى حين لاتنسب الباقيات إلا للحمار وحده ؛ لعمري ما أنت بأصدق منهم ولا هم بأكذب منك وفَصْلُ ما بينك وبينهم أنهم إلى وجه الكذب وأنت إلى قفاه . . . والكذب كله بينكما وجهاً وقفا

يعبث أستاذ الجامعة برجال التاريخ العربي « من الشعراء وغير الشعراء » . عبث أناتول فرانس بذلك الراهب الفاضل ولكن فات الأستاذ المقلد المتعكّس أن الغراب لايصلح طاووساً ولا حمامة . فان كاتب أوربا إنما ألحد وسخر وتماجَن لأن هذه ألوان من ألوان بلاغته التي تضرب الكلامَ بعضَه ببعض وتقوم على المتناقض كما تقوم على المتلائم فلو هو تركها لتكلّف للكتابة وجرى فيها على غير طبعه وفقد أحسن ما يميزه فى القَصص والرواية ثم هو يرى التاريخ فنّاً لاعلماً لأنه كاتب لامؤرخ وقاصّ لامحقق فيتولاه بالخيال لا بالحافظة ويأخذه من الروح أكثر مما يأخذه من الفكر وبذلك انتهى فى رأيه إلى أن الأدلة التاريخية

إنما هي مَنازع تختلف العواطف عندها . فأنْكِرْ ما شئت فلك ذلك لأن لك عاطفة وأثبتْ ما شئت فذلك إليك لأن لك عاطفة أيضاً . . .

والتاريخ عنده هو كل شيء إلا الحقيقة لأن الحقيقة بزعمه لا تلتمس فيه ألبتة . ولهذا الكاتب آراء فاسدة ظاهرة البطلان منها رأيه في التاريخ ولكنه يسوقها في عبارات بليغة إذا أنت كنت بصيراً بصناعة البيان ودققت فيها رأيت فساد المعاني وحركة اضطرابها في ذهن هذا الرجل من ألطف أسباب بلاغته كأنه يريد أن يأتيك بالبلاغة في هيئة راقصة خليعة مبتذلة تتطَوَّسُ لك في ألوانها وخُيلائها وتُفحِش عليك في دلّها وغزَلها فلا تشك في سقوطها وسفالها ولكنك لا تنكر أيضاً أن هذا كله أجمل الجمال فيها . ثم إنه رجل ذو فكر واسع ينتظم النقائض من أطرافها ويأخذها على ما أرادها من معاني نفسه لا من معانيها ويعطيها قراءه على الوجه الذي يريده من معانيه كذلك لا من معانيها وما البلاغة إلا مثل هذا السحر إن لم يكن هو إياها

ولكن ما بال أستاذ الجامعة في عبارته الركيكة وذهنه الفج وخياله المطموس وقلبه المطبوع عليه وفلسفته الزائفة وتقليده الأعور ؛ وماله يجهل فرق ما بين التاريخ يتولاه كاتب للقصة والحكاية وما بينه حين يتولاه أستاذ للتمحيص والتحقيق، ثم بين التاريخ على أنه مادة فلسفية من الأعمال والحوادث وبينه على أنه مادة عامية من الأنفس والعقول وما عسى أن يكون غناء الإنكار مع الحجج والنصوص المجمَع عليها إلا أن تكون تلك حيلة احتال بها الاستاذ وهو يعلم أنه قليل الاطلاع

فيجعل الكثير الذى لم يقف عليه بسبيل من القليل الذى وقف عليه ويبنى للمعلوم والمجهول بناء واحداً هو الشك الذى لا يدرى أحد أين يقع ولا ماذا يمحو ولا كيف يكون لكنه مع ذلك يقع ويمحو ويكون كما يريد طه حسين ولا طه فى الدنيا إلا طه الذى فى الجامعة ... يعلم هذا من علم ويجهل من جهل .

يحتج الدكتور هيكل لمذهب أناتول فرانس باستاذ الجامعة الذى عبر عنه بانه « أساتذة الجامعة » ... ومنذ أيام احتج بعض المبشرين المسيحيين باستاذ الجامعة أيضاً لأنه أثبت « رسمياً فى الجامعة التى أنشأتها دولة مسلمة » أن الاسلام دين الحرج والتعصب وضيق الفكر وإلا فما المعنى من أن المسلمين وحكامهم يمحون فى أولى الاسلام شعر اليهود والنصارى والوثنيين إن لم يكن هو هذا . فلا حول ولا قوة إلا بالله وغفر الله لك أيها المبشر طه حسين

عجباً يقلد طه أناتول فرانس ؛ ألا فجئنا أيها الرجل مرة واحدة فى مثل بلاغة من تقلده ثم اظهر بعد ذلك مائة مرة فى مثل سخافة آرائه نغتفر لك مائة بواحدة ، فأما أن تكون ممن محق الله خيالهم ثم تكون مع ذلك ممن صرف الله قلوبهم فتلك المصيبة لا مصيبة مثلها وما نراك اتبعك فيها إلا الذين هم أراذلنا وما نراك إلا كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيْران

وإن لأناتول فرانس كلمة تنطبق على أستاذ الجامعة كأن الله ألهمه إياها لتقع الينا فهو يسمي علم مثل هذا الأستاذ « بالضلالات المعقّدة »

كأنه يعني أنهم يحسبون تعقيدها علماً وحلها علماً مع أنها فى نفسها ضلالة والضلالة فى نفسها جهل والجهل فى نفسه ليس بعلم

قرأنا مرة فى جريدة البلاغ الغراء بتوقيع (فرحات) أن محاضرة أستاذ الجامعة فى امرئ القيس مسروقة من دائرة المعارف الاسلامية المطبوعة فى المانيا واليوم نرى فى كلام السياسة أن الرجل مقلد تقليداً مضحكا يستعمل الغِرْبال فى مكان المُنْخُل فيأتينا بالدقيق الترابي ... وهذا كله مما يزيدنا إصراراً على أسئلتنا التى رفعناها إلى الجامعة فان هذا الرجل انما هو بلاء على الأدب وفساد فى التاريخ وان الجامعة لا تملك أن تُضل الناس به . ومادامت قد أعطتهم من كلامه فلتأخذ من كلامهم . وهي إن كانت على حق فى آراء أستاذها فلتذكر للناس باطلنا بالمناظرة التى ندعوها اليها وإن كانت على باطل فما سبيلها إلا أن تسألنا الحق (1)



(1) ظهر من بعد انه لاقيمة لهذه الجامعة فى حق ولا باطل كما ستعرفه

فلسفة كمضغ الماء ....

قالوا إن هذه الجامعة انما أنشئت للبحث العلمي لا للعلم في نفسه . إذ العلم قليله وكثيره علم . وجيّده ورديئه علم . وما صح فيه وما تشابه منه كل ذلك علم ، أما البحث العلمي فمداره على التحقيق والتمحيص فهو فوق العلم لانه سببه وغايته والواسطة اليه ، والبحث يتناول الباطل كما يتناول الحق لانه بحث ولذلك وُضع وبذلك مادته فلو أطبق الناس جميعاً على رأي من الآراء أومذهب من المذاهب ثم قام أستاذ فى هذه الجامعة فنقض ذلك الرأى وذهب خلاف ذلك المذهب كان له أن يفعل ما وسعه وأن ينقض وأن يخالف وهو مصيب وان أخطأ . وقريب من الحقيقة وان بعد وعالم وان جهل الجهلة التي لا يلعن ما قبلها إلا مابعدها . . .

قالوا فانه انما يبحث ليهتدي إلى شيء فان اهتدى فقد اهتدى وإن ضل شفع له أنه مجتهد وأنه لم يُسْلَب الرأيَ الصحيحَ إلا برأي ظن الصحة غالبة عليه

ومعنى هـذه الفلسفة أن مضغ الماء كمضغ الخبز كلاهما يحتاج إلى الأسنان الحادة والأضراس الطاحنة والأنياب الشَّكِسة مادام الذى يمضغ الماء أستاذاً فى الجامعة وما دام المضغ عنده يسمى بحثاً إذ العبرة به وحده إن تعاقل وإن تحامق وإن صدق وإن كذب وما الجامعة إلا مصنع ومُخْتَبَر تكشف فيه آراء وتصنع فيه آراء وتزوّر فيه آراء والأستاذ

فى الجامعة يقول ما يشبهه رأيا وعقيدة وعاما وجهلا ويمضي فى «البحث» على ما يخيّل له حقا أو باطلا فما رآه هو الصحيح فلا صحيح غيره ولا صحيح من قبله أو بعده

فيا أيها الناس . . . وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شَطره : و«جعل الله البيتَ الحرامَ قياما للناس» وجعل الله الجامعة الحرام قياما للناس

على انه إن صح شيء من ذلك أو قارب أن يصح فقد وجب أن لا يتولى التدريس فى الجامعة إلا رجل لا يوزن به أحد فى علمه الذى يتولاه ويكون من أيسر صفاته أنه فوق كل صفة معروفة فى نظرائه وأندادء ، قد تم من حيث يتمون وزاد عليهم أشياء ليست فى المواهب المعروفة بل تقع فى أقصى ما يبلغ العقل الانسانى عند الافق القريب من الوحي والإلهام . فان ظفرت الجامعة بمثل هذا العقل الفذ كان لها أن تقول ما هي قائلة وأن تزعم ما شاء لها الزعم وهي فى ذلك آمنة أن يُرد عليها لانها حينئذ تتكلم بما لا يسمو اليه كلام آخر وتأتى الناس بما فيه زيادة على الناس ، ويكون ذلك من حجتها عليهم فيسكت المتكلم وينقطع المكابر ولا يبقى إلا التسليم للأقوى على الأصل الذى بنيت عليه الطبائع كلها .

ولقد يتفق للجامعة المصرية مثل هذا الاستاذ — الذى يأ كل الاساتذة — تجده فى علم كالقانون أو الطب أو الفلسفة ونحوها مما تَعَاوَرَهُ العلماء من أجيال بعيدة وفرغوا منه تدوينا وتعليقا وشرحا وتحقيقا ولم يبق إلا مثل ما بقي مما تتفاوت به العقول وتختلف القرائح فى حدة الذكاء وقوة الملاحظة من رأي يزاد عليه أو ينقص منه ، ولكن أين مثل ذلك فى تاريخ الأدب

العربي وهو علم لا يزال يتخلق ولا يزال كالجزائر البركانية تظهر الجزيرة بحالها في البغتة والفجأة وتخسف الأخرى في مثل ذلك. وما علة ما يظهر إلا علة ما يخسف . ولكن لابد أن يقع الحدثُ ثم تجيء الفلسفة والتعليل بعد ذلك

ومن العجيب أن أستاذ الجامعة الدكتور طه حسين لم ينتهج إلا الطريقة التي لا تلتئم مع طبيعة هذا التاريخ فهو يبحث دائماً عن العلة في أحد شيئين إما في غير معلولها وذلك خطأ كبير وإما في معلولها بعد أن يغيره على ما يتوهم وذلك شر من الأول : ومثل هذا إن سمي بحثاً وسمي فلسفة في التاريخ لا يمكن ألبتة أن يسمى تاريخاً ولا يخرج منه إلا كلام مستفيض هو على كل حال كلام قائله وعلى قدر من عقله وذكائه واطلاعه وطريقة فهمه لا بحسب التاريخ ورجاله وعلله ، فيكون الأستاذ كأنما يدرس فناً من الكلام بعض مادته من التاريخ لا فناً من التاريخ بعض مادته من الكلام

وهذه الطريقة التي تسمى علمية هي في التاريخ أجهل الطرق لأنها تختلف فيما تقرره باختلاف الرجال والأزمنة مع أن التاريخ شيء ثابت لا يختلف ولا يمكن أن يخلق مرة أخرى لا بانشاء الجامعة المصرية ولا بأمر وزارة المعارف . . . ومتى ولد التاريخ لم يهرم ولم يمت ، ثم تلك الطريقة هي أيسر الطرق وخاصة على من كان قليل الاطلاع فانك لا تتقيد فيها بمعروف تعرفه ولا بمنكر تنكره إلا ما شئت وشاءت لك غفلة من حولك ، ثم إنك تركب إليها كل أسلوب فاذا جميع الطرق تؤدي إلى غايتها

لأنها لا غاية لها إلا ما توهمتَه غاية وقلت إنه غاية . والتاريخ نوعان أحدهما طوى عليه الدهر وقد وقع وانقطع فلا تغني فيه هـذه الطريقة شيئاً . والآخر تطوى عليه أدمغة مؤلفي الروايات ومن ينسجون في العلم على منوالهم . . . ولا أفيد في كشف أسرار هذا النوع وإظهار حقائقه . . . من هذه الطريقة

فالبحث في تاريخ الأدب على الاصل العلمي الذي أنشئت له الجامعة . — كما يقولون — إنما ينتهي بهذا التاريخ إلى أن يكون فنا من الكذب تلبسه الجامعة صفتها العامية فيصبح كذباً صحيحاً وهذا نصف الشر فيه أما النصف الآخر فانه متى جرى مجرى الصحيح وتداوله الناس بهـذا الاعتبار لم يبق إلا أن تكون الكتب العربية التي بين أيدينا كذباً محضاً وهـذا ما يرمي إليه الدكتور طه حسين كما بيناه فالجامعة تقيم له الاساس ثم هو يبني . هذا إذا سكتت الجامعة عنه وظلت تَتَحَنَّفُ بهذا السكوت الفلسفي (١) . وقد حضرتني الآن أرجوزة صغيرة أحب أن أهديها لصاحبنا الدكتور طه حسين ليتقاصر قليلا فانه لن يخرق الارض ولن يبلغ الجبال طولا وما هو إلا كما هو

يا عجباً (طه) أديبُ العصرِ
أصبح مثلَ انجلترا في مصرِ
أسطولُه براعـةٌ في شِبْرِ

---

(١) كان سكوت الجامعة فلسفياً فانقلب سكوت الخزى بعد ان انفضح استاذها وانفضحت به

وبحره زجاجةٌ من حبر
وملكُهُ مترٌ بنصف متر
في مجلس للدرس بل للهتْر (١)
يجلس فيه مثلَ ضبِّ الجُحْر
معقِّداً من ذَنَب لظهر
تعقيدَ من خُلقوا للمكر
وهبطوا الدنيا لأمرٍ نُكْر
يحتكّ في كل أديب حُرّ
يخيفه بالشتم أو بالشر
كأن فيه روحَ حرفَ جر . . .
يا ويحَه من واهم مغترّ
يفزّع الليثَ بوجه الهر . . .

* * *

إسفنجةٌ جاءت لشرب البحر
وشمعة ضاءت لشمس الظُّهر
والشيخُ طه في انتقاد الشعر
ثلاثةٌ مضحكةٌ لعَمْري

* * *

(حاشية) بعد كتابة هذه الكلمة تلقيت كتاب الدكتور طه حسين.

(١) الهتر السقط والخطأ من الكلام

فى الشعر الجاهلى فتجاوزت المقدمة وقرأت الفصل الذى سماه (مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن) فياعجباً انه والله لتهكم شديد من القدَر أن لا يكون مقر الجامعة إلا قريباً من مستشفى الأمراض العقلية . . . وسنقرأ هذا الكتاب فهو الجامعةالتى رفعنا أسئلتنا اليها ...

قال انما أوتيته على « علم » بل هى فتنة

قرأت كتاب (الشعر الجاهلي) وقد كتب فى عنوانه « تأليف طه حسين استاذ الآداب العربيــة بكلية الآداب بالجامعة المصرية » فما أكثر أسماء الهر وما أقل الهر بنفسه . . . ان معنى العبارة أن الرجل استاذ الشعر والكتابة وأساليبهما وما يدخل ذلك من تفسير ونقد ، ثم تاريخ الأدب وتحليله وتصحيح رواياته وجمع مسائله والمقابلة بين نصوصه ثم علوم الأدب المعروفة كفنون البلاغة وفنون الرواية فهذه هي « الآداب العربية » ومهما أدعى استاذها فى الجامعة فلن يدعي أنه شاعر ذو مكانة ولا أنه كاتب ذو فن واذا أسقطنا هذين فماذا يبقي منه الا ما يتمحّل من بعض الأسباب التاريخية . ثم ما غَناء هذه الأسباب وتاريخ الأدب قائم على الشعراء والكتاب وصاحبنا يرجع في ذلك الى طبع ضعيف لم تُحكمه صناعة الشعر ولا راضته مذاهب الخيال ولا عهد له بأسرار الالهام التي صار بها الشاعر شاعراً ونبغ الكاتب كاتباً وما هو الا ما ترى من خلط يسمى علماً وجرأة تكون نقداً وتحامل يصبح رأياً وتقليد للمستشرقين

يسميه اجتهاداً وغضٍّ من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إماماً وهدم أحمق يقول هو البناء وهو التجديد ، وما كنا نعرف على التعيين ما الجديد أو التجديد فى رأي هذه الطائفة حتى رأينا استاذ الجامعة يقرر في مواضع كثيرة من كتابه أنه هو الشك ومعنى ذلك أنك ان عجزت عن نص جديد تقرر به شيئاً جديداً فشُكّ في النص القديم حسبك ذلك شيئاً تعرف به ومذهباً تجادل فيه لأن للمنطق قاعدتين احداهما تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان والأخرى إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة . ومَثَلُ طه والقدماء مَثَلُ رجلين من أهل المنطق أحدهما قال هذا اللون أسود فلا يجوز أن يكون أبيض والآخر (الحسيني . . .) قال كلا بل هذا اللون ليس بأبيض فيجوز أن لا يكون أسود ، وما الفصل بين يجوز أن لا يكون ولا يجوز أن يكون الا موهبة من الله اذا هي لم توجد لم يغن البرهان من الحق شيئاً ولا يزال أحد الرجلين مع الآخر فى لَجاج ومكابرة قد تَهَاتَرَتْ بيّناتُهما وسقطت لأن المنطق لا يصح منه إلا ماصحّح العقل منه فحيث لا قيمة للعقل لا قيمة للمنطق .

وانه لولا ضعف خيال الدكتور طه وبعدُه من الصناعة الفنية فى الأدب واستسلامه لتقليد الزنادقة وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم فى الآداب العربية ثم لولا هذه العصبية المقوتة التى نشأت فيه من هاتين الصفتين الى صفات أخرى يعرفها من نفسه حق المعرفة لكان قريباً من الصحة فيما يرى ولتدبّر الأمور بأسبابها القريبة منها واستعان عليها بما يُصلحها ولتوقى بذلك جناية التهجم التى هي فى أكثر

أحوالها علم الجهلاء وقوة الضعف وكياسةُ الحمق وعقل المرورين . على أن العصبية هي دائماً نصف الجهل وان كانت في أعلم الناس وأذكاهم وقديماً أفسدت من تاريخ الأدب العربي أكثر مما أفسد الغلط والجهل معاً . وقد نصّوا على أن ذهاب الواضح الجلي من الأدب الذي لا يمترى فيه انما يكون على اثنين : أحدهما من لم يكن مُرْتاضاً بالصناعة متدرباً بالنقد بصيراً بما يأتي ويدع . والثاني الرجل العالم يعرف أنه يعرف ثم تحمله العصبية على دفع العيان وجحد المشاهدة فلا يزيد على التعرض للفضيحة والاشتهار بالجور والتحامل (١)

هذا في العالم المتدرّب المرتاض فكيف بالعصبية في العالم القائم على ركن واحد من ثلاثة أركان فإن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخها وتقصّي موادها ذوقاً فنيا مهذبا مصقولا وليس يمكن أن يأتي له هذا الذوق إلا من إبداع في صناعتي الشعر والنثر ثم يجمع إلى هذين الاحاطة والذوق تلك الموهبةَ الغريبة التي تلف بين العلم والفكر والمخيلة فتبدع من المؤرخ الفيلسوف الشاعر العالم شخصا فوق هؤلاء جميعا هو الذي نسميه الناقد الأدبي

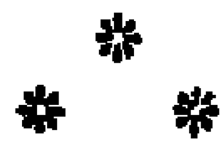
متى لم تجد الخيال القوي في مؤرخ الأدب ومتى رأيت هذا المؤرخ لا يتوكأ إلا على المنطق والمقاييس والأوزان فاقدف به وبتاريخه وأدبه.

---

(١) قال الجاحظ في بعض رسائله : قال اهل الفطن أن محض العمى التقليد في الزندقة لأنها اذا رسخت في قلب امرئ تقليدا أطالت جرءته واستغلق على أهل الجدل افهامه . قلنا وما من اصحابنا المجددين الا من هو مقلد في الزندقة فلا عجب طالت الجرءة منهم واستغلقوا

وآرائه حيث شئت . فانه لا يمتنع فى يدك ولا يستعصي عليك لأن سكونه واستقراره — ولو كانا على كرسي الجامعة — لا يأتيان من أنه وثيق ركين ولا من أن أصوله شابكة متصلة بل من سكون الريح من حوله وحياطته بالأستار من هنا وهنا فان صاحب العلم رجل وصاحب الفن رجل غيره والاصل فى العلم العقل والاصل فى الفن الغريزة ودليل العقل المنطق والقياس ودليل الغريزة الحس والموهبة

والأدب من العلوم كالأعصاب من الجسم هى أدق ما فيه ولكنها مع ذلك هى الحياة والخلق والقوة والابداع ولا تقاس بمقياس العظام المشبوحة الغليظة ولا توزن بميزان العضلات المكتنزة الشديدة ولا ينفع فيها المتر ولا الكيلو . . فان جاءك صاحب المتر أو الكيلو فاقذف به الطريق وإن قال لك إن المتر مقسم إلى مائة جزء وكل جزء إلى عشرة أجزاء . . . .



قبل أن نخوض فى كتاب الاستاذ طه حسين نشكر له ماتفضل به من الثناء علينا فى كتابه واستثنائه إيانا فى بعض المعاني من كل من درسوا تاريخ الآداب العربية ونحن دون هذا فى نفسنا ودون ما أبلغنا إياه مع بعض أصدقائنا [1] وإن كنا نعرف من صنيع الاستاذ الفاضل أنه لا ينصفنا مرة إلا بعد أن يظلمنا مراراً وأنه اتخذ الوقيعة فينا مذهباً عرف به وغلب

---

(١) نستحى من ايراد ما أبلغنا هذا الصديق ولكن كل مبالغة فيما وصفنا به الواصفون الى اليوم تقع دون ماتفضل به الاستاذ علينا فله الشكر كفاء ماأثنى

عليه حتى لايكاد يقول أنصار القديم أو يكتب أنصار القديم أو يذم أنصار القديم إلا توجه ذلك عنده الينا خالصا لنا من دون المؤمنين . . . وهو لو عافاه الله من التعنت بعامه على الناس ورزقه نعمة الوقوف عند حده وحفظ عليه الفضيلة الشرقية الاسلامية لربحناه ربح الذهب والفضة . ولكننا كيفما عاملنا به فى سوق الشرق والغرب لم نجده فى يد الشرق إلا نحاسا وفى يد الغرب الا ذهبا فهو دينار ولكن فى الديون التى علينا أما فى الديون التى لنا فلا يحسب لنا الا . . . « بقرش خردة » . . . .

التمسنا فى كتاب الشعر الجاهلى تلك المسائل الأربع التى رفعناها الى الجامعة فاذا الأستاذ قد حذف منه أعظمها خطراً وأكبرها شأناً وهي مسئلة محو المسلمين شعر النصارى واليهود لم يقل فيها شيئاً ولا أشار اليها الا اشارة خفيفة كأن في الأمر أثراً من حزم الأستاذ الكبير مدير الجامعة — فقال في صفحة ٨٤ عن أمية بن أبي الصلْت « إنه وقف من النبي (ص) موقف الخصومة هجا أصحابه وأيد مخالفيه ورثى قتلى بَدْر من المشركين وكان هذا وحده يكفى للنهي عن رواية شعره وليضيع هذا الشعر كما ضاعت الكثرة المطلقة من الشعر الوثني الذى هجي فيه النبي (ص) وأصحابه حين كانت الخصومة شديدة بينه وبين مخالفيه من العرب الوثنيين واليهود » وقال فى صفحة ٩٥ ليس اذن شعر أمية بن أبي الصلت بدعاً فى شعر المتحنفين من العرب أو المتنصرين والمتهودين منهم وليس يمكن أن يكون المسلمون قد تعمدوا محوه الا ما كان منه هجاء للنبي (ص) وأصحابه ، ونعياً على الاسلام فقد سلك المسلمون فيه

مسلكهم في غيره من الشعر الذى أهمل حتى ضاع . فأنت ترى أن ههنا شيئاً من الاصلاح والحذف والاحتراس وبقى أن أستاذ الجامعة انخدع بقول كليمان هوار المستشرق الافرنسي فيما زعم من أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية شعر أمية فتابعه طه وظن ذلك صحيحاً غير أنه علل النهي بغير العلة الحمقاء السخيفة التى جاء بها هذا المستشرق (١) . ولكن ما الدليل على صحة خبر النهي وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي (ص) استنشد من شعر أمية وما زال يقول للمنشد ايه ايه حتى استوفى مائة بيت . ان هؤلاء المستشرقين أجرأ الناس على الكذب ووضع النصوص والمبالغة في العبارة متى تعلق الأمر بالاسلام أو بسبب يتصل به وكل ما عرف من أمر ذلك النهي أن النبي (ص) نهى عن رواية القصيدة التى رثى بها أمية قتلى المشركين في بدر وهي مع ذلك لا تزال مروية في كتب السيرة الى اليوم فان وقوع النهي لا يقتضي محو المنهي عنه ولا تركه عند من أراده وقد نهى الله عن أشياء كثيرة مازالت تؤتى وستبقى ما بقيت الفطرة الانسانية . فما أهمل شعر أمية ولا نهي عن روايته ولكنه الكذب والغفلة من الاستاذين . على أن الدكتور طه يقول في صفحة ٥٤ . كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش ويحرصون على أن لا يضيع فكيف ضاعت اذن « الكثرة المطاقة » وما يمنع قريشاً أن يكتبوا هجاءهم كما

(١) يرى هذا الرجل ان شعر امية مصدر من مصادر القرآن .... أخذ بعض القرآن منه فلذلك وقع النهى عن روايته وليس فى الجهل أجهل من هذا ولكنه مع ذلك قول استاذ مستشرق اسمه كليمان هوار

فعل الأنصار واذا كانوا يكتبون مثل هذا فذلك نص على انه لا حرج من روايته

لقد كتب شيخ الأدب صديقنا الأمير شكيب ارسلان ما فيه الكفاية للرد على استاذ الجامعة فى بناء التاريخ على التحكم والافتراض وزعمه أن المسلمين محوا شعر النصارى واليهود أو تسببوا الى محوه ، فلا نطيل فى هذا المعنى غير اننا نضيف الى ما قاله شيخنا الجليل انه لما أسر سهيل بن عمرو من مشركى قريش وكان أعلم أى مشقوق الشفة السفلى وأرادت قريش فداءه قال عمر بن الخطاب للنبي (ص) انتزع ثَنِيَّتَيْ سهيل بن عمرو السفليين يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلق الرجل فلو انه كان يمحو شيئاً أو يأمر بشيء فى توقي الكلام وإبطاله لمحا أكبر وسائل الخطابة فى هذا الخطيب المشرك ولتركه ما يبين حرفاً من حرف ولا يقيم الكلام على أصواته فلا يفلح بعدها فى الخطابة أبداً . وما يزال المسلمون يروون الى اليوم قول ابن الزِّبَعْرَى (١) فى الرد على النبي (ص)

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو

وقول ذلك اليهودى حين ضلت ناقة النبي (ص) يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته

وهنا نريد أن نقول للدكتور طه إن بعده من صناعة الشعر هو الذي أوقعه فى هذا الرأي السخيف فلو نظم اليهودي هذه الكلمة فما

---

(١) ينسب هذا البيت لابي نواس أيضاً ولديك الجن

عسى أن يزيد على ما قال . وهل شعر النصارى واليهود إلا كشعر سائر العرب فى الفخر والهجاء والوصف والنسيب وغيرها . أم حسب الدكتور أن شعر النصرانى يجب أن يكون في عقائده وإنجيله وشعر اليهودي في توراته وتجارته ... ولعله لا يعلم أن أضعف ما يكون الشعر في الصناعة اذا هو تناول هذه المعاني وأشباهها كما يقع فى شعر العلماء والمتصوفة حتى قالوا إن شعر حسان بن ثابت نزل في الاسلام الى دون ما كان عليه فى الجاهلية ؛ قال الأصمعي : الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان (أي ضعف) ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علاً في الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثي النبى صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره ؛ وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والترحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فاذا أدخلته في باب الخير لان . انتهى

على أن شعر اليهود والنصارى كان متميزاً فى الرواية فان لم يكن وقع الينا فذلك لسقوط الرواية وضياع الكتب لا لضياع الشعر فى نفسه باهمال المسلمين . وقد ضاعت معان كثيرة من عادات الجاهلية وأعمالها مما أبطله الاسلام أو لم يبطله ومع ذلك أداها الشعر ولم يتحرج العلماء من روايته وهذا ابن قتيبة يقول فى كتاب الميسر والقداح . إن الميسر أمر من أمور الجاهلية قطعه الله بالاسلام فلم يبق عند الأعراب إلا النبذ

اليسير منه وعند علمائنا إلا ما أدى اليهم الشعر القديم

وقد كتب الجاحظ فيما روى قال : أدركت رواة المسجديّين والمربديّين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة » . فهذا نص على أن رواية شعر اليهود كانت فى الاسلام باباً خاصاً من أبواب الرواية ونوعاً متميزاً من طرائف الشعر.[1]

وللامام المَرْزُبانى كتاب قالوا إنه فى أكثر من خمسة آلاف ورقة كسره على اثني عشر باباً منها باب خاص بديانات الشعراء فى أشعارهم ومنهم اليهود والنصارى .

إن أستاذ الجامعة ليعلم علماً لا يدخله الشك الذى يتباهى به ... أن كتب السلف لم تنته الينا بجملتها ولا انتهى أكثرها ولا ما يقال فيه إنه كثير : وأن الرواية لم تتأد الينا بما كانت تحمل من ذلك العلم المستطيل من الأشعار والأخبار والنقد فكيف يجوز له أن يحكم على شعر الجاهلية بأنه موضوع أو محمول على أهله أو الكثرة المطلقة منه موضوعة محمولة وهو لا يروي هذا الشعر وهو لا يعرف ما مقداره ولا يحيط بأقله فضلا عن أكثره ؟ وقد قالوا إن ابن الاعرابى أملى وحده من الشعر أحمالاً فأين هذه الأحمال اليوم حتى يقابل مافيها بعضه ببعض ومن الذى يستطيع فى عصرنا أن يقول فى الشعر هذا يشبه شعر الجاهلية وهذا لا يشبهه والتوليد

---

(١) وقال الجاحظ في رسالة الرد على النصارى : ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة فى العرب معروفة عند اهل النسب ولولا ذلك لدللت عليها بالاشعار المعروفة

فى هذا بيّن والصنعة فى ذلك ظاهرة وهذا يقول فلان أشبه وهذا ليس من نسج فلان ولا من طبقته وذلك منحول رويناه فى شعر فلان الخ الخ؟ وقد وضع ابن سلاّم كتاباً فى طبقات فحول شعراء الجاهليين لا يعرف الا اسمها أفتحسب راوية مثله يضع فى أوائل القرن الثالث كتاباً فى أسماء هؤلاء « الفحول » وليس بين يديه من شعرهم الكثير الصحيح قد غُربل ونُخل ونقي منه الموضوع والمنحول وما تقولته العشائر بأهوائها وما دسه الرواة بسبب من أسبابهم ؟ نحن لا ندفع أن يكون فيما يعزى إلى الجاهلية شعر محمول على أهلها حملا وشعر قد نحلوهم إياه من كلام الشعراء المغمورين وقد بينا ذلك فى تاريخ آداب العرب فى باب الرواية والرواة من الجزء الأول وهو الباب الذي بنى عليه الدكتور طه كتابه فى الشعر الجاهلى

ولكن بيننا وبين الجاهلية ثم من نقلوا عنها أزماناً متناسخة كادت توفّى خمسة عشر قرناً وقد باد أكثر الكتب وذهبت فيها أقوال الرواة وعلم العلماء مما حققوه ونصوا عليه وما تسامحوا فيه وتوسعوا به فلا يجوز لكائن من كان بين قطبي الأرض أن يثبت أو ينكر ويزيد أو ينقص الا بنص عن المتقدمين لأن هذا العلم لا يمكن أن يستقيم على اتباع الظن ولا أن يصح على الشك فان محل الفرض والتخمين والحدس والاستنتاج انما يجيء بعد أن تجتمع المادة من أطرافها بحيث لا يشذ منها الا القليل الذي يفرض فيه لقلته انه لا ينقض حكما ولا يبطل رأياً للاستغناء بالنصوص الاخرى المتوافرة التي تتحقق بها غلبة الظن إن لم يأت منها اليقين . والأمر فى يد أستاذ الجامعة المبتلى بالشك على النقيض

من ذاك فلا هو يستطيع أن يرد ما ذهب من الكتب فيستوعبها ولا هو يمكنه أن يطلع على كل ما هو مبعثر في زوايا الدنيا من الكتب التى لم تذهب ولا هو اطلع على كل ما تناله أيدى الأدباء ، ثلاث درجات يسفل بعضها عن بعض فالعجب الذى ليس مثله عجب أن يكون الأستاذ ناقصاً هذا النقص كله ثم يزعم انه يدعو الى الطريقة العلمية فى تاريخ الادب وانه يمحص ويحقق ويثبت وينفى ويوقن ويشك وهذا هو المضحك من أمره فان أخص شروط الطريقة العلمية فى درس التاريخ وكتابته أن يستوعب المؤرخ كل ما قيل وكتب فى موضوعه مما يتعلق بحادث أو شخص أو موضع لا يفوته من ذلك شىء فاذا هو أتى على المادة ووضع يده منها حيث أراد وأمن أن يكون قد ند عنه أمر ذو بال جاء الشرط الثانى لهذه الطريقة ووجب حينئذ أن ينتفي من أهوائه ونزعاته ويتجرد من شخصه الانسانى ليصبح فى عمله شخصاً تاريخياً كما يتجرد القاضى ليكون فى قضائه شخصاً قانونياً ليس غير . بيد أن طه تجرد قبل أن يلبس . . . وهذا نوع من الهزل إن احتمل من كاتب فى صحيفة لا يحتمل من مدرس فى جامعة

ومع ان الطريقة العلمية قائمة على استقراء المادة والاحاطة بها من جميع جهاتها فهى لا تخرج التاريخ نفسه كما هو فى الواقع وانما تجىء برأي فيه يكون معياره دائما ذكاء صاحبه وعقله وخياله ولهذا اشترطوا فى صاحب تلك الطريقة أن يكون ممن رزقوا البراعة كل البراعة فى اصابة الحدس وقوة الخاطر وسمو الخيال وإلا خرج عمله بلا معنى أو بمعنى لا قيمة

له أو بقيمة ضعيفة تنزل من التاريخ منزلة الهيكل العظمي من الجسم الحى

وضع الامام المرزبانى كتابا غير الكتاب الذى أومأنا اليه آنفاً قال ابن النديم انه أكثر من خمسة آلاف ورقة أتى فيه على أخبار (الشعراء المشهورين) من الجاهلية وبدأ بامرئ القيس وطبقته ثم المخضرمين ثم الاسلاميين الى أول الدولة العباسية فهذه أخبار شعراء مائتي سنة من التاريخ بل المشهورين منهم وقد كتبت فى خمسة آلاف ورقة أي عشرة آلاف صفحة لم ينته الينا منها صفحة واحدة فكيف مع ضياعها وضياع الكثير من أمثال هذا الكتاب الجامع الممتع يُقبل عقلا من مؤرخ عامي يجلس فى كرسي التحقيق أن يقرر مثل هذا الهُراء الذى جاءنا به الدكتور طه حسين فى انكار الشعر واثباته على حين انه مع هذا النقص الفاضح تنقصه كذلك ملكة الشعر فما هو بشاعر يدرك بالحس كما أدرك مثل ذى الرمة حين سئل عن شعر أنشده حماد الراوية فى مدح بلال بن أبي بردة فقال إنه جيد وليس له فلما عزم بلال على حماد ليخبرنَّه قال إن الشعر قديم ولا يرويه غيرى وقد انتحلته . ولجرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء أخبار كثيرة من مثل هذا يقرأون بنفوسهم كما يقرأون بأعينهم ، فلا يحسن أن يقول المؤرخ فى الشعر الا اذا كان شاعراً يوثق بملكته فان الحس والملكة من أقوى أسباب الرأى فى مثل ذلك

ومع نقض النقص فى أستاذ الجامعة فهو لا يحسن نقد الشعر لأن النقد قائم بالملكة والفهم لا بالفهم وحده ولم ينتقد فى كتابه الشعر الجاهلي نقداً فنياً إلا بيتاً واحداً من قصيدة عمرو بن كلثوم المعروفة بالمعلقة وهو قوله

ألا لايجهلنْ أحــدٌ علينا فنجهَلَ فوق جهل الجاهلينا

قال الأستاذ : «قلت إن هذا البيت يمثل إباء البدوي للضيم ولكنى أسرع . . ، فأقول إنه لا يمثل سلاسة الطبع البدوي وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل فقد كثرت هذه الجيمات والهاآت واللامات واشتد هذا الجهل حتى مُلَّ » انتهى . قلنا ليته لم يسرع ولم يفرح بهذا الخاطر فقد عثر من اسراعه فامتلأ فمه ترابا ومتى كان الأستاذ طه حسين يفطن إلى عيب تكرار الحروف وهو الذى كانت تضرب به الأمثال فى التكرار قبل أن نلقّنه ذلك الدرس فى جريدة السياسة وهو لم يبرأ بعد من هذه العلة فقد رأينا له مقالا فى مقتطف شهر مارس من هذه السنة ١٩٢٦ جاءت فيه هذه الشأشأة . . . . « يمضى حيث يشاء ويصور الاشياء كما يشاء لا كما تشاء الأشياء » فتأمل

نقول لأستاذ الجامعة إن التكرار فى بيت عمرو بن كلثوم هو سر البلاغة فيه وهو اللون الذى نفضه الشاعر من ألوان روحه على المعنى ليخلقه خلقا حيًّا بحيث لو لم يكن هذا التكرار لضعف المعنى وسقطت رتبة الشعر فان هذا الشاعر يمثل فى البيت غضب قومه وحفاظهم وقدرتهم على المجازاة والنقمة والأخذ الشديد لمن عزّ وهان فلم يقل إذا جهل أحد علينا فعلنا وفعلنا (وكان يستطيعه إذا جعل البيت : متى ما يجهلن أحد علينا جهلنا الخ) بل نبه أولا بقوله (ألا) ثم نهى بعد ذلك أن يجهل أحد عليهم ليُشْعِر أن لقومه الأمر والنهي فهذه واحدة. ثم كرر بعد ذلك لفظ الجهل بالفعل والمصدر وإسم الفاعل ومضى به إلى منقطع الشعر جهلا بعد

جهل ليشعر النفوس أن انتقامهم بلاء لا آخر له يتتابع فيه الجهل الذى لاعقل معه فلا رحمة فيه وكأنه يقول إن الصاع بثلاثة وإن من أساء إلينا واحدة رددناها عليه ثلاثا وكل ذلك إنما أفاده التكرار وهذا هو غضب الطبع البدوي وحفيظته فلا تنتظر من هذا الطبع الحر سلاسة ولا رقة فى موقف الغضب والتحذير وإنذاره أعداءه البَطْشَةَ الكبرى بل ترقّب الهول الهائل التى تمثله لك الجيمات والهاآت واللامات إذا ملأ بها شدقيه عربي جهير الصوت نخم الإنشاد ثائر العاطفة غضوب الدم يهدر بالكلام هديراً . أفرأيت يا أستاذ الجامعة ؟

*
* *

من أقبح ما فى كتاب الدكتور طه حسين انه يعلن فى مقدمته تجرده من دينه عند البحث يريد أن يأخذ النشء بذلك اتباعا لمذهب ديكارت الفلسفى [1] الذى يقضي على الباحث بالتجرد من كل شيء عند ما يبحث عن الحقيقة قال الاستاذ : يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها « وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به »

(١) فيلسوف فرنسي توفي سنة ١٦٥٠م وله المذهب الفلسفى المنسوب اليه القائم على هذه الكلمة : أنا افكر فأنا اذن موجود . وخلاصة مذهبه ان لاتقر حقاً لست على بينة من أنه حق وأن لاتقطع بالرأى حتى تكون على يقين من انك محصته ولم يفتك نص ولا شيء مما تستعين به وان تجزىء كل مشكلة تمتحنها الى الاجزاء التى لايكون الحل بدونها حلا وان تجرى فى التفكير على نظام تدريجى من السهل الى مافوقه . وقد ثبت أن طه لم يفهم هذا المذهب وانه شعوذ به على الطلبة وانه لايعدل جهله فيما ينقل عن العربية الا ماينقله عن الفرنسية . . .

وهذا لعمري هو منتهى الجهل فان هنالك فرقاً بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية محضة وبين البحث عن حقيقة أدبية تاريخية قائمة على النص وقول فلان وفلان . واذا هو نسي دينه (وتأمل ما فى هذه العبارة) فماذا يكون من أثر هذا فى التاريخ مادامت المادة التاريخية لم تجتمع له كما أسلفنا ومادام الأستاذ مبتلى بالنقص من كل جهة

أما إنه قد نسي دينه حقيقة فى رده على كليمان هوار المستشرق الفرنسى الذى زعم أنه اهتدى الى مصدر عربى من مصادر القرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت (الذى يجب أن يكون النبى قد استعان به كثيراً أو قليلا فى نظم القرآن) كما جاء فى كتاب طه ؛ كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا ، وقد كان رد أستاذ الجامعة الذى نسي دينه أنه أنكر الاستعانة بشعر أمية ولكنه لم يرد على حماقة هوار فى زعمه أن القرآن من نظم النبي بل سكت عن ذلك بل قال بالحرف الواحد فى صفحة ٨٣ (ليس يعنينى هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية أو لا يكون) فالأمر عنده على حد الجواز كما ترى . وليس يعنيه أن يكون دينه ودين أمته صحيحاً أو كذباً . . . ولو كان طه حسين بليغاً من أئمة البلاغة لقلنا رأي رآه وان كان كفراً والحاداً ولكنه هو هو هو.. على أن كل كلامه فى هذا الكتاب عن القرآن الكريم كلام من (نسي دينه) بل كلام من لا دين له فليس فى الأمر عنده معجزة ولا إعجاز ولا تنزيل وسيأتى هذا مفصلا بعدُ

إن هذا الكتاب السخيف الذى جاءتنا به الجامعة مما تضيق به النفس

لكثرة ما فيه من الخطأ حتى لا يطيقه الا من كان فى عقل صاحبه وضعف حجته وتهافت آرائه وكثرة سقطه وقد وجدنا أن أقوى ما يستند إليه المؤلف فى كذب ما روي من الشعر الجاهلى دليل واحد اجتهد فيه وكرره وسماه عقدة لغوية وأيقن أن أنصار القديم لا يستطيعون فيه شيئاً وذلك ظنه أن اختلاف لهجات العرب يجب أن يكون فى أشعارها ولما كان شعر الجاهلية ليس فيه شيء منها فهو موضوع بعد الاسلام و بعد أن صارت اللغة قرشية قال : فهذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعى اللازم فى الشعر . فى أوزانه و تقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام . وإذا لم يكن نظم القرآن وهو ليس شعراً ولا مقيداً بما يتقيد به الشعر قد استطاع أن يستقيم فى الأداء لهذه القبائل (يريد اختلاف القراآت) فكيف استطاع الشعر وكيف لم تحدث هذه اللهجات المتباينة آثارها فى وزن الشعر وتقطيعه الموسيقى » ؟

فما هي اللهجات يا أستاذ الجامعة كان ينبغي أن تستقريها قبل أن تعترض بها فانك لو فعلت لرأيتها فى الجملة لا تغير شيئا من أوزان الشعر فهى فى معظمها بين ابدال حرف بحرف أو حركة بحركة أو مد بمد وكل ذلك لا يؤثر فى إقامة الوزن كثيراً ولا قليلا والاختلاف فى الحقيقة هيئات فى النطق والصوت أكثر مما هو هيئات فى الوضع واللغة . ومع ذلك فقد نصوا على أن العربى الفصيح غير مقيد بلغة قبيلته إذا نافرت طبع الفصاحة فيه فمنهم من يوافق اللهجة ومنهم من يخالفها لسبب عند هذا وعند هذا راجع إلى الفطرة وقوتها ؛ ومن القبائل من تأخذ لهجة

غيرها كما فعلت قريش فقد كانت لاتهمز فلما نزل القرآن بالهمز اتخذت هذه اللهجة. ويجب أن تعلم يا أستاذ الجامعة أن عندنا نصا عن ابن الكلبي أن العرب لم ترو من شعر الجاهلية إلا ما كان إلى مائة سنة قبل الاسلام أى عمر رجلين يروي أحدهما عن الآخر وذلك هو الزمن الذى نهضت فيه اللغة وأخذ العرب بعضهم عن بعض .

ومع كل هذا فهناك نص آخر على أن من اختلاف اللهجات ما يؤخذ به فى إنشاد الشعر إذا وجد فى لغة من تُرْتَضَى عربيتُه ومنه مالا يؤخذ به إذا وجد فى لغة من لا ترتضى عربيته فذلك دليل قاطع على أن العلماء حذفوا أشياء لم يرضوها وغيروا فى إنشاد الشعر لافى نظمه قال شاعر من بنى تميم

ولاأكول لِـكدْرِ الـكَوْم قد نضجت ولاأكول لباب الدار مكفولُ

يريد لا أقول لقدر القوم الخ وهى القاف المعقودة التى ينطقونها بين القاف والكاف وكانت شائعة فى العرب وهي غير القاف الخالصة التى يقرأ بها القرآن . فهل روي كل شعر بنى تميم على هذا الوجه وماذا لو أبدلت الكاف فى البيت قافا لتوافق اللغة الفصحى فى الإنشاد ؟ وفى الحديث من لغة حِمْيَر « ليس من امبرا مصيام فى امسفر » إذ كان من لغتهم إبدال لام التعريف ميما وهذه العبارة لو أشبعت فيها حركة السين فى « ليس » خرج منها شطر موزون من الرجز فاذا أنشدته بالفصحى وقلت « ليسا من البر الصيامُ فى السفر » فأين تأثير اللهجات فى الوزن والتقطيع الموسيقى . . . والبحر والقافية ؟

فالدليل الذى حسب أستاذ الجامعة أنه ليس أقوى ولا أعضل منه فى بابه هو كما تراه أوهن أدلته وأسرعها اضمحلالاً فكيف بغيره مما تمحّل فيه وتكلف له التلفيق ؟

إذا أخذت قيسٌ عليك وخِنْدِفٌ بأقطارها لم تدر من أين تَسْرَحُ . .

أستاذ الآداب والقرآن

الى هيئة كبار العلماء ومجلس إدارة الجامعة

لقينا صديق من أدباء المسيحيين فقال ويحكم أين العلماء والكتاب الذين أقاموا القيامة على رسالة الأستاذ الشيخ على عبد الرازق [(١)] فان هذه الرسالة إنما هي تسبيح لله فى جنب كتاب طه حسين الذي درّسه فى الجامعة . فقلنا لهذا الأديب وكتاب طه حسين هو تسبيح لله فى جنب ما يكون فى نفس طه حسين فلولا دين الحكومة والقضاء والنيابة — كما يقول هو فى كتابه — لكان قد هدم السماء على الأرض وترك الآخر يلعن الأول ولافترى بين يديه ورجليه ويَسْرَته ويُمْنَاهُ ومافوقَ وما تحتَ سَخْطَةً على الدين وكتابه وعلى الإسلام ونبيه وعلى الأمة وعلمائها . وهو على ما يعرف من دين الحكومة والقضاء والنيابة لا تراه ينظر فى معنى من معاني الإسلام إلا جاء بشرّ النظرين وأشدهما جهلا وحمقاً . وتراه

(١) رسالة شهيرة اسمها الاسلام وأصول الحكم . ويخيل الينا ان بعض الناس لهم قوة على تنويم ابليس تنويماً مغناطيسياً . . . فالاستاذ البليغ الذكى الشيخ على عبدالرازق نوم ابليس وتلقى بعض آرائه أما طه حسين فنومه ابليس . . . .

يُزْهَى فى كتابه بأنه ممن « خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا » صفحة ٥ وأنه من فئة « حسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقيناً وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه » صفحة ٦ فهو لا يعد نفسه من أولئك الذين قال الله فيهم : « ولكِنَّ الله حبَّب اليكم الإيمانَ وزينه فى قلوبكم وكرّهَ اليكم الكفرَ والفُسُوقَ والعِصْيان » بل كرّه الله اليه الايمان وزين فى قلبه القلق والاضطراب والشك ، ولو نعلم أن كتابه وإلحاده حديث بينه وبين نفسه أو بينه وبين مثل كازانوفا[1] لأهملناه ثم لما كان حكمه عندنا إلا ماقال الله تعالى « من أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها » ولكن كتابه دروس ألقاها فى الجامعة على طلبة يقول هو إنهم زهاء مائتين فلقد أَمِرَ أَمْرُهُ إذن[2] بقوة هذه الجامعة وأصبحت الجامعة هي المتهمة بإزاغة عقيدة مائتي طالب وصارت فى معناها العلمي كمستشفيات المبشرين في معناها الطبي .. ومن ثَم وجب على أئمة الدين أن يحوطوا عقائد أبنائنا وإخواننا وأن يَزَعُوا الجامعة ويردوا جماحها ويكسروا شِرّتها وإلا شركوها فى الاثم وأعانوها عليه وقد أبلغنا فاللهم اشهد وإنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب

ولننظر الآن فى حماقة طه وتكاذيبه التي زعمها فى القرآن ووقاحته العجيبة فيما يكتب جهلا بأساليب الكتابة وذوقها واسترسالا مع طبعه الأحمق السفيه .

---

(١) رجل مستشرق واسع العلم فى مادته ولكن لاقيمة له ولا لرأيه فى الادب العربى وقد جاءت به الجامعة المصرية لتدريس اللغات السامية فكانت له مع طه حسين أحاديث في الوسوسة ... وستأتى الاشارة اليه فى بعض هذه المقالات

(٢) اى عظم شأنه وصار أمره امرا

يقول فى صفحة ٢٦ « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل وابراهيم الى مكة .. قال ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة . فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والتوراة والقرآن من جهة أخرى » . انتهى . فانظر هذه الوقاحة فى قوله « للقرآن أن يحدثنا » كأنه زَعْمٌ زاعم له أن يقول وأن لا يقول وإذا لم يكف النص فى كتاب سماوي تدين به الأمة كلها لاثبات وجود المنصوص عليه فما بقي معنى لتصديقه وما بقى إلا أن يكون القرآن كما يزعم المستشرقون أساتذة طه حسين وأولياءه كلاماً من كلام النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ومن نظمه وعمله كما نقل عن هذا الخرِف المسمى كليمان هوار ؛ فهو يدخله ما يدخل كلام الناس من الخطأ والغفلة والحيلة والكذب فله أن يزعم ما شاء ولكن ليس علينا أن نصدق أو نطمئن ، وإذا هو ذكر اثنين من الأنبياء وإذا هو ورد فيه قوله تعالى « وإذ يرفع ابراهيمُ القواعد من البيت واسماعيل » فذلك غير كاف فى رأي الجامعة المصرية لاثبات أن ابراهيم واسماعيلُ شخصان كان لهما « وجود تاريخي » ولا أنهما هاجرا إلى مكة ورفعا قواعد البيت الحرام وبنيا الكعبة ، وإذن فالقصة فى رأي الجامعة المصرية من الأساطير الموضوعة ومما يلتحق بحيل الروائيين التى يشُدُّون بها المعاني الاجتماعية ، والسياسية ، والتاريخية ، ويؤتى بها

فى الرواية على أنها من الكذب الفني توصلا إلى سبك حادثة أو تقرير معنى أو شرح عاطفة

أولا يعلم أستاذ الجامعة أن النصوص واردة بأن العرب لا يعدون اليهود منهم [1] وإن كانت الدار واحدة واللغة واحدة فما حاجتهم إلى حيلة روائية سخيفة وهم لم تفصل طباعهم على طباع طه حسين . . . ليكذبوا وينافقوا وهم يعلمون أنهم كاذبون منافقون على حين أنهم مستيقنون أن اليهود أهل كتاب وعلم فلا يقبلون من أمة جاهلة أن تضع لهم التاريخ ثم كيف دخل هذا الكذب واندست هذه الحيلة فى القرآن ؟ ؟ نبئوني «بعلم» إن كنتم صادقين

ويقول الأستاذ صفحة ٢٨ : « فقريش إذن كانت فى هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية وثنية وهى بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد فى البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة قال وإذا كان هذا حقاً ونحن نعتقد أنه حق فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخى قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التى تحدثت عنها الأساطير قال وإذن فليس ما يمنع قريشاً من أن تتقبل هذه (الأسطورة) التى تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل

---

(١) تجد النص على هذا فى الاغانى وغيره وقد كانت العداوة طبيعية مستحكمة بين العرب واليهود ونص القرآن عليها بعد الاسلام وكان اليهود قلة فيهم قال الجاحظ : جاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من ناس من اليمانية ونبذ يسير من جميع اياد وربيعة . ومعظم اليهودية انما كان بيثرب وحمير وتيماء ووادى القرى فى ولد هارون دون العرب . فتأمل

وابراهيم ... كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة (أسطورة) أخرى صنعها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طروادة » انتهى كلام الجامعة المصرية ومعناه الصريح أن قريشاً قبلت هذه الأسطورة الخرافية التى تثبت أن الكعبة من بناء اسماعيل وابراهيم فأخذها من وضع القرآن عن قريش لأنه منهم وبذلك تجزم الجامعة المصرية أن فى القرآن كذبا وتلفيقاً لأن الأسطورة كما يقول أستاذها صفحة ٢٩ « حديثة العهد ظهرت قبل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب دينى » أى فهى كذب صريح يعلم الاسلام أنه كذب ويتغفل به العرب لسبب دينى. فماذا بقي من هذا الدين الذى يتناول الخرافة المخترعة قبل الاسلام بقليل ويوردها فى كتابه على أنها منزلة من السماء وأنها وحيٌ يوحى ؟

وتماما على هذه الخرافة يقول أستاذ الجامعة فى صفحة ٨٠ « فهو — يعنى القرآن — يذكر التوراة والانجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى. وهو يذكر غير التوراة والانجيل شيئا آخر هو صحف ابراهيم ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينا آخر هو ملة ابراهيم ، هو هذه الحنيفية التى لم نستطع الى الآن أن نتبين معناها الصحيح ، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله ولم يكن أحد قد احتكر ملة ابراهيم (تأمل) ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها فقد أخذ المسلمون يردون الاسلام فى خلاصته إلى دين ابراهيم » انتهى. ولكن أهم المسلمون الذين زعموا هذا أم نزل ذلك فى قرآنهم فى قوله تعالى « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ». الى آيات أخرى ؟

فاذا كان ذلك من فعل المسلمين فالقرآن كذلك من صنعهم عند أستاذ الجامعة، وهذا الأستاذ يشير (بالحنيفية) التى لم يفهم معناها الصحيح الى ما ورد فى الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السمحة السهلة وقد تكررت هذه اللفظة فى الحديث فكيف سمعها العرب ورواها العلماء ولم يفهموها وكيف يكون ذلك وهى مبنية على آيات كثيرة وردت فى القرآن مثل قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً» وقوله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً » الى آيات كثيرة كلها نص قاطع فى أن معنى الحنيف انما هو الذى مال عن الشرك والتشبيه والتجسيد مما يزعمه اليهود والنصارى والمشركون ، والحنف فى اللغة الميل وكان العرب يقولون فى كل من تعبد واعتزل الأوثان انه تحنف ، وكل من حج واستقبل البيت سموه حنيفاً لأنه بيت ابراهيم ثم توسع الاسلام فى الكلمة على سنته فى الألفاظ الاسلامية المعروفة فالمعنى الصحيح للحنيفية أنها الشريعة النقية التى لا شوب فيها من الالحاد والشرك والتى تعدل بالناس إلى الله وتوجه الخلق إلى الخالق وحده . وانظر كيف يقول الله . « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً » ثم يزعم أستاذ الجامعة أن قصة ابراهيم « حيلة » فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب وبين الاسلام واليهودية وبين التوراة والقرآن ... فهل فى الجهل أوسع من هذا ؟

والعجيب أن شيخ الجامعة مع كل هذا الخلط وكل هذه الحماقة

يقول في صفحة ١٢٦ : «القرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخصاً للعصر الذى تلي فيه» فأين الشك الذي ابتلى به هـذا الرجل وكيف يستطيع على قاعدته فى البحث والتحليل «ووضع علم المتقدمين كله موضع الشك» أن يثبت هذا القول . وهل هو يجهل انه كان قبله بزمن بعيد قوم «يجدون في الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا» وهم الرافضة وقد شكوا فى نص القرآن وقالوا إنه وقع فيه نقص وزيادة وتغيير وتبديل ؟ فاذا أخذ طلبة الجامعة المصرية بقاعدة الشك التي يقررها أستاذهم ويريد أن ينشئهم عليها فهل يصدقون طه حسين أم يصدقون الرافضة وما الذى يجعل طه أصدق منهم أو يجعلهم أكذب منه ما دام الأمر إلى الشك والتعسف ؟

يعتقد الأستاذ أن القرآن يمثل العصر الجاهلى «ويشخصه» وأنه أصـدق مرآة للحياة الجاهلية ص ١٦ : وأن العصر الجاهلى القريب من الإسلام لم يضع وأنا نستطيع أن نتصوره تصوراً واضحاً قوياً صحيحاً بشرط أن لا نعتمد على الشعر بل على القرآن من ناحية والتاريخ والأساطير... من ناحية أخرى» ص ٨ ومعنى هذا الخلط مضافا إلى ما تقدم والى قوله فى ص ٨٣ . ليس يعنينى أن يكون القرآن تأثر بشعر أميـة (ابن أبي الصلت) أو لا يكون» أن القرآن عند هذا الرجل كتاب أشبه بالكتب التى يضعها المؤلفون فتكون تمثيلا للعصر الذي وضعت فيه لأنها صادرة عن فكر متأثر بالأسباب الكثيرة التى أنشأت العصر نشأته الخاصة به

والمميزة له ، مؤثر بهذه الأسباب عينها فيما يضعه ويؤلفه كما ترى فى الياذة هوميروس مثلا . وإذن فلم يبق معنى لما ورد فيه من أنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ويلتحق هذا ومثله بالأساطير التى «استغلها الاسلام لسبب دينى» وتكون هذه هي عقيدة الجامعة المصرية فى القرآن لا عقيدة طه حسين وحده ما دامت الجامعة تدرس هذا وتقرؤه وتمتحن الطلبة فيه وتجيزهم عليه .

هل يدري طه حسين معنى قوله تعالى « من بين يديه » ومعنى قوله « من خلفه » وهل يفهم هذه البلاغة المعجزة التى يسجد لها البلغاء ؟ إن معناها يا أستاذ الجامعة أن القرآن لا يشخص عصراً ولا يمثله بل هو كتاب كل عصر وهو الثابت على كل علم وكل بحث وكل اختراع واستكشاف على مدى الأزمنة فى أيها جاء مما سيستأنفه التاريخ وهذا معنى «من بين يديه» وأيها ذهب مما يطويه الماضى وهذا معنى « من خلفه». وليس يخفى عليك أن العصور يصحح بعضها بعضاً ويكشف بعضها خطأ بعض وقد يتقرر فى زمن مايثبت بعد أزمان طويلة أنه كان خطأ فقوله . —

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » من الكلمات التى لا تخطر بفكر إنساني يُظَنّ أنه يشخص العصر الجاهلى بل هى علم من لا يعلم غيره أن ستجد أمور وتحدث علوم وتمحّص تواريخ وتنشأ مخترعات. فلو فهم الجاهل لما تكلم إلا الفاهم وقد قال الله فى أشباه طه حسين «وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا »

ولقد عجبت لأستاذ الجامعة كيف يعتمد فى تصوّر العصر الجاهلي

على التاريخ والأساطير وهو الذي يقول بالشك وكيف تصح عنده الأساطير ويصح التاريخ العربي دون الشعر الجاهلي . وهل جاء هذا الشعر إلا من الطريق التي جاءت منها الأساطير والتاريخ أي بالرواية والإسناد ومن الحفظ والتلقين ؟ واذا جاءت ثلاثتها من طريق واحدة وكان الكذب والوضع قد دخلها جميعها ونص العلماء على أشياء من ذلك فى الأبواب الثلاثة فكيف يكون العصر الجاهلى فى اثنين منها دون الثالث مع أن الوضع فيهما أيسر من الوضع فى الشعر إذ هما كلام كالكلام لا مؤنة فيه ولا تعب ولا صناعة . ولا كذلك الشعر وخاصة ما يوضع منه على ألسنة فحول الجاهليين

انما جاء أستاذَ الجامعة هذا العلم الغريبُ من جهله بالشعر وصناعته وأغراضه فهو يحسب ان الشعر الجاهلى لا يكون جاهلياً ولا تصح نسبته الى الجاهلية الا اذا مثل الحياة الدينية عند العرب ولقد ذكر القرآن اليهود والنصارى والمشركين والصابئة ولم يذكرهم الشعر الجاهلى بل هو كما يقول ص ١٨ : يظهر حياة غامضة جافة بريئة أو كابريئة من الشعور الديني القوي ... فالقرآن عنده لذلك أصح تمثيلا والشعر لذلك عنده غير صحيح . قال فى ص ١٩ : وقريش كانت متدينة قوية الايمان بدينها ولا يمثل لها الشعر الجاهلى من ذلك الا قليلا . فليذكر لنا الأستاذ شعراء قريش من عهد امرىء القيس وليقل لنا متى كان الشعر فى قريش وقد نصوا على انها أقل القبائل شعراً وشعراء فى الجاهلية ، ثم ليذكر لنا هذا الباحث المحقق . كيف مثل الشعر الاسلامى الحياة الدينية الاسلامية وأين هذا

فى شعر جرير والفرزدق والبحترى والمتنبي . وهل يحسب أستاذ الجامعة ان القرآن يجرى مجرى الشعر فى الوضع والسبب والغاية ؟ ألم يعلم طه حسين الى سنة ١٩٢٦ ان القرآن نزل بشريعة تنسخ الشرائع ودين يتمم الأديان وعبادة تمحو العبادات فكان لا بد من ذكر كل ذلك فيه باجمال حين يجمل وتفصيل حين يفصِّل وقَصص حين يقص وبرهان حين يحتج وقياس حين يقايس . وأنه ماهو عاطفة شاعر ولا وصف كاتب ولا حكاية مؤرخ ولا حيلة قاصّ روائي ولا هو بعلم على قياس فكر طه حسين مدرس الجامعة المصرية ...

لقد تناولت الآن هذا الكتاب الكريم عند ما انتهيت فى الكتابة الى هذه الكلمة وسألت الله أن يخرج لي آية تشير الى طه حسين وغروره وحماقته وتخاليطه ثم فتحته على هذه النية فوالله لقد خرج قوله تعالى : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنا لهم أعمالهم فهم يَعْمَهون » ويا أسفا ثم يا أسفا ثلاث مرات كما يقول الفرنسيون لو فهم طه ما فى قوله (زينا لهم أعمالهم) اذن لاكل نصف أصابعه عضاً من الندم

القرآن ياشيخ الجامعة يقارع أدياناً فهو يذكرها ويصفها ويحتج عليها فماذا يقارع الشعر الجاهلى ليذكر الأديان والشعور الديني القوي ؟ وهذا على انك لم تحط بهذا الشعر ولا بأكثره ولا بكثيره وعلى ان ما انتهى اليك فى الكتب انما هو ما اختاره الرواة والعلماء للغة والفن والصناعة لا للتاريخ ولا للبحث التاريخى ولا (لتشخيص) عصر من العصور ، ولو هم أرادوا ذلك وفطنوا له لجاءتك كتب وافرة مصنفة

وتاريخ تام محفوظ ولكنهم أهملوا من أمر الشعر فى اتصاله بالتاريخ وأسبابه ومعانيه مثل الذى أهملوا فى ذلك من أمر اللغة كما كانت تقتضيه طبيعة عصرهم وعلومهم . أفليس الحمل على هذا المعنى أقرب الى العقل من ذلك الهذيان

***

وفى ص ٢٠ من كتاب طه حسين ترى الجهل المركب تركيباً مزجياً كبعلبك ومعديكرب . . . فهو يزعم ان القرآن يمثل للعرب حياة عقلية قوية فى الجدال الدينى والفلسفى لأنه وصفهم بشدة الخصام . قال « وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ فى الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التى ينفق الفلاسفة ... فيها حياتهم » . فيا فضيحة الجامعة المصرية فى جامعات الأمم . ألا يتفضل أستاذها على الأدب والتاريخ فيذكر لنا مجلسا واحداً من هذه المجالس العربية الفلسفية وما دار فيه من البحث والتحقيق والجدل والخصام والمحاورة فى معضلات الفلاسفة التى ينفقون فيها حياتهم لنصدق أن معنى اللدد والخصام الواردين فى القرآن صفةً للعرب إنما هو الحوار فى مسائل الدين والجدال فى معضلات الفلسفة؛ أمن حججهم الفلسفية كانت تلك الحجارة التي نص التاريخ على أنهم كانوا يقذفون بها النبي صلى الله عليه وسلم حتى يلجئوه إلى الحائط وذلك التراب الذي كانوا ينثرونه على رأسه . أم قولهم شاعر وساحر وكذاب ومجنون ونحوها مما يدخل فى باب الحمق والسفاهة والاستهزاء ، ومتى كانت هذه من صفات الفلاسفة يا شيخ الجامعة ؟ أم كان من حججهم الفلسفية حين

عرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الاسلام ويتلو عليهم القرآن أن أتبعوه عمه عبد العُزَّى يقول من ورائه : يا أيها الناس لاتسمعوا منه فانه كذاب . أوكانت مجالسهم العامية والدينية الفلسفية حين كان صلى الله عليه وسلم يجلس فيدعو الناس ويتلو عليهم القرآن ثم يقوم فيأتي عالمهم ومتكلمهم النضر بن الحارث فيخالفه فى مجلسه ويقص على الناس من أخبار ملوك فارس ويقول والله ما محمد بأحسنَ حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتَتَبَها كما اكتتبتُها ؟

إن معنى الخصام واللدد أنهم سفهاء أهل تكذيب وعناد ومكابرة وتأبٍّ على من يريد هدايتهم وإرشادهم لايمكن صرفهم عن رأي يكون فيه الهوى كما لايمكن مثل ذلك فى الجاهل الأحمق المصرّ المبتلي بالاستهتار والشك فان أصل الألد فى اللغة الشديد اللّدد أى صفحة العنق فلايلوى عنقه فى الصراع وذلك من أكبر الادلة على وثاقة تركيبه الجسماني فان ننق المصارع ثُلْثُ المصارع ، ولقد كانت هذه الطباع الجاهلة الحمقاء المكابرة من أوضح الأدلة على إعجاز القرآن لأنه مع إصرارها بلغ منها ومع عنادها أثر فيها ببلاغته فلو كانوا كما زعم طه « أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة » لما كانت هدايتهم شيئاً يذكر فى باب المعجزة أو لسنا نرى اليوم فى الأمم المتحضرة الرقيقة ذات النعمة الفاشية من ينقادون أسهل انقياد وأسرعه لكل ذى مذهب حتى لعبادة الشيطان فى أمريكا بلاد كل شيء ذهبي . . . ؟

وكيف يكونون « أصحاب عيش فيه لين ونعمة » وهم أنفسهم حين

اجتمع أشرافهم من قبائل قريش ليكلموا النبي (ص) ويخاصموه حتى يعذروا فيه قالوا له فيما قالوا : قد علمتَ أنه ليس أحد من الناس أضيقَ يداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا » ولما نزل قوله تعالى « ثم لَتُسأَلُنَّ يومئذ عن النعيم » قال الزبير بن العوام . عن أي النعيم نسأل يارسول الله إنما هما الأسودان التمر والماء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما إنه سيكون . فيا سبحان الله . جهل بالأدب وجهل بالتاريخ وجهل باللغة وجهل بالشعر ثم يكون من هذا كله علم الجامعة المصرية ؟

والطامة الكبرى فى صفحة ٢٢ إذ يزعم الأستاذ أن وجود سورة فى القرآن تسمى سورة الروم دليل على أن العرب لم يكونوا فى عزلة سياسية بل هم أصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة وقد أخذ ذلك من قوله تعالى : (ألَم غُلبت الرومُ فى أدنى الارض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون فى بضع سنين) كأنه يعنى ان هذا التاريخ كان معروفاً فى أهل السياسة من العرب وفى وزارة خارجية قريش . . . فأخذه القرآن عنهم كما زعم الرجل فى ابراهيم واسماعيل وغفل أستاذ الجامعة الذى لا يفهم عن قوله تعالى (وهم من بعد غَلَبهم سيَغْلِبون) فلم يدر ان هذا إنباء بالغيب يدخل فى باب المعجزة لا فى باب التاريخ ولا فى باب السياسة . فذكر الروم فى القرآن وما يجرى مجراها من قصص الأمم إعجاز من النبى الامي فى هذه الأمة الأُمية فهو بذلك دليل على جهل تلك الأمة وبداوتها لا على علمها وحضارتها . ولن يكون القرآن دليلا على علم العرب وحضارتهم ومعرفتهم بالتاريخ واتصالهم بالسياسة كما يقرر طه حسين فى الجامعة الا اذا

كان القرآن كلام النبي الذى جاء به ولم يكن وحياً ولا تنزيلا فلتنظر الجامعة أين يذهب أستاذها الخبيث فى قوله ص ٢٣ « وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر فى أمة جاهلة همجية »[1] وهل نصدق طه فيما يستنتج بفكره العقيم من أن العرب كانوا أمة متحضرة راقية « وكانوا أصحاب علم ودين وسياسة متصلة بالسياسة العامة » أو نصدق النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : إنا أمة أمية لا نَحْسُبُ ولا نكتب ومن أين تجيء الحضارة ويأتى العلم وتستقيم السياسة مع جهل (الأمة) بالكتابة والحساب

* * *

إن طه حسين هذا مجموعة أخلاق مضطربة وأفكار متناقضة وطباع زائغة ومامن عالم فى الأرض إلا وأنت واجد آراءه قائمة بمجموع أخلاقه أكثر مما هي آتية من صفاته العقلية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) قال الجاحظ فى شرح ابيات الحيقطان التى تحتج بها اليمانية على قريش ومضر وتحتج بها العجم والحبش على العرب وكان جرير هجا الحيقطان هذا فرد عليه بهجاء العرب اجمع ومن قوله يعنى مكة

وليس بها مشتى ولا متصيف   ولا كجوانا ماؤها يتفجر
ولا مرتع للعين أو متقنص   ولكن تجرا والتجارة تحقر

قال الجاحظ : ليس فى الغلبة على مكة رغبة ولولا ذلك لغزاها أهل اليمن وغيرهم وليس بها مشتى ولا متصيف لانهم يتبردون بالطائف ويتدفون بجدة وجوانا عين بالبحرين وليس بمكة شيء يدانى تلك . وليس بها متنزهات وانما بها تجار والتجار يحقرون ؛ يقولهم عند الناس في حد الضعف ولا يستجيز ملك اخذ الذى به يتعيشون ولا يكون مايؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك وهم قوم ليس عندهم امتناع ... واذا خرجوا علقوا عليهم المقل ولحاء الشجر حتى يعرفوا فلا يقتلهم احد . فأين القوة والسياسة والحضارة والعلم والفلسفة ؟

وسلم فى الحديث الصحيح (إن أخوف ما أخاف على أمتى كلّ منافق عليم اللسان) وطه رجل أرسلوا لسانه وقلبه الى أوربا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك في خرائب روما .... فيجب أن يكون نفاقه وثرثرته مقصورين على نفسه ويجب أن تحمي الجامعة طلبتها منه ويجب أن ينهض علماؤنا في إلزام هذه الجامعة أن تعلن براءتها من آراء أستاذها حتى لا يزيغ به أحد فتبقى قيمته وقيمة آرائه كما هو في نفسه وأَهْوِنْ به لا كما هو بالجامعة وأعْظِم بها

وإذا كان عميد كلية الآداب لا يحسن من العربية شيئاً ولا يفقه من هذه المباحث شيئاً ولا هو من دين الأمة في شيء فماذا نقول في الأستاذ الأديب الذكي البليغ مدير الجامعة الذى اسمه أحمد

للتاريخ

بعد نشر المقالة التي سلفت نهض العلماء كافة في جميع المعاهد الدينية في أسيوط واسكندرية وطنطا ودمياط والزقازيق والقاهرة فحققوا إلحاد أستاذ الجامعة وجهله وخطله ثم أرسلوا البرقيات الى جلالة ملك مصر ورياسة وزرائها ووزارة المعارف ونبهوا الأمة جمعاء فخفق البرق من كل جهات القطر بالاحتجاج على أستاذ الجامعة وأصبح الرجل مَلْعَنَةَ هذه الأمة بأديانها الثلاثة : الاسلام والنصرانية واليهودية .

واليك ما كتبه أحد علماء الأزهر ونشرته الصحف وهو يصف

ما كان من الأزهر الشريف وحده دون سائر المعاهد التي أشرنا اليها آنفاً قال :

العلماء يطاردون الالحاد

أهم علماء الأزهر الشريف طلائع تلك الحملة المدبرة ضد الأديان السماوية التى ظهرت فى مقدمتها كتاب (في الشعر الجاهلي تأليف طه حسين) فرأوا بعد أن جودل بالحجة والبرهان فلم يخضع لسلطانهما وأظهر عناداً وإصراراً على الخروج والالحاد أن يرفعوا الأمر الى جلالة الملك وحكومته المسئولة عن حماية دينها الرسمي قياماً بما يقضى به واجبهم نحو الدين الذى هم ممثلوه ودعاته . فاجتمع منهم زهاء مائتي عالم (بسكرتارية المعاهد الدينية ومن هنالك يمموا قصر عابدين يتقدمهم فضيلة أستاذهم الأكبر شيخ الجامع الازهر وهيئة كبار العلماء حيث قابلوا صاحب الدولة توفيق باشا نسيم وبسطوا له شيئاً من المطاعن التى وردت في ذلك الكتاب فأبدى عظيم استيائه لهذا التبجح

وأعلن دولته تضامنه مع العلماء في حفظ بيضة الدين والذود عن حياضه . فخرجوا شاكرين لدولته هذه الروح العالية والنزعة النبيلة

وقصدوا تواً إلى صاحب الدولة زيور باشا رئيس الوزراء بوزارة الخارجية وهنالك اجتمعوا بدولته وصاحبي المعالي وزيري الخارجية والمعارف مجتمعين فشرحوا لدولته ومعاليهما كذلك بعض ما فى هذا المؤلف من كفر وإلحاد فعظم عليهم الامر وأكبروه جد إكبار من

شخص مسلم من أبوين مسلمين فى أمة متمدينة يطعم ويكسى من أموالها ويحسب فى عداد أبنائها وهو أقبح أثراً وأكبر إجراماً من أعدائها

وأعلنوا مجتمعين اتخاذ الوسائل الحاسمة فى القريب العاجل فحمد العلماء لهم هـذه الهمة العالية والعناية الجليلة التى ستعقد لسان الأديان السماوية وجميع معتنقيها على حمدهم والثناء عليهم ويستوجبون بها عند الله عظيم المثوبة وجزيل الاجر و (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ولقد عاد العلماء من هذا التطواف ممتلئين ثقة وإيماناً بأن حضرة صاحب الجلالة نصير الدين والعلم وحكومته الرشيدة سيضعان الحد الفاصل والسد المنيع والعلاج الناجع لهذه الأوباء الفتاكة التى هي أولى بالمطاردة والافناء من الجراثيم المعدية

حفظ الله دينـه ورعى بعنايته جلالة مليكنا المعظم وولي عهـده المحبوب إنه سميع الدعاء عبد ربه مفتاح

من علماء الازهر

وكان الأستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر قد أمر فتألفت لجنة من العلماء لدرس كتاب طه حسين ورفع تقرير بما فيه فرفعت إلى فضيلته هذا التقرير الذي ترى نسخته ثم نشرته فى الصحف وهو :

كتاب الشعر الجاهلى

رأي لجنة العلماء فيه

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الازهر

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد فقد اجتمعت اللجنة المؤلفة بأمر فضيلتكم من الموقعين عليه لفحص كتاب طه حسين المسمى « فى الشعر الجاهلي » بمناسبة ما قيل عنه من تكذيب القرآن الكريم واطلعت على الكتاب وهذا ما نرفعه إلى فضيلتكم عنه بعد فحصه واستقراء ما فيه

يقع الكتاب فى ١٨٣ صفحة وموضوعه إنكار الشعر الجاهلي وانه منتحل بعد الاسلام لأسباب زعمها — وقال إنه بنى بحثه على التجرد من كل شىء حتى من دينه وقوميته عملا بمذهب (ديكارت) الفرنسى . والكتاب كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه لايجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم والموجب للخلف والشقاق فى الأمة وإثارة فتنة عنيفة دينية ضد دين الدولة ودين الأمة

وترى اللجنة أنه إذا لم تكافح هذه الروح الالحادية فى التعليم ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم من (اللادينية) التى يعمل بعض

الأفراد على نشرها بتدبير وإحكام تحت ستار حرية الرأى اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

الكتاب وضع فى ظاهره لانكار الشعر الجاهلي ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولا لهدم الأديان وكأنه ما وضع إلا ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الاسلامى فانه تذرع بهذا البحث إلى إنكار أصل كبير من أصول اللغة العربية من الشعر والنثر قبل الاسلام مما يرجع إليه فى فهم القرآن والحديث . هذا مايرمي اليه الكتاب فى جملته ولنذكر نبذاً منه بعضها كفر صريح وبعضها يرمى إلى الالحاد والزندقة فنقول :

قال فى صفحة ٢٦ ما نصه (للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة)

أنكر المؤلف بهذا هجرة سيدنا ابراهيم مع ولده اسماعيل عليهما السلام وقال إن ورود هدين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى فى سورة ابراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام (وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلدَ آمناً واجنبْني وبَنيَّ أن نعبدَ الأصنام رب إنهنَّ أضللنَ كثيراً من الناس فمن تَبِعنى فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ربنا إني أسكنتُ من

ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زَرْع عند بيتِك المحرم ربنا ليُقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وقال في الصفحة نفسها (ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة — يريد قصة الهجرة — نوعا من الحيلة لاثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى) .

وهو فى هذا النص يصرح بأن القرآن اختلق هـذه الصلة بين اسماعيل والعرب ليحتال على جاب اليهود وتأليفهم ولينسب العرب إلى أصل ماجد زوراً وبهتاناً لأسباب سياسية أو دينية وهـذا من منتهى الفجور والفحش والطعن على القرآن الكريم فى إثباته أبوة ابراهيم للعرب فى قوله تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملةَ أبيكم ابراهيم ، الآية)

وقال فى صفحة ٢٧ (وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة — الهجرة المذكورة — فى القرن السابع للمسيح إلى أن قال فى صفحة ٢٨ إذاً فايس ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعتها لها اليونان تثبت ان روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طرواده ، أمر هذه القصة اذاً واضح فهى حديثة العهد قبيل الاسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضاً . وإذاً فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بها عند ما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية

الفصحى) وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى (وإذ يرفع ابراهيمُ القواعدَ من البيت واسماعيل) الآية سورة البقرة . ولقوله تعالى (واذ بوّأنا لابراهيمَ مكانَ البيتِ ألاّ تشرك بي شيئاً وطهّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركع السُّجود وأذِّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتينَ من كل فجٍ عميق) وقوله تعالى (واتخِذوا من مقام ابراهيم مُصلًّى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أنْ طهّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركّع السجود) الى غيرذلك من الآيات التي في هذا الموضوع وهوفوق تكذيبه للقرآن يقول ان فيه تدليساً واحتيالا لأسباب سياسية ودينية من أجلها اختلق هذه الأخبار — بهذا وأمثاله يقرر المؤلف ان القرآن لا يوثق بأخباره ولا بما فيه من التاريخ

وكم يترك هذا الكفر الفاحش في عقول الطلبة من أثر سيئ وهدم لعقائدهم ودينهم وماذا بقي في القرآن من ثقة وحرمة في نفوسهم بعد هذا التكذيب

وقال في صفحة ٣٣ (وهناك شيء بعيد الأثر لو ان لدينا أو لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من استقصائه أو تفصيل القول فيه وهو ان القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تبايناً كثيراً الى أن قال انما نشيرالى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها

وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش فقرأته كما كانت تتكلم الى آخر ما قال)

وهذا تصريح منه بأن القراءات لم تكن منقولة كلها عن النبي صلى الله عليه وسلم بل هي من اختلاف لهجات القبائل فالسبع المتواترة ليست عنده واردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومعلوم فى أصول الدين ان السبع متواترة وان طريقها الوحي فمنكرها كافر

وعدا ما سردناه توجد صحائف عديدة فيها مغامز مؤلمة منها ما قاله فى صفحة ٨١ (وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين ابراهيم) وفى الصفحة التى قبلها (أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا للاسلام أولية فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي وان خلاصة الدين الاسلامى وصفوته هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله الى الأنبياء من قبل) وهو فى هذا يكذب قوله تعالى (ثم أوحينا اليك أن اتبعْ ملةَ ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقوله تعالى (إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فى هذا الموضوع ومنها غير ذلك كثير مما هو مثبوت فى الكتاب

ولا ريب فى أن هذا هو عين ما كان يطعن به المشركون على القرآن فى مبدأ أمره قال تعالى فى سورة الفرقان (وقال الذين كفروا إنْ هـذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءو ظلماً وزُوراً وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلا)

فاللجنة ترفع إلى فضيلتكم ما وصلت اليه على سرعة من الوقت مما سطره المؤلف من الكفر الصريح وتترك ما ينطوي فى ثناياه من الالحاد والزندقة مما لايخفى على الناظر.

نرفعه مطالبين فضيلتكم والحكومة بوضع حد لهذه الفوضى الالحادية خصوصاً التي تنبث فى التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم فما نفرغ من حادثة إلا ونستقبل حوادث لاتدع المؤمن مطمئناً على دينه.

نطالب فضيلتكم والحكومة بذلك حرصاً على أبناء الدولة أن يتفشى هذا الداء فيهم وهم رجال المستقبل وسيكون بيدهم الحل والعقد فى مهام الأمور.

ونحن لانفهم كيف تصرف أموال المسلمين وأوقافهم على تعليم نتيجة هذا الالحاد الذى يبثه هذا الداعي ويتقاضى عليه مرتباً ضخما من هذه الأموال.

وهل بهذه الطريقة وعلى هذا النحو تخدم وزارة المعارف أبناء الأمة ورجال الغد وتبني صرح التعليم والتربية.

نسأل الله أن يوفقكم لما فيه المصلحة والسلام

٢٦ شوال سنة ١٣٤٤

الامضاءات

محمود الديناري . عبد المعطى الشرشيمي . محمد عبد السلام القباني .

عبد ربه مفتاح . عبد الحكم عطا . محمد هلالي الابياري . عبد الرحمن المحلاوي . محمد على سلامه

* * *

قلنا فما كان بعد ذلك إلا أن خنس أستاذ الجامعة وذهبت كل شجاعته الأدبية فى رغيف من الخبز . . . . وأصبح دينه بين عقله وبطنه فجعل له خوف الجوع دينا وخشي أن يخرجوه من الجامعة فرفع هذا الكتاب إلى مديرها لينشره على الأمة قال :

حضرة صاحب العزه الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أرفع إلى عزتكم ما يأتي :

كثر اللغط حول الكتاب الذى أصدرته منذ حين باسم « في الشعر الجاهلي » وقيل إني تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه وإني أعلم الالحاد فى الجامعة وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه . وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأنا الذى جاهد ما استطاع فى تقوية التعليم الدينى فى وزارة المعارف حين كلفت العمل فى لجنة هذا التعليم ويشهد بذلك معالى وزير المعارف وأعوانه الذين شاركوني فى هذا العمل وأؤكد لعزتكم أن دروسي في الجامعة خلت خلواً تاما من التعرض للديانات لأني أعرف أن الجامعة لم تنشأ لمثل هذا

وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاؤون وتنشروه .

حيث تشاؤون وأن تقبلوا تحياتي الخالصة واجلالي العظيم

طه حسين

فكتبنا المقالة الآتية :

فلما أدركه الغرق . . .

عندي نسخة من كتاب « كليلة ودمنة » ليس مثلها عند أحد ؛ ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها . وقد رجعت إليها اليوم (١٣ مايو سنة ١٩٢٦) فاصبت فيها هذه الحكاية[1]

قال كليلة : أما تضرب لي المثل الذى قلتَ يا دمنة ؟ قال دمنة زعموا أن سمكة فى قدر ذراع كانت فى غدير فلما سال به السيلُ جرى بها الماء إلى نهر قريب فدخلها الغرور فقالت هذا لعمري ميراث أبي قد كنت عنه غافلة وما أكثرَ ما يضيّع التهاون والعجز . ثم إنها لبثت فى النهر ما شاء الله حتى خرج بها التيار إلى البحر فقالت يا ويلتا أعجزت كل هذا العمر عن ميراث أعمامى . . . ثم إنها ما زالت فى ميراث أعمامها حتى قذف بها الماء إلى المحيط فاتسع لها منه ما يسعها . . . فقالت قبّحَ الله العجز ولو من كسل وهُوَيْنَا لقد كدت أُسلَبَ ميراثَ أجدادي . . . لولا أن من دمهم فيَّ مالم يزل يدفعنى ولم يزل يسمو بي . ثم إنها طفت يوما على الماء فاذا الأسطول الانجليزى يمخر العُباب إلى جبل طارق فى عشر بوارج

(١) اخترعنا هذه النسخة من كليلة ودمنة وسترى منها أمثلة فيما يأتى ولعل الله يوفقنا الى جعلها كتاباً كاملاً

وعشرين مدرعة ومائة سفينة طوربيد وخمسين غواصة فطار بها الغيظ قِطَعًا وقالت من هـذا الوقح المتهجم على ميراث أجدادى لايخشى أن يقتحم علي وقد حميتُ هذا الملك من حيث يجري الماء إلى حيث يبلغ الماء ثم إنها شدت نحو الأسطول وهى تخبط بذنبها من الغيظ تريد أن تضربه بهذا الذنب ضربة تلوي به ولـكن الأسطول كان بعيداً ثم إنه كان سريعاً ففاتها فقالت : أولَى لك . مانجا بك والله إلا حدَّة الهرب وسرعة الفرار

قال دمنة : ثم اضطجعت على الماء تسكّن من غضبها فنامت واسترخت فمر بها زورق صيد فما أحست إلا الشبكة وقدأخذتهافغاصت فى الماءوجعلت تختبط عالية سافلةلاترى مذهباً ولا مفراً فلما أعياهاذلك وبلغ منها الجهد قالت : أيتها الشبكة دعيني فوالله ما قلت إن المحيط ميراث أجدادى ولا البحر ميراث أعمامى ولا النهر ميراث أبي

قال كليلة : فمثَلُ من هذا يا دمنة ؟ قال : مثل طه حسين في كتابه لمدير الجامعة

* * *

قرأت اليوم هذا الكتاب وفيه يقول طه : « أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » . وأرجو ان تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاؤون وتنشروه حيث تشاؤون »

ونحن فقد أصبحنا من أتباع مذهب ديكارت فوالله ما نصدق طه

حسين ولا سمكة دمنة حتى نبحث متجردين من كل عاطفة فليبحث معنا القراء .

١ — الكتاب مؤرخ ١٢ مايو فأين كان طه منذ اتهم بالإلحاد من كاتب واحد ثم من علماء أسيوط ثم اسكندرية ثم دمياط ثم الزقازيق ثم طنطا ثم الأزهر ثم الأمة كلها ثم الحكومة . أيقبل هذا كله على نفسه إلا متعنت كل التعنت مُصِرٌّ أشد الاصرار معاند بغاية العناد

٢ — ألم يصرح فى منهج البحث من كتابه أنه تجرد من دينه لهذا البحث وأوجب ذلك على الأدباء وقال فى صفحة ٤٥ إن عقليته اصطبغت بالصبغة الغربية وفي صفحة٤٦ إنه خاص شخصيته من الأوهام والأساطير وان سخط الناس على كتابه « لن يقلل من تأثيره فى هذا الجيل الناشىء » . فهذا سخط الناس على كتابه فما باله اليوم ؟ وهل العقلية الغربية الباحثة على مذهب ديكارت متجردةً من الدين ومن العواطف تعقل الوحي وتقربه ؟

٣ — هل يجد القراء فى كتابه لمدير الجامعة أنه رجع عن إلحاده وتبرأ من آرائه فى كتاب الشعر الجاهلي من نسبة الخرافة إلى القرآن وتكذيب النبي (ص) والتهكم به وبحديثه الخ الخ أم كان أمره كما حكى الله عن فرعون « فلما أدركه الغرق قال آمنت » ؟

٤ — ما الغرض من الكتابة لمدير الجامعة . أ كان الأستاذ المدير يجهل منهج الدراسة فى كلية الآداب إلى هذا التاريخ أم كان لا يعرف أن كتاب الشعر الجاهلي منسوب إلى أستاذ الجامعة وأن اسم الجامعة

مطبوع فى عنوانه. أم كان لا يقرأ فى الصفحة الأولى منه أن طه «تحدث بهذا البحث إلى طلابه فى الجامعة وهم أكثر من مائتين» وأنه مصر على بحثه مكابر فيه «غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزور»

٥ — ألا تنطق عبارة الكتاب أنه ما كتب إلا لغرضين أولهما أن «تبلغه» الجامعة للحكومة كأنه حل حاسم للمشكلة معها والثاني أن «تنشره» الجامعة فى الصحف كأنه حل لمشكلتها مع الأمة فهل مع مثل هذين الغرضين يكون للنية السليمة موضع أو للايمان محل فى هذا الكتاب ؟

٦ — كيف يصدق طه فى أنه لم يرد أهانة الدين والاهانة فى كتابه وكتابه لا يزال يباع ولا يزال الرجل مصراً عليه لم يتبرأ منه ولا تبرأت الجامعة . وما وردت تلك الاهانة فى كتابه إلا ليجعلها برهاناً على نظريته فى أن العرب العدنانية لم تتخذ لغة اسماعيل التي ورد في شأنها الحديث الشريف والتي هى أساس لغة القرآن . فاذا لم يتبرأ من هذا الرأى ويعلن أنه رجع عنه وكانت الاهانة هى البرهان الوحيد على هذا الرأي فكيف يقول إنه لم يردها ؟

٧ — هل يظن طه أن الأمة وعلماءها وأدباءها من البلاهة والغفلة بحيث يقنعهم هذا العذر البارد عذر ١٢ مايو ؟

هذه سبعة اعتراضات لا بد من ردها قبل أن نصدق سمكة دمنة .

موقف حرج لوزارة المعارف

قبل أن نكتب كلمتنا اليوم نسوق حرفين إلى معالى وزير المعارف فان معاليه رجل عالم ذكى بل نابغة فى ذكائه وحدة خاطره لا تخطىء الفراسة أن تعرف منه رجلا أيَّ رجل وهو خير من يعلم أن لكل فن منهجاً ولكل علم طريقة وأن نادرة الأذكياء فى الطب وعالم الدنيا فيه لو هو سمت به همته ونازعته نفسه لأن يطاول أهل القانون ويفسر لهم ويبصّرهم بعلومهم ودقائق علومهم لجعلوه سخرية بينهم ولتناولوه من ألسنتهم بما يُلقي في أعصابه كل آلام المرضى في مستشفى طويل عريض كمستشفى المجاذيب . . . والأستاذ طه حسين مدرس الآداب في الجامعة لا يمكن أن يعرفه معالي الوزير فى هذا الفن الأدبي معرفةً ذات نسب بينها كمعرفته أستاذ القانون الجنائى مثلا أو كمعرفة أستاذ التشريح لأستاذ الأمراض العصبية أو مثل ذلك لمثل ذلك بل معرفة عامة غير محدودة بصفات مشتركة ولا متميزة بخصائص متشابهة بل معرفة أوسع وأشمل كمعرفة كل من يقرأ لكل من يكتب . فلا ريب عندنا أن معالي الوزير يكون معنا فيما نقرره من وجوب نقد طه وتمحيص آرائه وبيان أغاليطه وفيما نوجهه إلى الجامعة من ذلك وليس هذا بحكم منصبه فقط بل بحكم ذكائه وعلمه أيضاً ثم بحكم إخلاصه لأمانة العلم فوق ذلك كله ، لا يمكن غير هذا ولا نصدق غير هذا إلا اذا اعتبرت الجامعة المصرية ملجأ أو فى حكم ملجأ للدكتور طه

حسين فذاك شيء آخر، والرجل بحيث ترى إن لم تَعُرَّه الجامعة عَرَّها

والآن يامعالى الوزير الكبير قد تناولك كتاب الاستاذ طه فحصرك فى موضع أحكم سدّ ثلاث من جهاته الأربع بحيث لا رجعة ولا تحول وليس إلا المضي بعزيمة لاتنفع فيها الهوينا وحزمٍ فرغت كل الحيل منه وفرغ منها . ذلك أن وزارة المعارف تدرس هذا العلم الذى يسمى آداب اللغة فى مدارسها الثانوية ومدرسة دار العلوم والقضاء الشرعي وقد جاءت المدرسة الكبرى التى تسمى الجامعة فسفَّه أستاذها كل هذه المدارس ونفى ما يعلَّم فيها من ذلك الفن وأفسده وقال بخطئه من أصوله إلى فروعه ، فما يسمى في تلك المدارس شعر امرئ القيس وعَبيد وطرفة وعمرو بن كلثوم وغيرهم تسميه الجامعة كذباً وتدليساً وخرافة ، وما يقال له هناك إعجاز القرآن يوصف فى الجامعة بأنه خرافات وأكاذيب الأعراب واستغلال دينى أو سياسى وهكذا

فوزارة المعارف بين اثنتين لابد من إحداهما ولا تستطيع كل قوانين الطبيعة ان توجد لهما ثالثة . فإما أن تعلن الوزارة أن هذه الكتب التى تدرس فى مدارسها خطأ محض ليست لها ولا لأساتذتها قيمة ثم تصحح علم طلبتها ثم تنشر ذلك فى كل الصحف ليعلمه من ضلُّوا بهذه الوزارة وبعلومها قديماً وهم لايحصون كثرة ، وإما أن تعلن أن كتاب الجامعة المصرية سخيف وأن أستاذها قد ذلّ وضلّ وقلّ ، فأما أن يكون نصف العلم يكذب نصفه فى وزارة واحدة بحيث يجيء الأعلى نقضاً على الأسفل فهذا مالا نكاد نعقله وهو إذا استمر كان

صريحاً فى الدلالة على أن وزارة المعارف المصرية ليست لها قيمة ولا ثقة بها ولا بمدارسها ولا أمانة فيها للعلم[(١)] ، ثم نرجو أن لا تنسى الوزارة إذا صح عندها كتاب طه حسين فأمرت بتصحيح العلم والتاريخ — لا تنسى أن تأمر وزارةَ الأوقاف يومئذ بإنارة ما آذن جامع القلعة . . . ليعلم الأزهر الشريف أن ما أقيمت عليه علوم العربية واللغة والبلاغة والتفسير من الشواهد الكثيرة المنسوبة إلى شعراء الجاهلية وأن القرآن وبلاغته وإعجازه وأخباره ، كل ذلك يجب الصوم عنه منذ اليوم لأن أستاذ الجامعة أثبت لوزارة المعارف أنه رأى « هلال الشك » . . . .

الوزارة موسومة الآن فى العالم العربى كله بالنقص والخطأ فى إحدى جهتيها ما يرتاب فى ذلك أحد . ولسنا نكره أن يكون الأستاذ طه حسين نادرة المشرق وفخر العربية ولكننا نكره أن يكون فضيحة مصر وأن يجعل الجامعة المصرية معرضاً للسخرية بهذه الدروس التى نقول من ناحيتنا إنها حماقة فى الرأى وفساد فى الفهم وتعكّس فى التأويل والاستخراج ، ونقول أكثر من ذلك إنها تشبه رجلا به مس فزُيّن له أن يخالف الناس لأن جنونه أوهمه أنهم مجانين وأن العاقل مثله يجب أن يتميز منهم ليعرف بينهم فلا تجري عليه أوصافهم ثم رأى

---

(١) عرض كتاب طه على مدرسة دار العلوم لتقر تدريسه لطلبتها فاجتمع مجلس ادارة المدرسة ونظر فيه ثم قرر نبذه واهماله وقطع بأنه كتاب لا يجوز تدريسه ولا قيمة له ووقع هذا القرار وزير المعارف ثم رد الكتاب الى الجامعة كما رجع حذاء أبى القاسم لأبى القاسم . . .

أنه لايعرف بينهم إلا بالمخالفة حتى يبين منهم ف . . ف . . فوضع رأسه في حذائه ومشى . . .

***

ومن بعدُ ، فالقول فى أغاليط أستاذ الجامعة لاينتهي ونحن إنما نبحث فيما نبحث عن أصول الخطأ فى هذا الأستاذ لاعن فروعه ونعد من ذلك مثلما يعدون من الشجر فيقولون واحدة وفى الواحدة فروع كثيرة لأنهم انما ينظرون إلى الجذع الذى يحمل ذلك ويخرجه فكذلك أمرنا مع طه حسين . وإذا نحن كسرنا الجذع فما نبالى ما عدد فروعه لأنها مكسورة وإن بقيت فى جذعها . لقد عثرنا فى كتاب أستاذ الجامعة على نوع غريب من الترجمة وهو أصل من أصول الخطأ فى فكر الرجل أو فكرُه أصلٌ فيه ،ولا تحسبنها ترجمة من الفرنسية أواليونانية بل هي من العربيةوذلك أشنعها . فلو أنت تدبرت النصوص التى ينقلها الاستاذ فى كتابهويحملها على أغراضه أو يحمل أغراضهعليها وكنت فطناً باحثاً نِقَاباً لرأيت هذه النصوص تشكو إليكوتستجير بك مما أصابها من القلة والذلة ، فان طه لايجد النص أبداً فى كتب العربيـة إلا كلاما جزلا بليغاً محكم السرد موثّق التركيب قد نُزّلت فيه الألفاظ على منازلها وجُلبت لمعانيها وتلاءمت مع أشكالها وخرج منها أسلوب رصين مطبوع كمصنوع أو مصنوع كمطبوع . فاذا أصابه فى الكتب على هذه الصفة من البلاغة خشي منه على أسلوبه وكتابته ورأى أن أشد مايفضح الثوب

القذر أن تنزّل فيه رقعة نظيفة لها جدة ورونق فلا يكون له من همّ غير أن يعمد إلى النص فيمرّه على لسانه ويديره على أسلوبه ويرصفه كرصفه ويترجمه من عربية إلى عربية غيرها فيختل ويركّ ثم يندمج في عبارة طه فاذا هو لاينبه عليها ولا هي تنبه عليه ، ثم يكون لطه من ذلك فائدتان غير هذه . أما واحدة فان النص إذا نقل على أصله اختلفت فيه العقول وكانت حَرِية أن تتفاوت فيما تدرك منه ففهم كل إنسان بمقدار ذكائه واطلاعه وعلى حسب ماتُيسر له وسائله ، ولا كذلك النص المختلف عن أصله المزال عن جهته فانه لا يؤتي إلا معنى واحداً هو ماسيق له ثم لايكاد يدرك أحد حقيقة ماوضع النص فيه . ومما اتفق لى من ذلك أنى وقفت فى بعض الكتب على نص فى تكذيب خبر المعلقات وأنها كتبت أو علقت ووقف عليه صاحب كتاب فى آداب اللغة فاذا هو يسوقه فى كتابه نصاً على خبر التعليق مع أنه برهان قاطع فى خبر النفي وإذا الخلاف كله فى أنه أخطأ قراءة فعل نقله على غير وجهه فانقلب المعنى وانتكس النص . وأما الفائدة الثانية التى يرمي اليها طه فانه إذا ترجم النص . . . وحذف منه وغير وبدل استطاع أن يجد من ذلك سبيلا إلى صلة المعنى الذى فى الكلام بالغرض الذى فى نفسه وتَسهل عليه القول الذى كان صعباً وقرب الرأي الذى كان بعيداً فربما كذب الاستاذ وهو عندك صادق أو غلط وهو عندك مصيب أونحل الناسَ مالم يقولوه والنص يوهم أنهم قالوه . وأى ذلك قد كان فإنما له نتيجة واحدة وهي أن يقهر النص على أداء معنى لايراد به إلا ما أراد طه .

وما هذه بأمانة ولا هذا بصدق فانه يجب على كل عالم يحتج بكلام غيره. أو على كلام غـيره أن يورد الـكلام بحرفه ، وان حذف دل على موضع الحذف وان غير أو بدل نبه إلى أنه تصرف وتعمل ، وذلك واجب فى العلم ولهو فى التاريخ أوجب اذ الـكلمة التاريخية على حادثها أو معناها كالاسم فى الناس على مسماه مهما بدلت فلا يجوز تبديله ومهما قلت فليس فيه الا قول واحد إذا أردته لحقيقته

ونريد أن نبين للناس وللجامعة التى يظهر لنا أنها فى غفلة مغطاة أن صنيع طه حسين فى بتر النصوص وترجمتها طريقة معروفة للطاعنين فى الاسلام وعلومه سبقه إليها ابن الراوندى العالم الزنديق المشهور الذى كان يؤلف الـكتب لليهود والنصارى في الطعن على المسلمين ونبيهم وقرآنهم وأئمة دينهم وأشياخ الـكلام فيهم إذ كان من شأنه الحكايةُ للنص مبتوراً قالوا يُسمّجه ويوحِشُ الناس منه ثم ليتأتى له أن يستخرج الرأي الفاسد من كلام يظنه الناس صحيحاً متى عزاه إلى المصححين والثقات. فإياكم ثم إياكم أيها الأدباء وأيها الطلبة أن تصدقوا أستاذ الجامعة فيما يستخرجه من النصوص إلا إذا أورد هذه النصوص بعبارتها وحروفها فانه أحياناً مريض الذهن وعسى من يفهم منكم مالا يفهمه وإنه دائماً مريض النية فهو بذلك جرىء جراءة من خولط فى ناحية من عقله لا يوقِّر إماماً ولا يرضى رأياً ولا يتورع ولا يتحرج ولا يقيد نفسه إلا بما يقيده به قانون العقوبات فقط . . . وما دام يأمن (النيابة والقضاء) فما شيء أراد أن يقوله إلا قاله

وههنا معنى يحسن أن لاندعه وأن نصل به الكلام فإن أستاذ الجامعة رجل شك ولا يمكن أن يكون رجلا من غير شك . . . فإن لزمنا عنده العيبُ والشنعة واتهمنا بالغفلة لأننا نصدق دلالة النصوص ونأخذ بها فى التاريخ لزمه عندنا أكثر من ذلك إذا هو احتج بنص أو استخرج منه نتيجة علمية ولم يكن له شيء من الحجة إلا كان لنا عليه أضعافه . إذ ما يدريك يا أستاذ الشك أن هـذا النص الذى تحتج به وتسوقه لما تريد ليس من النصوص المكذوبة أو المشكوك فيها ، وكيف تقطع على صحته ولعله أقواها كذبًا وأضعفها صدقًا وما كنت أنت من أبناء الدهر الأول فتشهد عليه شهادة العدل ولا الذي رواه أبوك أو أخوك أو حموك . . . فيكون لك إليه سبب من الصهر والقرابة يقوم دليلا فى التعديل والتجريح ؛ وكيف يجوز الكذب والوضع على أكثر النصوص التي نحتج بها ولا يكون النص الذي تحتج به أنت مما هذه سبيله . . . ؟

أفتراك يا طه فى ريب بعد . أو تشك فى أن مذهب الشك فى التاريخ يهدمك قبل أن تهدم به شيئًا ويظهر الناس على غفلتك وأنت تتوهم أنك ظهرت على غفلاتهم . وهل فى العلم أحمق من أن تقول إن الكثرة المطلقة فى الشعر الجاهلى موضوعة وأنت لا تعرف القلة الصحيحة منه ولا تستطيع تعيينها ولا تعيين بعضها ولا الجزم ببيت واحد منها ؟

نحن لا نرجع عن رأينا فى أن تقليد بعض المستشرقين هو الذي أفسد طه فقد صحبهم وأخذ عنهم ثم نزع إلى مذاهبهم وأقاويلهم لأنه

وإياهم سواء أو متقاربون فى الركاكة وسقم الفهم والوقوع بالبعد البعيد من أسرار الكلام العربي ومعانيه وقديماً ما أفسد شيخ الرافضة هشام بن الحكم إلا صحبةُ أبي شاكر الديصانى أمام الديصانية وكان هذا أبو شاكر رجلا يظهر الاسلام ويبطن الزندقة كما يظهر بعض المستشرقين الميل إلى العربية وينطوى على هدم الاسلام بهذا الميل وعلى استعمار أرضه واستعباد أهله

والعجيب أن مذهب الرافضة هو بعينه مذهب هذه الفئة من المستشرقين فان أكبر شأنهم جحد الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالقرآن وردُّ ما أجمعت عليه الأمة وهذا كله يدور عليه كتاب أستاذ الجامعة ايماءً وجَهْرَةً وتعريضاً وتصريحاً . وأعجب ما عجبنا له أن الأستاذ تورط فى الهلكة وطعن فى القرآن وكذّب به واشتمل كتابه من ذلك على ما بيناه فى المقال السابق وهو كان فى غنى عن كل ما تكلف منه وكان فى عافية وسعة لان شيئاً من ذلك لايداخل موضوع الشعر الجاهلى ولا هو من أدلته لا بالقرب ولا بالبعد وما نحسبه أراد به الحشد فى كتابه وتكبير حجمه فان كتابه مع كل هذه الثرثرة ومع كل ما استعان من الكلام في الشعراء وتراجمهم ضئيل الحجم قليل الورق فى تسعين ورقة ونيف من القطع الصغير . فما بقى إلا أن يكون قد أراد غرضاً علمه الله منه ففضحه به وخذله فيه .

ولقد أخذ فكرة الشك فى شعر الجاهلية عن المستشرقين أيضاً فقد كان حدثنا الاستاذ العلامة الكبير صاحب مجلة المقتطف فى شهر

سبتمبر من السنة الماضية أن مجلة الجمعية الاسيوية نشرت بحثا للشيخ ... مرجليوث المستشرق الانجليزى المعروف أنكر فيه صحة الشعر الجاهلى ثم ساق لنا الاستاذ بعض أدلته فلم نجد فيها مقنعاً ولا رضا وقلناهو رأي فى العلم لا علم ثم هو من مستشرق وذلك أوهن له وما كان لنا أن نأخذ عن القوم فى الأدب العربى إلا بتمريض واحتراس

ولما فتحت الجامعة إذا المستر . . . طه حسين ينتحل الفكرة ويدعيها ويبوب لها أبواباً ويفصل فصولا ويدرس ذلك فى الجامعة فباءت هذه الجامعة المسكينة من عمله بالخزي والفضيحة واستمتع هو بمنزلتها وأموالها . والجامعة كما رأينا مريضة يتحامل بعضها على بعض حتى لو طنّت عليها ذبابة انتقاد لفزعت وخافت أما الشيخ فلو قرضوا جلده بالمقاريض لما أحس شيئاً كأن الله تعالى خلق نصف دمه من (الكلوروفرم)، فجلده مبنج فى كل وقت . . . . . .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من النصوص فانظر كيف يصنع شيخ الجامعة. قال فى صحيفة ٦٦ : « ولابن سلاّم مذهب فى الاستدلال لاثبات أن أكثر الشعر قد ضاع لا بأس أن نلم به فهو يرى أن طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدهم تقدماً وهو يرى أن الرواة المصححين لم يحفظوا لهذين الشاعرين إلا قصائد بقدر عشر فهو يقول : إن لم يكن هذان الشاعران قد قالا إلا مايحفظ لهما فهما لا يستحقان هذه الشهرة وهذا التقدم وإذن فقد قالا شعراً كثيراً ولكنه ضاع ولم يبق منه إلا هذا القليل وشق على الرواة أو على غير

الرواة ألا يروى لهذين الشاعرين إلا قصائد بقدر عشر فأضافوا إليهما مالم يقولا » انتهت الترجمة ... أما الأصل فى اللغة العربية فهو : « ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد والذى صح لهما قصائد بقدر عشر وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وُضعا من الشهرة والتقدمة وإن كان مايروى من الغُثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر وكانا أقدم الفحول فلعل ذلك لذلك فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير » . انتهى النص .

وعارض أنت بلاغة ببلاغة ولغة بلغة وقابل بين ماذهب اليه طه وما أراد ابن سلام فمهما أخطأك فلن يخطئك أن تعرف الفرق بين الثرثرة والقصد ، وبين هزيل الكلام وسمينه وبين صحة الفكر وفساده وبين الأخذ من الدليل بقيده والاتساع فى الدليل على إطلاقه . وما يرى ابن سلام إلا أن كثرة ماضاع من شعر طرفة وعبيد انما كان لانهما أقدم الفحول فبعُد العهد به ومات بموت من علموه من عرب الجاهلية .

فهذا نص على بعض أسباب ضياع ما ضاع من الشعر إن كثيراً أوقليلا ثم فى عبارته نص آخر ينقض كتاب الجامعة كله وهو اثبات أن لنا « رواة مصححين » وأنهم صححوا لطرفة وعبيد قصائد بقدر عشر وأثبتوا أن ماعداها غثاء حمل عليها حملا . ويلزم من هذا أنهم درسوا الشعر وجمعوه وحققوا روايته وأثبتوا الصحيح ونصوا عليه وميزوا المنحول وردوه وفضّلوا الشعراء وقالوا فى كل منهم وعارضوا بين الاقوال

ورجحوا واستدلوا واحتجوا وناظروا فوجب من ثَم أن نصير الى قول أولئك المصححين وتأخذ بعلمهم ونقف عند ما نصُّوا عليه لأنهم كانوا أهل هذا العلم ولا أهل له من بعدهم الا بصلة تنتهي اليهم . وهو ظاهر أن هؤلاء الرواة لم يثبتوا في كتبهم الا ما صح عندهم وانه ليس على الارض اليوم من يستطيع بعض ما فعلوا لأننا بالاضافة اليهم أمةٌ من الأعاجم وبديهي أن ما يكون من وسائل العلم والرواية والنقد بعد مائة سنة من تاريخ الجاهلية لا يكون مثله ولا بعضه ولا بعض من بعضه بعد أربعمائة وألف سنة وخاصة مع انقطاع الأسانيد وضياع الكتب . فأين هذا كله مما يذهب طه اليه وما خرّف به في كتابه

ويقول شيخ الجامعة في صفحة ٦٧ بعد أن بين ان العصبية كانت من أهم الأسباب التي حملت العرب على وضع الشعر ونسبته الى الجاهلية قال : وقد رأيت ان القدماء قد سبقونا الى هذه النتيجة . وأريد أن ترى انهم قد شقوا بها شقاء كثيراً فابن سلاّم يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذي ينتحله الرواة (كذا وهو يريد الوضع لا الانتحال)(١) في سهولة ولكنهم يجدون مشقة وعسراً في تمييز الشعر الذي ينتحله العرب أنفسهم » انتهت الترجمة . أما الأصل العربي فهو : « ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك

(١) يقال انتحل القصيدة اذا ادعاها وليست له ونحلته اياها نسبتها اليه كذبا وطه لا يستعمل في كتابه الانتحال الا خطأ كرر ذلك في نحو تسعين موضعاً فتأمل واعجب

ولا ما وضع المولّدون وانما عَضَلَ بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال » اهـ

فانظر الى الفرق البعيد بين قول ابن سلام « الرجل من أهل باد » وبين قول طه (الذى ينتحله العرب أنفسهم) وتأمل معنى يشكل (بعض الاشكال) ومعنى (يجدون مشقة وعسراً) . وكلام ابن سلام صريح قاطع فى أن الشعر الذى نسب الى الجاهلية وأشكل أمره على الرواة قليل جداً ثم هو لا يشكل الا (بعض الاشكال) ثم لا يكون كذلك الا حين يجىء من عربى قح له عرق فى الشعر فتعينه الوراثة . أو عربى فى حكم ذلك بالقريحة والقوة والطبع . أما الذى زاده الرواة والذى صنعه المولدون فكل ذلك متميز معروف لا إشكال فيه وهو بعض ما يقوم عليه الرواة . لأنه من مادة علمهم ولا فائدة للرواية إن لم تتحقق به ؛ فقل لى بعيشك أين هذا مما ذهب اليه طه فى الحكم بتزوير (الكثرة المطلقة) من الشعر ؟

وقال فى صفحة ٥٤ : قال ابن سلام (كان الله لك يا ابن سلام ...)، وقد نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية فاستكثرت منه فى الاسلام . قال وليس من شك عندي في أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذي يهجى فيه الأنصار : وترجم هذا النص فى صفحة ٦٦ ترجمة أخرى فقال عن ابن سلام : وهو يحدثنا بأكثر من هذا . يحدثنا أن قريشاً كانت أقل العرب شعراً فى الجاهلية فاضطرها ذلك (تأمل) إلى أن تكون أكثر العرب انتحالا للشعر فى الاسلام »

أما ترى . أما تعي . أما تعجب ؟ هل كان فى النص الأول أن قريشاً

كانت (أقل العرب) شعراً فى الجاهلية فاضطرها ذلك اضطراراً لأن تكون (أكثر العرب) انتحالا ؟

على أن كتاب ابن سلام مطبوع ولم نعثر فيه على أصل النص وانما الذى رأيناه من كلامه فى الكتاب كله أنه علل قلة شعر قريش فى الجاهلية بأنهم لم يحاربوا ولم تكن بينهم نائرة وانما تكثر الأشعار فى الحروب والوقائع . وقال فى موضع آخر : وقريش تزيد فى أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان . ففى كلام أستاذ الجامعة كذب وسرقة . فأما الكذب فنسبته إلى ابن سلام أنه قال إن قريشاً « أكثر العرب انتحالا للشعر فى الاسلام » وأما السرقة فقوله وليس من شك (عندى) فى أنها استكثرت بنوع خاص ... من هذا الشعر الذى يهجى فيه الانصار فذلك من عند ابن سلام لا من عنـد طه حسين . ويبقى أن تعرف أن ابن سلام جعل الزيادة كلها من هذا النوع أما أستاذ الجامعة فجعلها من أنواع كثيرة وهذا النوع هو (الخاص) منها . فكيف ترى هذا الصنيع وكيف تسميه ؟

والغريب أن هذا الاستاذ الذى يحاول مالم تحاوله أمة كاملة من العلماء والرواة وأهل الأدب لامرجع له فى اللغة العربية فى علمه ونُقوله إلا كتابان أحدهما الأغانى والآخر طبقات ابن سلام(١) . أفبكتابين يصبح فى رأي الجامعة شيخ المتقدمين والمتأخرين ويمحو ويثبت (كلما

(١) أما سرقاته من كتب المستشرقين فلا نعرفها نحن وقد فضحها بعضهم وهي كثيرة وكثرتها خزى وهي فى نفسها خزى آخر

شاء كما يشاء لا كما تشاء الاشياء حينما تشاء الاشياء ....؟)

وسنتم القول فى هذا المعنى وفى عقم استنتاج شيخ الجامعة وفساد آرائه التى يقهر النصوصَ عليها فى فصل آخر إن شاء الله « فذرهم فى غَمْرتهم حتى حين »

طه حسين ابن الجامعة البكر ... !

روى المقطم أن الاستاذ الجليل مدير الجامعة حشد فيها لحفلة رياضية جمعت الرؤساء والاساتذة والطلبة . وأنه خطب فى الجميع فنصح للطلبة بالجد والمثابرة . قال : « وخطب حضرة الاستاذ الدكتور طه حسين خطبة ممتعة ناقش فيها برفق وأدب ... » نصيحة صاحب السعادة « مدير الجامعة » . ثم كان ختام الحفلة كلمة لسعادة المدير ذكر فيها جلالة الملك المفدى أبا الفاروق الأعظم نصر الله بحوله وقوته أعلامه ، ونضر بفضله وكرمه أيامه ، وألقى من طالع يمنه السعيد على وجه الحياة المصرية أجملَ ابتسامه . قال المقطم : « ثم ناقش خطبة الدكتور طه قائلا : إنه الابن البكر للجامعة المصرية . ثم قال يا بني الاعتدالَ الاعتدال) . اهـ

فأما اندفاع طه للرد على مدير الجامعة فى حفلة رسمية أقيمت للالعاب الرياضية على حين لم يزد المدير فيها على نصح الطلبة بالجد والمثابرة فهذا هو الأصل فى طه وذلك طبعه وخلقه بني على المجاذبة والمماراة فما من كلمة الا ولها عنده بنت عمة أو بنت خالة ...

ولو أن الخطبة فى هذه الحفلة كانت فى تعليم المشي على الحبل ... لرد طه بنوع من الرد وجاء بنَبَذ من الاعتراض فان العبرة عنده بما يهجس فى خاطره لا بما هو الحق ولا الواقع ولا مقتضى الحال ، وتلك طريقته فى العلم وهى آفة من آفاته وأصل من أصول الخطأ فيه ؛ ومثل هذا لا تزال الشبهة قائمة على لسانه ولا يزال معِدًّا لكل قول قولا فما يسمع شيئاً إلا خيل له شيء آخر ولا يفكر فى أمر إلا لبّس عليه أمر غيره ولا تفاتحه رأياً فيرضاه إلا إذا أراد لأمر أن يرضاه ولا تجادله فيقتنع إلا إذا شاء لغرض أن يقتنع لأن الأصل فى تركيبه المراء والحدة واللجاجة وطغيان القول وهى أربعة مظاهرها فيه الشك والاضطراب والقلق وفساد النية ونتائجها الانكار والخلط والسفه والعناد ، وكلّ ذلك يجمع طه حسين .

وأما إنه ناقش مدير الجامعة « برفق وأدب » فهذا هو الغريب عن طبعه والنص هنا على الرفق والأدب يُفهم شيئاً ولا يمكن أن يقع القطم فى هذه الهفوة البيانية الدقيقة فهو أستاذ هذا الباب من البلاغة وإنما كتبت العبارة فى الجامعة كتبها طه أو ذَنَبه أو رأسه . . . وأُتي المقطم بها فنشرها

نريد أن نستجيز لهذا القلم مناقشة الأستاذ الجليل لطفى بك السيد مدير الجامعة وهو عقل من العقول النادرة فى مصر بل فى الشرق كله يكاد يكون مُلْهَماً محدَّثاً إذا كتب أو قرأ أو فكر وهو كذلك شعاع ساطع من تلك المرآة العلوية التى ترسل على آفاق الدنيا نور الذكاء والنبوغ والفلسفة وقد كنا نحسبه أول من يستجيب لرأينا فى وجوب نقد طه وتمييز خطئه من صوابه ورد الرأي عليه فيما لم يصح فانه يجب أن تكون الجامعة

موضع الثقة فى علمها ويجب أن تعرف الأستاذ بعلمه لا العلم بأستاذه فان أظهرها إنسان على غلطة أو نبهها إلى زلة بحثت وحققت وسألت أهل الذكر وأهل الفكر ورجعت إلى كل ذي فطنة ثم أعلنت ماتنتهي إليه من خطأ أو صواب بحججه وأدلته ولم تصرّ ولم تستكبر ذهاباً بنفسها أو ممالأة لأستاذها أو تغطية لعيبها لأنه إذا كان طه حسين ابن الجامعة البكر فالأدب العربي ليس ابنها الثاني ولا الثالث . . . . وإذا كان طه ابن الجامعة البكر فماذا ؟ أيترك لطيشه ولهوه وعبثه ويخلى لشكه وحيرته واضطرابه ويدلل حتى على العلم ويضحك له حتى من أغاليطه ويكافأ حتى على مايجنيه إذ كان ما يجنيه متصلا بحنان أهله ونازعتهم أكثر مما هو متصل بأسباب الجناية ونتائجها ؟

لعمرى إذا كان هذا كله لابن الجامعة البكر وكان (اسم الله عليه ...) يجعله من عذره فى نتف لحية أبيه وعمه وخاله ويعتدّه من أسباب الرضا عنه إذا وقع فى قبيح أو دخل فى كبيرة — إذا كان هذا لابن الجامعة البكر فما بقي على الجامعة إلا أن تضع له بجانب منبر التدريس حصاناً من الخشب ... ليلهو على هذا وعلى هذا فمن المنبر إلى الحصان ومن الحصان إلى المنبر . . . . ولا تلم الصبيان فيه على الرقص

ثم إن الأستاذ الكبير يقول لطه : يابنى الاعتدال الاعتدال .

كلا ياسيدى الأستاذ لا محل للاعتدال ولا نقبل منك هذه الكلمة ولا يقبلها طه . أما هو فانه يقول بوضع علم المتقدمين كله موضع الشك فأين يعتدل وفيم وكيف ؟ وأما نحن فاننا نريد منك أن تقول له يابنى

التوبة التوبة فقد خرج فى درسه على دين الأمة وكذب القرآن ونسب إليه الخرافات وجعل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا سياسياً يحتال الحيل ولا يؤمن فيما بلغ عن ربه ، ثم جاء فى تاريخ الأدب بأقبح الجهل ودل من نفسه على عجز وضعف وسوء فهم ونية مدخولة وذهن مريض فأين تريده أن يعتدل من ذلك كله ؟ على أننا فى هذا الكلام إنما نأخذ بظاهر الرأى أما فى الحقيقة فنحن نعرف من بلاغة مدير الجامعة وغوره البعيد أنه بكلامه أراد النصيحة لطه كما نصح الطلبة فجعله بذلك لايزال فى حكم الطالب وإن كان أستاذاً وأنزله هذه المنزلة على أعين الملأ ثم هو كأنه يقول له : يابنى إنك مائل فاعتدل ومعوجّ فاستقم ومجازف فتبصّر وجديد الطبع فاستأن وكثير الخطأ فتعقل

يابني إنك مصغّر مستصغَر لاتستكفي بنفسك ولا تستقل بأمرك فاسمع وأطع . « يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو في السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله » فكيف بمثقال ستين كيلو جراماً من الحاد وخطأ هى فى جلد ولحم ودم ؟ ولقد فهمنا كلاماً كثيراً من كلمتى الأستاذ البليغ الدقيق ولكن يجب أن يفهم طه وأمثاله : فقد ذهب بعضهم إلى أن مدير الجامعة يرد علينا بهذه الكلمة كأنه يبلغنا أن طه مغفور له معفوّ عنه إذا قلب الأثاث أو كسر الصحون وان خطأه طلّق وأشد ماتعاقبه الجامعة به أن تقول له الاعتدال الاعتدال لأنه ابن الجامعة البكر أي غزالها ..[1]

---

(١) فى أمثال العامة قولهم القرد فى عين امه غزال

هكذا قال لنا بعض الأدباء وهكذا فهم ولكننا على يقين من الأستاذ مدير الجامعة وسيرى الناس أنه مُرجِع طه إلى ماهو أليق به وأولى بسمعة الجامعة . . .[1]

إن الذى يخشى من طه أمران : أولهما أنه يقلد المعري ويحتذيه ويسير على أعقابه إما إلى جنة إما إلى نار وقد صرح هو بهذا التقليد فى مدينة بيروت فى خطبة له وقال ان للمعري الفضل عليه فى إظهاره كماهو . فيريد الرجل أن يهدم كما هدم ذاك وليست له رواية المعري[2] ولا حفظه ولا شعره ولا فلسفته ولا غيرها مما يصرفه إلى الكناية والاشارة والغميزة ويجعل بعض شره فى بعض خيره ويفسح له من أبواب البلاغة فى باب التوجيه والتعاليل فلم يبق إلا الخلط والخبط والحماقة والدعوى الفارغة ومحض التشبه وما يجري هذا المجرى

وما علم هذا المقلد مع الفارق أن أكثر إلحاد المعرى إلحاد شعري تجىء به القافية ويحمل عليه التخيل فهو من بعض الوجوه فى باب الشعر كالقول فى الخمر والغزل والمجون والسفه وما يتصل بها . فلما فقدنا هذا من طه لم نر إلا الحثالة والقشر فهو المعري الذى بقي من المعري فى مُنخل الأدب . وهذا التصريح منه بالتقليد والاحتذاء يسقط الثقة به وبما يدعي

---

(١) لم يفعل الاستاذ وقد علمنا انه مغلوب على أمره وان فوق يده يدا أجنبية ، كذا قالوا والله أعلم

(٢) قال التبريزى ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى ؛ وما بين مثل هذا ومثل طه حسين الا كما بين الشخص وظله

من حرية الفكر لأن الحرية لا تأتي بتقليد الأحرار ولكن بالاشتمال على وسائلهم وأسبابهم ومواهبهم أما بغير ذلك فلا حرية وانما هنالك غرض من التقليد يقلد الحرية حتى فى اسمها ، وكل أعمال المقلد تُحمل منه على هذا الغرض الدنيء لا على ذلك المبدأ السامي .

والأمر الثاني الذى نخشاه من طه أنه أداة أوربية استعمارية تعمل فى إفساد أخلاق الأمة وحل عروتها الوثقى من دينها فى أدبه ولغته وكتابه وتحقير كل من يتّسم بشيء من ذلك عالما أو متعلماً أو متورعا ، فهو دائب فى إزالة ما وقَر فى نفوس المسلمين من تعظيم نبيهم وكتابهم وإيثار دينهم وفضيلتهم وإجلال علمائهم وسلفهم مرة بالتكذيب ومرة بالتهكم ومرة بالزراية ومرة بافساد التاريخ ومرة بنقل الأخلاق الفاحشة المتعهِّرة من مدنية الفرنسيين وهلم جرا حتى كأنه شيطان عاقبه الله فطمره فى جلد إنسان . وتالله لو تم لهذا وأمثاله ما أرادوا فاجترأ الناس على دينهم وكتابهم وعلمائهم وسخروا من تاريخهم وتقطع ما بينهم وبين أسلافهم وخاطروا بما فى أيديهم من دين وعلم وتاريخ وفضيلة على ما تسميه صناعةُ الكتابة مدنية وفنا وفلسفة ، اذن لا تكون أوربا قد بلغت منا بمدافعها وجنودها وحيلها ودهاتها بعض ما بلغت بهذه الأدوات الانسانية التي تسمى طه حسين وفلانا وفلانا

أمَا إن هذه فئة من الناس ولكنها كذلك فئة من المذاهب والمصيبة أنهم ما فيهم من فيلسوف ولا عالم ولا أديب ولا من يستطيع أن يقول هذه فلسفتي وهذا علمي وهذا أدبي بل كلهم عيال على أدب

اوربا وعلمها وفلسفتها وكلهم مقلد وكلهم سارق وناقل . فاذا كانوا على هذه الصفة ثم رأيناهم قد زاغت عقائدهم وفسدت طباعهم وانتقلت أهواؤهم أفيكونون بيننا إلا من وسائل التدمير والخراب والاستعمار شعروا أم لم يشعروا وأرادوا أم لم يريدوا ؟ وماذا يجدي علينا صياحهم العلمي أو السياسي أو الأدبي وهم إنما يحترفون هذا الصياح ويؤجرون عليه ويعيشون منه كالرجل من أهل الغناء والموسيقى ربما كان فى نفسه تمثال البؤس والهم والحزن ويستأجره الناس ليغني . . .

إن لشيطان طه سبلا كثيرة فهو يتراءى لنا فى معان مختلفة تذهب بنا أحياناً بعيداً عن كتابه ولكن هذا أيضا من شؤم كتابه إذ يرجع هذا الكتاب إلى أسباب فى طباع مؤلفه قائمة على النكر والمراء والزيغ أكثر مما هو راجع إلى أسباب فى التأليف قائمة على البحث والرأى والتحقيق ، فلنعد إلى ما نحن بصدده من القول فى فساد رأيه وسوء استخراجه وأنه ليس معه إلا الانتحال على غير توفيق والخبط على غير هدى والجرأة على غير تحقيق ولا استبصار .

لقد توارد أستاذ الجامعة مع الامام الجاحظ فى استخراج واحد من مسئلة واحدة وكلاهما شك فيها ونريد أن نعرض ذلك على الجامعة لتعلم صحة قولنا إن العالم يأتي بالرأى من مجموع أخلاقه وطباعه أكثر مما يأخذه من صفاته العقلية وأنه لو كان طه حسين أذكى الأدباء فى الرأى والعقل وأجمعهم فى المادة والحفظ وأبلغهم فى المنطق والأسلوب ثم كان على بعض فساده وزيغه لوجب تنحيته عن التدريس الأدبي وحماية النشء

منه لأن تعليمه ينتقل إلى هؤلاء الأطهار الأغفال علمه وأهواءه جميعاً فلا يقوم ما فيها من طيب بما فيها من خبيث . قال طه فى صفحة ١٠٢ .

«وهناك لون من ألوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون إليه ميلا شديداً ويروون فيه الأكاذيب والاعاجيب وهو أخبار المعمَّرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس . وقد رويت حول هؤلاء المعمرين أخبار وأشعار قبلها العلماء الثقات فى القرن الثالث للهجرة» . انتهى .

وقال الجاحظ : وقد ذكرت الرواة فى المعمَّرين أشعاراً وصنعت فى ذلك أخباراً ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ولا نقدر على ردها لجواز معناها ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها .

فانت ترى من الفرق بين الجاحظ وطه أن هذا يبالغ ويهول ويتعمد الكذب فيزعم أن الناس كانوا يتحدثون بذلك النوع من الكذب ويميلون إليه ميلا شديداً . . . كأنه كان شاهِدَ أمرهم ورأى الناس يتحدثون ويميلون . ثم يوهمك أن العلماء الثقات فى القرن الثالث قبلوا تلك الاخبار والأشعار وما كان الجاحظ إلا فى القرن الثالث . ثم ينفي طه كل ماقيل من ذلك كأنه على ثقة من أن العرب لم يعمر منهم أحد مع أن فى زماننا هذا من ارتفعت به السن إلى قرن ونصف فلو كان هذا شاعراً فماذا يمنعه أن يقول فى هرمه وامتداد العمر به وثقل الحياة عليه وتبرمه بها ما قال أولئك أو شبيهاً بما قالوا ؟ ومن غفلة أستاذ الجامعة وهى من الأدلة الكثيرة على سوء فهمه وتعلقه بأول خاطر وأنه لا يتبين أسباب المعانى ولا يحققها — أنه يقيس على ظاهر الرأى كيفما وقع له فلا يذكر

أن العرب قوم لاحساب عندهم ولا يؤرخون إلا بالحوادث الكُبَرَ فاذا عمّر شيخ منهم وبلغ خمسين ومائة سنة مثلا وهو عمر طبيعي حسبها ثلاثمائة أو تزيد وخاصة إذا خرف وأسرف وبعد ما بين فكره ولسانه أو أراد التهويل على عصره وقبيلته . وكيف يعرف مثل هذا حقيقة سنه ومايعد ولا يكتب ولا يحسُبُ ولا عنده من يدون له ولا فى قبيلته من يحفظ من التاريخ أو يرد منه شيئاً إلى أصل بعيد . فالرواة إنما نقلوا من هذا ونحوه ما انتهى إليهم فان كان فيه الكذب ففيه الصدق وإن كان فيه الموضوع ففيه الصحيح وما كانت المبالغة سبباً من أسباب العدم بل هى بعض أسباب الوجود ولا بد فى المنحول من أصل يقاس عليه وصحيح يبالغ فيه . وهذا كله فهمه الجاحظ فهو لايرد ما ورد من ذلك لأن معناه غير بعيد ولا مستحيل وهو لا يثبته بعينه لأنه ليس معه دليل قاطع .

ولو كان الجاحظ ضعيف الفهم قليل الاطلاع بعيداً من آداب العلماء لوافق فى الرأى أستاذ الجامعة وتحامق وكذب وسب الرواة وتهزأ بهم، كما فعل هذا . ومن العجائب أن طه يتوارد أيضاً فى طريقة الاستنتاج مع الرافضة ويطابقها مطابقة النعل للنعل .ولا تستبعدنّ ذلك ما دام كلا الفريقين أسقط الايمان من حسابه « وتجرد من دينه » عند البحث والرأى. وكأن شيخ الجامعة يقيس على نفسه فلا يصدق أنه كان فى الأمة الاسلامية قوم يؤثرون الله ورسوله على كل وساوس النفس وأهوائها وليس عنده إلا العصبية والميل مع طبع الجاهلية حتى فى امام أهل الحق عمر بن الخطاب. قال الشيخ فى صفحة ٥٣ وقد ذكر الرواة أن عمر مر ذات يوم فاذا حسان

في نفر من المسلمين ينشدهم شعراً في مسجد النبي (ص) فأخذ باذنه وقال أرغاء كرغاء البعير . قال حسان إليك عني يا عمر فوالله لقد كنت أنشد في هـذا المكان من هو خير منك . فيرخى عنه عمر ويمضي ، قال وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدمنا من أن الانصار كانوا موتورين وأن عصبيتهم كانت لا تطمئن إلى انصراف الامر عنهم فكانوا يتعزون بنصرهم للنبي (ص) وانتصافهم من قريش . . . وكان عمر قرشياً تكره عصبيته أن تزدرى قريش وينكر (كذا كذا) ما أصابها من هزيمة (يعني في غزوة بدر) . انتهى . ولكن من أين لأستاذ الجامعة أن حساناً كان ينشد يومئذ في هجاء قريش في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليعزي الانصار وينوح لهم كالنائحة المستأجرة حتى ثارت لذلك عصبية عمر ورجع وهو أمير المؤمنين إلى طبع الجاهلية

ومن أين له ان عمر كان ينكر ما أصاب قريشاً من الهزيمة في غزوة بدر أو فتح مكة وهل كان عمر كطه حسين يشك في التاريخ ويكذبه مع أن سيفه كان من تلك السيوف التي هزمت قريشاً ؟ ثم كيف يجوز لاستاذ الجامعة أن يكذب ويغير النص فيقول (فيتركه عمر ويمضى) وكل الروايات في كل الكتب متفقة على أنه قال لحسان صدقت أو صدقه . ولكن إذا قال عمر صدقت كان ذلك نصا على أنه لم ينكر ما أنكر لا حمية ولا عصبية لان العصبية تأبى عليه أن يصدق بل يكظم على غيظه (ويتركه ويمضي) فانظروا أيها الناس ما يصنع الخبيث لرمي الرجل الذي أعز الله به الاسلام واتهام إيمانه وصدقه مع ورود الحديث الشريف :

(ليس منا من دعا إلى عصبية) وقد رأيت كم تكرر لفظ العصبية فى كلامه. ثم إن قول عمر لحسان صدقت يدل من جهة أخرى على أنه لم ينكر عليه إلا هيئة الانشاد . كان ينشد الشاعر العربي فينتفخ ويربو فى ثيابه ويتكلف التفخيم والتشدق وإدارة اللسان وتقليبه ويهدر كما يهدر البعير حين يستفحل ويرغو وكل ذلك فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فذلك حيث يقول عمر أرغاء كرغاء البَكْر ؟ على أن الاستاذ المخلط الذى يرمى عمر بالعصبية قال فى نفس الصفحة تحدثت الرواة (وهنا ترجم نصاً فلننقله عن ابن سلام) قال . قدم ضرار بن الخطاب الفهري وعبد الله بن الزِبَعْرى المدينة أيام عمر بن الخطاب فأتيا أبا أحمد بن جحش .. فقالا له أتيناك لترسل إلى حسان فنناشده ونذاكره فانه كان يقول فى الاسلام ويقول فى الكفر (أى الجاهلية) فأرسل إليه فجاء فقال يا أبا الوليد أخواك تطرّبا إليك يذاكرانك وينشدانك قال نعم فأنشداه (أي مما قالا فى الأنصار) حتى إذا صار كالمرجل يفور قعدا على رواحلهما إلى مكة فخرج حسان حتى أتى عمر فأخبره خبرهما فقال لاجرم والله لا يفوتانك فأرسل فى أثرهما فردا وقال لحسان أنشد فأنشد حسان حاجته حتى قال له اكتفيت قال : نعم . قال شأنكما الآن ان شئتما فارحلا وان شئتما فأقيما . انتهى

ترك الاستاذ هذا النص الواضح الجلي ونقل رواية الأغاني وفيها زيادة وصنعة ولها توطئة وخاتمة إذ جاءت بعد رواية ابن سلام بنحو مائة سنة واستخرج منها أن الأنصار كانوا يكتبون هجاءهم لقريش .

ولكن يا أستاذ كيف غفلت هذه الغفلة المطبقة بين صفحتين اثنتين وأين ماقلت في عصبية عمر وكيف مالأ حساناً على أكبر شعراء قريش وتركه ينشد في هجاء قومه مما قاله في الجاهلية حتى اكتفى . أليس هذا هو العدل والقصاص انشاداً بانشاد وكلاماً بكلام وإنْ في قريش ؟

على أن ماقاله طه في عصبية عمر هو كاستنتاج الرافضة وعلى طريقهم في الرأى والفكر إذ يقولون إن الصحابة بايعوا أبا بكر وتركوا علياً لا طاعة ولا رغبة بل عصبية منهم على علي ورجوعا إلى طباع الجاهلية إذ كان علي قتل من عشائرهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل في الغزوات والفتوح . فليس يمحو الاسلام عندهم شيئاً ولا يكون المؤمن إلا على أصله التاريخي وطبيعته الجهلية ويسقطون ماعدا ذلك من مظاهر النفس الانسانية التى من أعظمها فى الاسلام ذلك اليقين الديني وكان عجيبة العجائب وأنزل فيه الله تعالى « لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيّدهُم برُوح منه »

وليت طه يفهم معنى قوله « كتب فى قلوبهم الإيمان » ولكن قلبه هو لوح ممسوح ونعوذ بالله من خذلانه . ومتى تجرد الباحث فى التاريخ الاسلامي « من دينه » فهو شيء واحد إن كان من الرافضة أو كان أستاذاً فى الجامعة لأن هذا التاريخ إنما يقوم فى أصله على معان لا يعقلها ولا يصدق بها من يجرد نفسه منها وكيف يعقل الجبان

المنخوب القلب أفعال بطل من أبطال الدنيا الذين شذّت فيهم طبيعة القوة والجرءة فيقال فى أحدهم إنه يحمل مائة قنطار وأنه يقطع سلاسل الحديد بيديه وأنه يصلب رجلا كطه حسين فى خنصره . . . ؟

ان التاريخ الاسلامى اذا حمل على غير طريقته وتولاه غير أهله لم يأت منه الا ماهو دخيل فيه وتقل الروية ويكثر التكذيب ويحصل الخطأ ويقع الخلل لان الاشياء بما كانت عليه لا بما تتوهم أنت أنها كانت عليه ، وذلك هو السر فى خلط المستشرقين والمسيحيين والديكارتيين من أمثال طه حسين اذا هم تعاطوا الكلام فى تاريخ الصدر الاول أو ما يتصل به نوعا من الاتصال فى الادب أو الشعر أو نحوهما . واذا كتبت الشياطين تاريخ الملائكة واتبعت مذهب ديكارت ... فتجردت من قوميتها ودينها فهل تراها تُسلب طبيعتها وخبثها وهل يدخل عليها الخطأ إلا من ناحية هـذه الطبيعة فى تركيبها على غرائز وأوصاف لا تتحول ؟ وانظر حمق العصبية فى قول طه صفحة ٥٥ : وأنت لا تنكر أن يزيد هو صاحب وقعة الحرة التى انتهكت فيها حرمات الأنصار فى المدينة والتى انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها فى بدر (لا حول ولا قوة إلا بالله) والتى لم تقم للانصار بعدها قائمة ولأمر ما يقول الرواة حين يقصون وقعة الحرة إنه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرا « أى من الذين أذلوا قريشاً »

يا هذا ألك ثأر على الانصار أم كان أبوك من قريش وأنا أعلم أن أباك وأسرتك يتبرءون إلى الله منك ويخشون أن يقال فى الآخرة يوم

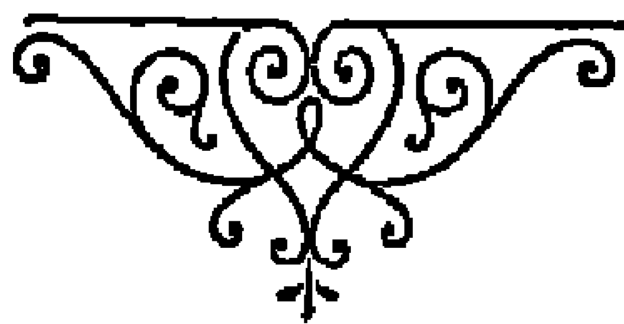
العرض هؤلاء أهل طه حسين . هب الإسلام ليس شيئاً ولم يحدث أثراً مّا فى نفوس المسلمين إلى زمن يزيد . وهب وقعة الحرة نقمة من غزوة بدر التي لم يغزها الأنصار إلا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . هب ذلك معقولا في رأي رجل مسلم فيبقى أن الرواة والمؤرخين لا يقولون تلك الكلمة وهم يريدون التفسير الذي جئت به إلا إذا كانوا هم أيضاً متعصبين على الأنصار وكان إسلام الأنصار عندهم غير إسلام قريش وكانوا مع ذلك أهل جبن ونفاق يخشون الأنصار بعد إذلالهم وبعد أن لم تقم لهم قائمة فيعبرون بكلمة مبهمة لا يفتح الله بتفسيرها على أحد إلا بعد ١٢٠٠ سنة وعلى طه حسين وحده ...

ألا تفهم شيئاً وكيف صرت أستاذاً في الجامعة وأنت بهذه الغباوة . إنما يريد الرواة أن وقعة الحرة كانت شديدة النكاية فى الاسلام قبيحة الأثر فيه وكانت مع ذلك عدواناً صرفاً وجهلاً محضاً حتى قاتل فيها أهل بدر وقتل منهم ثمانون وأهل بدر بنص الحديث الصحيح أفضل المسلمين وهم نجوم الأفق النبوي بعد أن غاب قمره الأزهر

وما كل ما مر بك أيها القارئ بأشنع من قول طه في صفحة ٧٢ : ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال (كذا) الشعر وإضافته للجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية أسرته ونسبه فى قريش فلأمر مّا اقتنع الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون صفوة بني هاشم وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف

وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قُصَيّ وأن تكون قصيّ صفوة قريش وقريش صفوة مُضَرْ ومضر صفوة عَدْنان وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانية كلها » انتهى :

فما هذا الأمر يا شيخ الجامعة . ثم ما هذا التهكم وهل تهكم أيها الأحمق المغرور إلا بالحديث الصحيح : « إن الله تعالى اصطفى كِنَانَةَ من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بني هاشم » ألا قبحك الله من شيخ سوء وسَيَحيق بك ما كنت تستهزئ . ومن عساك تظن أنك تبلغ ضره بهذه الحماقة فتضره ؟



عصبية طه حسين على الاسلام

قيلت لي عبارة لم أصدقها ولا أزال في ريب منها وأرجو أن تكون حديثاً مفترًى وكذباً صُراحاً وأن يكون الشيخ طه بريئاً منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب . إن الدم ليس غريباً من الذئب وليس الذئب إلا طبيعياً دمويًّا . ولكن ابن يعقوب له دم غير دماء الناس وقد كان لا بد لهذا الدم الزكى أن ينشأ يه ذلك الفكر النبوي المُلْهَم فيستنقذ مصر وأهلها من المجاعة والقحط ، فلو أن الذئب وَلَغَ فيه لقتل به أمة كاملة وبهذا كانت براءة الوحش من ذلك الدم كأنها فضيلة نقلته من طبع الذئاب إلى طباع أهل النُّسُك من عباد الله المقرّبين وجعلت تهمته مثلاً مضروباً فى الظلم دائراً فى الأفواه باقياً فى ميراث بنى آدم من الحكمة والبلاغة وعاد الذئب — وإنه لذئب بعدُ — كأنما استشهد وكأنما وقعت عليه التهمة فقتلته في سبيل الله فأصبح قديساً اخضرت أظفاره من ريح الجنة فأنبتت ورق الريحان وانقلب ما كان سفكه من الدم فنبت منه الورد وبدا الذئب القديس في التاريخ كأنه طاقة زهر فيها الأخضر والأحمر وفيها أوراق الياسمين البيضاء من أنيابه وأضراسه ...

وطه حسين إن لم يكن ذئباً ولكنا نرجو أن يرحمه الله ببراءته من تهمة كتهمة الذئب تعدو على النبوة وتمزق باظفارها أديم الاسلام وقد علمنا إنْ كان لبريئاً منها ولكن يقال والله أعلم إن المبشرين وجدوا

في كتاب « الشعر الجاهلى » ماكانوا يحومون حوله فلا يصلون إليه[1] وما قضوا فى البحث عنه ستين سنة تحت شمس المشرق يلتمسون بعضه في كلام عالم من العلماء المسلمين أو رجل ذى منصب فيهم أو أديب له شهرة ومكانة فأصابوه اليوم فى دروس أكبر جامعة فى أكبر مملكة إسلامية وأصابوه من أستاذ كبير مصرّ عليه معاند فيه تؤيده الجامعة وتحميه وتدفع من ورائه وتنصره وإن خذلت فيه الأمة كلها وإن سفّهت كل أهل العلم وأهل الأدب وإن أهانت دين الأمة والحكومة تأييداً — زعموا — لحرية الفكر لايبالون أكان هو الفكر الناضج الصحيح أم الفكر العاجز المستهلك الذى يشبه أفكار الصبيان فى إقامة ما يبنونه على شاطىء البحر من قصورهم الشاهقة فى أملاكهم الواسعة .... أو أفكار النبات فى تبنّي ما يلذن من الدُّمى والعرائس أو أفكار طه حسين فيما زعم فى القرآن والنبوة

لقد ضاعت الثقة بهذه الجامعة فكأنها لاتفهم أن كلام طه ليس برهانا واحداً عند المبشرين ولكنه برهان عليه براهين فهو فى نفسه دليل ونسبته إلى الجامعة دليل ومجيئه من بلاد الأزهر تقوية للدليلين معا وإصرار الجامعة عليه خاتمة للأدلة . ألا ليت شعري ما تملك الجامعة أن

(١) بعد نشر هذه المقالة بشهرين جاءفى مجلة الفتح الاسلامية التى يحررهابعض علماء الأزهر الشريف ماياتى : ليقل لنا طه حسين كم يتقاضى من رجال التبشير أو بعبارة أدق من رجال الدول الغربية من أجر على دعايته تلك لهم وعمله لصالحهم وجهاده من أجلهم هذا الجهاد الطويل العنيف الذى لايرهب فيه أمة بأسرها ... ان ذلك الاجر لابد ان يكون عظيما جدا كما يتحدث به الناس فى أنديتهم الخ

تصنع إذا ترجم المبشرون خلاصة هذا الكتاب وشرحوه وبسطوه ونقلوه إلى الانجليزية والفرنسية والسنسكريتية والصينية واليابانية وغيرها وطبعوا منه الملايين ولهم المطابع الكبيرة ولديهم الأموال الطائلة المحبوسة على محاربة الاسلام وفى أيديهم الدعوة العريضة وأذاعوا فى أقطار الارض أن الجامعة المصرية الاسلامية لحكومة مصر قررت فى دروسها أن القرآن وضع إنساني فيه الخرافة وفيه الكذب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رجل سياسي فلا نبوة ولا رسالة [1] وأن أئمة المسلمين يكذبون فى تأويل تاريخهم ، ويؤيدون هذا التاريخ بقول الزور والانتحال ويستشهدون لقرآنهم وحديث نبيهم وهما أصلا الدين كله — بشعر لفقوه تلفيقاً ونسبوه إلى أشخاص خلقوهم خلقاً وأن هذا الكذب مرتفع ممتد يرتقى فى عصورهم وأجيالهم إلى زمن الخلفاء الراشدين ، وأن ورود الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وما يؤثر من كلام أصحابه عن شيء اسمه امرؤ القيس وغير امرىء القيس لايوثق به إذ لم يكن من هذا شيء فالأحاديث الصحيحة كذب وأسانيدها التى حققها العلماء وحفظوها وتناقلوها وأجاز بها بعضهم بعضاً زمناً بعد زمن إنما هو تواضع على الكذب من هذه الأمة . وحسبكم بأمة يمضي زهاء أربعة عشر قرناً ويكون عديدها ثلاثمائة مليون وتنبث فى أقطار الأرض كلها ثم لاينبغ فيها رجل يعرف الصحيح ويفطن له ويستعلن به للناس ويقرره

---

(١) أسرعت الجامعة بعد هذه المقالة فجمعت نسخ كتاب طه ومنعت بيعه لكنها اشترتها منه شراء فجعلت لعامه ثمنا ثم لما ظهر لها انه جهل دفعت فيه ثمنا آخر . . .

ويعامه إلا رجلا واحداً هو العلامة حجة المبشرين . . . الدكتور طه حسين ما عسى أن تفعل الجامعة المصرية فى هذا البلاء الداهم وهـذه الفتنة الآكلة وكيف لها بسد الثُّلْمَة إذا انفجرت وانبثق منها هذا الشر العظيم وهى إلى اليوم كأنها مأخوذة لا تعي ومسحورة لا تفهم وعميد الآداب فيها رجل أعجمي لا يزال من العربية فى المنزلة التى يقال له فيها : إذا نقلت النقطة من تحت الباء إلى فوق صارت نونا . . . فما رأينا هـذه الجامعة تبرأت من هذا الكتاب ولا انتفَتْ من نسبته إليها ولا تزال تحسبه كتاباً فى الشعر الجاهلى . . . وهو كتاب فى التنكيل بالاسلام وهو فى موضوعه أشبه بالسلسلة صفحاته حلقاته فلا تستهينَنّ بحلقة فتقول إنما هى واحدة وإنما هى ضئيلة ولا خطر لها فانه ليس الشأن فى حلقة حلقة ولا فى صفحة صفحة بل فى اتصال بعض ذلك ببعضه واجتماع جملته من أجزائه وتفرق أجزائه على جملته . وعلِم الله ما كتبنا هـذه المقالات إلا لنتمنع الجامعة بجهل شيخها وفساد رأيه ومرض نيته ثم لنرد عليه هذا الغِلّ الذى فى قلبه المسلمين وهـذه السخرية التى فى لسانه وقلمه لدينهم وأئمتهم وعلمائهم وهو على ذلك ضعيف الفهم سخيف التقليد وهو فى غاية تحصيله رجل حافظ كالأوراق المجموعة من كتاب الى كتاب وفى غاية عمله رجل جرىء يقع فى الأشخاص وفى المعاني ويستوحل فى كل وحل وقد لبسه عقله الناقص الأهوج فلا يتثبت ولا يتحرج ولا تسوءه السيئة من نفسه ولا تسره الحسنة من أحد .

وما زلنا نذكر له كلمة غريبة لو خلق الله منها شيئا بعد موت طه لجاء منها

طه نفسه مرة أخرى . . . فقد لقيناه فى جريدة السياسة عند رئيس تحريرها وقلنا له فيما قلنا إنك لست بالعقل العام ولا الحقيقة الكلية فيسوغ لك أن تظن أن مالا تفهمه أنت لا يفهمه أحد وإن الناس خلقوا على درجات قد يبعد أعلاها من أسفلها حتى ليكون العالم من عالم أذكى منه بموضع كموضع الجاهل من العالم . ورويناله قصة إمام عصره بهاء الدين العاملى حين اجتمع له العلماء فى مجلس وفيهم علامة الشام الامام البوريني فبدأ البهاء يتكلم فى التفسير بكلام صريح واضح فهمه كل من فى المجلس من عالم وغير عالم ثم دقق حتى لم يفهمه الا العلماء ثم علا حتى لم يفهمه الا البوريني وحده ثم غمض غموض السر فى حقائق المعقولات حتى لم يفهمه ولا البوريني . فما كان من جواب الأستاذ الأديب المهذب طه حسين الا هذه الجملة بحروفها « دا مغفّل لازم » . . .

أما والله إن المغفل هو الذى يحسب أن سنن الكون تنشىء له أمة جديدة بكتاب ككتاب الشعر الجاهلى وتفسد له أمة قديمة بمجموعة كمجموعة قصص السياسة ثم لا يعلم أن الفاسق الفاجر يكون من الهوان على الله بحيث لا يجعل الله أمره فى هذه الأمة المسلمة يزيد شيئا على حانة فى شارع فى مدينة .

كلما نظرنا فى كتاب الشعر الجاهلى لم نزدد الا يقيناً بأن هذا الأستاذ الذى يسبّح بمذهب ديكارت هو أشد الناس خروجا فى كتابه على هذا المذهب فانه لا يكتب ولا يفكر الا لغرض واحد يبتغي له وسائله وأسبابه بكل ما استطاع وهو توهين أمر الاسلام وصدعه من مفاصله

وتفكيك العُقَد المحكمة التى يتماسك بها فى تاريخه وناهيك به دائبا يجمع من هنا وهناك من أثينا الى مكة ....

فالأستاذ لا يبحث كما يدعي وكما هو الأصل فى مذهب ديكارت. وانما يقرر تقريراً وشتان بين بحث يراد منه ما ينتجه من غير تعيين لنتيجة محتومة وبين تقرير النتيجة التى يساق لها البحث وتجمع لها الأدلة فان الاول يصلح على التجرد من الأسباب التى تؤثر فى الرأي كالعاطفة والعصبية وغيرهما وأما الثانى فزعم التجرد فيه حماقة وسخرية لأن النتيجة المعينة لا تجاذب الا مقدماتها وهذه المقدمات لا تستدعي الا أسبابها وهذه الأسباب لا تقوم الا بأحوال مقررة منها الرأى والعصبية والميل والهوى ونحوها . وذلك ما حمل طه فى اقتحام هذه الخطة وركوب هذا النهج على ما فعل من تحريف النصوص وارادتها لما ليس فيها وعلى ذلك الخبط من سوء الفهم وفساد الاستنتاج ومن أجل ذلك تناول الدين بالتكذيب والرد وتعصب تلك العصبية الحمقاء فى تأويله وسياق أدلته وجعل الشبهة حجة والحجة شبهة ليستوي له أن يخالف الاجماع فاذا خالفه نقضه فاذا نقضه وظن أنْ قد تهيأ له نَسَقٌ تاريخى ولو مزورا مكذوبا عاد بالهدم على التاريخ وعلى الاسباب الطبيعية الواشجة فيه وكسر كل قياس كان العلماء يقيسون عليه فيتم له بذلك ما يسميه هو وأمثاله جديدا وهو من السخف بحيث ترى .

ولسنا نتحرج أن ننبه هنا الى أصل هذا الجديد الذى يزعمونه ويتشدقون به فكل فاسق وكل ملحد وكل مقلد أحدَ هذين وكل متهوس

باحدى هذه العلل الثلاث هو مجدد اذا جرى فى انتحال الأدب العربي وتعاطيه مجرى التكذيب والرد والنقيصة والزراية عليه وعلى أهله والخبط ما بين أصوله وفروعه على أن لا يستخرج من بحثه الا ما يخالف إجماعا أو يعيب فضيلة أو يغضّ من دين أو ينقض أصلا عربيا جزلا بسخافة إفرنجية ركيكة أو يحقر معنى من هذه المعاني التي يعظمها الجامدون أنصار القديم من القرآن فنازلا وبالجملة فالتجديد أن تكون لصا من لصوص الكتب الأوربية ثم لا تكون ذا دين أو لا يكون فيك من الدين الا اسمك الذي ضُرِبَ عليك فلا حيلة لك فيه ولا تستطيع أن تستدرك منه الا فى أولادك المساكين كما فعل أبو مرغريت الشيخ [1] .... ثم لا حاجة للتجديد بالحادك وزيغك الا اذا طبعت باحدهما أو كليهما مسائل التاريخ الاسلامى والأدب العربى وأفسدت الخالص بالممزوج وحقرت الناس والمعاني وكنت حرًّا طليقًا من قيود السماء والارض إذا صدرت أو وردت فتقول على قدر عقلك ثم تعقل على قدر زيغك ثم تزيغ على قدر ما أنت قادر .

أما إن بحثت وقايست وتعقلت وكنت أذكى الناس وأبلغ الناس ثم كنت لا تستخرج من التاريخ والأدب إلا ما يزينهما ويزيدهما ويكشف عن أسرارهما وحقائقهما الصحيحة ولم تكن لص كتب أوربية ومذاهب

---

(١) وهو أبو « أبرت » أيضا فكأنه مادة من مواد التحول الأجنبي فى هذه الأمة واخراج أبنائها على غير دينهم ولغير وطنهم لا أكثر الله من أمثاله ، ولا جعل فى مرآته غير خياله

أوربية فالويل لك فما أنت إلا قديم وما أنت إلا نفس حجرية ولو قدسك المسلمون تقديس الكعبة وحجرها ، وان العصر لفي غنى عنك وعن كتبك وآرائك لأن خمسة أو ستة — أو خمسين أو ستين هم العصر وهم الامة وهم من التاريخ المترامي إلى المستقبل كالقطار فيه ما فيه من عربات تحمل من العُروض على أجناسها وأنواعها ومن الناس على درجاتهم وطبقاتهم ولكن الخمسة أو الستة هم وحدهم عربة الآلات والبخار وفحم نيوكاستل . . .

بلى أيها المجددون غير أنه ليس على الارض معصوم من الخطأ وغير أننا نعرف أن غلطة العالم تدل على علمه كما يدل صوابه وأن شبهة الجاهل تدل على جهله كما يدل خطأه إذ كان الأول متحرزاً يتوقى جهده وكان الثاني متحمقاً يسترسل جهده ؛ فعلى قدر قوة الشبهة وضعفها وبحسب نوع الغلطة وشكلها يعرف نوع الفكر وتتبين حالة العقل ؛ وبهذين تعرف صفة النفس وبالنفس لا بغيرها يقوم التاريخ الإنساني .

فتعالوا نسألكم لو أن عيسى عليه السلام كان معه مائة ألف من أمثال الخواجه المجدد سلامة موسى [1] أيكون معه إلا مائة ألف مكابر سخيف يفسدون عليه ولا يغنون في أمره ما يغني رجل واحد من أولئك الصيادين الذين كانت في أنفسهم الصافية روح الماء العذب

---

(١) رجل مسيحي يترجم لبعض الصحف والمجلات وكما يستطيع أن ينشر فيها يستطيع أن يزعم لقرائها فلا قدرة له على جديد ولكنها القدرة على نشر مالا يستحق أن يقرأ وما المصيبة به اذا حققت الا مصيبة صحفية لا غير فمثله يحسن أن يسمى جريمة من جرائم النشر

ولو أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان معه خمسمائة ألف من أمثال الشيخ المجدد طه حسين أفيردّون عليه ما ردّ عربي واحد قلبه روح سيفه ؟ أرأيتم الآن أيها الفضلاء جداً ... أن الامم فى غنى عنكم وأن حاجتها كل الحاجة إنما هي الى إيمانها وقديمها وأنكم لا تنزلون منها ومن تاريخها وأسباب تاريخها إلا منزلة الثرثرة فى المعنى الصريح من المعنى الصريح وأن مَثَلكم معها كمثل حادثة تاريخية عظيمة أخذت ما أخذت من الناس وتركت ما تركت فيهم حتى إذا مضت لسبيلها وصارت حديثاً فى الاحاديث جاء رجل متسكع متَأَنَكِّع فاحتسى ألف كأس من الخمر وأحرق ألف دخينة من التبغ (١) وأضرم النار وروح النار على دماغه ليخرج من دماغه رواية تمثيلية فى تلك الحادثة تزخرفها بالكذب وتزينها بالفلسفة وتزيدها بالتحليل والمنطق وتجملها بالخيال والشعر ثم لا تكون مع هذا كله فى جنب الاصل إلا مَلهاة وهزؤاً وسخرية ليس فيها إلا حسام لا يقطع ، وبطل لا يمنع ، ونار لا تحرق ، وبحر لا يغرق ؟

أتظنون أن التجديد لا يقوم إلا بالهدم . وهل يبلغ ما أنتم فيه من الحماقة وضعف البصر بعواقب الأمور وأسرار الأشياء أن تقولوا إن البناء الجديد لا يقوم إلا بعد هدم القديم وإزاحة أنقاضه وإقرار الجديد فى موضعه . أهو بناء من الطوب والحجارة والأخشاب ترفعون هذا وتضعون هذا . أم هو بناء بالكلام على أرض من الورق فكل ما جاء ليبنى بنى وكل ما جاء ليهدم هدم ؟ أفلا تعلمون أن القديم لا يهدم ألبتة

---

(١) وضعنا كلمة الدخينة للسيجارة وجمعها دخاين

لأنه هو الذي يبدع الجديد ويشتقه فان هدم فى أمة من الامم زال الجديد بزواله ولم يبق من الأمة إلا بقايا لا تستمسك على حادثة ولا تقر على صدمة ، وأن سنة الكون فى الجديد أنه ترميم فى بعض نواحي القديم، وتهذيب فى بعضها وزخرف فى بعضها الآخر وإلا لوجب أن يتجدد التركيب الانسانى والتركيب العقلى وهو ما لم يقع ولن يقع منه شيء

فالشأن فى الجديد أن تتصل المادة الجديدة بالقديم فاذا هو هو ولكن ببعض الزيادة أو بعض الزينة أو بعض القوة وكل ذلك لاحداث بعض المنفعة فالرجل المجدد لا يوجد نفسه أيها الفضلاء جدا وما هو من الهوان على الكون ونواميسه وعلله بحيث يقول سأكون فيكون . ولو أن كل أسود فى مطعم أو حانة كأسود بنى عبس لفسدت الأرض ولم يبق للشجاعة تاريخ يحفظ ولو أن كل لون أحمر يقول أنا الورد لما بقي للورد معنى إلا أن يكون خجلا فى وجه الدنيا . . .

المجدد أيها الفضلاء جدا لا تخرجه للأمة إلا أقوى عناصر القديم متى اجتمعت فيه صحيحة متظاهرة يمد بعضها بعضاً فان من انتهى إلى غاية من الغايات كان هو الحري أن يستشرف لما بعدها وأن يأتي بما لا يستطيع من دونه ولكن الشرط أن يكون قد بلغ هذه الغاية وما يبلغها إلا إذا كان مهيأ بوسائلها ولن تأتى له هذه الوسائل على أتمها وأكملها إلا إذا شاءت الحكمة الالهية أن تنقح شيئاً فى أساليب الحياة ونظام القديم

فالذى يحصل من كل ما تقدم أن لا جديد إلا حيث تبدع الحكمة شيئاً ثم تتصل نواميس الحياة النفسية بهذا الشيء فاذا هى تفعل به

ما اقتضته الحكمة مما نسميه هدماً أو بناء . فأنت إذا كنت مجدداً في اللغة مثلا وكانت فيك العناصر الكافية لاجتماع قوة من قوى الناموس العام فلا بد أن تبدع شيئاً غير موجود لايستطيعه غيرك كما تستطيعه أنت ، فاذا أبدعت واستحدثت رأيت القديم نفسه هو الدليل على أنك جددت فكنت بشهادته مجدداً وهي شهادة كما ترى لاتنالها بأنك « محرر » صحيفة أو مترجم مجلة أو ملخص من بعض آراء الفلاسفة بل من حياة عصرك وطبيعته وقوانين وجوده إذ تكون أنت زيادة في العصر وآية في الطبيعة وكلمة جديدة في قوانين الأمة [1]

(١) ذلك اصل الجديد فى زمننا فهو راجع الى العامية والالحاد والتهور والفساد الأوربى وما جرى هذا المجرى ويقابله من معنى القديم العربية والاسلام والفضائل الشرقية وما اتصل بها . أما الجديد فيما عرف من تاريخ الادب العربى فكان ان الرواة لم يكونوا يحملون الشعر الا للمثل والشاهد فلا حجة لهم من كلام المحدثين ولا رواية الا من الشعر القديم وحده الى آخر المائة الاولى وبهذا انصرفوا عن بشار وأبي نواس وطبقتهما وتجنبوهم فى الرواية .

قال ابن الأعرابى انما أشعار هؤلاء المحدثين كأبي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا. وأنشده رجل شعر الأبى نواس أحسن فيه فسكت فقال الرجل اما هذا من أحسن الشعر قال بلى ولكن القديم أحب الى . ومثل هذا كثير ومرجعه الى قوة الشعر القديم فى لغته وسبكه وأنه مادة الاستشهاد وديوان التاريخ وكتاب المعانى . ثم استمروا على ذلك وعاد كل قديم فى هذا المعنى أقوى من كل جديد لان العصور الادبية كانت ذاهبة الى التدلى والضعف فلما تأخر الزمان صار التعصب للقديم نفاسة على الشعراء المعاصرين وحسداً لهم حتى قال ابن شرف القيروانى المتوفى سنة ٤٦٠

قل لمن لايرى المعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
ان ذاك القديم كان جديداً وسيغدو هذا الجديد قديما

وهي حجة فلسفية منطقية كما ترى . ومن كل ذلك تعلم أن « الجديد والقديم » لم يكونا قديما الا في الشعر فقط اما اليوم ففى اللغة والدين بآثارها وهذا هو العجيب.

***

أن هذا بعيد من موضوعنا ولكن كيف نصنع وموضوعنا طه حسين وهو رجل كشبكة الصائد كلها عيون وخروق وبين كل خرق وخرق عقدة . . . . رأينا عصبية طه على الاسلام تلبس ثلاثة وجوه : أولها عقيدته في القرآن وأنه من وضع الذى جاء به لا من وحي ولا تنزيل ولا معجزة . وثانيها رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رجل سياسى فلا نبوة ولا رسالة . وثالثها عمله في توهين أمر الأئمة من الصحابة فمن بعدهم وقياسهم في الانسانية وأهوائها وشهواتها على قياس من نفسه وطباعه . . .

فاما القرآن فقد أفردنا له مقالا افتضح به أستاذ الجامعة أشد فضيحة وأخزاها ونزيد عليه هنا أن الأستاذ يقول في صفحة ٨٥ فى الرد على المستشرق هوار الذى زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من شعر أمية بن أبي الصلت واستعان به في نظم القرآن . « من الذى يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآني كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم وكان من اليسير أن يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم — تأملوا — كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي ثم كان النبي وأمية متعاصرين فلمَ يكون النبي هو الذى أخذ من أمية ولا يكون أمية هو الذى أخذ من النبي » . وهذه العبارة ناطقة برأى قائلها حتى كأنه يقول إن القرآن لا ينقصه إلا أن يكتب عليه تأليف فلان . ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره .

ويقول فى صفحة ١٨ فى بيان أن القرآن ليس فى حاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيها عند العرب : نخالفهم أشد الخلاف لأن أحداً لم ينكر عربية النبي فيما نعرف . . . يعنى إذا لم ينكر أحد عربيته لم ينكر صحة كلامه ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره . ثم يقول فى صفحة ٧٦ عن علماء الموالى وعلماء العرب : « وأراداهم (علماء العرب) أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درساً لغوياً ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه . ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى اثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق فى ألفاظه للغة العرب فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لاسبيل الى الشك فى عربيتها » انتهى . والرجل يكرر هذا المعنى ويطيل فيه ولا يفهم أن الاستشهاد بالشعر لا يراد منه اثبات عربية القرآن ولا مطابقة ألفاظه لالفاظ العرب ولا هو من شك فى العربية ولا « من أمر ما . . . . » وانما يراد به اتخاذ القرآن سببا فى جمع مادة اللغة وشواهدها كما كان هو السبب فى وضع العلوم العربية كلها ؛ أفترى وضع النحو كان لاثبات ان القرآن ليس فيه لحن أم كان لاقامة الألسنة الزائغة حتى يسهل عليها الأداء والقراءة . ثم يراد من تقييد تلك الشواهد وجمعها وتدوينها تفسير كلمات القرآن ليفهمها من يجيئون بعد العرب كما فهمها العرب أنفسهم . وظاهر انه لا سبيل الى ذلك الا بالنص على معانى الكلمات عندهم ولا ثقة بهذا النص ان لم يكن عليه دليل من شعرهم إذ هو وحده المحفوظ عنهم وهو كان متن اللغة والخبر والأثر ، ولعمري لولا صنيع العلماء فى جمع

هذه الشواهد لقام الف زنديق يضيفون إلى مطاعنهم فى القرآن أن فيه خطأ فى اللغة ، فانظر أين هذه الحكمة مما يخبط فيه استاذ الجامعة ؛ ويقول فى صفحة ٩١ : ان اليونان يقدسون الالياذة والأوديسا ويعنون بجمعهما وترتيبهما وروايتهما واذاعتهما عناية المسلمين بالقرآن الكريم

ولم نفهم شيئا من هذا الكلام لأنه يحتمل كل شيء ولو فسر لنا فسرناه له وأريناه مبلغ جهله وسوء أدبه

وأما رأيه فى النبي « ص » فمن أعجب ماعجبنا له انه ما من عالم أو كاتب مسلم يذكره صلى الله عليه وسلم الا صلى عليه أو وضع رمز الصيغة ولو هذا الحرف (ص) وترى كتاب المسيحيين يأخذون بهذا الأدب فى كتبهم العربية ، لأن المسلمين يقرأونها . أما أستاذ الجامعة فكأنه لا يتولى النبيّ (ص) ولا يحس عظمته ولا أثره فقد ذكره فى كتابه مرارا تفوت العد فلم يتأدب معه ولا مرة واحدة ولا بعقيدة المسلمين أخذ ولا بمجاملة المسيحيين اقتدى بل طريقته هى طريقة المبشرين بعينها تشرك وقاحة الكاتب وغروره وانتشار عقْدِه ، مع أنهم قالوا إن هذه الصلاة من الرجل المسلم انما تكون دليلا على خلوص نيته وقوة عقيدته وأنه لا شوب فيها ولا شرك ، وعلى أن بشاشة الايمان قد خالطت قلبه ، ولكن شيخ الجامعة قد تجرد من دينه منذ الصفحة الاولى وقد والله صدق فيه الحديث . رَغِمَ أنفُ عبد ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عليّ ، فما أنفٌ أرغم اليوم من أنف طه حسين كمدا وذلا وخزيا ولعنة ، والأستاذ يكذب الحديث الصحيح ويتهكم به كما رأيت فى بعض ما مر وما نظن

أحدا يسلم من تكذيبه بل هو يقول فى صفحة ١٢٨ . فأنا لا أقدس أحدا من الذين يعاصروننى . ولا أبرئه من الكذب والانتحال ، فاذا كان هذا من رأيه فيمن يعاصرونه ويعرفهم حق المعرفة ، وفيهم أستاذه وصديقه وأبوه وأمه فكيف به فيمن لا يعرفهم الا من الكتب ؟ بل هو يكاد يصرح فى صفحة ١٠١ أن كل شخص لا يعرفه فأكبر الظن عنده أنه من أشخاص الأساطير لم يوجد قط . قال نحن لا نعرف مَن سَعْد ومن مالك ومن زيدُ مَنَاة فأكبر الظن عندنا انهم أشخاص أساطير لم يوجدوا قط ، فهل تعرف يا أستاذ الجامعة أولئك الذين ألفوا كتب التاريخ ؟ واذا كنت لا تعرفهم فليس ما يمنع أن يكونوا أشخاص أساطير واذن فالكتب قد ألفت نفسها . . . إذ لو قلت إن غير أولئك الفوها قلنا لك وهؤلاء لا تعرفهم فلا تزال تدور فى مُحَال لو أخذنا بقياسك الفاسد ورأيك السقيم

قالوا سعد ومالك وزيد مناة وفلان وفلان وفسروهم وأخبرونا خبرهم فان قلنا إننا لا نعرفهم ولم نُثبتهم بيانًا فيجوز لذلك أن يكونوا رجال أساطير — صدق هذا على كل ما كان قبلنا وسيصدق علينا وعلى تاريخنا إذا جاء من بعدنا وورِثتنا الدنيا فلا يكون العلم التام الا الجهل التام وحسبك بهذا جهلاً ممن يقول به . ثم انه ليس فى الطبيعة الإنسانية تواطؤ على نمط واحد من الخُلق فان وجِد الكذب وجد معه الصدق وان كانت الغفلة كان التحرُّز وان عرف التلفيق عرف النقد والتمحيص وما قط وجدت أمة يُجمع كل أدبائها وعلمائها على الكذب

ولقد امتازت الأمة الاسلامية دون كل الامم بعلم الرواية وشروطه الكثيرة كما بسطنا الكلام عليه فى الجزء الأول من تاريخ آداب العرب. فان كان عندنا الكذابون والوضّاعون ومن لا ثقة بهم فان عندنا الناقدين والمصححين والثقات. ولكن ما أنت صانع فى رجل كطه حسين جهله أوسع من علمه ولسانه أوفى من عقله ولا يدرى إلى الآن أنه متى صار التاريخ إلى الطريقة الجدلية فلا حاجة إلى اطلاع ولا فكر ولا علم وكل عامي هو مؤرخ إذ حسبه من العلم أن يقول فيما لم يكن إنه كان وفيما كان يجوز أنه لم يكن، وعجيب أن تكون هذه هى طريقة أستاذ الأدب فى الجامعة وأن يكون رجال هذه الجامعة من الغفلة بحيث يظنون هذا علماً أو تجديداً فى العلم . . .

ويقول فى صفحة ٤٨ يعنى النبي صلى الله عليه وسلم أولَ أمره مع قريش: ولم يكن يطمع فى ملك ولا تغلب ولا قهر أولم يكن ذلك فى دعوته» وهذه العبارة الأخيرة يقلد فيها دهاة السياسة فى لغتهم العملية التى يجعلون لكل جملة منها بابين غير أن طه سد فى عبارته البابين والنافذة أيضاً . . . فان معناها الصريح أن النبي صلى الله عليه وسلم أولَ أمره لم يكن يطمع فى ملك أو كان يطمع ولكنه كتم ذلك فلم يظهره فى دعوته التى دعا بها الناس إلى الله. وإذن يا شيخ الجامعة فقد كان للدعوة بطن وظهر ولا تكون كذلك إلا إذا كانت من عنده هو لا من عند الله. وليتأمل القراء شنعة ما يخرج من هذا القياس من إنكار النبوة والرسالة ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره. ثم يقول فى صفحة ٥٠ « إن النبي صلى الله

عليه وسلم كان يحرض على الهجاء ويثيب عليه أصحابه ، ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حساناً » وهذا الجهل مما تضيق به الصدور فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن به الهجاء ولا الإقذاع وإنما كانت تلك سنة عربية اضطرته إليها طبيعة العرب لحماية أعراض المسلمين فقد كان من هذه السنّة عند العرب أنه إذا سكت المشتوم صدق الشاتم فجرى كلامه مجرى التاريخ الصحيح ثم كانت معارك الألسنة لا يسكت فيها إلا الذليل فسكوته ذل ولا يُغلب فيها إلا العَييُّ فعيُّه ذل آخر وكل ذلك من أمرهم فلم يكن بد من المصير إليه ليتعَالَمَهُ العرب فلا يؤثر هجاء قريش أثره فيهم ويكون سبباً لنفرتهم ولتوهين أمر المسلمين عليهم [1] . وما كان جبريل يؤيد حساناً فى الهجاء ولكن فى الكفاح عن نبيه كما ورد في الحديث « إن الله ليؤيد حساناً ما كافحَ عن نبيه » والعبارة بهذه اللفظة (الكفاح) تُفهم معاني كثيرة ليس منها معنى الهجاء وكأنه صلى الله عليه وسلم كُشف له أن طه حسين سيدّعي عليه ويغض منه فقيّد غرضه بها ليقول للناس انظروا فانه . . . وافهموا فانه . . .

وأما عصبية الرجل على أئمة المسلمين فقد مر من ذلك نبَذ وانظر كيف يقول فى صفحة ٥١ عن أبي سفيان فى فتح مكة : فنظر فاذا هو

---

(١) كأن استاذ الادب في الجامعة لايحفظ القرآن ولم يتل قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا » .فهؤلاء الذين انتصروا من بعد ماظلموا هم شعراء النبى (ص) فليس هجاؤهم هجاء ولكنه انتصار من ظلم حاق بهم فتأمل هذا فانه من ادق معانى الادب

بين اثنتين إما أن يمضي فى المقاومة فتفنى مكة وإما أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس (وينتظر . . .) لعل هذا السلطان (السياسى) الذى انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الانصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى » قال وألقى الرماد على هذه النار التى كانت متأججة بين قريش والأنصار وأصبح الناس جميعاً (فى ظاهر الأمر) إخواناً مؤتلفين فى الدين . انتهى نصاً

وقد طال (انتظار) أبي سفيان فى رأي الشيخ المأفون حتى قام حفيده يزيد بن معاوية فانتقم من غزوة بدر فى وقعة الحرة كما قال فى صفحة ٥٥ وفى هذه الصفحة يقول إن يزيد صورة صادقة لجده أبى سفيان فى السخط على الاسلام وما سنه للناس من سنن [1] » فأبو سفيان والصحابة أو أكثرهم منافقون فى رأي الجامعة المصرية لأنهم لم يكونوا إخواناً مؤتلفين فى الدين إلا (فى ظاهر الأمر) وأبو سفيان مع ذلك من كتّاب النبى صلى الله عليه وسلم وقد شهد معه حنينا والطائف وفقئت عينه فى هذه وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة حنين : والله إنك لكريم فداك أبي وأمي والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ولقد

---

(١) هذا ايضا من جهل الشيخ بالتاريخ فقد جعل ميراث ابى سفيان في اولاده السخط على الاسلام والانتقام منه والحق فى ذلك مع ان المعروف فى التاريخ ان معاوية انما ورث حلمه الذى يضرب به المثل من ابيه ابى سفيان حتى انه لما قتل حجر بن عدى وجماعته بعد أن ثاروا عليه في خبرهم المشهور ارسلت اليه عائشة ام المؤمنين تشفع فيه وفى اصحابه فبلغه رسولها وقد قتلوا فقال لمعاوية « أين غاب عنك حلم ابى سفيان » فتأمل قول من عرفوا الرجل وعاشروه وقول استاذ الجامعة

سالمتك فنعم المسالم أنت » أفهذا كلام منافق ينتظر ويتربص ؟

على أن الذى ما يُقضَى العجبُ منه أن رأي طه حسين هذا هو بعينه ونصه رأي الرافضة ومذهبهم فقد زعموا أن الصحابة كانوا منافقين فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَبا بكر وعمر وأباعبيدة بن الجراح وجلّة المهاجرين وخيار الانصار

فكيف يتفق كل هذا فى كتاب الجامعة وهل الذى فيها أستاذ للآداب أم هو أستاذ للكفر والرفض ؟

قد تبين الرشد من الغى

قبل أن يجري القلم فى هذه الكلمة نصحح قولاً جئنا به فى بعض ما كتبناه ، فقد ظننا أن أستاذ الجامعة أخذ فكرة الشك فى شعر الجاهلية عن المستشرق مرجليوث ولكن أحد الفضلاء نبهنا إلى أنه قبل ُجحا قد كان أبو دلامة . . . فان هذه الفكرة من آراء مستشرقى الألمان وهي مبسوطة بكثير من أدلة طه حسين فى كتاب الشعر العربي قبل الاسلام المطبوع فى باريس سنة ١٨٨٠ . فيسرنا والله أن نباهي الأمم كلها بجامعتنا المصرية التى جاءت فى تاريخ الدنيا بمعجزة فوق المعجزات إذ ظفرت لتدريس الآداب العربية باستاذ عظيم تُسرق آراؤه وتطبع وتنشر فى أوربا قبل أن يولد هو فى مصر ببضع سنوات . . . وما زالت بلادنا هذه

مُرَزَّأَةً مسكينة لاتبرح الأقدار تمسها فى كنوزها الغالية وترميها بالمتلصصة من آفاق الأرض فما كفى أوربا أن تسرق آثار ملوكها وفراعنتها بعد موتهم بل اجترأت كذلك فسرقت آراء الفرعون العظيم طه حسين قبل ولادته . . .

أما بعد أيتها الجامعة فانما نخاطبك ونكتب لك وحدك وإياك نعني وعلى قدرك ما أجملنا وفصلنا لا نك مؤتمنة على عقائد أبنائنا ونراك خائنة وفيك مَثابة العلم ونراك جاهلة وإليك الرأى فى هذا الأدب ثم لايُسِفّ ولا يسقط فى الرأى غيرك ؛ وقدكان الظن بك أن العلم حرمة عندك وللأمانة موضعاً فيك وأنك تعامين الفرق بين علم مفروغ منه وعلم قد بُدِئ فيه وبين العقل العام الذى يجتمع من صواب العلماء جميعاً وبين العقل الخاص الذى يحمله كل عالم وكل جاهل ، وكنا نرجو بذلك أن تدركى أن الأدب لايلبس ثياب طه حسين ولا يحيا بحياته ولا يموت بموته وأن هذا الرجل هو مرآتك فى الأمة فهو رادُّك إلى طبعه وخلُقه وممثلك بجهله وحمقه ودامغُك بزيغه وإلحاده فتَعَالَمتِ به حتى فضحك جهله وأمنت له حتى لبسك كفره ثم أنت بعد ذلك لاخطأ نفيت ولا صوابا أتيت بل ذهبت بنفسك غروراً منك بأن اسمك الجامعة وتعصباً لباطل أستاذك الملحد واستكباراً فى الارض ومكرَ السيّء فكنتِ ما كنتِ إلى صلابة وعناد وإلى شدة ونكاية وملت إلى ناحية الازدراء بالأمة والتهكم بدينها والتحقير لعلمائها وأدبائها كأنه ليس فى كل أولئك عالم ولا أديب وكأن مجموعة

الأمة المصرية لاتوزن عندك « بابن الجامعة البكر » لأن قلبك يزيد فيه حتى يصير جبلا وينقص من الأمة حتى ترجع حصاة والميزانُ ميزان قلبك ثم هو فى يدك المتصلة بهذا القلب . فسبحان الله كأننا لانجادلك فى العلم والأدب ولـكن نعذلك فى العشق والهوى وأضيعُ شيء ما تقول العواذل فما بك إلا الخلاف والمكابرة والإصرار واعتدادُ كل سيئة من سيئات المحبوب حسنةً من حسنات الحب . . . فلقد صار لنا أن نفهم أن الأمر عندك إنما هو بين أشخاص وأمزجة ومصالح تجعل علماء الدين فى مصر بأسمائهم وألقابهم وإجازاتهم كأنهم صفحة مكتوبة تقرأ وترمى فى سلة المهملات ، أما طه وحده فهو الحي العالم القادر المتكلم الابن البكر الذى تجعله شهادة السوربون كأنه الآية الناسخة ثم لاتكون الآية المنسوخة إلا الأزهر الشريف على حين لايكون الخلاف إلا دينيا وفى كتاب الله

وصار لنا أن نفهم أن هذه التى تسمى الجامعة المصرية لاتبالي حُسْنَ أثرها على الأمة أو سوء أثرها عليها ولا تعبأ بسمعة تمدح أو تذم كأنها هي وحدها مركز المخ من الجسم المصري أما سائر الناس والطبقات فجلد وعظم وأدوات وشيء كالضيعة فيما تُغِلُّه على صاحبها أو نحو من هذا التشبيه أو قريب من نحوه ، فان سقط رجل فيها كطه حسين ونبذته الأمة كلها لم يكن للجامعة همّ إلا أن تشده إلى كرسيه ولو بالحبال وتثبته ولو بالمسامير كأنما وظيفته فى الجامعة أن لايتركها وحَسْبُ . . .

أما العلم والأدب فكل كلام هو علم وأدب ما دام قائله « ابن الجامعة

البكر » وما دام التمييز مفقوداً والأهواء ملتبسة إذ البغية عندهم كما وضح لنا وللناس جميعاً أن يجد أستاذ الادب عيشه لا أن يجد الادب أستاذه والامران مختلفان جداً كما ترى وبينهما بعد باعد لا تقريب فيه

نسأل الجامعة سؤالاً مكشوفاً لتجيبنا عليه إن استطاعت أن تجيب بعد ذلك السكوت منها . منذ الذى يصلح من رجالها والقائمين عليها أن يكون حكماً فيما شجر بينها وبين الأدباء من خلاف ؟ فهم يرمون أستاذها بالجهل فى تاريخ الأدب ويهدمون عليه دروسه وينقضون آراءه وذلك إما حق فينفذ وإما باطل فيُرَدّ ، فمن عساه يقول هذه الكلمة الفاصلة من أساتذة الجامعة ورجالها ؟ ومن هو هذا الذى يرى فى نفسه قوة هذا العلم ويكون من أهله بهذا الموقع وما علمنا أن فى الجامعة الأصمعي ولا أبا عبيدة ولا الجاحظ ولا من فيه من هؤلاء وأمثالهم رائحة وليس فى الأرض كلها من يقول إن عالماً بالقانون هو من أجل ذلك عالم بالأدب وإن فيلسوفا فى العقليات هو بفلسفته مؤرخ للشعر والكتابة وما كل من يحسن شيئاً يحسن كل شيء

ولقد ادعى الأدباء والعلماء وجاؤا بالبينة وساقوا الحجج وأثبتوا للجامعة إلحاد شيخها وضعف رأيه وسوء فهمه وعقم استنباطه وأنه على ذلك نَزْرُ المادة يتوسع فيها باشياء من نفسه يسميها التحليل والمنطق لا بالأسباب التى تكون من المادة نفسها مما يسمى بالنصوص والعلل ونحوها . قد أقيمت الدعوى فأين القاضى ؟ أتريد هذه الجامعة أن تهزأ بالعلماء والأدباء جميعاً وأن تتغفل الأمة كلها فتضع لطه حسين لحية .

كثة على عارضيه وفروةً بيضاء على رأسه وتخرجه للناس يقول نحن قاضي الجامعة فُتحت الجلسة وحكمنا أن طه حسين لم يلحد فى دين الله ولن يلحد فيه ولم يخطىء فى تاريخ الأدب ولن يخطىء ولم ولن عشر مرات على بياض . . . ليضع فيها طه حسين ما شاء كلما شاء ؟

أيتها الجامعة لا نسألك إنصافاً ولا بعضاً من الانصاف ما دمت تخصين أستاذك بالمراعاة وبفضل من المراعاة ولكن ويحك ما أنت صانعة فى تاريخ الأدب ومن الذى ورّثك إياه أو وقفه عليك حتى يكون علمك هو العلم وحده وأية قوة هذه التى تجعل الغلطة منك ذات عنصر ليس فى الغلط حتى لا يطمع أحد فى تنبيهك إليها أو حسابك عليها ، وفى هذا القياس من الذى يجعل حديدك ذهبا ، وثلجك البارد لهبا ، وحطبك عودَ النَّد ، وجزْرك أعلى المدّ ، سبحانك بيدكِ الخير ، وأستاذكِ ولا غير ، وورثت ملكَ سليمان « بعفريت » ، وملكت حرارة الشمس فى علبة كبريت . . .

أما إنه عزيز علينا والله أن يجري بنا القول إلى هذا المعنى ولكن الكلام لا مقَادَة له إلا من الواقع وما كان لنا أن نرى فى المرآة قفا عريضا ثم نقول فى وصفه تبارك الله ما أبدع سحرَ العين ، وما أحلى ندَى الابتسام على ورق الشفتين ، وهذا الخد ، قافية فى شعر الورد ، وذاك الفم على وزن الدم ، ويا عليل الطرف أين منك الدوا ، وما هذا الحاجب إلا « حاجب » محكمة الهوى . . .

* * *

وبعد فلندع الجامعة فى أستاذها ولتسخر من الأمة ماشاءت ولكنا نريد أن نفهمها أن السماجة كل السماجة فى أستاذها أنه يزعم فى كتابه تصحيح الحياة الأدبية الاسلامية وقد علم أنه ماكان فيها ولا شارك أهلها ولا أحاط بأسبابها ولا هو يتولاها بالذهن اللطيف والبصيرة النافذة والطبع الشعري وما يشبه أفكار أهلها ومنازعهم وأغراضهم بل يزعم فى غرور أي غرور أنه تجرد من العاطفة والدين ليدرس ويستثبت ويحقق وهو لو كان على علم وبصر وكان قد توفر على ما هو بسبيله من هذا الأدب للبس ولم يتجرد فكان يكسو فكره وخياله عواطف العرب وأذواقهم وعاداتهم وطبائع عصرهم ويقارب أذهانهم الحِداد وقرائحهم القوية ثم يقول بعد ذلك فى تاريخهم وتاريخ أدبهم وينكر ويثبت فإنه أحرى أن يقبل منه ، إذ يكون كأنه اتصل بالحادثة التى يؤرخها بمثل ما يرده العيان والمشاهدة على من عاين وشاهد وكأنه شارك فيها بايجاد وخَلق فمن ثَم لايقول فيها من هو أصدق منه أو أقرب إلى الصدق ويكون فيما يحكيه أو يصفه أو يستنبطه كانه بقية دهر تصف دهرها فما ثَم إلا القبول منه والمصير إلى قوله ورأيه وينزل عصره منه منزلة الفتى الناشىء الذى يسمع القصة من الهرِم الفاني الذى يقصها عن نفسه

من أين للفكر المستفاد من عصرنا هذا عصر الشك والالحاد أن يستبطن خفايا العصور المؤمنة الغالية فى ايمانها ، ومن أين للعقل الذى تنشئه أسباب التخنث ويقوم على النعمة واللين والحياة الوادعة أن يمضي

فى أسرار الأعصر المخربة المدمرة البالغة فى جبروتها ؟ وليت شعرى عن أستاذ الجامعة إذا لم يجانس فكره الغربى الأوربى ذلك الفكرَ الشرقي العربي حتى يقع التمازُج بينهما هل يكون كلا الفكرين إلا سبًّا للآخر ونقضاً عليه كما ظهر فى كتابه الذى سب تاريخ الأدب به وسبه به تاريخ الأدب ؟

أنت يا راكب السيارة وممتطي القطار تزعم أن الحمق أشدَّ الحمق أن تمتطي الناقة أو تركب الجمل فتزري عليهما وتحقر شأنهما وتقول فيهما ما يبلغ لؤم القول ثم تجاوز بهذه السِّمة إلى أهل الناقة والجمل ثم تتعداهم إلى عصرهم فتقول عصر البطء والبلادة والقلة وضياع الوقت والاسراف فى انفاق العمر وكيت وكيت . ولـكن أيها الأحمق غامر بنفسك مرة فى الصحراء وارتم هناك بين العرض والطول الملتبسين فى خيط واحد ثم اجمع شواهدك وحججك واستعرضها حجة حجة ودليلا دليلا فانك سترى الجمل يهدم عليك ذلك المنطق كله ببعرة . . . وستتعلم هناك منطقاً آخر تؤمن فيه أشد الإيمان بأن الناقة والجمل ليسا من الحيوان بل هما الكوكبان اللذان خلقهما الله بقدرته لتلك السماء من الرمل

إن أقوى أسباب الخطأ فى تاريخ الأدب شيئان : ضعف الفكر عن النفاذ فى إدراك الأسرار التى انطوى عليها ذلك التاريخ وضعف المادة التى تجمع لك صور التاريخ وتعين أجزاء هذه الصور وتحقق أوضاع هذه الأجزاء . أما الفكر فلا نفاذ له إلا أن يكون فكر شاعر كاتب

بليغ على أصل من الفلسفة والذكاء الشفَّاف والعلم العربى . وأما المادة فلا قيمة لها مالم تكن من الاتساع بحيث تتناول عصراً عصراً ورجلا رجلا وما نقص من ذلك فالنقص فى التاريخ بحسبه وعلى مقداره . ولنضرب مثلا بأستاذ الجامعة فقد صنع فصولا فى أبى نواس جعل فيها هذا الشاعر الماجن الخليع المتخنث ديناً لعصره ومذهباً للحياة فى زمنه فقال إنه كان عصر شك وإلحاد وزندقة ، وغفل عن قول الاصبهانى جامع شعر أبى نواس : إن تعاطيه لقول الشعر كان على غير طريق الشعراء لأن جل أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث كأشعاره فى وصف الخمرة ولغة النساء والغلمان وأقل أشعاره مدائحه ، قال وليس هذا طريق الشعراء الذين كانوا فى زمانه » . فاذا كان هذا النص صريحاً قاطعاً فى أن شعراء زمن أبى نواس كانوا على غير طريقته فكيف يكون الزمن نفسه على طريقته ؟ وما دمنا فى طه حسين فانضرب به هو مثلا فقد جاء فى كتابه الشعر الجاهلى بمُخْزِيات كثيرة من الالحاد والتهكم بالدين فاذا مضت ألف سنة ثم جاء أديب فى مثل فكره وفهمه العجيب فوقف على كتابه أو نَبْذٍ منه ، أفلا يقطع بهذا الدليل إذا لم يجد غير هذه المادة من التاريخ أن الجامعة المصرية كانت فى سنة ١٩٢٦ معهد كفر والحاد ثم ينساق به الفكر إلى الأمة المصرية فيستنبط أنها كانت بقَضِّها وقَضيضها أمة كافرة ملحدة لأن الجامعة هى أكبر مدارس الحكومة والحكومة أقوى مظاهر الأمة الدستورية . ولكن هذا الأحمق (مقدَّما وسلفاً . . .) إنما يقع فى هذا الخلط الشنيع من ضعف استجماعه

لمادة التاريخ وان كان سديد الرأى صحيح القياس . فلو هو اطلع على برقيات المعاهد الدينية المذيلة بأسماء جميع علمائها وعلى قرار علماء الأزهر وعلى احتجاج الشعب المصرى وعلى ما كتبه الاساتذة الكبار وعلى مقالاتنا الضعيفة أيضاً لعلم من كل ذلك فضيحة الجامعة فتغير رأيه ، فتغير حكمه ، فتغير التاريخ الذى يجيء به ويؤلفه .

لاجَرم كانت المادة المحفوظة هي التى تنشئ التاريخ انشاء على حسبها فلا تجزيء عنها الفلسفة ولا الفكر ولا مذهب ديكارت ولا مذهب طه حسين إذ هى وحدها سبيلنا الى ما لا يمكن أن نلحق به أو يرجع الينا . أما اتهام الرواية والجرح والتعديل وما كان من الانتحال بزيادة أو نقص ولسبب وغير سبب فهذا وما يجري مجراه عمل الفكر الذي أفيضت عليه تلك المادة لا الذي انحسرت عنه فعلى قدر ما يعجز المؤرخ عن استيعاب المادة يكون عجز فكره ويدخل رأيه من الخلل والاضطراب والنقص بمقدار ما عسى أن يكون فى تلك المواد التى سقطت عنه من الإحكام والضبط والزيادة وغيرها من أسباب الرأي . ولن يسلم مؤرخ الأدب من ذلك ولن يكون لفكره نفاذ ولن يكون رأيه رأيا الا اذا أزاح هذه العلة بالاطلاع والجمع والاستقصاء ؛ وذلك ما نبهنا اليه الجامعة فى غير موضع من كلامنا لتعلم أن المطلب بعيد والطريق وعر وأن تاريخ الأدب ليس مقالة الى مقالة ولا فكرة إلى فكرة ولا هو من باب الكلام الصحفي ولكنه مادة إلى مادة وتحقيق إلى تحقيق ؟ فلتُعاير كتاب أستاذها بهذا المعيار ولتبحث فيه عن المادة قبل الرأي فانها ستراه كله

خلطا أحدثه تمازج عصرين متناقضين أحدهما عصرنا هذا بما فيه مما يعرف الاستاذ عيانا وتصديقا والآخر عصر العرب بما كان فيه مما لا يعرف الا بعضه وهماً وتكذيبا لانه لاينساغ فى طبيعته المعتلة الزائغة التى أفسدتها العقلية الاوروبية .

ومتى سلط الفكر التاريخى بالمشاهدة على الوهم وبالتصديق على التكذيب وكان لايجري فى ذلك الا بميل وهوى لم يبق من التاريخ شيء فان بقي شيء لم يكن تاريخا بل عملا كتابيا يُكَدُّ فيه الذهن ويعنتُ الخاطر لغرض من الابداع أوالإغراب أو التفلسف أو التضليل ونحوها من الاغراض العقلية أيها كان الا غرضَ التاريخ .

وانظر كيف يصنع هذا الخلط قال أستاذ الجامعة فى صفحة ٥٢ : وفى الحق أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكد يدع هذه الدنيا (هذا تعبير المبشرين كأنه حازها ثم تركها أما التعبير الاسلامى فهو لم يكد يلحق ربه أو بالرفيق الاعلى) حتى اختلف المهاجرون من قريش والانصار فى الخلافة أين تكون ولمن تكون وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين (كذا كذا بقية فقط فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم)وحزمُ نفر من قريش ولولا أن القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش (وهذا كذب على التاريخ) فما هى إلا أن أذعنت الانصار وقبلوا أن تخرج منهم الامارة وظهر أن الأمر قد استقر بين الفريقين وانهم قد أجمعوا على ذلك لايخالفهم فيه إلا سعد بن عبادة الأنصارى الذى أبى أن يبايع أبا بكر وأن يبايع عمر وأن يصلى بصلاة المسلمين وأن يحج

بحجهم وظل يمثل المعارضة قوي الشكيمة ماضي العزيمة حتى قتل غيلة في بعض أسفاره قتلته الجن فيما يزعم الرواة . انتهى ثم قال في صفحة ٧١ :

وأعجب من هذا أن السياسة نفسها قد اتخذت الجن أداة من أدواتها (نهىء الجامعة) . . . وأنطقتها بالشعر في العصر الاسلامي نفسه فقد أشرنا في الفصل السابق إلى ما كان من قتل سعد بن عبادة ذلك الأنصاري الذي أبى أن يذعن بالخلافة لقريش وقلنا إنهم تحدثوا أن الجن قتلته وهم لم يكتفوا بهذا الحديث وانما رووا شعراً قالته الجن تفتخر فيه بقتل سعد بن عبادة هذا

قد قتلنا سيد الخز   رج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين   فلم نخطىء فؤاده

انتهى كلام الشيخ وسنقف هنا وقفة نبين لك فيها ضلالة هذا الرجل وخلطه وتعمده الكذب وقلة تحفظه وأخذه على نفسه فيما يقوله ويراه وستطلع من ذلك على دخيلة نفسه الخبيثة وتعلم يقينا أن غايته تحقير الاسلام وتهوين أمره وانه كالمكره على أن يسوق كلامه مساق الشبهة مع انه في سعة من التاريخ ونصوصه واللغة وأساليبها وانه دائما يتبع طريق الزنادقة في جعل الكلام مقدمات فاسدة ثم الامساك عن النتيجة الآتية منها فلا يصرح بها بل يدع الطالب يستخرجها بفكره ليجعل ذلك من عمله فيكون ألصق به وأشد تأثيراً في نفسه وعقله ويخرجه ذلك إلى أن يعتقد ما انتهى اليه ويتأدى به الشك إلى التهمة وتسلمه التهمة إلى ما لا يسلم عليه إيمان ولا يصح به يقين

يصور الشيخ سعد بن عبادة كما تفهم أنت من موقف كموقف الحزب الوطني في البرلمان مثلا فهو يمثل (المعارضة) وظل يمثلها إلى أن قتل أي سنة خمس عشرة للهجرة على بعض الاقوال وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بنحو سنتين ، والمعارضة انما كانت معارضة حين نشأت مسألة الخلافة فما بقاؤها بعد أن استوثق الامر وهل تسمى بعد إجماع الامة عصيانًا وخروجا أو معارضة يمثلها رجل سياسي ؟ ثم يقول إن سعدا هذا كان لا يصلي بصلاة المسلمين الخ فهل يفهم القارىء من هذه التعمية إلا أنه كان يصلي بصلاة النصارى أو اليهود مع أن صريح المعنى فيها أن الرجل كان يصلي بصلاة المسلمين لم يغير ولم يبدل ولكنه يصلي وحده وفي بيته لا مع الجماعة في المسجد . ثم يقول إن الجن قتلته غيلة في بعض أسفاره والرجل لم يقتل وإنما سار إلى الشام وأقام بحوران إلى أن مات ووجدوه ميتا على مغتسلة ولم يختلف المؤرخون في ذلك . وانما يذهب شيخ الجامعة إلى جعل القتل سياسيًا لمكان (المعارضة) حتى يحسن التلفيق وهذا أفضح لجهله ، فما حاجة المسلمين إلى قتل رجل ضعيف مغترب وقد استقر الأمر وبويع أبو بكر ثم بويع عمر ومضت سنتان على ذلك ولم يقتل ولا فتنة ولا خلاف ولا شيء مما يدعو إلى القتل غيلة ؟ ثم يقول إن السياسة التي قتلته أنطقت الجن بذينك البيتين وانهم تحدثوا ورووا وكل ذلك جهل من الأستاذ . والخبر أن قريشًا وضعت فيما وضعت من الشعر بيتًا نحلته الجن في سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فزعموا في أول

الاسلام انهم سمعوا صائحاً يصيح ليلاً على جبل أبي قُبيس

فان يُسْلِمِ السَّعْدَان يُصبِحْ محمدٌ

بمكة لا يخشى خِلاَفَ مُخَالِفُ .

لما كان لهذين الرجلين من الشأن والخطر فى قومهما حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم استشارهما فى غزوة الخندق دون سائر الناس فلما كانت هذه من أولية سعد زعم ابن سيرين فى قَصصه انه لما مات بالشام عرف خبر موته فى المدينة (بالتلغراف . . .) ولا تلغراف يومئذ إلا من الجن فزعم أنهم لم يشعروا بموته بالمدينة حتى سمعوا قائلا من بئر وأنشد البيتين . فأنت ترى لطف الصنعة فى هذه الرواية ورقتها وحسن سبكها فان الصائح الأول قبل إسلام سعد كان على ظهر جبل والصائح الآخر بعد موته كان فى قعر بئر . . . وكل ذلك تعظيم لشأن سعد ولا سياسة ولا قتل ولا زندقة . وانما قيل فى الشعر (قد قتلنا) لأن عبارة ابن سيرين فى ذلك أن الرجل كان قائما يبول فاتكأ فمات فهذه الفجاءة هى ما يسمونه قتلاً من الجن وهى كثيرة فى أخبارهم . ولايذهبنَّ عنك أنه إذا صح أن الرجل قتلته السياسة فما قتله إلا عمر بن الخطاب وما أشنعها تهمة أخزى الله قائلها

ويبقى بعد كل هذا أن شيخ الجامعة قد جانب الفكر وترك التحليل فى هذه الحادثة مع أنه كثيراً مايقول فى كتابه « وفقهُ هـذه الرواية

« كيت ذيت » فما باله غفر الله ؟ ونحن نقول له إن « فقه هذه الرواية » أن سعد بن عبادة كان سيد الأنصار وأجودهم وصاحب رايتهم فى المشاهد كلها وكان غيوراً حتى ورد فيه الحديث : ان سعدا لغيور وإنى لأغير من سعد والله أغير منا وغيرة الله أن تؤتى محارمُه — وكان يرمي بهمته بعيداً حتى كان من دعائه . « اللهم هب لى مجداً لا مجد إلا بفعَال ولا فَعَال إلا بمال اللهم انه لا يصلحنى القليل ولا أصلح عليه » . فهذه كلها أخلاق الرجل وطباعه فلما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بربه طمع فى الخلافة لمكانته وسابقته وكان وقتئذ مريضاً لايسمع صوته حتى أنه لما اجتمعت له الانصار قال لابنه لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم ولكن تلقّ منى قولى فأسمعهموه فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيسمع أصحابه فلعل هذا المريض لو كان صحيحاً لصح رأيه ولم تغلبه الفَلْتة الجاهلية ودخل فيما دخل الناس فيه وهو ان كان قدغضب بعد أن تولاها أبو بكر فما غضب على المسلمين كافة ولكن على الأنصار بخاصتهم لأنهم قومه الذين خذلوه ؛ وإذا كان هذا كان الزعم انه « يمثل المعارضة » زعما مضحكا

ثم يبقى قول أستاذ الجامعة « ولولا أن القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش » وما ندرى من أين جاء بهذا إلا أن يكون سخافة من سخافاته كأنه خيل إليه أن الأنصار لو كانوا يملكون القوة المادية لذهبوا بالخلافة . فلما ذهبت بها قريش كان ذلك نصا على أن القوة كانت فيهم .

وهذا الاستاذ والله فى حاجة شديدة إلى طبيب يحميه الاستنتاج كما يُحمى المريضُ الأطعمةَ الغليظة ونحن نشير عليه أن يرحم نفسه فلا يحمل ذهنه على هذا النوع الدقيق من معاناة الفكر فان لم يرحمها فليرحمنا . . . كيف تكون القوة المادية فى قريش وفى خبر اختلاف الانصار معهم ، أن الحباب بن المنذر قال : يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم فان أبوا عليكم ماسألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان . أفيكون هذا كلام الأنصار ومنطق أسيافهم ومبلغ عزيمتهم ثم تكون القوة المادية إلى قريش ولا تذعن الأنصار إلا خوفاً ورهباً من هذه القوة لارغبة ولا إسلاماً ولا إيماناً ولا إرادةَ وجه الله ولا تأثراً بعاطفة ، ثم ما معنى « القوة المادية » أكانت وزارة الحربية فى قريش أم كانت فى أيديهم مصانع الذخيرة . . . أم كان سلاحهم السيوف والرماح وسلاح الانصار العصي والنبابيت . . . ؟



واضرب لهم مثلا ...

رجعت إلى النسخة العتيقة التي عندى من كتاب (كليلة ودمنة) وقد قلت إنه ليس مثلها عند أحد غيرى وأنه لا تأبى عليها حكمة ولا تهولها حادثة ولا يتعاظمها مَثل وقد تصفحتها لعلنى أصيب فيها مثلاً للجامعة وشيخها صاحب المعجزات والخوارق فاذا كليلة يقول فى بعض قوله : فاضرب لى مثلا فى الرجل العالم تعجبه نفسه فتغره فتقْحمُهُ فى الجَهْلة المنكَرة يراها وحده علماً ولا يعرفها الناس أجمعون إلا حمقاً وجهلا فانك أمسكت عن الحديث آنفاً عندمثل المدرسة التى زعموا أن اسمها الجامعة فى ايمانهابشيخها وتربُّصها أن تقع منه المعجزة وقلت إنه كان رجلا مفتونا فجمعتْ عليه بين الغرور فيه والغفلة منها وزادت فى حمقه بضعف تمييزها فانقلب لا يمسكه عقل ولا دين ، وإنه كان يتقي بعض السوء على نفسه وكان يعتبر على عامه بعض الاعتبار فلما رأى الجامعة مهملة مُخَلّاة ، ورأى أنه وحده فوق المِئْذنة وأن المصلين وإمامهم على الأرض أذّن فى المسلمين بلغة الروم ، وقال إذا كان المصلون غرباناً فالمؤذن ولا عجب من البُوم ... وزعمت يادمنة أنها كانت مدرسة كمدرسة الحمار فما مثل مدرسة الحمار ؟

قال دمنة : زعموا أنه كان بأرض كذا حمار خُيل إليه أنه عظيم الهامة حتى لا يكبره الثور إلا بقرنيه وغمّه زيادة القرنين فى الثور فلما فكر وقايس واعتبر صح عنده أن أذنا من أذنيه الطويلتين ترجح بالقرنين

جميعاً ، وكان حماراً ذا قياس ومنطق عجيب فزعم لنفسه أن رأساً فى قدر رأسه لابد أن ينشئ عقلاوأن عقلا كهذا العقل يبدع إنساناً وأن إنساناً لايكون حماراً فاهتدى من ذلك إلى أنه خلقٌ غير الحمير وقال فما يمنعنى أن آتي عملا لا يتعلق فيه أحد بذيلي ثم يكون دليلا فى الحمير على أنى فوق الناس فانه يشبه أن أكون لهذا خلقت ، وما ينفعنى أن أكون فَخْم النهيق ، إن لم يكن معى من القدرة والتمكين ماتحصل به الفضيلة على من لا ينهق ؟ قال دمنة وكان له صديق من الكلاب يأنس به جماعة من صبيان القرية فيمسحونه ويطعمونه ويعبثون به فأسرَّ إليه الحمار يوماً أنه ليس حماراً قال وماعساك تكون وما هذا الجلد وما هذا الحافر ثم اقتصه القصة فزعم له الحمار أن هذا الجلد الذى هو فيه انما أشبه به الحمير ليكون إرهاصاً للمعجزة التي بُعث بها . قال الكلب وإنكلصاحب معجزة ؟ قال نعم فاياك أن يعتريك شك أو تكذيب وانما بعثت حماراً لأن جنس الانسان قد فطر على ضرائب من اللؤم والخسة والدناءة فليس أقرب إليه من الشك والحسد والجحود ، وما تغني فيه الآيات والنُذُر ولا يجيئه من نبي ولا رسول بمعجزة إلا حسده فردها عليه بالحسد فكفر بردها عليه ، وكان فى الانبياء من فَلَق البحر ومن أحيا الموتى ومن شق القمر نصفين ثم لا يزال الكفر مع ذلك باقياً على الأرض فلم يَغُر كما يغور الماء ولم يمت كما يموت الحى ولم يَبْلَ كما يَبْلَى الميت فلعمرى مابقي فى حكم العقل ولا فى حيلة الظن لإيمان هذا الجنس الممقوت إلا أن تجيئه المعجزة فى جلد حمار . قال الكلب لَعَمْري وعَمْرُ

أبي إن هـذا لهو الرأى وإن أمرك لأمر له مابعده وأنا حَوَارِيُّك في هذه الرسالة فأخبرني ما أنت صانع فعلى أن أقوم فيه مقاماً فانك لتعلم ماعندى من الوفاء والامانة وأنت حقيق أن يستكفيني بعضَ أمرك فقد عرفنا معشرَ الكلاب بهذه الخلال الفاضلة حتى إن الناس لا يجدون لهم أمثالا يضربونها إلا منا كلما ذكروا الوفاء أو تمثلوا فيه . قال الحمار أخزى الله هؤلاء الناس يضربون بكم المثل فى الامانة والوفاء ثم لا يسبُّ بعضهم بعضاً الا قالوا يا كلب ويا ابن الكلب . . .

قال دمنة ثم إنه قال للكلب أدن منى حتى أعهد إليك وإياك أن يعتريك داء الكلاب فى الصياح لكل نبأة فتفشي ما ائتمنتك عليه فقد قالت العلماء إن أشقى الخلق من شقي بصاحب معجزة . قال الكلب وإن كان حماراً . . . ؟ قال اعزُب عني فعل الله بك وفعل ما أنت بصاحبها وإن الكلاب لكثيرة بعدُ . وتالله إن رأيتُ كلبَ سَوْءٍ كاليوم ، فانكسر الكلب وخشي أن يصيبه ماقالت العلماء وبصبص بذنبه قليلا ثم إنه دنا من الحمار وقال ما أخطأ الناس فى تنابزهم بالكلاب فقد عرفت معرّة جنسى وأنا تائب اليك مما فرط منى فاعهد إليّ بعهدك وخذنى بما أحببت فلن تجدنى إلا حيث يسرك أن تجدنى . قال الحمار بارك الله عليك « وأعظم » لك . . . فقد ترى هؤلاء الصبيان الذين يألفونك ويلقون إليك بكِسَر الخبز فانظر فيما تحتال به حتى تأتيني بهم فان أول بدأتى فى المعجزة أن أكون معلم صبيان . . . فذهب الكلب فربض على مَزْجَر قريب منهم وهم يتعابثون ويلعبون ثم قام فانسل إلى أصغرهم فتمسح به ثم التقم خبزته فوثب

بعيداً ثم جعل يستطرد لهم ويعدو عدْوا رفيقا وهم يتبعونه يريدون أخذه وإمساكه حتى إذا جاء موضع الحمار دفع بين رجليه ورفع الحمار راية ذيله فأصبح الكلب فى حمايتها . . . وكان هذا الحمار قد رأى فى بعض أسفاره قرّاداً يرقّص قرداً وقد اجتمع له الصبيان وعاين ما استخرجته حركات القرد من عجبهم ولهوهم فلما اجتمع أولئك الصبيان يريدون أخذ الكلب طَفِق يصنع لهم كما رأى القرد يصنع وبذل فى ذلك غاية جهده وبلغ فيه منتهى حماريته . . . فبُهِتَ الكلب وجعل ينظر كالمتعجب ويقول فى نفسه أقرد هذا أم حمار وأين ويحه المعجزة التى زعم فانما هذا رقص كالرقص وإذا كان الرقص أكبر أمره فما فى أمره كبير عندنا فان أهون الكلاب لأقوى عليه من أعظم الحمير

قال دمنة وكان فى النظّارة خبيث نقاد فقال ما لهذا الحمار وخفةَ القرود ونَزَقَهَا وما تصنع من الطيش ؟ إن هذه الشياطين إنما تتخذ لمحض اللهو والعبث وهذا الغبي لا يرتبط إلا للحمل والمنفعة فاذا هو ركبته هذه الطبيعة وترك لها حتى تأخذ مأخذها فيه فوالله إن بقي أحد يأمنه على أولاده ويوشك أن يقمص بأحدهم هذا القِماص فيرمي به فيدق عنقه أو يهشم عظما من عظامه . ثم إنه راغ إلى داره فجاء بهراوة غليظة والحمار فى عميٍّ مما يصنع وقد قام فى نفسه أنه موحى إليه وأنه أكبر معلم للعلم فى أكبر مدرسة فى الدنيا . . . فما راعه إلا الخبيث قائماً يدق ظهره بالهراوة وأسرع الصبيان فتناولوا ما أصابته أيديهم من عود وخشبة وجلدة وما خف وثقل وداروا بالأستاذ الحمار فاعْتَوَرُوه وخرج الكلب يشتد عدواً حتى إذا

نجا بعيداً أنحى على نفسه وقال ويحك يا نفس ما كان أجهلك لقد كدت والله تهلكينني ، أفيمكن في عقل العاقل أن تكون معجزة حمار إلا شيئاً كتقليد القرد . . . ؟

* * *

وما دمنا في التقليد وانتظار المعجزة من وراء العجز فانا نقول إن فلاسفتنا المضحكين من أمثال طه حسين يخرجون عجزهم مخرج الحيلة فيحكمون له التدبير ويأتون به في مثل أسلوب السحر والتلبيس والشعوذة فاذا امتهدوا له من صناعتهم وبذلوا فيه العفو والجهد ثم جاءونا به نظرنا وحققنا فلم نر شيئاً فقلنا ما أهون وما أضعف وما أسخف ثم قلنا لهم إنكم مقلدون مفضوحون وإن أحدكم لهزيل ولا يرتدى إلا حلَّة البادن الغليظ وقصير ثم لا يلبس إلا ثياب المارد الطويل ، ومفلس ثم لا ينفق على أعين الناس إلا ذهباً أصفر فهو ما ذا ؟ ثم قلنا لهم إنكم علماء بالعلم الذى تسرقونه ولكنكم جهلاء لما تتعاطون من السرقة ، وإنكم فلاسفة بالآراء التى تنتحلونها ولكنكم أغبياء لما تصنعون من سوء الانتحال ، ومصلحون بالأقوال التى تزخرفونها ولكنكم مفسدون لجهلكم عواقب هذا التمويه.

ثم قلنا إننا لا ننخدع ولا نغتر ولا نتعبد للأسماء ولتأت الأسماء من حيث هى آتية فى المغرب والمشرق فهاتوا حققوا فلسنا فى سرعة التقبل منكم مثلكم فى سرعة الاخذ من الأوربيين ولا نحن فى الشراء من دين الغرب مثلكم فيما بعتم من دين الشرق ، وفَصْلُ ما بيننا وبينكم أن فى أيدينا أصل الفضيلة فهو قياس لرذائلكم عندنا كما هو قياس

لفضائلنا عند أنفسنا ، وفى أيديكم أصل الهوى فهو قياس لكل شيء عندكم إلا ديننا وفضائلنا ، ثم قلنا لهم إن من علامة الضعف فى عقولكم الجبارة . . . والاستخذاء فى نفوسكم الراقية . . . أنكم تقدسون فلاناً وفلاناً من فلاسفة الأوربيين حتى فيما يؤخذ عن سواهم وتحقرون فلاناً وفلاناً من فلاسفة الشرقيين حتى فيما لا يؤخذ إلا عنهم فهل هذه ويلكم الأسمة المستعبَدين والعجزة والمتواكلين ، تجعلون الأسماء الأوربية كأنها أسماء الدول العظمى والأسماء الشرقية كأنها أسماء المستعمرات ولا تعلمون أيها الفلاسفة المغرورون أن هذا من شر ما تستعبد به الأمم الضعيفة لأن قديمنا الذى تُزرون عليه يذهب فى جديدهم الذى تدعون إليه ثم لا يكون جديدهم من بعد إلا مَزْجاً بيننا وبينهم ثم لا يكون هذا المزج إلا ألعاب السياسة فى أشداق الاستعمار لإساغة اللقمة أولا وحَدْرها ثانياً وهضمها بعد ذلك . . .

فاذا قلنا لهم هذا ونحوه قالوا متحجرون وقدماء وأنصار القديم فنعم نعم — غير أننا مع ذلك نلين لما لا يكسرنا ونتجدد بما لا يفنينا ونريد أن تبقى الأمة ولو هلك ألف من أمثال طه حسين لا أن يبقى هؤلاء وتهلك الأمة وما هلاك الأمم بالانقراض ولا بالاوبئة ولا بما يجتاحها من اصطدام النواميس فان مع كل شيء من هذه ونحوها عذره القائم وضرورته الملجئة ، ولكن الهلاك الذى لا هلاك غيره أن تضعف الضمائر المؤمنة وأجسامها ضارية وتُمحق الفضائل والشهوات عنيفة وتموت العقائد والحياة قتال ونزاع . فان كان الشك والزيغ ومذهب فلان وطريقة فلان ورواية

فلان والجامعة المصرية وطه حسين والبلاء الاسود — إن كان هذا مما يؤدي الى ذلك أو بعض ذلك فالنجاةَ النجاةَ أيتها الأمة والسلامةَ السلامةَ فان هذه الجامعة المشؤومة لا تصنع لك ديناً بدينك ولا تؤلف لك فضيلة من فضائلك ولا ترد عليك ما تسلبك من ذات نفسك وما حجتها إلا حجة الزنادقة في كل عصر وما حجة الزنادقة إلا حرية الفكر والبحث ، ولو لم يكن في الانسان إلا الفكر وحده لقلنا عسى ولكن هناك النية القائمة على الخُلق والخلق القائم على الطبع والطبع الذي منه خبيث لا يطيب وطيب قد يخبث .

النجاةَ النجاةَ أيتها الامة فلو استطاعت الجامعة المصرية أن تجعل هذا المغرور طه حسين يرد على الميت عمره وينقله من قبره ويجعله تلميذاً في الجامعة يكفر بابراهيم واسماعيل ومحمد صلوات الله عليهم — لما أمكنها أن ترد على ملحد ايمانه الضائع وعلى شاكّ يقينه الذاهب . وهذا لو أنها تكفر أبناء المسلمين بالعلم وللعلم فكيف والأمر كله جهل في أستاذها وسقوط في نفسه وضعف في عقله وسوء تقليد منه أو تقليد سوء وهو رجل لا يعرف علته الفلسفية ولا يدرك أنه منهزم أمام الحس فهو يهدم ويخرب بقانون طبيعي فيه لأنه أُشعل من داخله لينفجر من داخله[(١)] ولما منعته الحياة أن يعبث بحواسه ذهب عبثه كله إلى فكره وتسلط

---

(١) لعل المعرى أراد فلسفة هذا المعنى حين قال عن نفسه

عمى العين يتلوه عمى الدين والهدى   فليلتى القصوى ثلاث ليال

على لسانه فهو رجل قانونه الطبيعي أنه مهما يأخذ يفسد ومهما يدع يُصلح . . .

ولقد أفسد مذهب ديكارت [1] وعدا عليه فان هذا الفيلسوف لا يأخذ بمذهبه إلا من يحسن التفكير ويقوى على أن ينتج فيه انتاجاً صحيحاً ويستجمع لذلك مادته الطبيعية من الذكاء والعلم والرأى ، وإلا فديكارت إذن أحمق بل يكون أجهل الخلق إذ لو أطلق لكل إنسان أن يشك ويذهب بفكره ما يذهب على قدر ما يتهيأ له من الوسائل لانقلبت الأرض مارستاناً للمجانين ولخرجت كل حرية عن وضعها فى الطبيعة وفى الاجتماع وزاغت عن طريقها فى نظام الدنيا القائم على اختلاف أنواع الحرية لا لتتنافر بل لتلتقي فى الغاية ، وعلى اصطدامها لا لتتناقض بل لتنتظم فى ترتيب بعينه ، ومن أجل ذلك يرجع ديكارت فلسفته إلى الشخصية ، وليس بهين أن يقال فى هذه الشخصية إنها حيث يطمع كل طامع . وإن ديكارت مع ذلك ليخشى على التكوين الاجتماعي من الشك لأن الشك لا حد له إذ هو المجهول كله فهو من أجل هذا يشترط أن لا تمس أصول الدين ولا يجترأ على ما أنزله الناس فى منزلتها من أصول العادات . وكل ذلك على ما فيه من القيود لا يتفق على أحسنه إلا لمن كان عقله من الذكاء والنفاذ كأنه قيد للمعاني والخواطر فهو إطلاق

(٢) للكاتب الفرنسى شارل سومان مقال أثبت فيه ان ديكارت اخذ المبادئ التى بنى عليها مذهبه من الامام الغزالى وقابل الكاتب بين مافى كتاب (المنقذ من الضلال) للغزالى ومافى رسالة الاسلوب والتأملات لديكارت وتكاد العبارات تكون واحدة والغزالى قبل ديكارت بخمسة قرون ونيف .

لا يراد منه الاطلاق الأحمق كما ظهر فى كتاب أستاذ الجامعة . بل تقييد الحقيقة التى لاسبيل إليها إلا من البصيرة وما البصيرة أن تعمى عن الحق بشيء من العاطفة أو العصبية . ولا بشيء من الجهل أو ضعف الذهن فان هذين كهذين ، ومذهب ديكارت كله تجده على أسماه وأبعده من الاعتراض وما يدخله من الشبهة فى قوله تعالى « هذه سبيلى أَدعو إلى الله على بصيرة » وأنت فلا يذهبن عنك معنى « البصيرة » وأنها أذكى الذكاء وأسمى العقل وأقوى الخلق وأصح الطباع وكل ما نفذ بك إلى الحقيقة المستكنة فى حجبها وجنّبك عمى النفس بدرجاته المختلفة ، وهذه البصيرة كلمة واحدة ولكن كل وسائل الحقيقة واليقين منطوية فيها فهى من الكلام الجامع المعجز ثم انها قيد ينفي عن هذا المذهب من لم يكن قد جعلته الطبيعة من أهله أو لم تكن الطبيعة هيأته بالاسباب التى بها يطيقه وبها يحسن القيام عليه

وأغرب ما فى هذا القيد أنه يقيد السبيل أو المذهب بالدعوة الى الحق خاصة ولا يطلقه فى كل دعوة اذ كانت النفس الانسانية لا تتعاطى هذا الشأو البعيد الا اذا قويت بالحق قوة بالغة وكانت من أسمى النفوس وأعظمها وأقربها الى الانسلاخ من جلدتها الأرضية . وفيما عدا ذلك فهذا المذهب الفلسفى وهم وخيال وتجاوز لمقادير الحقائق فى طلب هذه الحقائق . وأنت خبير أن الصدق اذا نقصت منه كلمة فغيرت من حقيقته استحال كذبا واذا زيدت فيه كلمة فغيرت من حقيقته رجع كأنه نقص ولم يزد ، وما الزيادة والنقص الا من هوى أو جهل والجهل والهوى بعض أثر النفس

ولن تجد التهمة على الحقائق إلا حيث تجد هذا الأثر ، وانظر ماذا يقول أناتول فرانس فى مثل ما يزعم طه حسين أنه ينتحله من مذاهب النقد المجرد فهو يقول : إن النقد لاقيمة له الا قيمة الناقد وهو كالنوع من أنواع القصص وما مرجع القصة على الحقيقة الا سيرة من يقصها فبنفسه يكتب عن نفسه . وهؤلاء الذين يباهون بأنهم يضعون فى فهم شيئاً غير أنفسهم لاتعدهم الا فى المغرورين ولا يكبرنّ منهم أحد فى وهمك فان الانسان لن يخرج من ذاته » . ويقول الفيلسوف الانجليزى جون تيودور مرتز : إن هـذه الطريقة التى يعكف عليها من يزعمون التجرد للحقيقة تنتهى إلى أن ينظر اليها الناظر فيراها طريقة لم يبتغ أهلها أن ينطلقوا من قيود التقليد بل هم خدعوا أنفسهم أو خدعتهم فظنوا أنهم أحرار فيما صنعوا وما كانوا قط إلا مقيدين بخيالهم مستسلمين لوهمهم الذى يتحكم فيهم التحكم كله .

ونحن لم نقل فى طه حسين إلا هذا فهو يتوهم على التاريخ وعلى الحقائق ثم يتسبب بالوهم الى الحكم وهو يطلق لنفسه كل قول عرض له ثم يجعل ذلك من العلم ويُكره العلم على قبوله وقد يكون جاهلا بالخبر وأصله ومع ذلك يقول صدقونى وكذبوا الناس ، وتراه سقيم الفهم ضعيف التخريج ثم يأبى الا أن تكون الاذهان كلها على أساس من فهمه . وهو يعد خبيث ملحد مستهزىء يقلد أناتول فرانس فى السخرية والمعري فى الالحاد على بعد ما بينه وبينهما ثم لايريد الا أن تكون نفسه هذه روح التاريخ الاسلامى . فان امتنع أن يكون التاريخ قدجاء منه إذ كان قد سبقه

فى الوجود لم يمتنع أن يخرج هو حقائقه وفلسفته مطبوعة بطباعه زائغة بزيغه فلا يأتينا الا بما هو من جنسه ولا يخرج لنا غير المضحكات التى لا تليق إلا بأمة من أمثاله ، ولقد والله هان تاريخ لا يصحح ولا يحقق إلا بمثل طه حسين ولقد والله ذلت أمة لا يكون القول فى تاريخها الا لمثل « عارورة الجامعة » كما سماه الاستاذ وحيد بك [1]

وسنأتيك الآن بمضحكة عجيبة من مضحكات دروس الجامعة المصرية فقد تكلم أستاذها عن القصص عند المسلمين ليثبت أنه من أسباب الوضع فى الشعر فزعم فى صفحة ٩٢ « أن الأدب لم يدرس فى العصور الاسلامية الاولى لنفسه وانما درس من حيث هو وسيلة إلى تفسير القرآن وتأويله واستنباط الاحكام منه ومن الحديث وكان هذا كله أدنى الى الجد والصق به من هذا القصص الذى كان يمضى مع الخيال حيث أراد ويتقرب من نفس الشعب ويمثل له أهواءه وشهواته ومثله العليا فليس غريبا أن ينصرف عن القصص أصحاب الجد من المسلمين » انتهى. قلنا وهذا عجيب جداً من أستاذ الجامعة فان معناه أنه لم يشتغل بالقصص إلا أصحاب الهزل والرقاعة . ونحن نقرر له أنه لم يكن يقص فى أولية هذا الفن الاسلامى إلا أصحاب الجد من المسلمين وبه عُرِفوا وبهم نشأ وبفصاحتهم نبغ وهذا الحسن البصري كان أشهر قاص فى زمنه وهو

---

(١) نال الاستاذ طه حسين ألقابا كثيرة من الامة منها : ابليس الجامعة وبومة الجامعة وفضيحة الجامعة وعارورة الجامعة وأبو جهل الجامعة وغيرها أما هــذه الجامعة فظهر انها أبعد فى الموت من أن يصل اليها صوت من أهل الدنيا . . . .

من سادات التابعين وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكانت أم سلمة ترضعه أحياناً وقد قالوا إنه جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة وقال أبو عمرو بن العلاء إنه مارأى فى عصره أفصح منه . ولـكن أستاذ الجامعة يخلط فى معنى القصص والقاص لأنه يريد بعد هذه العبارة التى كتبها أن يأخذ اسكندر دوماس صاحب القصص الفرنسية المعروفة وهو من أكبر المزورين والمدعين والمنتحلين فيقحمه فى التاريخ الاسلامى ويشبه به علماءنا كما سيأتى بعد فيجعل القصص بذلك روايات وخيالات أو كما يقول هو (أهواء الشعب وشهواته) . . .

ثم إننا نقرر له أن القاص لايسمى قاصاً عند المسلمين إلا إذا كان يقص للتعليم والوعظ وللتذكير بالآخرة والتزهيد فى الدنيا وحفظ الروح والخلق ونحوهما وان أساس هذا الفن كان تحريض المؤمنين على الجهاد والترغيب فيما عند الله وإيثاره على الحياة فكان مرجع القاص فى قصصه إلى التفسير والحديث والحكمة وما تناوله من أخبار الماضين ومالاحرج عليه فى وضعه مما يراد به غرض من تلك الأغراض وقد قرروا أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الاعمال فكذلك القصة الموضوعة يؤخذ بها فى الوعظ دون التاريخ لأنهـا انما وضعت لذلك دون هذا . وما نشأت أهواء الشعب فى القصص إلا بعد أن تعاطاه الجهال المقتحمون عليه من غير أهله وجعلوه من عملهم للحياة والعيش ومع هذا فأمثال هؤلاء يعرفهم العلماء من أول التاريخ ويعدون قصصهم بدعة ويحذرون منهم كما يحذر أهل كل علم من الواغلين عليه

وبعد أن ذكر الأستاذ مصادر القصص على زعمه قال (إن القصص العربي لاقيمة له ولا خطر فى نفس سامعيه إذا لم يزنه الشعر من حين إلى حين (كذا وإنما الحين الزمن) وضرب مثلا بألف ليلة وليلة وقصة عنتر ثم قال : وإذن فقد كان القصص أيام بنى أمية وبنى العباس فى حاجة إلى مقادير لاحد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ويدعمون بها مواقفهم المختلفة . فتأمل بالله كيف يقاس أول الزمن أيام بنى أمية على آخر الزمن أيام قصة عنتر ؟ ونحن نقرر للشيخ أن القصص أبعد أنواع الكلام عن اجتلاب الشعر وعن الحاجة اليه ولا يدخله منه إلا مقادير قليلة حيث يراد الشاهد والدليل فسبيل الشعر فى هذا سبيله فى غيره من فنون الأدب جميعاً . وإذا وضع القاص شعراً أو وضع له شعر فانما يكون قليلا على جهة التظرف وليستروح إليه من الجد ويعلل به من يقص لهم استجماعا للنشاط فهذه واحدة . والثانية أن يقصد إلى الاغراب فى الخبر الذى يقصه ليقال إنه واسع الحفظ وهذه كانت سبيل الرواة أيضاً فيما وضعوه من الشعر . والثالثة أن يكون القاص قد وعظ ويريد المبالغة فى التأثير فيجرى فى كلامه قليلا من الشعر كما تتغرغر الأعين ببعض الدمع . وليس غير هذه ففى أيها تجد المقادير التى لا حد لها ؟ ثم يقول الشيخ طه وأكاد لا أشك فى أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون (يريد يقومون) بقصصهم ولا بما يحتاجون إليه من الشعر ، وانما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم من الأحاديث والأخبار ويلفقونها وآخرين ينظمون لهم القصائد (صارت قصائد لا أبياتا ومقاطيع) .

قال ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض فقد يحدثنا (كذا) ابن سلاّم أن ابن اسحاق كان يعتذر عما (كذا) كان يروي من غُثاء الشعر فيقول لا علم لى بالشعر انما أوتى به فأحمله . فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله فمن هؤلاء القوم ؟ انتهى خاط الرجل . وهذه عجيبة من عجائب الفهم ؟ فاذا قال ابن اسحاق إنما أوتى بالشعر فأحمله وكان ابن اسحاق من المعروفين بالكذب لم يكن كلامه عند طه الا صدقا ثم لم يكن معنى كلامه الا أن الناس يدقون عليه بابه ويهزأون به ويقولون يا ابن اسحاق خذ هذا الشعر وأروه ومن تُرى يكون هؤلاء المجانين الذين يُعْنِتُون أنفسهم ويكدُّون الذهن ويتعبون الخاطر فى عمل الشعر ليسمعوه بعد ذلك مرويًّا لعاد وثمود وفلان وفلان ممن هلكوا وبادوا ؟ إذا كان ابن اسحاق بهذه الغفلة وجب أن لا يصدق ولا يؤخذ كلامه مأخذ النص ألبتة : على أن عبارة ابن سلام هكذا : « وممن هجّن الشعر وأفسده وحمل (يعنى روى) منه كل غثاء محمد بن اسحاق وكان من علماء الناس بالسيَر فقبل الناس منه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذراً فكتب في السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط الخ »

فأنت ترى أن الكلام يدور على تهجين الشعر وإفساده ومثل هذا لا يستقيم فى العقل أن يعتذر منه ابن اسحاق بقوله لا علم لي بالشعر إلا اذا كان رديئاً فاسداً وكان من ساقط الكلام وما لا يجوز على أهل البصر

بالشعر . فاذا كان على هذه الصفة فلم لا يكون من عمل ابن إسحاق الذى لا علم له بالشعر ويكون العذر تلفيقاً من كذبه ؟ وهب أن هناك قوماً يصنعون له الشعر ويأتونه به فيبقى أن ابن اسحق ليس أعجمياً بل عربياً بليغاً وكلامه فى السيرة من الطبقة الأولى فمن كان بهذه المنزلة وكان فى حاجة إلى الشعر وجب عليه أن يستجيد له فلمَ يهمل أن يختار لعمل الشعر شعراء وهم كثيرون فيأتونه بالجيد لا السفساف وإذن فلا يكون ما يحمله غثا ضعيفاً وإذن فلا وجه لأن يعتذر منه بقوله لا علم لي بالشعر، فان قلت إنه إن كان بليغاً يميز جيد الكلام من رديئه وكان هو الذي يصنع الشعر الهجين الفاسد وجب أن لا يرضاه لمكانه من الضعف . قلنا هذه شيمة العلماء حتى أنهم جعلوا شعر العلماء طبقة على حدة وهم يتسمّحون فى الردىء من شعرهم لأنهم لا ينافسون به أحداً ولأنهم غير معدودين فى الشعراء

وطه حسين نفسه يقع فى مثل هذا فهو يميز الشعر وإن له لشعراً فى منتهى الركاكة سنطرف القراء بشىء منه فى بعض ما يأتي

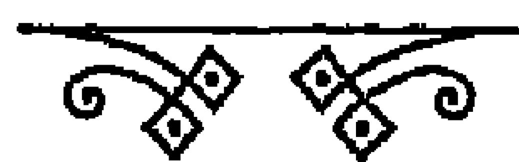
فهما اثنتان فى تأويل خبر ابن اسحاق لا ثالثة لهما وكلتاهما نقض للأخرى وكلتاهما هدم على أستاذ الجامعة ودليل على سوء فهمه .

وهنا نمسك القلم خمس دقائق لنضحك من الجامعة كما نضحك من شارلى شابلن . . . الممثل الهزلى المشهور فقد كشفت الجامعة المصرية عن آثار مصنع إسلامى عظيم للتلفيق والكذب . رؤساؤه العمال من القصاص والعمال فيه طائفتان عظيمتان إحداهما لتلفيق الأخبار والأخرى لوضع الشعر . وكلما اجتمع مقدار من إنتاج المصنع أرسل إلى الأسواق

وذلك حيث يقول طه في صحيفة ٩٦ : أليس من الحق لنا أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب . وإنما كان كل واحد منهم (تأمل) يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النظّام والمنسقين حتى اذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم . . . وأذاعوه بين الناس ومثلهم في هذا مثل القاص الفرنسي المعروف الكسندر دوماس الكبير ؟ اه

ولكن يا سيدنا ومولانا أنت تعلم أنه كان من الرواة والعلماء والمتكلمين قوم متعصبون على العرب قد نحتوا أثلتهم نحتاً كأبي عبيدة صاحب كتاب المثالب الذي هتك فيه العرب وتناول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم علماء الشعوبية ثم متكلمي الزنادقة وأدبائهم وكانوا كلهم معاصرين للقصاص الذين تتكلم أنت فيهم فكيف سكتوا ولم يفضحوا العرب وتاريخهم وأدبهم بهذا المصنع العجيب وكيف غفلوا كلهم عنه وتركوه لك لتكشفه أنت بعد ألف ومائتي سنة ؟ أيكون سكوتهم عن ذكر ذلك إلا دليلا قاطعاً على كذبك أنت فيه ؟

النص النص إن كان عندك رسم المصنع وحجته الشرعية . . . وإلا فاستر على نفسك يرحمك الله .



وشعر طه هو طه الشعر ....

نريد أن نسجل فى هذه المقالات كلمتين كبيرتين فاننا إنما نكتبها لجيل سينتهي وأجيال ستبتدئ ولقد رسخ فى يقيننا أن الله تعالى ما اشتهر أستاذ الجامعة بهذه الفضيحة التى نشرها فى آفاق الأرض ملك الرعد... إلا ليجعله خزياً لقوم ملحدين ، وعبرة لقوم منافقين ؛ ومثلا عند قوم مؤمنين ، وما لغير حكمة وتقدير كانت الفضيحة مدخرة حتى تفتح هذه الجامعة الكبرى لتبدأ تاريخ العلم العالى فى مصر ويرتقي طه منصبه فيها وقد ملئ غروراً وزهواً واستطال وبذخ وتوافرت له العلل من نفسه ومما حوله ورفعته الجامعة فى حبل طويل أرادت أن يكون من حبال المعالى وأراد الله أن يكون من حبال المشانق .....فلو هو سقط هذه السقطة فى غير هذه الأيام فى غير هذه الجامعة لوقع بالجناحين اللذين بهما ارتفع ولكنها الجامعة التى قالوا إنها أكبر من جبال الإلب فلما تمت صنعة الجبل فى بضعة أشهر [1] .... وأراد القدر أن يعلن فى الناس مبلغ علوه وارتفاعه لم يكن القياس إلا طه حسين يتدحرج من أعلاه إلى أسفله ....

---

(١) كانت هذه الجامعة مصنوعة لم تقمها أسبابها وانما جاءت تلفيقاً بغير رجالها وفي غير وقتها ولغير طلبتها وهذا من أكبر أسباب سقوطها فما هي الا دار وموظفون وقانون وأسماء وكلام قضى سنة كاملة ينتظر معانيه فلينتظر ....

إن للأقدار مقاييس عجيبة لا يراد بها الكمية ولكن الكيفية ولا يطلب منها تحديد الشيء في ذاته ولكن تحديده في عواقبه ويكون القياس على هذا اليوم الذي نحن فيه مثلا ولا يراد به إلا مقدار ماسيكون في غد أو بعد غد أو أي الأزمنة مما يُستقبل ، ويأتي رجل كأبي جهل فيكون في أول الاسلام قياساً للكفر والتعصب في الكفر واللجاج في التعصب ولكن كل ذلك في مَرَدِّه ليشد النبوة ويقيمها على طريقها ويسددها فيه . كأن الأقدار تبني بناء فاذا سألت ما الأساس قيل لك أوله هذه الحفرة . . .

والأستاذ طه حسين هو حفرة اليوم وكان لابد من حفرة إذلم يكن بد من أساس فالله أعلم ماذا يبلغ هذا الأساس وماذا يحمل ، أما الحفرة فأمرها إلينا نتولاها كيف شئنا بعد أن غارت وانخسفت وإنه من أجل ذلك نفيض فيما نكتبه ولا نزال نتبسط في الشرح ونتسع في تحليل نفسية طه وإيراد معايبه وبيان أغلاطه وأسبابها ومن أجل ذلك نسجل هاتين الكلمتين كما أشرنا آنفا إذ هما عندنا باب من القول على حدة . فالكلمة الأولى هي للدكتور طه حسين في حديث له مع جريدة الانفور ماسيون ترجمته السياسة . قال والاشارة في حديثه لحضرات علماء الدين . قيل لهؤلاء البسطاء . . . إني أطعن في الاسلام فشهروا الحرب علي جميعاً . على أني أقول عالياً إنه ليس في كتابي كلمة يمكن أن تؤول ضد الدين والعبارة الوحيدة التي يمكن أن أنتقد من أجلها تضع النصوص المقدسة بعيدة عن قسوة المباحث التاريخية . . . . . » والكلمة الثانية للأستاذ

الشيخ عبد ربه مفتاح من علماء الازهر فى مقالة نشرها الكوكب وهى قوله والخطاب لطه حسين « وكيف تزعم أيها الدكتور أن بعض العلماء أثار هذا الأمر (أمر كفرك) وها أنذا أصرح لك والتبعة فى ذلك علي وحدي بأن العلماء أجمعين وعلى بكرة أبيهم يحكمون عليك بالكفر وبالكفر الصريح الذي لا تأويل فيه ولا تجوز. وأتحداك وأطلب منك بالحاح أو رجاء أن تدلنى على واحد منهم (وواحد فقط) يحكم عليك بالفسوق والعصيان دون الكفر. أجل إنى وأنا من بينهم أتهمك بالكفر وأتحمل تبعة هذا الاتهام وعليك تبرئة نفسك من هذا الاتهام الشائن والمطالبة بما لك من حقوق نحوى » اهـ

نسجل هاتين الكلمتين للعلم والتاريخ والأدب ثم ليعلم الناس مبلغ مصيبة الجامعة فى أستاذها الذى كله مصائب ، فالأعين ممتدة إليه فى هذه البلاد ولا يستحى أن يظن نفسه فى أرض قفر. والأمة كلها توقّر علماءها وتفزع إليهم فى أمر دينها وتراهم من رحمة الله بها ولا يخجل هو أن يسميهم (البسطاء) وهو يعلم أنها كلمة عامية لا يراد بها فى لسان العامة إلا البلاهة والغفلة وما إليهما. وكل العلماء إجماع على كفره الصريح حتى لا تأويل ولا تجوز ولا مطمع فى حكم دون الكفر ثم هو تبلغ به الرقاعة أن يدعي أنه ليس فى كتابه (كلمة) يمكن تأويلها ضد الدين مع أنه لا يُهدم دين من الأديان بأنكى ولا أخبث من الطريقة التى انتهجها فى كتابه وأدارها على إسقاط هيبة الدين وأهله في نفس الطالب الناشىء ثم الشك فيه ثم التأدي بهذا الشك إلى الإنكار منه ثم التأدي بالإنكار إلى الهدم

وهذه درجات يركب بعضها بعضاً كما ترى . وتالله ما رأيت رجلا أعجب من هذا الأستاذ ولكن كلامه إنما هو صورة فكره وفكره مظهر أخلاقه وحسبك من أخلاقه هذا العناد وهذه المكابرة وهذا الكذب وهذه السخرية كأنه ليس في الأمة كلها إلاهو وحده يعقل ويفهم ؛ وإذا نحن تابعناه على منطقه فكل الشهود الذين رأوا اللص بأعينهم وشهدوا على جناية يده هم اللصوص واللص وحده هو البريء فان قيل له إن فى هميانك ألف درهم مسروقة ووضعوا أصابعهم عليها قال وليس فيها واحد يمكن أن يقال إنه مسروق . . . فان كان فيها فانما ذلك إبعاد للأموال المقدسة عن قسوة المباحث الشيوعية . . . ألا ليت شعري لهذه الجامعة ما الذى يمنعها أن تعلّم هذا المنطق البديع فى دروس الحقوق فانها بذلك تخدم حرية الفكر والعمل وانها بذلك ترحم كثيراً من اللصوص والمجرمين وأهل الكبائر والصغائر مما تدعوها إليه الانسانية وتحمده لها بتلك الألسنة ؟ وايم الله لو أمكن لصاً من نوابغ اللصوص أن يكون أستاذاً لقانون العقوبات وأمكن مزوراً أن يدرس القانون المدنى وشيوعياً أحمر... أن يكون استاذاً للقانون الدولي لما فعل كل واحد منهم فى درسه إلا شبيهاً بما فعل طه حسين فى درس الأدب . فَلِمَ تأتي الجامعة بالرجل الملحد يحكم بكفره ألف عالم فتعهد إليه بدرس الفن العربي الذى معجزته القرآن ولا تأتي باللص والمزور والشيوعي يتناولون القوانين ويفتحون فيها باب الرحمة بمفتاح ديكارت ؟ وهل هذا إلا جنس واحد بعضه من بعض ؟ فان قالت الجامعة إن أستاذها ليس ملحداً ولا كافراً ولا زنديقاً

قلنا وهذا أشد خزياً ومقتاً فأيما أقرب إلى الصدق والسداد ؟ قول رجل أو رجلين أو ثلاثة لا سابقة لهم فى الدين ولا صلة لهم بعلومه أم قول ألف عالم يحملون ألف شهادة دينية وعلى مقدمتهم شيخ الجامع الأزهر

إنهما اثنتان عقمت أم المنطق فلم تلد لهما ثالثة . فإما إباحة الخلط فى كل علوم الجامعة وترك الطلبة أحراراً فى التفكير والاقتناع وفى الشك واليقين فلا يؤخذ أحدهم بحفظ شيء لا يراه صحيحا ولا يسأل ما رأي فلان فى كذا بل ما رأيك أنت . . . . ولا يحاسب على خطأ ولا صواب لأنه لا خطأ ولا صواب فى مذهب الشك بل هو كله كالدائرة المفرغة ليس لها أطراف وانما لها المحيط لو شئت لقطعت العمر كله دائراً فيه بلا نهاية ولا غاية معينة وان كان في باب المساحة لا تزيد رقعته على دائرة ثور الساقية .

هذه واحدة والثانية محق البدعة التي جاء بها طه حسين فى الأدب والبراءة من كتابه السخيف واعلان فساده من الجامعة ذاتها فان التهمة ليست على طه الا بأنه في الجامعة فالتهمة على الجامعة نفسها وهي وحدها المتهمة بالالحاد والجهل والخلط وفساد التأويل والاستهزاء بالأمة وإصغار علمائها وأدبائها لانها هي وحدها الراضية بالكفر المعينة عليه المشاركة فيه والمقرة للجهل الداعية اليه المحققة له .

كان الفيلسوف أرسطو يرى بعض الرأي فينكر عليه لان أفلاطون يذهب خلاف مذهبه فكان يقول اذا اختلف أفلاطون والحق فأيهما أحق أن يتبع ؟ ونحن نقول للجامعة اذا اختلف أفلاطونك . . . . والدين

ثم التاريخ ثم العقل ثم الفهم فأي الفريقين أحق بالاتباع . وفيم نحن أيتها الجامعة إلا فى بيان سقطه وغلطه وناهيك بهما سقطا وغلطا لولا انك فى فلسفتك على شبيه مما يقول أناتول فرانس فى فلسفة القوانين إذ يقول : إن الاجتماع قائم على أصلين الأول ان السرقة محرمة والثانى أن ثمرة السرقة مقدسة لأنها من حرية العمل . فأنت كذلك ترين أن الأدب قائم على أصلين الأول أن الخطأ جهل مردود والثانى أن ثمرة الخطأ علم مقبول لأنها من حرية الفكر .

والآن نظهرك أيها القارىء على سر من أسرار الخطأ فى أستاذ الجامعة واليه يرجع أكبر السبب فى كلال ذهنه وتعقد فهمه وتهافت آرائه وانه اذا تعاطى القول فى الأدب لم يتمكن من معنى صحيح ولم يُصِبْ غرضاً واقعاً ولا يزال دَأْبًا يلوذ بأطراف الكلام حتى كأنه لايفكر الا بنصف عقل فلا يخرج نصف كلامه الامن لغو وعبث وخطأ ولا يزال يعتريه ما يعتري كل من اتخذ الخلاف مذهبا فيُحيل أكثر الكلام عن جهته ويجعل الخطأ صوابا والصواب خطأ ويستلب الرأي من أهله ويفسده عليهم فى ظاهره أو باطنه . ثم لايرضى اذا فرط منه الجهل أن تبين له العلم واذا وقع فى الغفلة أن تكشف له عن الحقيقة فان فعلت طار الغضب فى رأسه فزلزله عليك زلزالا وفجّره تفجيراً وجعله بركانا فملأه نيرانا وبذلك تميّز فى أمثاله ومهر ، وبان وظهر ، وغلب وقهر ، وكان والله سبة لادباء هذا العصر فكل ما فى الرجل من قوة وجرءة فانما هو مما فيهم من جبن وانكماش . أما ذلك السر فهو ان طه لما عرف من

نفسه ضعف المخيلة ورأى انه لا يدرك ما يتعرض له ولا ينفذ الى حقيقته عدل فى الأدب عن طبيعة الشعر إلى طبيعة المنطق إذ كان الأصل فى هذا المنطق الاتساع فى الكلام وهو من مميزات الأستاذ وخصائصه . غير أن المنطق أيضا لا يستقيم الا بالقريحة النفّاذة وهذه القريحة من بعض أسبابها الطبيعة الشعرية فلما خذلته هذه الطبيعة فى المنطق كما خذلته فى الشعر عدل إلى طبيعة الجَدل وهو فن من الكلام قاعدته الأشكال والمقاييس وبناؤه على التنظيم والترتيب ومادته الثرثرة والاستطالة وأعظم مقوّماته اللجاج والإصرار ولا يُسأل فيه ما الحقيقة ولكن ماذا تريد أن تكون الحقيقة ولا ما اليقين ولكن ماظنك باليقين ولا يقال فيه ما البرهان ولكن ما الاعتراض ولا ما النص ولكن ما التأويل . وكل ذلك إن لم تقم به الجرءة والحماقة ولم يكن سبيله من السخرية وعدم المبالاة ومن الشك والوساوس وما جرى هذا المجرى لم يستوِ منه شيء لصاحبه وخرج منه مخذولاً لا هو فى حجة ولا مغالطة

فطه حسين مُكرَه على طريقته في الأدب إكراهاً ما دام يريد أن يكون شيئاً مذكوراً وإنما كان سبيل مثله — أن يتبع غيره ويقلد ويحتذي ولا يستنكف أن ينزل على رأي من هو أذكى منه ولا يأنف أن يدخل في قوانين الناس . فلما أبى ذلك وغلبته طبيعته وأراد أن يبتدع وما فيه من الابتداع شيء كان كل عمله أن يفسد عمل غيره ولا طريقة إلى ذلك إلا أن ينقاد إلى الظن ولا سبيل لاتباع الظن إلا الشك ولا برهان على الشك إلا من غاية صاحبه وهذه الغاية راجعة إلى الطبع والُخلق وحالة

الفكر . وكما يكون الشك أول اليقين في أهل الطباع السليمة والأفكار القوية والأذهان المُرْهَفَة يكون آخر اليقين فى ذوي الطباع المضطربة والأذهان البليدة.

فطه رجل عالم فاضل تراه من أحسن أدبائنا إذا وقف عند الحفظ والمراجعة يقابل بين تواريخ الأمم ويستخرج ما فيها من أنواع المشابهة والمباينة ويعمل فى ترتيبها وتصنيفها ، وإذا وقف عند العقل فأخذ يجمع الحواشي والمتون والتعاليق ويضم مسئلة إلى مسئلة وكلاماً إلى كلام فى أي علم شاء مما يُحسن انتحاله ؛ ولكنك تراه من أسخف الأدباء إذا حاول التجديد والإبداع ثم من أضعفهم إذا تعاطى ما ليس فى طبعه ولا قوته مما يحتاج إلى الطبيعة الشعرية والذهن الحاد والرأي والاستنباط. ولا أدل على ذلك من كتابه الشعر الجاهلي ثم من القصص التى نقلها عن الفرنسية فقد كنت أقرأ هذه القصص واحدة بعد واحدة وهي لأعلام البيان الفرنسي فلا أراها إلا كعظام الموتى ليس فيها غير المادة الفطرية ونظام الهيكل وهيئته ؛ ولو كانت كذلك فى أصل لغتها لم يكن الأدب الفرنسي إلا فضولا وكان أدباء فرنسا أضعف الأمم خيالاً وأبعدهم من الشعر ومعانيه . ولقد نقل خلاصة من رواية الزنبقة الحمراء لأناتول فرانس وهى من أبلغ كتب هذا العبقري العظيم فجاء بها كلاماً جافًّا لا ماء فيه ولا رونق له وما ينقصها من أنواع النقص إلا أن تكون من تأليف طه حسين لا من ترجمته .

ولست أدري كيف يأتي لمن لا يكون الشعر من طبيعته أن يكون

ناقداً أدبياً أو أستاذاً للأدب وفي أي أمة نجد مثل هذا وهل كل من عرف الحساب عرف منه الهندسة ؟ لا نظن أحداً يزعم ذلك أو يكابر فيه إلا طه فانه وحده يعرف من جدول الضرب . . . علوماً كثيرة منها الهندسة والجبر وحساب المثلثات والطبيعة والكيمياء وكل مادخله العدد ما دام الحساب هو العدد . وتراه لا يجادل في شيء بما أوتي من قوة إلا في إثبات أن الناقد الأدبي لايجب أن يكون شاعراً وأن المعرفة بالشعر ليست ضرورية فيه كضرورة الأداة في الصنعة لمن يتصرف بها . ولو أن الشعر كان جَدَلاً وقياساً وقواعد وحدوداً لما نازع في أمره لكنه يعلم أنه الذوق والقريحة وهما من أسرار السموات ويعلم أن الشمعة إن كانت نوراً فنورها غير أشعة رنتجن فلا هم له من ثَمَّةَ إلا أن يزعم أن النقد الأدبي منطق وعلم وتأمل وفلسفة وفي بعض هذا كلُّ وسائل النقد وكل هذا بعض مواهبه هو فيما يدعي . ولقد رأيت كلمة بليغة للآمديّ كأنما كتبها للرد على أستاذ الجامعة منذ أكثر من ألف سنة أو لعله كان لهم في زمنهم طه كما لنا في زمننا وكان ذلك (الطاها) يظن أن رجله برقُ الأرض تطوي أقاصيها في بعض خطوات فقال له الآمدي ـ ولعلك أكرمك الله اغتررتَ بأن شارفتَ شيئاً من تقسيمات المنطق وجُمَلاً من الكلام والجدال أو علمت أبواباً من الحلال والحرام (هذه نسيها طه ....) أو حفظت صدراً من اللغة أو اطلعت على بعض مقاييس العربية وإنك لما أخذت بطرف نوع من هذه الأنواع بمعاناة ومزاولة ومتصل عناية فتوحدتَ فيه وميزت ظننت أن كل مالا تلابسه من العلوم ولم تزاوله يجري ذلك المجرى وأنك

متى تعرضت له وأمررت قريحتك عليه نفذت فيه وكشفت عن معانيه هيهات لقد ظننت باطلا ورمت عسيراً لأن العلم أي نوع كان لايدركه طالبه إلا بالانقطاع إليه والإكباب عليه والحرص على معرفة أسراره وغوامضه . ثم قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر لأن كل امرىء إنما يتيسر له مافى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه فينبغى أصلحك الله أن تقف حيث وقف بك وتقنع بما قُسم لك ولا تتعدى إلى ماليس من شأنك ولا صناعتك » انتهى

وقد كان أحد أصدقاء طه يجادلنا فيه ذات يوم فرد علينا ما وصفناه به من أنه لا حظّ له في الشعر ولا يدَ له فيه وقال إن له فيه يداً ورجلا . . وإنه غير منسلخ من الشعر بل هو فى جلد شاعرين معاً وإنه قد انبثت خواطره فى كل معنى وافتتح للناس طريقة الأدب الحديث التى جمع فيها بين بلاغة اليونان والفرنسيس والعرب فذهب فى شعره بمحاسن هذه الأمم الثلاث . ودلنا على أبيات كان نظمها فى استقبال العام الهجرى وقال إنها نشرت فى بعض أعداد المقطم من زمن فكتبنا إلى من جاءنا بها فما منها إلا المعنى البكر والأسلوب النادر واللفظ الموسيقى وفيها الحلاوة والطلاوة ولها رفيف وعليها ماء حتى لو تليت على شجرة جافة لاخضرت ثم هى بعدُ آية فى الدلالة على القريحة الصافية والبلاغة المتمكنة والطبع البدوي السلس الرقيق الذى عرفه هو فى كتابه بأنه يعرض عن تكرار الحروف فقال لافض فوه وبتعبير المذهب الجديد لا أحوجه الله إلى تركيب أسنان . . .

مالى وللبدر أطاب رده (كذا)[1] بل ما لأفلاك السماء ومالي

لا دَرّ دَرُّ المال لو لم يدخر لبناء مكرمة وحسن فعال

لا در در المال لو لم يدخر إلا لذات الطوق والخلخال

لا در در المال لو لم يدخر إلا لنيل مراتب الأجلال

والأغنياء على الملاهي عكّف صرعى اللواحظ والهوى الختّال

ولا ريب عندنا أن هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذهبت بقيتها فى إحدى الزلازل لأنه بعد هذا الشعر لا يكون إلا الرجم وانقضاض الشهب وتمزق الأرض أفلا ترى الشيخ يقول « بل ما لأفلاك السماء ومالي » فهذا نذير بأنها توشك أن تنقض عليه وتُتبعه شهاباً رصداً. وتأمل البيت الرابع فانه من فرط سموه وابداع معناه والتعمق فيه قد فسد لان الشاعر يلعن المال إن لم يدخر إلا لنيل مراتب الاجلال فهل مراتب الاجلال إلا العلى والمكارم وهل يدخر المال إلا لهذا . أم تكون المراتب هي الرتب والنياشين وإذن فما كلمة « الاجلال » إلا سمو آخر لافساد المعنى إذ رتب الاجلال هي رتب العظماء فى كل أمة ، فيا صاحب هذا السمو إن كان ذلك شعرك فقد سلمنا لك ما تدعي من أن الكثرة المطلقة فى الشعر الجاهلى منحولة بل كل الشعر الجاهلى مكذوب موضوع لما فيه من التوليد والسخف والركاكة ، وأنه لا يمثل الحياة الجاهلية . وإنما جاءك الدليل على هذا الرأى من أنك لو كنت أنت فى ذلك العهد وجاءتْ إليك القبائل تستكثر بك من وقائعها واشعارها وجاءك الرواة

(١) كذا رأيناها منشورة وظاهر أن أصلها مالى وما للبدر

يحملون عنك والقصاص لتخلق لهم ذلك الخلق — لوضعت على فحول الجاهلية من نمط أبياتك هذه جزالة وقوة وإحكاماً وذهاباً فى فنون الشعر فعضل شعرك بأهل النقد والتمييز ولا تجريه فى شعر إلا أشبهته وامتزجت به امتزاج الماء الصافي بالماء الصافي وإن كانا من نبعين مختلفين. فلا يعرف بعد امتزاجهما أيهما من هنا وأيهما من ثم ؟ . . . .

إني والله أستحي لطه حسين أن يكون هذا شعره ثم يتكلم فى الشعر فان هذا الكلام الركيك ما فصل عن نفسه إلا وبينهما شبه فى الجفاء والغلظة والاضطراب والتخرق . وما يسقط الاستاذ أكثر ما يسقط فى كتابه الشعر الجاهلي إلا من هذه العلة الشعرية فى ذهنه ومن تلك العلة الفلسفية فى رأيه فما هو شاعر ولا هو فيلسوف ولكن كتابه قائم على الشعر وإدراكه وتمييزه وتصحيح نسبته إلى فحول كبار من أئمة هذا الفن ، وعلى الفلسفة فى التاريخ وتناولها الأشياء والحوادث والأشخاص من جهة عللها وأسرارها . فلا جرم تهافت وتعثر وأحال وتناقض بحيث لا يصيب فى واحدة إلا أخطأ فى عشر ولم يكن بدعاً أن يجيء كتابه على مقداره فيغلب عليه الضعف ويفسده التعسف وتنزعه النزعات الخبيثة لا يكون كتابه فى حاجة اليها ولكنها من حاجة نفسه فلا يزيد على أن يفتضح بها ؛ ومن أغربها قوله فى صفحة ٧٤ إذ نقل عن الأغاني عن عبد العزيز بن أبي نهشل قال إنه قال لى أبو بكر بن عبد الرحمن وجئته أطلب مَغْرَماً ياخال هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة وقل سمعت حساناً ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ

بالله أن أفتري على الله ورسوله ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت . قال لا — الا أن تقول سمعت حسانًا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى عليّ وأبيت عليه فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال فأرسل إلي وقال قل أبياتًا تمدح بها هشامًا وبني أمية واجعلها فى عكاظ واجعلها لأبيك الخ الخ .

قال أستاذ الجامعة المتبع مذهب ديكارت : فانظر إلى عبد الرحمن كيف أراد صاحبه على أن يكذب وينتحل الشعر (كذا) على حسان ثم لا يكفيه هذا الانتحال حتى يذيع صاحبه أنه سمع حسانًا ينشد هذا الشعر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . كل هذا بأربعة آلاف درهم ولكن صاحبنا كره أن يكذب على النبي صلى الله عليه وسلم « بهذا المقدار » واستباح أن يكذب على عائشة . اهـ

فهل تجد أنت فى القصة مساومة أو ما يشير إليها حتى يكون الرجل المسلم لم يكره الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ألا لقلة الثمن ؟ وهل فرق فى الكذب بين أن يكون بأربعة آلاف أو بعشرة أو أقل أو أكثر ان لم يكن الإيمان هو الذى منع الرجل منه للحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « من كذب علي عامدًا متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » . غير أن فقه الرواية . أن نفس طه فى جشعها وتكالبها على المال حلالا وحرامًا وفى رقة دينها وايمانها هى التي أوحت إليه هذا التعليل السخيف البارد فحسب أنه لو كان هو المسئول أن يكذب لقال للسائل ياهذا إن الكذب على عائشة بكذا وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا

فاذا لم تبذل إلا أربعة آلاف فلا أكذب إلا على عائشة . . . . والرواية في عبارتها صريحة واضحة لا لبس فيها [1] ، ولكن طه كما وصفنا ثمرة لم تنضج إلا مرة شديدة المرارة فليست تذاق أبداً إلا دلت على نفسها وتركت طعما من مرارتها ينبيء عنها . ولو أن الجامعة المصرية ألحقت من أجل ذلك بشركة السكر . . . لا فلست الشركة في إحلاء هذه الثمرة ولا تحلو . ويقول في صفحة ٥٦ في عصبية قريش على الانصار إنه كان من قريش من يتجاوز الاقتصاد في العصبية إلى شيء يشبه العطف على « الأنصار » والرثاء لهم ولعل الزبير بن العوام كان من هؤلاء العاطفين على « الانصار » الراثين لهم الحافظين لعهدهم والراعين لوصية النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فقد يحدثنا (كذا) الرواة أنه مر بنفر من المسلمين فاذا فيهم حسان وهم غير حافلين بما يقول فلامهم على ذلك وذكرهم موقع شعر حسان من النبي صلى الله عليه وسلم وأثر ذلك في نفس حسان فقال يمدحه

وأحب أن تلتفت إلى أول هذا الشعر فهو حسن الدلالة على ما أريد أن أثبته من دخول الحزن على نفوس « الانصار » لهذا الموقف الجديد الذي وقفته منهم قريش وأول الشعر هو :

أقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يُعْدَلُ

(١) في الاغاني في خبر عمر بن أبي ربيعة من رواية أخرى ان الابيات التي قيلت هي لعمر فاذا صحت هذه كانت الرواية التي استدل بها طه مكذوبة فلا دليل فيها وسبيل (الديكارتي الصحيح) في مثل هذا ان يسقط الروايتين او يذكرهما معاً امام الديكارت المزور فسبيله ما رأيت في عمل الشيخ

أقام على منْهاجِهِ وطريقه يوالي ولي الحق والحق أعدل

قال طه فانظر إلى هذين البيتين فى أول المقطوعة كيف يمثلان ذكر حسان لعهد النبي صلى الله عليه وسلم وحزنه عليه وأسفه على ما فات « الأنصار » من موالاة النبي لهم وانصافه إياهم . انتهى — وبعد صفحة واحدة قال: كما كان الزبير من هذه الفئة القرشية التى كانت تعطف على « الأنصار » ذكراً لعهد النبي صلى الله عليه وسلم أو « احتفاظا بمودة الأنصار ليوم الحاجة . . . » والخبر من الأغاني فى ترجمة حسان وعبارته أن الزبير مر بمجلس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسان ابن ثابت ينشدهم من شعره وهم غير نشاط لما يسمعونه منه فجلس معهم الزبير فقال مالي أراكم غير آذنين لما تسمعونه من شعر ابن الفُريعة فلقد كان يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشيء فقال حسان وأنشد الأبيات . فانظركم في أسباب الدلالة التاريخية بين قول الأغاني إنه مر بمجلس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول طه مر بنفر من المسلمين . وهذا الخبر قد مر على كل علماء الأدب والتاريخ الاسلامى فما فطن أحد إلى دلالته على حزن الانصار وعطف الزبير عليهم « ليوم الحاجة » إلا أستاذ الجامعة وحده فاين فيه ذكر الأنصار وحزنهم على ما فاتهم وإنما يتكلم حسان عن نفسه وإياها أراد بقوله ولي الحق إذ كان يتولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رجل شاعر كل مجده فى اقبال الناس عليه ونشاطهم لكلامه إن كانوا من قومه الانصار أو من غيرهم

وأين النص يا أستاذ الجامعة على أن ذلك المجلس من الصحابة كان من قريش فانه إذا جاز أن يكون من الانصار فقد بطل ما جئت به إذ يكون قوم حسان هم الذين لم ينشطوا لسماعه ثم كم من الفرق بين أن يكون سامع الشعر غير ناشط له وبين أن يكون غير « حافل » به . ثم أين النص على أن ذلك المجلس كان فى تاريخ بعينه مع أنه يجوز أنه كان في زمن عمر بن الخطاب بعد أن استقرت الأمور ولم يبق شيء من الخلاف بين قريش والانصار أو بعد ذلك بزمن بعيد فان الزبير قتل فى سنة ست وثلاثين للهجرة . وإذا علمت أن الزبير هو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه وصفيُّه وقد شهد معه المشاهد كلها فلا تسألني أنا عن معنى قول الاستاذ « ليوم الحاجة » ولكن سل رجلا ملحداً زنديقاً لا يظن أن فى النفوس نفساً مؤمنة لأن الايمان عنده خدعة من خدع السياسة كإسلام نابليون فى مصر

وعجيب من طه بعد أن عرفت شعره ومبلغ فهمه للشعر أن تراه يقول فى صحيفة ٩٩ : وكل هذا الشعر اذا نظرت فيه سخيف سقيم ظاهر التكلف بيِّن الصنعة . . . وفى صحيفة ١٠٣ ويروي لنا ابن سلام شعراً آخر ليس أقل من هذا سخفاً ولا تكلفاً ولا انتحالا . . . وفى صفحة ٤١٥[1] وقال دولة سعد باشا للورد لويد يحسن استشارة لندن فقال اللورد أنا لندن فى المسائل الحاضرة وانا أقول كذلك للرافعي ولغير الرافعي أنا الشعر أنا الجامعة . . . .

(١) الكتاب ١٨٣ صفحة . . . .

خنفساء ذات لون أبيض ...

إن من عادتي إذا جلست للكتابة أن أضع ساعتي ناحيةً إلى اليمين مرتفقة ذراعي أسد مصنوع من الحديد قد ربض ربضة الكبرياء مستوفزاً كأنما يُجمع الوثبة على فريسة وجدفي الهواء ريحها ، كاشراً كأنما يتهيأ لنفضها نفضة الموت ، مقشعراً يضم أجزاءه ليرسل منها جملته الفاتكة ، وقد برز له صدر ضخم مكتنز عُضْلة لا أحسبه إلا حجر ذلك الطاحون الحيواني الذى صنعه الله من شدقيه وأنيابه

وتأملت الآن هذا الأسد وهو يحمل ساعتي وأخذت أفكر فيما أكتب اليوم عن الجامعة فقلت أسأل هذه الجامعة ماذا عسى أن يدرك الأسد من معنى هذه الساعة لو هو أبصرها ملقاة بين يديه فى الصحراء ورأى عقاربها تدب دبيبها ، أتراه يظنها خنفساء ذات لون أبيض ؛ أم يحسبها فى أرقامها السوداء قرية صغيرة من النمل ، أم يخالها قطعة من العظم تفرّق الذباب على أطرافها ؟ إنه ظان ما شاء أن يظن الا أن يعرف أنها أداة لتعيين الوقت فان ساعة الوقت عنده هى قرص الشمس يطلع أو يغيب لا ليدل على أن الساعة واحدة أو ثلاثة أو اثنتا عشرة بل الساعة ظلام أو الساعة نور . هذا فى الأسد أما في الانسان فنسأل الجامعة أكل امرىء يعرف قيمة الوقت فى تحريره وضبطه أم كل إنسان فى ذلك بحساب من عمله وطريقته فى الحياة . وماذا يفهم (المتشرد) فى

الطرقات من معنى قولك الساعة خمسة والساعة عشرة إلا على نحو مما يفهم الأستاذ طه حسين من المعاني الدينية السامية فى التاريخ الاسلامى إذ تعين له فضائل كريمة لا يألفها ولا يسيغها ولا يعقلها كما تعين الساعة مواقيت دقيقة لا محل لها فى حياة المتشرد والمفلوك ولا وزن ولا قيمة ؛

وإذا نحن وضعنا هذه الساعة فى ثوب هذا المتشرد وكانت عاملة محرَّرة ثم وضعناها يوماً آخر وهى معطلة خربة فهل هذا اليوم عنده إلا كهذا اليوم وهل تكون ساعة مثل هذا الرجل إلا الرغيف والقرش ونحوهما مما لا يد له على أن الساعة واحدة أو ثلاثة أو اثنتا عشرة بل الساعة شبع والساعة جوع ؟

لا تعرف الجامعة ولا تريد أن تعرف أن مثل أستاذها فى المبالاة بحقائق المعاني العالية من التاريخ الاسلامى وفقهها مثل ذلك المتشرد فى المبالاة بمعاني الوقت ومثل ذلك الأسد فى المبالاة بمعاني الصناعة ؛ ولكننا أريناها بعينيها وبأعين الناس جميعاً أن كل المعاني الاسلامية فى دروسها لم يدرك منها أستاذها الا شبيهاً بما أدرك الأسد إذ فكر ثم قدّر ثم تدبر ثم حكم أن الساعة خنفساء ذات لون أبيض . . .

كنا والله نرتاب فى أن الجامعة المصرية مدرسة إلحاد وأن طه حسين ما أخذ لها دون سواه ممن كانوا فى الجامعة القديمة (١) إلا لهذه العلة فيه ولأنه أقوم بها وأقدر عليها ، وكنا لا نظن هذا فضلا عن أن نحقه غير

(١) كان الاستاذ طه حسين يدرس فى الجامعة قبل تسليمها الى وزارة المعارف (تاريخ اليونان) وكأنهم لم يروه شيئاً فى الأدب . ولكن جامعة تنشأ فى بضعة اشهر غير عجيب منها أن توجد اديباً فى بضعة ايام

أنا قرأنا اليوم فصلا ضافياً لصديقنا الأستاذ العلامة الكبير السيد رشيد رضا كتبه فى المنار وأذاعته جريدة البلاغ وجعل عنوانه « دعاية الالحاد فى مصر » وهو يقول فيه : ليس الالحاد بجديد فى مصر وإنما الجديد هو الدعوة إليه وتأليف الجمعيات لبثه وهدم الاسلام وتأليف الكتب فى الطعن على أعلام حكمائه المتقدمين الذين يعلى الإفرنج قدرهم كالغزالي وابن خلدون والتنويه بمن اتهموا بالكفر والالحاد كالمعرى والاشادة بأدب من اشتهر بالفسق والخلاعة كأبي نواس

وقد كنا ذكرنا من بضع عشرة سنة خبر تأليف أول جمعية إلحادية من أعضائها معمم من خريجى الأزهر ثم إنهم خلعوا العذار وجهروا بدعايتهم فى دروس « مدرسة الجامعة المصرية » . ومحاضراتها . . . وإذ فطنوا فى هذه الأيام لما فى وطنيتهم ولا دينيتهم من الخسارة الأدبية والسياسية على مصر أنشأت جريدة (السياسة) تعدهم وتمنيهم بأن ثقافتها الالحادية الجديدة طفقت تتبوأ مباءة تلك الزعامة الدينية من أنفس الشعوب الشرقية عامة والسورية خاصة إذ شعرت هذه الشعوب بأن الدين صار الأدنى والاضعف من جوامع الأقوام وروابط الأمم وأن « مدرسة الجامعة المصرية الالحادية » وهى المظهر الأعلى للثقافة الجديدة . . . قد خلفت الازهر المتوفى غير مأسوف عليه وورثت مكانته المعنوية . . . لقد صدقت جريدة السياسة — وقلما كانت صادقة — فيما صورته من التنازع بين الجامعة الأزهرية الدينية . والجامعة المصرية الالحادية فهذا أمر يعرفه البصيرون . وإن غفل عنه الأكثرون وأول

من صرح به فى مجالسنا من غير المسلمين شاب اسرائيلى ذكى سمعنا تتكلم فى مسألة كتاب الشيخ على عبد الرازق عقب ظهوره وكونه ينصر فيه دعاية الالحاد الجديدة فقال ليست المسألة مسألة كتاب ألفه شيخ مسلم فى محاربة الاسلام ، فلو كان هذا كل ما تشكو منه لهان خطبه ، ولكن المسألة كل المسألة — هى التنازع بين « الجامعة المصرية » وجامعة الازهر فاذا غلبت الثانية بقيت هذه البلاد إسلامية واذا انتصرت الأولى لحقت مصر بالبلاد التركية وانقضى عصر الاسلام فيها » . انتهى كلام السيد بحروفه .

وتقع هذه اللطمة وفيها قوة أربعمائة مليون يد إلا تسعاً . . . . (١) على وجه الجامعة فلا ترى هذه الجامعة الذليلة تغضب لدين أو كرامة أو أمانة ولا يكون منها إلا أن تدير القفا . . . . وكنا والله نحسبها ساكنة فى جدالنا إياها عن عجز لأ ننا على ما نعلم من وجوه الضعف الكثيرة فى نفسنا نعلم يقيناً أنه ليس فى هذه الجامعة من يقوم لنا فى هذا الباب الذى نجادلها فيه ؛ وهى بعد مغرورة بأستاذها تحسب الأدباء يتحامونه لأن فى فمه لجة من السب والشتم يغرق فيها من يتصدى له فليكن فى فمه البحر فان ذلك لا يعجزنا أن نجيئه فى وسط اللجة بتراب اليابسة برغم أنفه .

والآن علمنا أن إيمان الجامعة أو ايمان طه حسين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فى ذلك الكتاب الذى أذاعته الجامعة انما

---

(١) عدد الامة الاسلامية الا هذه الفئة التى نعرفها

كان فى بابه تزيناً كتجمل تلك المرأة السوداء التى سخر منها القدر حين ولدت فسماها أهلها دنانير . . . ثم سخر منها حين كبرت فتزوجها أعشى سليم الشاعر ثم سخر منها الثالثة حين تجملت وتكحلت بالاثمد فأنطق الاعشى بهذا البيت

كأنها والكحل فى مِرْودها تكحل عينيها ببعض جلدها . .

كثيراً ما سألت نفسى هل فى مصر كلها رجل واحد يحق له أن يكفر ، وبمعنى آخر هل فى مصر كلها رجل عبقري شاذ يبلغ من سمو العقل وسعة الاحاطة وحدة الذهن وغور النفس أن يكون له رأى خاص فى الايمان ينكسر به ما أجمع الناس عليه ، وبمعنى ثالث هل فى مصر ممن يقلدون بعض فلاسفة الأوربيين فى الالحاد من يعد فى طبقة من يقلدهم بحيث لو كان فى أوربا الملحدة لقلده أذكياء الأوربيين وأساتذة الجامعات هناك . . . ؟ إن البلاء كله انما يجيئنا من ناحية الأخلاق الضعيفة أو الأعراق الدساسة أو العلم الناقص . فأما أثر الخلق الضعيف والعرق الهجين فليس له الا الحكومة بمدارسها فان أهملته فى المدارس فلن يهملها هو فى الأسواق وما وراءها من الأماكن والجهات حين ينبث الملحدون المتعلمون فى الأمة ويتعاطون أمورها ويجارونها فى أسباب الحياة . وأما العلم الناقص فانت ترى أن صاحبه ما ان يتناول شيئاً من دقائق الفكر الا انتهى الى الحكم بأن فيها عجزاً أو ضعفاً أو اضطراباً كما يفعل طه حسين فى دقائق التاريخ والشعر والدين ، وذلك طبيعي لا يكون غيره فما العقل الناقص الا كالعين المريضة لاترى أثر مرضها الا فى الأشياء

التى تراها والأشياء مع ذلك صحيحة لا مرض فيها

واعلم أن الخطأ ولو فى فكرة واحـدة إن لم يكن إتلافاً وإحالة وإفساداً فهو تشويه ونقص لأن الفكرة جزء من الاجزاء التى يتألف منها الشكل المعنوى. ومتى كثرت الفكر المخطئة بأي الأسباب من نقص العقل أو الذكاء أو الخلق فذلك أشنع ما أنت واجده فى عمل هؤلاء الملحدين إذ يفسدون الايمان وهم يحسبون أنهم يصححونه وما الايمان إلا صورة معنوية كاملة لها أجزاء ولأجزائها ألوان ولألوانها مقادير. فقل الآن فى رجل أشل اليد أو سقيم النظر أو فاسد الذوق تريده على أن يرسم صورة امرأة جميلة ويكون من بعض آفاته أنه رجل منطق وتعليل وإبداع واختراع بزعمه ثم لا يكون منطقه الذى يلائم ذوقه وفكره وفنه إلا على هـذا التمثيل: إن الحاجب أسود والأسود يضاده الأبيض والضد يظهر حسنه الضد فالعين فى الصورة يجب أن تكون بيضاء... والخد أحمر والأحمر لون النار وللنار دخان يزينها من حواشيها فعارضا المرأة يجب أن يكون لونهما فى الصورة أسود. ويمر فى هـذا المنطق ثم يخرج لك الصورة الجميلة فإذا هى صورة امرأة عمياء ملتحية.. لم يخرجها من الطبيعة ولا من الفن بل من المنطق والحدس ثم من منطقه هو خاصة ثم مما حدس بظنه على أنه إبداع واختراع. وكل أولئك الذين تعرفهم ما منهم على الأمة إلا ذو مصيبة واحدة خلا الدكتور طه فانه ذو المصيبتين لأنه وحده الذى يتناول الأدب العربي من دون هـذه الفئة ويريد أن يأتي الاسلام من دعائمه، أما سائرهم فأهل سياسة وفلسفة

لايقدم أجرأهم على بحث أدبي فيديره على الالحاد إلا جعله على جهة النظر الاجتماعي أو السياسي فبذلك يهاجم الأدب وينهزم عن الادباء لانك اذا جادلته التوى عليك بأنه ينظر الى غير ما تنظر ويذهب في غير مذهبك وأخذ يكيلك الحصى وأنت توازنه الدر . فكلهم فى الأدب مخادع نفسه ولذلك لم يشتغل بهم أحد من علمائنا وأدبائنا على ما يتسع من عيوبهم ويتضاعف من زلاتهم إلا ذا المصيبتين فهو وإن كان من جملتهم فانه وحده جملة . . .

وبهذا تقدم عليهم وبان منهم حتى رأينا فيهم من يصفه بأنه زعيم المجددين . ولعله من أجل هذا لم تجد الجامعة غيره ولم تعدل به أحداً إذا صح أن هذه الجامعة أداة من الادوات كما هى مدرسة من المدارس ونحن لانزال نتوقف فى هذا فلا نبت الحكم عليه إلا بعد التثبت والاستبانة الصحيحة لان أثقال هذا الميزان من الرأى لاتزال ناقصة ولا يقع الرجحان فيه إلا بعد أن يلقى فى كفتيه عمل الأستاذ الكبير مدير الجامعة فإن هو ظل ساكتا بعد الآن فسكوته عمله وكفى وسكوته ينطق غيره فما هو وحده بذى اللسان ولا هو يملك على أحد لسانه وهو عندنا رجل للتاريخ فليحذر ألسنة التاريخ

قلنا إن طه ذو المصيبتين على الامة ولكن الله تعالى يرعى دينه ويكلأه فيسّر طه لما خلق له ثم يسره لمن يصدمه فهو حجر لكنه هشّ لين المكسر إذ كان من طبقاته التي يتألف منها طبقات متفتتة خلقت من كُسارة الاحجار ودُقاقها كالطباشير فهو ينطوى على طريقة كسره رحمة من الله

بهذا الدين ، وتلك سنة لن تخطئها فى أعداء الاسلام اذا أنت استعرضتهم وميزتهم فلا تتبدل ولا تتغير ولولا ذلك لما هلكوا وبقى الدين ولا ذهبت كتبهم وبقي القرآن . ترى ذا المصيبتين هذا يحمل أسلحة كثيرة من العلم والتاريخ والجراءة والشك والحماقة ولكنها كلها مُتَفَالّة تكسرها فى أصابعك لوشئت . فمعه الى قوة الكلام ضعف الفهم والى شدة الصولة خَوَر الهزيمة وهو سبّاق القلم لكنه أعرج الخيال ، سديد الجدل لكنه سيء التخاريج . وقس على ذاك من فضائله وأسباب قوته ما إن تدبرته رأيته لا يأتى أبداً الا متعارضا مُتَهَاتِراً فى بعضه إسقاط لبعضه

وضع الاستاذ كتابه ليبحث فى أن الشعر الجاهلى مصنوع محمول على أهله وأجمل هذه الفكرة وأسبابها ثم قال فى صفحة ٩ : ولكنى لن أقف عند هذه المباحث لانى لم أقف عندها فيما بينى وبين نفسى بل جاوزتها وأريد أن أجاوزها معك الى نحو آخر من البحث أظنه أقوى دلالة وأنهض حجة من المباحث الماضية كلها ذلك هو البحث الفنى واللغوى فسينتهى بنا هذا البحث الى أن هذا الشعر الذى ينسب الى امرىء القيس أو الى الاعشى أو الى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية أو الفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء» انتهى

لا جرم كان « البحث الفنى واللغوى » هو الأساس الذى يقوم عليه مثل هذا الكتاب إذ لا معنى للتخرص والحدس وقولك أشك فى هذا وأنكر هذا وأكبر الظن كذا فكل عامي وسوقي ونبطي وزنجي

يستطيع أن يتناول الميزان الدقيق فيميله ويجعله أكذب الموازين وأخبثها ولا يعجزه أن يسوّغ فعله بعذر أو دليل وان لم يكن من القوة على ذلك والتوسع فيه بحيث يصلح أستاذا . ولكن العجب أن شيخ الجامعة لما انتهى الى البحث الفني واللغوى تخبط واختل وذاب واضمحل ورأينا هذا البحر العظيم الذى يقال له الفنى واللغوى . . . مستنقعاً صغيراً يخوض منه الشيخ فى ضَحضاح من الماء الراكد ويخرج مدعيا الغرق وما يغرق أحد فى مثله الا الى الكعبين . . . .

كان جديراً بمن يقول الفنى واللغوى أن يدلنا على نمط كل شاعر وطريقته ومذهبه وعمود شعره وأسباب التوليد عليه بخاصته ووجوه الصنعة فى كلامه وأن يعيد لنا من علمه الواسع ذلك العهد الأول الذى كان يقول فيه الرواة لم يصح لامرىء القيس الا كذا ولم يصح لطرفة وعبيد الا كذا وهذه الأبيات وضعها فلان أو زاد فيها فلان . بيد أن الاستاذ بعد أن وصف هول الأقيانوس الفنى واللغوى وأنه سينتهى بنا الى القارة الجديدة المسماة أمريكا : اختصر الطريق الى أمريكا هذه فجاء بها ووضعها فى العُدوة الأخرى من المستنقع . . . إذ يقول فى صفحة ١٣١ : واذن فلنتناول مع الايجاز الشديد شيئا من البحث عن الشعر والشعراء فى العصر الجاهلى لنرى الى أي شيء نستطيع أن نطمئن من هـذه الاشعار . وفى صفحة ١٥٢ بعد أن روى مطلع قصيدة لعبيد بن الأبرص : ولولا اننا نؤثر الايجاز ونحرص عليه لروينا لك هذا الشعر ووضعنا يدك على موضع التوليد فيه . . . قلنا ففى أي شيء هذا الكتاب

إذن ما دام « الايجاز الشديد وايثار الايجاز والحرص على الايجاز » هو أساس البحث الفني واللغوى فيه على حين أن الكتاب هو هذا البحث وكل ما عداه حشو واستعانة وأن أمرأ القيس لايمحى من التاريخ (بالايجاز الشديد) ومهلهلا لا يكون من رجال الأساطير (بالحرص على الايجاز) . . . وماذا يغنى عنك ويلك أن تجمع لحرب أمة فيها مصانع كروب ومدافعها ومخترعاتها — عدة ملايين من المقاتلة اذا لم يكن لديك الا بضعة مدافع بالايجاز الشديد . . ؟ ألا تستحي ياطه أن تسقط بالجامعة هذا السقوط كله وأن تتغفل الناس الى هذا الحد فى بحث لم يخلق الله له أهلا بعد أن ذهب أهله ؟

على أن المسألة اللغوية فى كتاب الشيخ هي مسألة اللهجات ، وقد أسقطناها فى بعض ما مر بك ثم كانت عقدتها قوله فى صفحة ١٤١ ، وقد يكون لنا أن نلاحظ قبل كل شيء ملاحظة لا أدرى كيف يتخلص منها أنصار القديم وهى أن امرأ القيس — ان صحت أحاديث الرواة — (يعنى ان صح أنه خلق) يمنيّ وشعره قرشي اللغة . . ولغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ؟ الى أن يقول : وأعجب من هذا انك لا تجد مطلقاً فى شعر امرىء القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من انحاء القول يدل على انه يمني . فمهما يكن امرؤ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته قدمحيت من نفسه محواً تاماً ولم يظهر لها أثر فى شعره ؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة . انتهى

فنحن مع الأستاذ فى اثنتين : أن ينكر وجود امرىء القيس انكاراً صريحاً وحجتنا عليه ذكر هذا الشاعر فى الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيما روي من كلام الصحابة كعمر وعلى وكلام الشعراء الأمويين كالفرزدق وجرير ، وأخرى أن يقر بوجوده اقراراً صريحاً ولا يقول (نرجح انه وجد) وتبقى المشكلة اللغوية التى أوردها واعترض بها وتوهم فيها على أنصار القديم ما توهم وجعلها أقوى ما فى كتابه من الأدلة وقد أنذرنا غير مرة فى جدالنا معه اننا « سنجد مشقة وعسرا » فى التخلص من مشكلاته فوالله ما وجدنا فى واحدة عسراً ولا مشقة ، ولكنه يرمى الناس بما فيه وذلك من أمره ولو تثبت واستعان بغيره لكان خيراً له وأقوم ولكن فتنه الله بنفسه وبصّره العيوب الا عيبه

وقبل أن نحل له المشكلة نقول اننا رأينا فى بعض كتب الجدل ان رجلا ذكياً قال لجماعة من الناس ان سقف البيت كان فوق زيد ثم صار تحت زيد فقال واحد منهم لا جرم تهدم البيت ووقع السقف فلا حول ولا قوة الا بالله ، وقال آخر لا عجب مات الرجل شر ميتة فانا لله ، وقال ثالث وليس يمشى الناس فى جنازته الا متوجعين فرحمه الله وانطلقوا فى ذلك يُفضِي بهم بعضه الى بعضه ولا رجعة لمن مات فالمشكلة لا حلّ لها

ألا دعونا أيها الناس من الموت والهدم ومما قام بأنفسكم من المعانى وانظروا فى الكلمة ولا تجاوزوها ودققوا الفهم قبل ان تدققوا التخريج فان السقف كان فوق زيد حين كان زيد جالساً فى الغرفة ثم صار تحته حين صعد زيد الى السطح . وهذا حل المشكلة التى هدمت بيتاً وقتلت رجلا

وهى بعينها مشكلة أستاذ الجامعة فلا تجد فى هذه صعوبة الا اذاجريت على طريقته فى التاريخ والاعتماد فيه على العقل والرأى دون المادة متجاهلا ان العقل ينتج فى كل العلوم فيصلحها الا فى التاريخ فانه يفسده اذ لا تنتج فيه إلا المادة وإذ حاجته إلى العقل المفسر منه لا إلى العقل المنتج فيه . والعقول أنواع بطبائعها وخصائصها ودرجاتها فاذا تحكمت فى التاريخ نوّعته وهو شيء واحد لا يختلف ولا يقبل الزيادة إذ كان وانتهى ووضع عليه خاتم الفناء

انظر ياسيدنا ومولانا طه حسين فى كتاب العمدة فى صفحة ٥٩ من الجزء الأول تجدهم حلوا مشكاتك منذ ألف سنة بقولهم إن امرأ القيس يمانى النسب نزارىّ الدار والمنشأ (يعنى المولد والمربى ولا تؤاخذنا فى التفسير لك) فقل أنت الآن ياسيدنا ومولانا هل تريد أن تولد لغة اليمن فى دمه فيكون دمه معجما لغويا لا يجرى كريات حمراء بل كلمات واشتقاقات وأساليب . وهل العربية أية لهجة كانت الا على الدار والمنشأ وبالسماع والمحاكاة ؟ كان سبيلك ياسيدنا ومولانا أن تثبت لنا بَدِيًّا أن امرأ القيس ولد ونشأ فى اليمن ثم تنقل بعد ذلك فى قبائل العرب ثم يكون لك ان تقول فكيف نسي لغته ؟ وماذا ترى فى قول بعض الرواة إن الشعر يمانى واحتجاجهم لذلك فى الجاهلية بامرئ القيس وفى الاسلام بحسان بن ثابت وفى المولّدين بأبى نواس وأصحابه مسلم بن الوليد وأبي الشيص ودعبل وكلهم من اليمن وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين أبى تمام والبحترى . أكل هؤلاء وهم ينسبون الى اليمن قد كانوا الا على لغة الدار والمنشأ ؟

ذلك هو كل مافى كتاب طه من المسألة اللغوية وبقى أنه يجعل من أسباب وضع الشعر سهولة الفاظه ويطلق ذلك في كل الشعراء الجاهليين قياسا واحدا مع أن الرواة العلماء نصوا على أن الأعشى يحيل فى لفظه كثيراً ويسفسف دائما ويرقّ ويضعف وقد جعلوه بازاء النابغة قالوا وألفاظ النابغة فى الغاية من البراعة والحسن . فاذا كان هذا الشعر وضعا وصنعة فما الذى شد النابغة وأرخى الاعشى . وقد أدرك الأعشى الاسلام وكان جاهليا وكان أهل الكوفة يقدمونه على الشعراء فلا شبهة فى وجوده وكان من شعراء ربيعة كطرفة بن العبد وإنهما لمتباينان فى الفاظ الشعر فكيف اشتد واحد ولان الآخر ؟

قالوا وكان الأصمعي يزعم أن العرب لا تروي شعر أبى دؤاد وعدي ابن زيد وعلل هذا بان الفاظهما ليست نجدية أى ليست قوية متينة السبك فى الغاية من القوة والجزالة . ولقد كان الأصمعى أحق من طه حسين بما ذهب اليه لو أن رقة الالفاظ تنفي نسبة الشعر الى جاهلى أو مخضرم أو تثبته لمولد أو محدث أو تكون سبباً من أسباب الشك . ومع رقة شعر عدى كان معاوية يفضله على جماعة الشعراء ومع رقة أبى داؤد فضله الحطيئة وهو أعلم بالشعر من طه ومن أجداده فما أظن أن فى سلسلته شاعرا والا فاين أثره ؟

ان الرقة والجزالة واللين والجفاء لا ترجع فى الشعر الى لغة الشاعر ولا عصره ولكن لعواطفه ومعانيه وذوقه وللطريقة التى نشأ عليها وللشاعر الذى يحتذيه . فان الشاعر لا ينبت كما تنبت الشجرة بل هو يروى شعر

غيره فيعمل عليه ثم تعرض له أمور من نفسه ودهره وعيشه فتؤثر فيه قوة وضعفا وقد كانوا لا يعدون الشاعر إلا من روى لغيره لأنه متى روى استفحل

وسئل رؤبة عن الفحل من الشعراء فقال هو الراوية . قال يونس ابن حبيب وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ؛ وتأمل ما قالوا فى حفظ الشعراء المولدين كأبي نواس الذى لم يقل الشعر حتى روى لسبعين امرأة من النساء دون الرجال وأبى تمام الذى كان يحفظ مالا يعد والمتنبي الذي لم يفته شيء والمعرى الذى لم تسقط عن حفظه كلمة الخ الخ ولو كان طه شاعراً لعرف كيف تختلف أساليب الشعراء وبم تختلف ولم تختلف ولكنه بعيد من هذا وهذا بعيد منه كما تعلم ومتى ثبت أن الشاعر عندهم هو الراوية وذلك ثابت لا ريب فيه والنصوص عليه كثيرة وأسماء الشعراء ورواتهم معروفة — فمن ذلك تعلم كيف تأدى الشعر الجاهلى إلى الرواة . فاولئك هم كانوا الدواوين التى جمعت الشعر وأدته صحيحاً محفوظاً ثم زيد عليه بعد ولكن كذب الزيادة لا ينفى صحة الأصل . والأمر فى هذه الزيادة إلى أهله الذين كانوا أهله لا إلى طه ولا أمثال طه فاذا رأيناهم يقولون مثلا : كان امرؤ القيس كثير المعانى والتصرف لا يصح له إلا نيف وعشرون شعراً من طويل وقطعة . فما بنا بعد هذا القول حاجة إلى طفيلى فى الشعر وروايته وتحقيقه كأستاذ الجامعة ينفى أو يثبت على مذهب ديكارت أو على مذهب الشيطان لأن المذهب ههنا من أقوال العلماء والحفاظ وأهل

البصر بالشعر والحذق فى نقده وتمييزه وما على الأرض اليوم رجل واحد يقول إنه من هؤلاء

ومما نظن أن ألفاً وثلاثمائة سنة تضحك منه ضحكا يهز قبور الأدباء قول الجامعة فى تعيين تاريخ امرئ القيس صفحة ١٥٠ : والذى نرى نحن (نأمل نحن) أنه عاش قبل القرن السادس وربما عاش قبل القرن الخامس أيضاً . فربما التى يقال فيها إنها للتقليل هى فى حساب التاريخ الحسينى بمائة سنة لأن الذى يقال فيه إنه عاش قبل القرن السادس للميلاد لا يمكن أن يتقدم على سنة ٥٠٠ فاذا قيل فيه ربما عاش قبل القرن الخامس أيضاً . فأيضاً هذه لا يمكن أن تتقدم سنة ٤٠٠ وما أنا من علماء الرياضة فأجد من عقلى قوة على تخليص هذا الخلط وإذا جاءنا فيثاغورس نخلصه فقد بقى أنه يجوز أن يكون امرؤ القيس قد عاش قبل القرن الرابع وربما قبل الثالث أيضاً . . .

إن نصف الكذب من الكذاب يشبه أن يكون منه بمنزلة نصف الصدق فالحمد لله على أن أستاذ الجامعة قد أُبقى لنا شيئاً نفهمه من شيء كان اسمه امرأ القيس



أعمالهم كرماد اشتدت به الريح

قرأت فى الأهرام حديثاً كان مع أحد كتابها للأستاذ الفاضل مدير الجامعة يصف ما تم فى جامعته مدة عام ويؤرخها فيه وقد رأينا الاستاذ ركب فناً غريباً من الكلام لايعمد إليه فى طبيعة القول وأساليبه إلا من كان فى نفسه أشياء تناقض ما فى لسانه أو كان قوله على أصل مخترع وسنعرض لحديثه بعد قليل

ولما استوفيت القراءة رجعت إلى نسختي القديمةمن كتاب « كليلة ودمنة » لعلي أجد فيها بيان الحديث أو تأويل هذه الفلسفة فأصبت ما أقص عليك من هذا المثل الغريب ، قال دمنة :

وأنت يا كليلة بعدُ لا أراك تخرج من نحيزتك ولا تدع زهوك وفلسفتك وما تبرح فى لسانك دأباً كلمتان : واحدة تنحدر وأخرى تهم أن تنحدر وتحسب أنّ ما معك من هذه الخاصة ليس مع أحد مثله كأن الله أفردك بها وما يُفرد إلا نبياً وما يميز إلا رسولا وما أنت بأحدهما ؛ وإن رجاء الأمور لايكون بزخرف الكلام ولكن بصحته ولا تجزىء منه كثرة أساليب الباطل وإنما غناؤه فى أسلوب واحد اذ كانت الحقيقة الواحدة لاتتعدد ؛ ولعمرى لو نفعك شيء من ذلك لقد كان نفع الفيلسوفة الأمريكية الصلعاء ، قال كليلة وكيف كان ذلك ؟

قال زعموا أنه كان فى أمريكا امرأة فيلسوفة أحكمت المنطق وجمعت

العلوم ونظمت الشعر وألفت الكتب وكانت صلعاء مُنْقَشِرَة الرأس . يعرفون ذلك منهاويتواصفونه فكانت لاترى امرأة جَثْلَةَ الشعَ واردة الفَرْع إلا قالت فى نفسها :

أما إنى لا أعرف أحداً من العلماء والفلاسفة وأهل الأدب يقطعنى جداله وتعجزنى مسألته ولو قد جادلتنى امرأة كهذه لأعجزتنى بأول كلمة منهافإنهاأولَ بَدْءَتِها لاتتكلم إلا فى الصَّلع . . . ويا ويلك إن لم ينطق فى قبحك إلا لسان الحسن ، قال ثم إن النساء يومئذ وقع نقص جديد فى عقولهن فذهبت كل حسناء تُجمّم (١) وتقص شعرها تشبهاً بالغلمان والفتيان وعمهن ذلك فقالت الصلعاء الفيلسوفة لقد هان أكثر العسير وقارب فنٌ فناً وما الشعر الذى يسقط إلا أخو الشعر الذي لاينبت . قال دمنة : ثم إن الفيلسوفة أرادت أن تسيح وترى الأرض حتى تنتهى إلى مصر فترى آثار الفرعون تَتَخَمُّون فلما جاوزت البحر ووقعت فى الأرض المسامة رأت الناس فى حيثما نزلت من مراكش إلى مصر يحلقون رؤوسهم بالمواسى فقالت أما والله إن هذه لهي المدنية التى فتحت العالم ودوخت الممالك وغير مستنكر ممن ينشأون على حلق رؤوسهم بالموسَى أن يحلقوا أعناق الأمم بالسيف وإن هذا لهو الرأى وإنى لموفقة أحسن التوفيق ولن أبرح الفرصة حتى أفعل وأفعل إلى أن احمل هذه المواسي

(١) التجميم هي الكلمة العربية لما شاع في نساء العالم هذه الأيام مما يسمينه مودة قص الشعر (à la garçonne) وكان ذلك معروفاً عند العرب جاهلية واسلاماويقال جارية مطمومة اذا كانت مقصوصة الشعر وجممت المرأة وهي مجممة اذا اتخذت لشعرها هذا الزى .

على رؤوس الأمريكيات فلا يبقى من فرق بيني وبينهن إلا أنهن يحلقن مرة بعد مرة وحُلقت أنا بالموسى الإلهية التي ليس لها مرة بعد

قال كليلة : ويحك يا دمنة فماذا صنعت هذه الكاعاء قال دمنة سبحان الله . أقول لك فيلسوفة وتقول لكاعاء ؟ ثم إنها تعجلت الرجوع إلى أرضها فعملت خطبة سمتها « من بلاد الموسى » ولم تدع فيها جهداً من مثلها إلا بلغته حتى أتت على آخر وسعها فصنفتها أحسن تصنيف وعدلت أقسامها وأحكمت فصولها وابتدأتها بأن في الشرق مذهباً فلسفياً جديداً أبدعه مدير الجامعة المصرية وهي مدرسة أفريقيا كلها ، فما كان من عمل ولو انشاء جامعة كبرى في زمننا هذا زمن الجامعات « فسنته الأولى تجربة . . . » يذهب خطأها في طلب صوابها فهو لابد لاحق به فهو من ثم معدود منه فهو ليس بخطأ ، ولو أن الدنيا خربت به لم يمنعه ذلك أن يسمى في الفلسفة الشرقية صواب تجربة . ثم إنها حشدت الأمريكيات وخطبت فيهن خطبتها تلك وشرحت قضية الموسى ولم تدع أن تزينها وتقرظها وتدعو إليها وقالت آخر ما قالت : هب أنكن لاتعرفن عواقبها فان المذهب الفلسفي الشرقي يقضي « بسنة تجربة » في كل شيء حتى إن أستاذاً مسلماً في الجامعة المصرية كفر « سنة تجربة » فلا عليكن أن تكفرن بالمقص وتؤمن بالموسى . واعلمن أصلحكن الله أن « سنة التجربة » ستكون الدين الجديد الذي يطبّق الأرض فسارعن إلى تجربة الحلق بالموسى ليأخذه عنا الأوربيات والسابقة لنا قبل أن نأخذه عنهن والسابقة لهن . قال دمنة فانتدبت لها امرأة من المجلس

وضيئة حسناء فلما وقفت بإزائها أمسكت المشط فرت فى شعرها تفيئه يمينا وشمالا وقالت لها يا هنَاه ! لو كان على رأسك من هذا لما كان فى لسانك هذا . . .

* * *

وقرأنا حديث الأستاذ مدير الجامعة والأستاذ أول كاتب مصري جرت فى قلمه عبارة سلطة الأمة ولكنه فى هذا الحديث سكت عن الأمة وشكواها واحتجاجها كأنه لم يوجد من هذا شيء أو كأن الاستاذ يرى دين الأمة فى الجامعة كقطن الأمة فى البورصة ، يبعد السعر ويقرب ويرتفع وينزل ولا عليه من ذلك فان كان اليسر فاليسر وإن كان إفلاس فإفلاس إنما عمله هو نشر السعر كما تجيء به المصادفات خرابا وعمارا

قلنا فلتكن الجامعة كافرة كفراً صريحاً ولتكن على هذا أديرت إن لم تكن لهذا انشئت فيبقى أمر هذه الغلطات التاريخية والأدبية التى وقع فيها أستاذها وأبان فيها عن حماقة تركت الجامعة سخرية فى الالسنة فما سكوت الأستاذ المدير عن هذا وللعلم حق يقضي عليه بإحدى قضيتين فإما أن يسلم بالخطأ ويلتمس إصلاحه ويعمل فى ذلك ويعلنه للأمة وإما لا فليدفع حجة بحجة وليرد كلاما بكلام وليربأ بالجامعة أن تكون فى موقف المعاند المكابر فان المعاند يحسب السكوت مما يغطي ويموه على الناس ولا يعلم أنه متى قام الدليل من أحد خصمين لم يكن لسكوت الخصم الآخر إلا معنى واحد لا يختلف لا فى القانون ولا فى العرف ولا فى الشرع وهو الإقرار والاذعان وإن كان لم يقر ولم يذعن .

يقول الأستاذ المدير : الجامعة تبتدىء ولا شبهة فى أن السنة الأولى لإقامة معهد علمي كبير يراد به ترقية التعليم العالي من ناحية ونشر المعلومات التى تحبب العلم إلى الجماهير (كذا كذا) من ناحية أخرى — ينبغي اعتبارها « سنة تجربة » . . . قلنا ولكن يا سيدي المدير ما نحن من أخلاط الامم المبعثرة ولا نحن فى مجهل من مجاهل الدنيا ولا نحن مبتدعين فى أنشاء الجامعة فتضيع أموالنا وأعمار أبنائنا فى سنة تجربة ؛ أو لو قام تاجر مقصّر ينشىء مصرفاً ويعامل فيه الناس ثم خسر وانكسرت عليهم أموالهم يكون عذره عندك وعند الحاكم أنها سنة تجربة ؟

ويقول الأستاذ « لا أحد يشك فى أن البرلمان المصرى بعد أن استقبل في العام الماضى نبأ تأليف الجامعة بالتصفيق لا يتردد هذا العام (بهذا الجزم) فى أن يقر قانون الجامعة ويحرص على إثبات شخصيتها المعنوية من غير أن ينقص (من غير أن ينقص) من مشخصاتها شيئاً (ولو بعض الشيء . . .) بل ربما زاد (الله الله) على قوة هذه الشخصية المعنوية ووسع فى دائرة مظاهرها » انتهى

ونحن نظن ان الحديث كله لم يوضع إلا ليستجرّ هذه العبارة وحدها فهى والله ثقيلة على كل نفس بل هى كالاملاء على البرلمان يفرضها عليه المديرُ فرضاً فلا أحديشك حتى ولا يُهَمْهِمُ فى نفسه ، لاأحد لاأحد « ولا » لنفي الجنس ، ولكن أين مذهب ديكارت يا سعادة المدير ؟ أتشكون فى الدين والعلم وتعلمون الشك وتحامون عنه وتحملون فيه

سخط الأمة كلها حتى اذا انتهى أمركم الى نواب الأمة قلتم « لا أحد يشك » أفلا تعلم ياسيدى المدير أنك حقرت هذه الأمة بعلمائها وأدبائها وأن البرلمان انما هو صورة شخصية من ضمير الأمة وانك بعملك أنزلت الجامعة من الأمة منزلة عدو من عدوه

فكيف تريد البرلمان على أن يكون الخاضع وهو الحاكم وكيف تريد أن ينسى الأمة ليذكر الجامعة وكيف تتقدم له « بسنة تجربة » ثم تقول إقرار القانون واثبات الشخصية وتقويتها وتوسيع دائرة مظاهرها ونريد نحن أن نفهم كيف يكون التوسيع فى دائرة مظاهر دروس الأدب ؟ أيأمر البرلمان بحرق المصاحف توسيعاً لمظهر الدائرة التى تدور على أن القرآن كتاب موضوع دخلته الخرافات العربية كما تعلّمون فى الجامعة ؟ حدثنى عنك يا سيدى المدير ألا تعلم وأنت مدير الجامعة ان طه حسين أعلم الطلبة بعد أن احتج العلماء وثار الرأى العام وكادت تقع الفتنة أن دروس الأدب فى السنة الآتية ستكون في «مناقشة القرآن من الوجهة الأدبية » أمثل طه يناقش القرآن الا فى مثل هذه الجامعة الممقوتة التى تتقدم الى البرلمان فى سلاسلها وأغلالها من غضب الله والأمة وصالح المؤمنين ثم تفرض عليه اثبات الشخصية وتوسيع دائرة المظاهر ؟

وحدثني عنك ياسيدى المدير الم تكن تعرف المسيو كازانوفا الذى جئتم به للجامعة وما علمتم أن الله سيبُطله[1] لأنه تعالى أرحم من ان يجمع على أبناء هذه الأمة المسكينة كازانوفا وتلميذه طه حسين فى مدرسة

(١) هلك هذا المستشرق في مصر وكانت نادبته الاستاذ طه حسين

واحدة ؛ ألم تكن تعلم أنه صاحب كتاب « محمد وانتهاء العالم » الذى يقرر فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحداً بعده إذ كان لا يعتقد انه سيموت ... بل يرى ان الساعة قائمة فى عهده ، فلما مات كان موته تكذيباً صريحاً لأصل عقيدته فاضطر أبو بكر الصدّيق أن يكذب ويزيد في القرآن آيتين إحداهما « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » والأخرى « إنك ميت وإنهم ميتون » ويقول بعد ذلك هذه كذبة حلال نحن مدينون لها بقرآن أبي بكر ...

غطّ يا سيدى على الناحيــة الحية من الجامعة فقد غطى القبر على الناحية الميتة منها ولقد اكثرتم الرماد فاذا أثارته الريح فلا تلوموها ولوموا أنفسكم

ولنأخذ الآن فى كتاب طه فقد وقعت فيه جهلة لم نر مثلها لأحد إلا بعض المستشرقين وهى تأويل سيرة امرئ القيس وإثبات الشيخ بالبحث الفنى ... أن هذه القصة مكذوبة،ولقد رأينا فى تاريخ الأدب قصة أخرى : أراد العلامة ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة أن يقول إنها موضوعة وبحث فى ذلك بوسائل فنية فنريد أن نعرض عليك البحثين لتقابل بين هــذا وذاك ولتعلم الجامعة فى أي منزلة من السخف تنزل دروسها ..

قالوا إنه لما نشأت فتنة الخلافة أبى علي أن يبايع لأبي بكر فبعث الصديق لأبي عبيدة وأنفذه إلى علي برسالة يؤديها وحمله عمر كلاماً آخر فأدى ذلك إلى علي فرد عليه السلام بكلام يعتذر فيه ثم غدا فبايع وتركه

أبو بكر مع عمر فتناقلا كلاماً بليغاً والقصة طويلة يتراد فيهاهؤلاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعلي كلاما من النمط العالي فرواه ابن أبى الحديد ثم قال : قلت الذى يغلب على ظنى أن هذه المراسلات والمحاورات وهذا الكلام كله مصنوع موضوع وأنه من كلام أبي حيان التوحيدى لأنه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبه وقد حفظنا كلام عمر ورسائله وكلام أبى بكر وخطبه فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ولا يسلكان هذا السبيل فى كلامهما وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى ؛ وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين

ومن تأمل كلام أبى حيان عرف أن هذا الكلام من ذلك المعدن خرج ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضى أبى حامد المروروزى وهذه عادته فى كتاب البصائر يسند إلى أبى حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه

ومما يوضح لك أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والامامية لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية ولقد كان الرضي رحمه الله يلتقط من كلام أمير المؤمنين رضى الله عنه اللفظة الشاذة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتقد عليها نحو قوله وقوله وقوله (١) وكان الرضي إذا ظفر بكلمة من هذه فكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه فأين كان

(١) الاختصار منا

الرضي عن هذا الحديث وهلاَّ ذكر فى كتاب الشافى فى الإمامية كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا وكذلك من جاء من الإمامية كابن النعمان وبنى نوبخت وبنى بُوَيْه وغيرهم وكذلك من جاء بعده من متأخرى متكلمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا (وسط القرن السابع) وهلا ذكره قاضى القضاة فى المغنى مع احتوائه على ما جرى بينهم حتى إنه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير فى أخبار السقيفة وهلا ذكره من كان قبل قاضى القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومن جاء بعده من متكلمينا ورجالنا . وكذلك القول فى متكلمى الأشعرية وأصحاب الحديث كابن الباقلانى وغيره وكان ابن الباقلانى شديداً على الشيعة عظيم العصبية على أمير المؤمنين رضى الله عنه فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هِجِّيرَاهُ ودأبه .

والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ومعرفة كلام الرجال ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السيَر وأقل أنس بالتواريخ . انتهى

فتأمل كيف يكون بحث المطلع المستوعب للمادة التى يتكلم فيها حتى لا يفوته كتاب من الكتب ولا كلام عالم من العلماء وحتى لا يحكم الا بعلم ولا يحكي الا عن مقنع ثم قابل هذا ببحث أستاذ الجامعة وركا كته قال فى صفحة ١٣٤

وهنا يحسن أن نلاحظ أن الكثرة من هذه الأساطير والأحاديث

لم تشع بين الناس الا فى عصر متأخر وفى عصر الرواة المدونين والقصاصين . فأكبر الظن انها نشأت فى هذا العصر ولم تورث من العصر الجاهلى وأكبر الظن أن الذى أنشأ هذه القصة ونماها انما هو ذلك المكان الذى احتلته قبيلة كندة فى الحياة الاسلامية الى أواخر القرن الاول للهجرة

فنحن نعلم أن وفداً من كندة وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه الأشعث بن قيس . . وأن الاشعث (بعد الردة) تاب وأناب وأصهر إلى أبى بكر فتزوج أخته أم فروة . . وشهد مواقع المسلمين فى حرب الفرس وتولى عملا لعثمان وظاهر عليا على معاوية وأكره عليا على قبول التحكيم فى صفين . ونحن نعلم أن ابنه محمد بن الاشعث كان سيداً من سادات الكوفة عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدي الكندى . ونحن نعلم أن قصة حجر بن عدى هذا وقتل معاوية إياه فى نفر من أصحابه قد تركت فى نفوس المسلمين عامة واليمنيين خاصة أثراً قويا عميقا مثّل هذا الرجل فى صورة الشهيد . ثم نحن نعلم أن حفيد الاشعث بن قيس وهو عبد الرحمن بن محمد قد ثار بالحجاج وخلع عبد الملك . . ثم انهزم فلجأ الى ملك الترك ثم أعاد الكرة فتنقل فى مدن فارس ثم استيأس فعاد الى ملك الترك ثم غدر به هذا الملك فأسامه الى عامل الحجاج ثم قتل نفسه فى طريقه الى العراق . . أتظن أن أسرة كهذه الأسرة الكندية تنزل هذه المنزلة فى الحياة الاسلامية لا تصطنع القصص ولا تؤجر القصاص لينشروا لها الدعوة ويذيعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها ويبعد صوتها ؟ بلى وتحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن

ابن الاشعث اتخذ القصاص وأجرهم . . . وكان له قاص يقال له عمرو بن ذر وقصة امرىء القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن ابن الاشعث فهى تمثل لنا امرأ القيس مطالبا بثأر أبيه وهل ثار عبد الرحمن عند الذين يفقهون التاريخ الا منتقما لحجر بن عدى . وهى تمثل لنا امرأ القيس طامعا فى الملك وقد كان عبد الرحمن بن الاشعث يرى أنه ليس أقل من بنى أمية استئهالا للملك الذى كان يطالب به . وهي تمثل لنا امرأ القيس متنقلا فى قبائل العرب وكان عبد الرحمن متنقلا فى مدن فارس والعراق . وهى تمثل امرأ القيس لاجئا إلى قيصر مستغيثا به وقد كان عبد الرحمن لاجئا إلى ملك الترك مستعينا به . وهى تمثل لنا أخيراً امرأ القيس وقد غدر به قيصر بعد أن كاد له أسدي فى القصر . وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد له رسل الحجاج . وهى تمثل لنا بعد هذا وذاك امرأ القيس وقدمات فى طريقه عائداً من بلاد الروم وقد مات عبد الرحمن فى طريقه عائداً من بلاد الترك . (قال الشيخ العلامة الطاهوى الحسينى . . .)

أليس من اليسير أن نفرض بل أن نرجح أن حياة امرىء القيس التى قد تحدث بها الرواة ليست الا لونا من التمثيل لحياة عبد الرحمن استحدثه القصاص ارضاء لهوى الشعوب اليمنية فى العراق واستعاروا له باسم الملك الضلّيل [1] اتقاء لعمال بني أمية من ناحية واستغلالا لطائفة

(١) لقب لامرىء القيس اول من لقبه به امير المؤمنين على بن ابى طالب ومعناه الكثير الضلال لما يعلن به في شعره من الفسق

يسيرة من الاخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضئيل من جهة أخرى ؟

انتهى كلامه بنصه

وكل ما مر بك من تاريخ فهو من تاريخ الطبرى ليس فيه لطه إلا التحريف أو التخريف فاين تقف من مثل ذلك على بحث أو اطلاع ؟ وقد جهل الشيخ أن التاريخ كله حوادث متشابهة ؟ إذ تنشأ فى الاصل من طباع متقاربة محدودة فى آثارها فتتشابه هذه الحوادث كما يتشابه الناس .

وسنقفك على ما فى كلام الشيخ من الكذب والخلط . فالأشعث بن قيس لم يكره علياً على قبول التحكيم وإن كان قد تكلم فى ذلك انما اكرهه القراء الذين كانوا معه حين انخدعوا برفع المصاحف من جيش معاوية ؛ وزياد ابن أبى سفيان لم يعتمد على محمد بن الأشعث فى أخذ حجر بن عدى بل قال لمحمد والله لتأتينى بحجر أولا أدع لك نخلة إلا قطعتها ولا داراً إلا هدمتها ثم لا تسلم منى حتى أقطعك إرباً إرباً [1] ثم أمهله ثلاثا وأرسله إلى السجن فخرج محمد منتقع اللون يتلّ تلا عنيفاً [2] أفمثل هذا يقال فيه « عليه وحده اعتمد زياد » أم هى سنة العرب فى أخذ سيد بسيد والاستقادة من رجل برجل واستفزاز الحمية والاباء فى نفس من يفوتهم هربا لكيلا يظلم فيه غيره فاذا عرف من أخذ به أسلم نفسه ؟ والمضحك أن الشيخ يقول إن زيادا اعتمد على محمد بن الاشعث فى أخذ حجر بن عدى ثم يقول بعد ذلك . هل ثار عبد الرحمن بن محمد عند من

(١) اى عضوا عضوا (٢) يسحب من عنقه

يفقهون التاريخ الا منتقما لحجر ؟ . أفليس الأقرب أن ينتقم لاهانة أبيه ؟
ثم يقول إن قتل حجر مثله فى صورة الشهيد فمن هو الشهيد إذن ان لم يكن مثل حجر ؟ ولكن الشيخ فهم ذلك من قول الطبرى : إن حجراً قال لمن حضره من أهله لا تطلقوا عنى حديداً ولا تغسلوا عنى دما فانى ألاقى معاوية غداً على الجادّة . ثم قدم فضرب عنقه ، قال هشام كان محمد بن سيرين اذا سئل عن الشهيد يغسل ؟ حدثهم حديث حجر . فأنت ترى أنهم يسألون ابن سيرين هل يغسل الشهيد كما يغسل الميت فيحدثهم حديث حجر يعنى أنه لا يغسل بل يدفن بثيابه ؛ ولكن الشيخ فهم أن السؤال وجوابه تصوير لحجر عند المسلمين فى صورة الشهيد . . . .

ثم يقول إن أسرة هذا شأنها تتخذ القصاص لينشروا لها الدعوة فان كان هذا فكيف أمن الحجاج عبد الرحمن بن الاشعث فأرسله قائداً على أربعين ألفاً لمحاربة الترك : وكيف يمكن أن يقع هذا من مثل الحجاج اذا كان قصاص هـذه الاسرة ينشرون لها الدعوة ؟ ألا يدل صنيع ذلك الطاغية الحجاج على أن أولئك القصاص لم يكونوا قد خلقوا بعد إذ لم يخلقوا إلا فى سنتنا هذه فى رأس شيخنا هذا ؟ قال العلامة الطاهوي . وتحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن اتخذ القصاص وكان له قاص اسمه عمرو بن ذر ، فسلوه من أين جاء بهذا ومن الذى حدثه به من الرواة ، إنه رأى في الطبرى هذه العبارة — قال أبو مخنف حدثنى عمرو بن ذر القاص أن أباه كان معه هنالك (فى بلاد الترك) وأن ابن محمد (عبد الرحمن) كان ضربه وحبسه لانقطاعه إلى أخيه القاسم فلما كان من أمره الذى

كان من الخلاف (أى الانتقاض على الحجاج وخلع عبد الملك) دعاه فحمله وكساه وأعطاه فأقبل فيمن أقبل وكان قاصاً خطيباً » اهـ

فالعبارة صريحة فى أن عمرا هذا كان قاصاً وأن أباه كان قاصا خطيبا وأنهما كانا فى بلاد الترك يقاتلان كما يقاتل قراء المصرين البصرة والكوفة لأن هذا هو الجهاد فى سبيل الله حتى إن أقوى كتائب عبد الرحمن كانت كتيبة كل جندها من القراء العلماء ، وإن عبد الرحمن كان ضرب ذراً وحبسه لانقطاعه إلى أخيه القاسم فلما احتاج إلى المقاتلة دعاه فحمله يعنى فأركبه وجعله من فرسانه لا من قصاصه ، فمن أين يؤخذ ان عمر بن ذر أوذرا أبا عمرو كان قاصا لابن الأشعث اتخذه وأجره ليصنع له ولأسرته الأخبار كقصة امرىء القيس وبخاصة إذا علمنا أن الأب منهما ضرب وحبس

وليس ينتهى عجبنا من الخلط فى التمثيل والمقابلة بين سيرة ابن الأشعث وسيرة امرئ القيس فابن الاشعث ليس بشاعر ولا ابن ملك ولا قتل أبوه فخرج يطلب الثأر كامرىء القيس ، وابن الاشعث لم يكن فى سيرته صعلوكا ، ولا متعهراً . ولا متفحشا كصاحبه فاذا قابله القصاص برجل فلن يكون هذا الرجل امرأ القيس فى تبطله وانقطاعه لصعاليك العرب وذؤبانها وفى الخمر والنساء والفحش ونحوها وابن الاشعث إن كان قد طلب الملك ، فما طلب امرؤ القيس إلا ثأر أبيه ولهذا قال حملنى دمه ولم يقل حملنى ملكه . وابن الاشعث لم يلجأ إلى ملك الترك مستعينا بل منهزما لانه كان صالحه على أن يكف عنه ثم يفرغ للحجاج فإن ظهر

أعني ملك الترك من الخراج ما بقي وإن انهزم فأراده وجب على الملك أن يلجئه عنده وقد وفى الملك بذمته وعهده ، وابن الاشعث لم يكد له رسل الحجاج عند ملك الترك وإنما هددوه ليسلمه فأسلمه صاغراً واشترط على الحجاج شروطا قبلها منه . وفى بعض الروايات إن ابن الاشعث مات بالسل وجاء الملك فاحتز رأسه وأرسله إلى الحجاج ، وابن الأشعث لم يتنقل فى مدن فارس والعراق مستنصراً مُسْتَجِيشاً كما فعل امرؤ القيس فى قبائل العرب بل كان محارباً يرحل بالجيش وينزل بالجيش . وامرؤ القيس كان سبب هلاكه أنه فتن بنت قيصر بجماله وغزله أو على الأصح بمنظره العصبيّ أما عبد الرحمن فكان سبب هلاكه أحد اثنين : إما السل وإما رغبة ملك الترك أن يتخذ له يداً عند الحجاج . وإذا صحت رواية الموت بالسل وبرهانها قوي فلم يمت الرجل فى طريقه إلى بلاده ولم يقتل نفسه وإذا صح أنه مات فى طريقه فقد قالوا إنه وثب من فوق قصر وأين هذا من ميتة امرىء القيس فى حلة مسمومة نثرت لحمه نثرا ؟ وإذا أراد قصاص بنى الأشعث أن يكذبوا فيزيدوا قصة امرىء القيس فى مفاخر كندة فليس من الفخر أنهم جعلوه شاعراً طرده أبوه ثم يوصف بالتصعلك والعهر والفحش ثم يجعلونه عاجزاً ضائعاً فى القبائل لا يأخذ بثأر أبيه ثم يلجئونه إلى قيصر فيكون هناك فاحشاً ويُقتل بفحشه وليس فى السب عندهم أشنع من هذا ونحوه وهو كما ترى أعجز العجز لا يوافق أهواء شعب عربى ولا عاداته.

وكيف يخاف القصاص عمال بنى أمية فيضطرهم هذا الخوف أن يكنوا عن ابن الاشعث بامرىء القيس وأن يلفقوا هذا التلفيق البعيد

ويضعوا له هذه القصة المخزية — وهم يرون المؤرخين وأصحاب الأخبار يذكرون خبر ابن الاشعث ويدونون حروبه ويقصونها ويسندونها بالأسانيد . وهل كانت دولة بنى أمية من الضعف بالمنزلة التى تخاف فيها ابن الاشعث ميتا وهى التى كسرته حياً ثائراً فى مائة ألف مقاتل ؟ ولو قد خاف القصاص عمال بنى أمية لخافوهم فى الحسين بن علي أو فى عبد الله ابن الزبير وكانا يطلبان الخلافة بحقها . ولو قد خافوهم لخافهم الشعبي وهو قاص محدّث وكان يقاتل مع ابن الاشعث ثم لقى الحجاج من بعد . ثم دخل على عبد الملك قال : فذهبت لأصنع معاذير لما كان من خلافي مع ابن الاشعث على الحجاج فقال عبد الملك مه إنا لانحتاج إلى هذا المنطق ولا تراه منا فى قول ولا فعل حتى تفارقنا . . . .

أينما يذهب طه حسين فى تأويله فهو لايرى إلا ما يهدم عليه رأيه ولكن أنّى لمثله أن يذكر الهدم وفى رأسه مثل هذا الفهم الخراب



قال دمنة . . . .

يكتب إلي بعض الافاضل من العلماء والكتاب يسألون عن نسختي من (كليلة ودمنة) ويطلبون إلي أن لا أكتمها عنهم ولا أستبد بها من دونهم وأن أفضي إليهم في كل مقالة بمثل منها . ويقولون هذا هو الجديد في الادب العربي لا ما يعللوننا به من فصول مترجمة ومقالات مسروقة وآراء منتحلة ولا ما يكتب أشباه السوقة والعامة في اللغة والتعبير والحكاية . وقال أديب فاضل إنه سيدل وزارة المعارف على هذه النسخة لتنتزعها مني ولو بمثاقلتها ذهبا فإنه زعم لايجوز أن يبقى هذا الكنز (لتوت عنخ الرافعي) . . . وقد ملكت الامة كنز توت عنخ آمون .

وكتبت إلي سيدة معلمة تقول إن مثل الفيلسوفة الامريكية الصلعاء قرىء في جماعة من السيدات فكان رأيهن أن عشر قصص على هذه الطريقة تفيد في نشر العربية الفصحى وتحبيبها إلى النفوس وإعادتها بعد شتات أمرها مالا تفيد عشر مدارس منها الجامعة المصرية ..وبعد فاني أستغفر الله وأقول إن كان هكذا فانه لخير كان أصله من شر . ولكن يا سبحان الله ما لهذه الجامعة كأنها في سلاسلَ وأغلال ربضت بها إلى الارض وأعجزتها وحزَّت فيها وأكلت من جلدها ؟ ألا تعلم أن باب الخطأ الذي دخلت منه يقابله باب التوبة وأن الطريق التي انحدرت فيها لم تخسف بها فما جاءت فيه رجعت منه وما قطعته إلى الكفر تقطعه إلى الايمان ؟ بلى

ولكنهم يقولون إن الاستاذ الفاضل مدير هـذه الجامعة يذهب بنفسه بعيداً بعيداً ويجوز بها فوق مبلغها فكأنه ليس مديراً للجامعة بل هو مالكها المنفق عليها من ذات يده فلا يسأل عما يفعل ساءت ملكته أم حسنت ؛ ويقولون فما إبراهيم وإسماعيل والكعبة والقرآن والتوراة والأدب والتاريخ وهذه الجامعة لوشاءت أن تزعم أن الهرم الأكبر مبني باللَّبِن (١) لَوسِعَهاذلك وجعلته تاريخاً مع وجود الهرم نفسه قائما من الصخر؛ لوسعها ثم انه ليس لأحد أن يكرهها على أن تتكلم اذا أرادت السكوت لانها مستقلة ولانها تبحث بعقول أهلها وعلى قدر هذه العقول فى أهلها فان كان ثم تبعة من التبعات فعلى قوم غشوا الأمة فى اختيار هذه العقول وظنوا أن نقش كلمة الجامعة فى صفيحة من النحاس ثم وضع الصفيحة على باب دار يجعل الدار جامعة ؛ ثم جروا هذا المجرى فى الأساتذة فرجعت الأشياء بعد الى طبائعها لانها لا تكذب ولا تغش فوقعت الفوضى والاختلال وظهر الجهل والخطأ وجاء درس الأدب وهو درس الكفر والتخليط والتزوير والتكبير والمنكر ؛ وسموا طه حسين أستاذاً فى الجامعة وأظهرته الجامعة محرراً فى السياسة على بذاءته ومساخته وفساد باطنه كما كان فى عهده إذ يسب دولة سعد باشا زغلول كل يوم بمقالة وقس على طه من طرفيه الى أعلى وإلى أسفل . . .

قال دمنة : وكانت هذه الجامعة فى إنشائها كالحلم نقل من نوم إلى

---

(١) اللبن بكسر الباء الطوب النيء

يقظة فى طرفة العين فرأى الحالم الماهر . . : [1] أن بحراً من البحار قد نفض قاعه نفضة قذفت الى الهواء أثمن لؤلؤة فيه ثم اجتمع الهواء فرمى فى يده اللؤلؤة فانتبه فاذا يده مقبوضة فقال لمن حوله ألا ترون أطبقوا أيديكم فلما فعلوا قال الآن فى يد كل منكم لؤلؤة ثمنها مائة ألف . والآن أصبحتم من سروات الدنيا ولها ميم العالم وإن بلاداً أنتم من أهلها لجمجمة الأرض . الآن والآن ومضى يَعِدُهم ويمنّيهم ويقول ها إن فى هذا لكم الغنى والمجد والسؤدد

ثم حلم الحالم الماهر . . . أن فى جمع مدرسة إلى مدرسة ما يبدع جامعة فقال ها إن فى هذا لكم العلم الأعلى . والآن هذا مدير الجامعة وذاك أستاذ كذا . وذلك أستاذ كيت ، وهذا وذاك وذلك يجتمع منهم هؤلاء فاجتمعوا فكان ماذا ؟ قال كليلة فكان ماذا ؟ قال دمنة كان منهم كالدار التى ظن بانيها انها تلد . . . قال كليلة وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة زعموا أنه كان بمدينة كذا رجل عقيم وكانت به لوثة [2] فقال إنى لم أرزق ولداً وما أرى من دار الا وفيها أولاد فلو قد بنيت داراً لرجوت من العقِب ما يرجو الناس ؛ وقام ذلك بنفسه ورسخ فى يقينه وخيل اليه من ظاهره باطن فجاء بالعمال والبنائين وقال ابنوا ههنا ووسعوا وأكثروا

(١) اشارة الى الاستاذ الجليل على ماهر باشا وزير المعارف كان وهو الذى اخرج الجامعة وكان مخدوعا فى طه حسين وتعتقد انه لو بقى وزيرا لا نصف لانه عالم ذكى . على ان عمله فى انشاء هذه الجامعة كان كالذى يصنع طائرا من الطين فبعد ان يفرغ منه ويضعه على الأرض يرمى بعينيه الى الجو لينظر اين بلغ الطائر فى طيرانه . . . .

(٢) اللوثة بالفتح الحماقة وبالضم الاسترخاء والحبسة فى اللسان

الغُرُفات فانهم عشرة غلمان وخمس بنات فذلك خمس عشرة غرفة ثم لي وللعجوز غرفتان فقال رئيس البنائين ومن أين الغلمان والبنات وأنت شيخ عقيم وانما حاجة مثلك إلى الكنّ الدافىء والبيت الضيق يلمك وامرأتك ويمسك عظامكما أن تتبعثر فى الدار الواسعة ، قال صاحب الدار ياسبحان الله ما تصنع الغرارة [1] وقلة المعرفة بأهلها ؛ أيها النَسل أو ما علمت أن كل غرفة تبنى لولد وتهيأ له وتسمى باسمه وتحبس عليه فان القدرة توحي اليها أن تصبر « سنة تجربة » فان لم تلده أمه بعد السنة أوحت اليها القدرة أن تلده هى فيصبح الشيخ مثلى واذا ولده خمسة عشر مما تلد الدار . . . .

قال كليلة فقد زعمت يادمنة أن هذه الجامعة الخرقاء كانت مستقلة ففسر لي استقلالها ما هو . أكان أساتذتها يأكلون كتباً ويشربون حبراً ويلبسون جدراناً وأبواباً ؟ قال دمنة مثَلها في ذلك مثل الخطيب الزنديق الأحمق الذى زعموا أنه كان يُبطن الكفر ويظهر الاسلام فتعالم الناسُ ذلك منه فَوسِعُوه إشفاقاً عليه ونظراً له ؛ ثم أفشى طرفا منه في بعض حديثه فقالوا إن الملة سَمْحة وللتأويل أبواب ولكل قول وجوه ومعانٍ فان لم يكن في القول الا جزء واحد من الايمان وكان فيه تسعة وتسعون من الكفر وجب حمله على الواحد دون التسعة والتسعين ؛ ثم غره ذلك منهم وحسبه ضعفاً ومَعْجَزَة فتقحّم في كفره وسولت له نفسه أنه فوق الناس فهو مستقل وهم التابعون وهو الحر وهم العبيد . وقال إنه لن

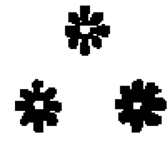
(١) الجهل بالامور والغفلة عن حقائقها

يكون الكفر في مثل هؤلاء الجامدين كفراً الا في المسجد « الجامع » وعلى المنبر وفي يوم الجمعة . فليهمس هامسُهم ولينطق ناطقُهم وسأرى ما يكون من تِلْقَائهم فإني لخطيبُ صلاتهم ولكني مستقل أفكر برأسي لا برؤوسهم وإني لأرتزق منهم ولكني مستقل آكل ببطني لا ببطونهم.. واذا قالوا كَفَر فانما هذا ايماني . واذا قلت آمنوا فانما ذلك كفرهم ولهم علي كلام يسمعونه والكلام فنون وأجناس فلي أن أقول ما هَجَسَ في قلبي أخطأت أو أصبت وغيرت أو بدلت ورضُوه أو كرهوه ، وعليهم لي أجر يدفعونه لم يكن يوماً ولا يكون ولن يكون الا من جنس واحد ذهباً خالصاً صحيحاً يرنّ رنيناً صافياً لا أقبل فيه زائفاً ولا ناقصاً ولا مغيَّراً ولا مبدلاً ثم لا أرضى فيه برأيي دون رأي الصيرفيّ الحاذق البصير . فكثير غشي إياهم ليس بغش وأنا بعدُ في عافية وأنا مستقل وأنا مختار وأنا أفكر فانا موجود ....، وإن أهون الغش منهم ولو فى درهم وما دون الدرهم لهو الغش المفضوح والخيانة الآثيمة والجناية الموبِقَة ولن يُفْلِتَهم القانون ولا الشرع ولا العُرف وهم مأخوذون به فمعاقَبون عليه . قال دمنة : فلما كانت الجمعة والتقى الناس لأداء المكتوبة جاء الخطيب ...

قلت وبقية هذه الصحيفة مقطوعة من النسخة التى عندى فلعل في قراء الكوكب من عنده نسخة أخرى فليعارض عليها وليأتنا بباقى المثل (١).

---

(١) لم يستطع أحد اتمامه فأتممناه فى بعض ما سيأتى لعلة أوجبت ذلك



قرأت فى الأهرام مقالا لشيخنا وصديقنا نكتة الزمان وعلاّمة وادي النيل أحمد زكى باشا قال فيه : من بواعث الاسى فى نفسى ودواعي الأسف فى قلبي أن بعض أنصاف العلماء فى مصر وسوريا . وأن بعض أشباه المتعالمين وأشباح الأشياخ فى هذين القطرين الشقيقين قد أصابهم التفرنج بداء الحذلقة والتشكك فصاروا لا يرون لأجدادهم فضلا ولا يعرفون لهم مبرة ولا يذكرون عنهم مفخرة بل صار أولاد الحـ...لال هؤلاء يطأطئون رؤوسهم أمام كل إفرنجي ويخرون ساجدين لكل وارد عليهم من بلاد الإفرنج أو باسم الإفرنج حتى لقد أصبحوا وهم يرون العلم كل العلم ما جاءهم ولو بطريق التحريف أو على سبيل التخريف عن المستشرق فلان أو المسيو علاّن . . . ؟ والا فالحجة الناطقة هي ما صدر عن شفاه السنيور هيّان بن بيّان أو عن « الهرجرمان ابن ألمان » انتهى . فأولاد الحـ...لال هؤلاء على مواطأة من بعضهم لبعض لا يرضيهم من الرضا الا أن ينسى الشرقيون آباءهم وأجدادهم ويصبحوا بَدَداً متناثرين ؛ وهم لا يعلمون أنه ما من رجل هو رجل حر يسره أن له باسم أبيه أو جده الشرقى اسمَ أحد من الافرنج ولو كان اسم دولة من الدول العظمى ؛ ولئن كانت الجامعة قائمة منهم على دعائم انسانية تعمل فى إضعاف الجنسية وإشراب الناس فى قلوبهم ما تمجه العقيدة والفضيلة — فانها لحقوقة بتركها واطّراحها وتحذير الناس منها . فلينظر نواب الأمة أين يضعون

أيديهم من هذا الفساد لاصلاحه وليبدؤا بهذا العنصر السام المسمى فى كيمياء التعليم « بالطاهوية »

وبعد : فلنتمم كلامنا على ما سماه أستاذ الجامعة « البحث الفنى » قال فى صفحة ١٤٤ ولننظر فى المعلقة نفسها (معلقة امرىء القيس) .. ولكنا نلاحظ أن القدماء أنفسهم يشكُّون فى بعض هذه القصيدة فهم يشكون فى صحة هذين البيتين : ترى بعر الآرام فى عرصاتها . . . وهم يشكون فى هذه الأبيات :

وقربةِ أقوام حملت عصامها . . . الأبيات الأربعة ثم يقول ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين قلقان فى القصيدة وهما :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولَه   علىّ بانواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازاً وناء بكَلْكَلِ

فقد وضع هذان البيتان للدخول على البيت الذى يليهما وهو

ألا أيها الليل الطويل الا انجلى   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

قلنا وعلى هذا فالقدماء شكوا فى اثنتين واستخرج الشيخ الثالثة بفكره الثاقب ومعرفته بالشعر كنه المعرفة . . . ونحن كنا نرفعه عن مثل هذا التدليس والتمويه فقد جاءت الرواية بانه يقال إن هذين البيتين المضروبين مثلا فى الاستعارة مما وضع خلف الأحمر على امرىء القيس كما وضع من مثل ذلك على غيره ولم يجزموا أن خلفا صنعهما . بل جاءت الرواية بصيغة التمريض (يقال) ولو جاز لنا نحن أن نقول فى ذلك لقلنا إن البيتين من شعر امرىء القيس . وانما نسبوهما الى خلف على الظن

إذ كانوا يذهبون الى انه وضع على كل شاعر فحل ما يجوز فى شعره ولا يتميز منه مبالغة منهم فى علمه بالشعر ونفاذه فيه وأنه من ثقافته وصناعته ؛ فاذا أرادوا أن ينسبوا اليه شيئاً من قول شاعر بعينه عمدوا الى الاختيار من أحسن ما يقول هذا الشاعر لان صنعة خلف انما كذلك تأتى

ويقول الشيخ فى صفحة ١٤٩ : ولنسرع الى القول بان وصف اللهو مع العذارى وما فيه من فحش أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهليا فالرواة يحدثوننا أن الفرزدق (تنبه فان النص مترجم...) خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة فاتبع آثاراً حتى انتهى الى غدير واذا فيه نساء يستحممن (يريد يستنقعن) فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل (ليس كذا قال وانما هو لم أر كاليوم قط ولا يوم دارة جلجل) وولى منصرفا فصاح النساء به ياصاحب البغلة فعاد اليهن فسألنه وعزمن عليه ليحدثهن بحديث دارة جلجل فقص عليهن قصة امرىء القيس وأنشدهن قوله

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

قال الشيخ : والذين يقرأون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته وأنه قد ليم على هذا الفحش وهذه الغلظة لايجدون مشقة فى أن يضيفوا اليه هذه الابيات فهى بشعره أشبه انتهى . قلنا ولكن الأستاذ قد كذب وزاد فى النص فان الرواية فى الاغانى فى أخبار الفرزدق وليس فيها أن الفرزدق أنشدهن الابيات فكيف تكون من شعره ؟ وعلى قياس طه فكل شاعر من شعراء الهجاء يمكن أن يلحق بشعره كل قول

فيه هجاء وسب وإقذاع ويقال إنه بشعره أشبه فيكون هـذا هو البرهان . . . . وكل متغزل يضاف اليه شعر كل متغزل لأن طباعهما متشابهة وما يقوله هـذا يقول هذا مثله ؟ على أنه ماوصف أغلب على امرئ القيس من أنه غوي عاهر متفحش وهو يجري فى شعره من ذلك على خلق وطبيعة وله جرأة عليه تشعرك أنه ابن ملك يرى لنفسه كلمة فوق كلام الناس فكلامه إنما يشاكل نفسه وفحشه انما يأتيه من قبل الغزل والنسيب لا كفحش الفرزدق فذاك من قبل الهجو واللؤم

والفرزدق لا يعد من شعراء الغزل وقد كان أهل الحجاز يقدمون جميلا عليه وعلى جرير معا لموضع جميل من النسيب وقلة غنائهما فيه وكانا يعلمان ذلك من نفسيهما ولا يريان الشعر إلا في بابهما من الفخر والهجاء، فروى أبو الزناد عن أبيه قال : قال لى جرير يا أبا عبد الرحمن أنا أشعر أم هذا الخبيث يعنى الفرزدق وناشدنى لأخبرنه فقلت لا والله ما يشاركك ولا يتعلق بك في النسيب . قال أوه قضيت والله له علي . أنا والله أخبرك ما دهاني الا اني هاجيت كذا وكذا شاعراً وانه تفرد لي وحده .

أما حديث الفرزدق الذى استدل به طه فهو عندنا موضوع لان الفرزدق فضح فيه نفسه وترك النساء يسخرن منه ويضربن وجهه بالطين والحمأة ويملأن منهما عينيه وثيابه ويتماجن به ويتركنه سطيحاً على الارض بأسوأ حال وأخزاها وما نحسب مثل الفرزدق يروي ذلك عن نفسه أو يرضاه له وهو من هو فى الفخر وانما تلك أقاصيص توضع للنادرة

والتظرف والسخرية . وهب الخبر صحيحاً او هبه مكذوبا فعلى أيهما فان الفرزدق لم يذكر شعر امرىء القيس فلا معنى لان يكون قد وضع الشعر بعد . وكيف يضع الفرزدق على امرىء القيس وهو يذكره في شعره ويقدمه ويعده أحد النوابغ الذين وهبوه الشعر ؟[1]

ثم يقول طه : أما وصف امرىء القيس لخليلته وزيارته إياها وتجشمه ما تجشم للوصول اليها وتخوفها الفضيحة حين رأته وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من لهو فهو أشبه بشعر عمر بن أبي ربيعة منه باي شيء آخر . فهذا النحو من القصص الغرامي في الشعر فن ابن أبي ربيعة قد احتكره احتكارا ولم ينازعه فيه أحد

ولقد يكون غريباً حقاً أن يسبق امرؤ القيس الى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الاسلوب ويعرف عنه هذا النحو ثم يأتي ابن أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد الى ان ابن أبي ربيعة قد تأثر بامرىء القيس مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرىء القيس في طائفة من الشعراء في أنحاء من الوصف فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشيء هذا الفن من الغزل الذي عاش عليه ابن أبي ربيعة والذي كون شخصية ابن أبي ربيعة الشعرية ولا يعرف له ذلك؟ .. ونحن نرجح أن هذا النوع من الغزل انما أضيف الى امرىء القيس أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الاسلاميين . (الفرزدق وابن أبي ربيعة) انتهى .

---

(١) اى من روايته شعره. وهذا نص قاطع من الفرزدق على ان شعر امرىء القيس كان مروياً في زمنه وكان هو يحفظه ويصحح نسبته اليه لأنه لو لم يكن عنده صحيحاً لما رواه ؛ وليس في الفضول بعد هذا اسمج ولا ابرد من كلام طه حسين

ونريد أن نسأل شيخ الجامعة عن قوله « ان النقاد قد أشاروا الى تأثير امرىء القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف . فان لم يكن هذا كذبا فمن هم هؤلاء النقاد ومن هم أولئك الشعراء وما هي تلك الانحاء من الوصف وأين وجد ذلك أفى كتاب كازانوفا أم كتاب كَذَبنوفا . . . ؟ هذه كلها من تُرّهات الشيخ ولا أصل لها وانما يأتفكها ليصل بعض الكلام ببعض فى نظم الدليل الذي يريده وهي طريقة المستشرقين . ولا قيمة لها فى التاريخ وقد نبهنا اليها مراراً . كل ما قاله النقاد : إن من يقدم امرأ القيس على الشعراء احتج له فقال ليس أنه قال ما لم يقولوا : ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها فاستحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء . منها استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ وتشبيه النساء بالظباء والبيض وتشبيه الخيل بالعقبان والعصيّ وأنه أول من قيّد الأوابد وأجاد فى التشبيه وفصل بين النسيب وبين المعنى

وبهذا تقدم الشعراء لانهم اتبعوه فيه ولم يتبع هو أحداً وفن ابن أبى ربيعة انما هو داخل فى رقة النسيب إذ النسيب جنس يشمل صفة النساء وحكاية أقوالهن والتسبب إلى مودتهن الخ . فاذا كان ابن أبى ربيعة قد استحسن أسلوباً من أساليب امرىء القيس فى النسيب فأكثر منه واستنفد فيه جانبا من شعره فليس معنى ذلك أنه اخترع الطريقة ولا احتكر الفن . ومن الثابت أنه لم يوضع شيء على الجاهلية بعد القرن الرابع فلو عملوا على طريقة ابن أبي ربيعة ونحلوه امرأ القيس لما فات

هذا مثل صاحب الأغانى وجعله كل الفخر لابن أبى ربيعة، والمعلقة كانت مدونة مروية فى أوائل القرن الثانى . أما إنهم لم يدلوا على أن ابن أبى ربيعة أخذ فنه من امرىء القيس فلأنهم لم يكونوا يرون ذلك فناً ولا طريقة إنما هو شعر كالشعر يعرف عندهم بمعانيه لا بأسلوبه القصصى ولم يسمه فناً إلا أستاذ الجامعة

وأنا أحسبنى شاعراً أجد الشعر فى طبعى وأفهمه وأنفذ فى أغراضه وأقوله وأحسن نقده وتمييزه ولا أظن أحداً يكابر فى هذا أو ينازعنى عليه . وإنى مع ذلك لا أرى أثقل ولا أبرد ولا أسمج من شعر ابن أبى ربيعة هذا حين يفضح النساء ويقول فى شعره قلت لها وقالت لي وكان منى كذا وكان منها كذا وما هو عندى بفن . بل خلق سافل وطبع غوي ونفس عاهرة بل هو فن هجو النساء إذ كان ابن أبى ربيعة لا يحسن مدح رجل ولا هجوه فسقط من هذه الناحية ليرتفع من الناحية التى تقابلها فى النساء فكأنه ارتفع بقوتين . ثم أراد الرجل أن يسير شعره فى الأفواه ولا أسير من أخبار النساء وأحاديثهن فهذا هذا .

وطريقته فى شعره إنما تحسن حين تتفق فى الأبيات القليلة والقصيدة المفردة وحين تجيء تظرفا وتماجناً وحين تخرج مخرج النادرة أو تبعث عليها الفتوة وميعة الشباب فى بعض الحب الشديد كما فعل امرؤ القيس : فأما أن يكون فيها أكثر شعره وعليها كل عمله وينقلب الرجل وكأنه ليس فى فمه إلا لسان امرأة فهذا مالا أراه فناً إلا أن يقال فن الرجل اللص وفن المرأة العاهرة كما يقال فن الشاعر وفن المصور مثلا

وقد نصوا على أن امرأ القيس هو الذى افتتح تلك المعاني التي أومأنا إليها وأن الشعراء اتبعوه فأين النص على أن ابن أبي ربيعة افتتح هذه الطريقة من قلت لها وقالت لي وكنتُ وكانت وفعلتُ وفعلتْ . ومن الذى اتبعه فى هذا الباب وأنفذ فيه أكثر شعره ؟ ولو أنهم كانوا يرونه مبتدعا لنصوا على ذلك كما نصوا على غيره . بل كان جرير يرى تلك الطريقة هـذيانا حتى استحكمت معانى ابن أبي ربيعة فرآه حينئذ قد قال الشعر

وإن هناك أصلا مقرراً فى الأدب العربى وذلك أن فحول الشعراء يسبقون إلى ابتداع المعانى والأساليب فيتبعهم فيها من بعدهم إذ لا يقول أحد شعرا ولا يكون شاعراً إلا عن رواية وحفظ . فقد يتفق المعنى لشاعر متقدم أو تستوي له الطريقة فى بعض الأساليب فيأتى بعده من يجد ذلك فى طبعه ويكون قد اعتاد منه فى أسباب عيشه ودهره ما لا يجرى به اعتبار شاعر آخر فيحتذي على حذو الأول ويتخذ كلامه أصلا يبنى عليه فيكثر من ذلك ويقلّبه على وجوهه حتى يميته ولا يدع فيه شيئا لغيره وليس ابن ابى ربيعة بدعا فى ذلك فان أبا نواس احتذى على الاعشى فى الخمر ولكنه أكثر فيها حتى عرفت به هذه الطريقة وحتى لم يكن يروى لغيره فيها معنى وهو حي . وهـذا البحترى رأى بعض شعراء المتقدمين يذكر طيف الحبيب وزيارته وقد قالوا إن أول من سبق إلى هذا المعنى جران العود فى قوله

سقياً لزورك من زور أتاك به ... حديث نفسك عنه وهو مشغول

ثم أخذه العباس بن الأحنف وأخذه أبو تمام فجاء البحترى فتعلق عليه وأكثر منه وجعل وصف الخيال طريقة من طرائقه فعرف بها.

وكيف وضع فن البديع لو لم يكن مسلم بن الوليد قد جرى على هذا الأصل فتتبع ما رآه فى شعر الشعراء من استعارة وتشبيه ومجاز ثم قصدها فى شعره وعمل على أن يتكلفها حتى نهج الطريقة لأبى تمام من بعده فجاء هذا واستنفد فيها شعره حتى عرف بها وعرفت به والأصل كما رأيت من أبيات متفرقة وكلمات مأثورة. أفإن رأينا استعارة أو مجازاً فى كلام جاهلي كامرئ القيس قلنا وضعها شاعر إسلامى متأثر بشعر مسلم ابن الوليد وأبى تمام لان هذا الفن احتكره أبو تمام احتكاراً؟

إن سيدنا ومولانا طه حسين فى يده ميزان دقيق اسمه ميزان القمحة وهو مع ذلك يزن به الجبال والمدن والأقطار وقد وزن قصر الزعفران أي الجامعة المصرية فقال إنه عشرون ألف طن ولما قيل له إن وزارة الأشغال لا تقول بهذا ولا يقرك عليه المهندسون وأنت لست مهندساً ولا وزارة أشغال قال كل أولئك من أنصار القديم لأنهم يتبعون علوماً قديمة يحتذى فيها بعضهم حذو بعض... وقد وزن امرأ القيس فى ميزان القمحة هذا فكان أقة واحدة إلا عشرة دراهم . . . فلو اجتمع الانس والجن على أن يثقلوا ميزان الشيخ ليزيدوا هذه الدراهم العشرة ويجعلوا امرأ القيس المسكين أقة كاملة لما استطاعوا إلا إذا كان فى قدرتهم أن يزيدوا عقل الشيخ لان التصحيح فى عقله تصحيح فى ميزانه . . .

وقال فى صفحة ١٤٠ يكذب رحلة امرىء القيس إلى قيصر وأن

شعره فى ذلك مصنوع : وإذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على انتحال هذا الشعر فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر ودخل معه الحمام وفتن ابنته ورأى مظاهر الحضارة اليونانية فى القسطنطينية ولم يظهر لذلك أثر فى شعره . لم يصف القصر ولم يذكره ولم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية . لم يصف الفتاة الأمبراطورية التى فتنها . لم يصف الروميات . لم يصف شيئاً ما يمكن أن يكون رومياً حقا . ومهما يكن من شىء فان السذاجة وحدها هى التى تعيننا على أن نتصور أن شاعراً عربيا قديماً قال هذا الشعر الذى يضاف إلى امرى القيس فى رحلته إلى بلاد الروم . انتهى

فياشيخ أما تعلم أن المتنبي فى الاسلام كامرئ القيس فى الجاهلية من أسباب الشعر ووسائله مالم يجتمع لذلك وأن المتنبي جاء إلى مصر وعاش فيها وخالط أهلها ؟ فقل لنا يا أستاذ الأدب . أين وصف الهرم فى شعر المتنبي أم تحسب أن الهرم كان يومئذ صغيراً ثم كبر . . . .

ومهما يكن من شىء فان السذاجة وحدها هى التى تعيننا أن نتصور أن شاعراً كالمتنبي يقيم فى مصر ولا يصف الهرم . ومع ذلك فقد أقام المتنبي فى مصر ولم يصف الهرم . إن انصار الجديد سيلقون مشقة وعسرا فى حل هذه المشكلة ولا بد من حل هذه المشكلة ...

لقد سئمنا من جهل طه وسخافة رأيه وخلطه بين طبائع الناس وخصائص الأزمنة فما زاد المتنبي على أن ذكر فى شعره لفظ (الهرمين)

كما ذكر امرؤ القيس لفظ (قيصر) فهذا من ذاك . والعجب أن الشيخ كثيراً ما يضع رأسه فى موضع ثم لا تكون الاوثبة فاذا رجلاه فى موضع رأسه قال فى صفحة ١٤٨ : ونحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيَّد الأَوابد وشبه الخيل بالعصي والعقبان وما إلى ذلك ولكنا نشك أعظم الشك أن يكون قد قال هذه الابيات التى يرويها الرواة . وهنا كما ترى عقل الشيخ ثم وثب إلى صفحة ١٥٥ فاذا هو يقول عن عمرو بن قميئة الشاعر : لم يعرف من أمره شيء إلا اسمه كما لم يعرف من أمر امرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسمها . وهنا كما ترى خذاء الشيخ فى مكان رأسه والا فهل كان اسم امرئ القيس هو الذى قيد الاوابد واخترع كل تلك المعانى

الحق أن طه حسين للادب العربي كالكسوف والخسوف . . .
يحجب حتى نور الشمس وحتى نور القمر



حرية التفكير أم حرية التكفير ...؟

مقالة مرفوعة إلى البرلمان المصرى

طلعت جريدة السياسة بحديث جديد للأستاذ الفاضل مدير الجامعة ينزع فيه إلى مذهبه فى حديثه الأول من الإملاء على البرلمان وإلقاء العصا الفلسفية . . . لا رغبةً فى أن تتحول ثعبانًا كما تحولت عصا موسى من قبل بل محامياً يسحر على أبصار النواب وأسماعهم بل منوّما ينقل إليهم الارادة وينصّها لهم نصاً بقوة المغناطيس . بل سحابة تتنزل عليهم بالملَك الموكل بالهداية « كما تقول السياسة » ، وإن عهد القراء بحديثه الأول لمنذ قريب

ولنبدأ بكلمات الاستاذ لأن المذهب الجديد يجعلها من الحروف التى لها الصدارة . قال وهو يعنى قانون الجامعة المطروح الآن بين أيدى النواب :« لست أعنى بذلك أن هذا القانون هو المثل الأعلى ولكنه عمل إنساني كبقية الأعمال يلحظ فيه التطور فى المستقبل متى وجد لذلك ضرورة : وعلى كل حال فان فى هذا القانون القاعدة الأساسية الكبرى لنظام التعليم العالى وهى قاعدة أن الجامعة يجب أن تكون لها شخصية معنوية لتستطيع أن تدير أحوالها بنفسها واستقلال يكفل لها حرية التفكير التى هى الأساس الاولي للتعليم العالى » إلى أن يقول :

ربما يرد على الخاطر أن الجامعة فى نشأتها محتاجة إلى وصاية الحكومة عن قرب وتدخلها فى كل شئونها إلى أن يشتد ساعدها وتستطيع الوقوف على قدمها اجتنابا لما عساه يقع من التخبط فى الجامعة عند بدايتها . ذلك التخبط الذى جرت العادة بأن يقترن دائماً أو غالباً بكل بداية وعلى ذلك يمكننا أن نختار ضرر التدخل باعتباره أخف من ضرر التخبط فى البداية : هذا اعتراض له حظه من الصواب لأول نظرة إذا كنت تسمى تدخل السياسة «كذا وهو يريد بالسياسة أينما وردت فى حديثه الحكومة» فى كل شئون الجامعة ضرراً فحسب ولكنه ليس ضرراً بل هو هدم للجامعة من أساسها وبهذا التدخل لا جامعة ولا حرية للتفكير . . . أترى لو أنك تفكر تحت وصاية الغير هل أنت تفكر ؟ فاذا تعلقت منازع التدريس وكيفياته وطرائق البحث بغير جماعة المدرسين كان ماترجوه البلاد من احتمال نصيبها من التقدم العلمى فى العالم خيالا فى خيال . اه

وظاهر من نص العبارة أن أخف الضررين عند الاستاذ ، هو « التخبط » أى فساد النظام وإضاعة الأموال ، وإزاغة العقائد وافساد العلم والتدليس على الناس الخ الخ وليت شعرى عنه ما الذى يضطر الأمة إلى كل هذا فى سبيل كلمة اسمها الجامعة ؟ إما مدرسة تتسامى إلى مقام الجامعات وإما لا . . . بيد أن جريدة السياسة نقلت تلك العبارة ، وجعلتها رأساً لجسم مقالة افتتاحية أو رئيسية كما يقولون جاء فيها عن الجامعة : وهذه ميزانيتها وهذا قانونها (زدأنت وهذه سمعتها وهذا عملها...)

سيعرض عما قريب على البرلمـان وسينظر البرلمان فى الأمر بغيـة الوصول الى تحقيق مجد العلم . ومجد مصر (زد أنت ومجد طه حسين .) وإنا لسعداء حقًّا أن هـذه الفرصة الحسنة لنشر حديث الأستاذ مدير الجامعة قبيل نظر الميزانية وقانون الجامعة (تأملوا) ونشر هذه الحكمة التى صدرنا بها حديث اليوم لتكون نبراساً وهادياً عند النظر فى هـذا الموضوع الخطير ، انتهى نصاً

أما الهادي فقـد مر بك تفسيره آنفاً وهو الملاك الذي سينزل فى السحابة الفلسفية . . . وأما النبراس فلا ريب أنه سينزل بملاك البرق على النواب « كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » . وهذه الجامعة لا تملي على النواب فقط بل هي تحذرهم أن يهدموها وتنـذرهم بطشة التاريخ إذا حدّث العالم أن نواب الامة المصرية صدّوا عن ذكر الله فى المسجد الجامع حين لم يطلقوا حرية الأذان فيه ولم يدعوا للمؤذن أن يقول حيّ على بُوذا حيّ على بَرْهما حيّ على العجل أبيس . . . . ونحن « فانا لسعداء حقًّا » أن وجدنا فى نسختنا العتيقة من كليلة ودمنة هذا الحديث ، قال كليلة ويْحٌ لهذه النفس إذا لجّ بها مَنْزَعُها وركبها سوء طبعها وكان من ورائها قلب دَوِيّ أفسده داؤه وصرف همّه وخواطره فيما تميل اليه فقد قالت العلماء إن الرأى لا يكون رأياً حتى يمكّن له فى الطبع أشدّ التمكين وان المصلح لن يقبل منه وفى طبعه ما عسى أن يتحول به عهدُه أو ينتكث فما مثله الا مثلُ الزلزال الذى أراد أن يتعاطى الهندسة . قال دمنة وكيف كان ذلك قال زعموا أن زلزالا كان صديقا لأحد البراكين فقال له يوما قد كثر

أذاك وافسادك أيها البركان فأنت دأبا غيظٌ للناس وهلاكٌ ولعنة وما تنفك بين حريق وتدمير وانى لأرى لك حالا ما أحسبك فيها الا قد بُعثت من جهنم الى هذه المدينة وما أظنك تفلح أبداً فى تغيير طبعك ومذهبك حتى لو كنت بحراً لانقلبت على الناس طوفانا تهدم بالماء كما أنت تهدم بالنار فقد سئمت صحبتك وأنا ذاهب عنك ألتمس عملا أنفع به هؤلاء المساكين لعلى أردُّ عليهم فى بعض ما تأخذ منهم فقد قالت العلماء إن خير ما يكون الخير إذا هو جاء بعد شر ما كان من الشر

قال البركان أيها الزلزال لاتغترّ بالفلسفة والخيال فإن الكلام أيسر ما أنت آخذه وأهونُ ما أنت معطيه وإنه لن يكون قولك قولا ما لم يكن عليه من طبعك دليل وشاهد وإلا فانما هو كلام بعضه كبعضه وحقه كباطله وشريفه كخسيسه ولو شئتُ أن أسمي هذا الحميم الذى أصهره فى جوفى من الصخور والمعادن خمراً سائغة للشاربين لفعلت وقلت ثم لوصفتها وزينتها بالشعر والحكمة وكابرت فيها وجادلت عليها ولكن ذلك كله قول هراء إذا أنا لم أجد من يقول اسقني. وما فلسفتك هذه إلا كفلسفة مدير الجامعة التى فى مصر ، قال الزلزال وما ذاك ؟ قال إنها كانت مدرسة تولاها هذا الرجل الفاضل المتكلم وكان من المعلمين فيها صخر إنسانى عظيم إسمه طه حسين اخذت طينته من بعض أجدادنا . . . . وإذا تدحرج هذا الصخر فليس منه إلا الهدم والتخريب والدمدمة على الناس فارادت تلك الأمة إقرار هذه الصخرة فى حفرتها وشدّها إلى موضعها وأبى مدير الجامعة إلا إطلاقها وتركها حرة مستقلة ثم تحريرها مع ذلك على

الطرق العامرة والدور القائمة دون القفر واليباب وذهب يدفع عنها فكان فيما قاله « إن التخبط قد جرت العادة بأن يقترن دائماً أو غالباً بكل بداية فدعوا الصخر « يتخبط » على طبيعته وعلى طريقته فلا عليكم منه وما أنصفتم والله إذ تقولون إنه يهدم عليكم الدور ثم تنسون أنه يوسع لكم الشارع .. قال الزلزال دعني منك فوالله لأكونن غير ما في نفسك وأنت تعلم حدة طبعي وما قد خصصت به من تمام القوة والذكاء فأنا غادٍ فمتعلم الهندسة وإنها لمن أوكد الأسباب فيما أريده من الاصلاح

قال كليلة وضرب الدهر ضربة فاذا هو مهندس قد برع وفاق وأحكم وأتقن ثم جعل يرتصد اليوم الذي يجيش فيه البركان ليعمر ما يخربه ويسد مغاور أهل المدينة بعلمه وفضله ، فلما كان اليوم الموعود لطف الله من لطفه ليُخرج للناس الموعظة من هذا الحمق فهاج البركان غير طويل وشعت من ههنا وههنا ثم كظم على ما في قلبه فلم يدمر إلا ربع المدينة وبقي سائرها قائماً على نعمة وعلى سلامة وفي أمن ورضا . فقال (المهندس) لنفسه : إحدى لياليك فَهِيسِي هِيسِي[1] وذهب ليعمر ما خرب صاحبه فلما جاء تحت قواعد المدينة هز أنقاض البيوت الخربة ليعيدها بزعمه قائمة فما زاد على أن هدم كل البيوت القائمة فأرجعها خربة ، وأتلف البركان المفسد ربع المدينة وهدم المهندس المصلح ... ثلاثة أرباعها . فانظر يا دمنة إنه الجوهر والأصل لا الظاهر والحلية وانه العمل لا القول وانه

(١) مثل عربي من قول القائل يخاطب ابله

احدى لياليك فهيسي هيسي لاتنعمي الليلة بالتعريس

يضرب للرجل يأتي من الأمر ما يحتاج فيه الى الجد والهمة

الطبع لا الرأي وإن الفاسد إذا كان معلما فوجد طلابا بأيديهم كان كالزلزال إذا صار مهندساً فوجد بيوتاً يصلحها

*
* *

وننظر الآن إلى كلام مدير الجامعة فانا لا تعجبنا هذه السفسطة من هذا الأستاذ الفاضل وما هو وحده الرجل الذكى ولا البليغ المتكلم وكان ينبغي لمثله أن يتنزه عن مثل هـذا فإنا لنعلم أن من الكلام كلاما يأمر الناس وهو فى أسلوب النصيحة ويكرههم على انتحال أحد الرأيين وهو على طريق التخيير بينهما جميعاً كبعض ما يسمى فى عرف السياسة مذكرة وهو إنذار أو انذاراً وهو حرب . فكلام مدير الجامعة (مذكرة) للبرلمان أو فى أسلوبها أو فى غايتها ولكن يا سيدي المدير قد كان لزلة الجامعة عذر يسعها حتى أصررت أنت وكابرت وازدريت الأمة وعلماءها وقبلت على الجامعة من الأراجيف والأقوال والتهم مالا يقبل ذو عمل على عمله فلم تسع الجامعة عذراً بعد

ولقد أصفقت الامة كلها على أن افساد الأدب والتاريخ والتهكم بالدين وما جرى هذا المجرى — ليس شيء منها يسمى علما فاذا كان علما عندك وعند شيعتك فما هو من حاجتها وليس لك أن تكرهها عليه ولا أن تعدو رغبتها فيه . ثم انعقد الإجماع أو ما يسمى الرأى العام على ان هذه الجامعة مفسدة تناولت ماكان موجوداً كالحقوق والطب فزاغت بهما . كما زاغت الزلزلة بآلة الرصد فى حلوان ، وكانت آلة الرصد هذه معياراً فى دقة نظامها وضبطها ولكن ذلك لم يمنع الزلزلة ان تدفعها

عن موضعها وتوقع الخلل فى أرقامها ودلالتها وتبنايها بمثل ما ابتليتْ به الجامعة اى « سنة تجربة » على نص حديثكم الاول او « سنة تخبط » على نص حديثكم الثانى

ثم تناولت الجامعة ما أرادت أن توجده كتاريخ الأدب العربى. فأقسم بالله قسما برًّا : ما عرفنا فى كتب الادباء أحمق ولا أجهل ولا أشد بلادة من كتاب الجامعة « فى الشعر الجاهلي » ففيم تريدون استقلال الجامعة بعد هذا وان أدنى ما فى ذلك الاستقلال أن ينتفع قوم منكم « بسلطة وظائفهم » فى افساد عقائد الطلبة لان ذلك من مذهبهم فى الاصلاح الاجتماعي ثم العدول بالادب العربى الى ناحية الجهل والفساد والسخرية لانه أساس فى لغة القرآن ولأن القرآن أساس فى الدين ولان الدين ينافي مذهبهم في الحضارة الغربية التي يعملون لها جهد طاقتهم. وعندكم ياسيدى قوم وصفتهم أعمالهم وشهد عليهم الأصحاب والاعداء والأبرياء والأظِنّاء. أفيجيز القانون استقلال هؤلاء الموظفين ليسخّروا سلطة وظيفتهم فى مثل ذلك

أتريدون الاستقلال فى المحاسن أم فى المساوىء ؟ فان كانت الأولى فأينتْ هي محاسن الجامعة وما عند الناس أسوأ من سمعتها ولا أدعى الى السخط من اسمها . وان كانت الأخرى فما هو يا مولانا مجرى الماء يأتي هذا بالاناء فيملأه ويأتى الآخر بالقربة ويأتى الثالث بالفنطاس وتأتى الجامعة بعربة الرش . . . . انه البرلمان يا سيدي الاستاذ وفيه عقول ذكية وقلوب حديدة ونفوس مؤسسة وطباع مؤمنة وهو الحفيظ على مصلحة

الأمة ولن يمكن بحال من الأحوال أن يجعل أولادنا فى هذه الجامعة غيظَ قلوبنا فى كفرهم وتمردهم ولعنةَ تاريخنا فى تحقيرهم وزرايتهم وأعداءَ ديننا فى شكهم واباحتهم . انه اذا خرج ابن الجاهل عالما فقد توثّق ما بينه وبين أبيه بزيادة عطفه عليه ورحمته له واذا خرج ابن المسلم كافراً مستهيناً بنبيه وكتابه وعلماء دينه وتاريخ قومه مُرْصِداً لكل ذلك بكيده وعمله فقد انقطع ما بينه وبين أبيه وصار كلاهما لعنة على الآخر وأوجب الدين على الأب أن يبرأ من ابنه وينبذه ؛ فما نعطيكم أنسابنا لتقطعوها ولا أرواحنا لتهلكوها، ولعنة الله على حرية تفكير أول ما فيها أن أكون عدو أبي أو يكون أبي عدوى .

إن هذه الجامعة بعد الذي قد بدا منها ومن مديرها لأحق بالمراقبة من الأظناء والمتهمين (والمشبوهين) حتى تستقيم على منهاجها وتخلص لها نية الامة ويثق بها العلماء والادباء فكما أعطيت الاستقلال « سنة تجربة » يجب أن تحرمه « سنة تجربة » الى سنتين الى ثلاث الى مائة الى آخر ما فى عمر طه حسين وأمثاله ممن جاءوا الى هذه الجامعة من تاريخ دنِس ملوث بالالحاد ليس فيه موضع ثقة ولا أمانة ، ألا وإن الأمة الاسلامية لتعلم حق العلم أنها مبتلاة فى عداد مصائبها بفئة من أذكيائها يناقضونها الرأيَ فى الدين والاخلاق واللغة والأدب وهم فى ذلك قوم مرضى العقول أصيبوا بنحو مما يسمى بجنون الفكرة الثابتة فلا تردهم قوة من القوى عن آرائهم وأوهامهم فى الاصلاح ما داموا آمنين مرزوقين، فبعض هؤلاء يريد جعل اللغة عامية لتنتهي الامة يوما

الى نسيان قرآنها واهماله والتّفصّي منه وبعضهم يتعجل هذه العاقبة فيريد الانسلاخ من هذا الدين ضربةً واحدة بقرار من الحكومة أو بجنون حكومي كالذي وقع فى تركيا . والعاقل من أولئك من يتماسك ويتصابر ويتسبب الى غايته فى رفق وهينة ومكر وسياسة فيذهب الى صوغ الامة من عقولها فى مدرسة كبرى كالجامعة . . ؟ وشريطته فى هذه المدرسة أن تكون للحكومة لما يعلم من حاجة الناس الى مدارسها وشهاداتها ثم أن تكون هى مستقلة عن الحكومة قائمة على حرية التفكير بنص قانونها . وبمعنى أوضح من هذا . يريد هذا الفريق الذكي أن تكون الحكومة هي العاملة فى تكفير الامة من حيث تدري أو لا تدرى وبالمعنى المكشوف الصريح يريدون من نواب الامة أن يهدموا الامة التي أنابتهم عنها . فياشرّها من قملة خبيثة تتوهم أنها ستلد أربعة عشر مليون قملة لتقع فى رأس كل مصرى واحدة . . . ثم لا يكون الفَوْجُ الاول المقتحم الا لرؤوس النواب خاصة . . .

هبوا الجامعة المصرية قائمة بنفسها وبما حَبَس عليها الواقفون ولا شأن للحكومة بها ولم تستلحق مدرستي الحقوق والطب واجعلوها على ذلك مستقلة الى أبعد ما فى الاستقلال قائمة على أوسع المعاني فى حرية التفكير والتكفير فماذا يجدي عليها كل ذلك وأضعاف ذلك ؟ انها يومئذ لا تكاد تذكر ابراهيم واسماعيل حتى لا ترى مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً وحتى تصبح خاوية على جذوعها من طه وأمثال طه . هذه حقيقة لا شبهة فيها . فليس الأمر اذن الا أن هؤلاء الاذكياء يريدون

تسخير النواب ليكرهوا الامة اكراهاً على صدع أساسها الاجتماعي وتخريب بنائها التاريخي ما دامت الجامعة قائمة ببعض هؤلاء الناس المعروفين وما دام ذلك تاريخهم وهذا عملهم . وليس فى الامر اذن حرية تفكير بل حرية عمل بل حرية هوس فكري بل حرية استخدام سلطة الوظيفة .

لقد صاحت الامة من حمق طه حسين وتهورد فماذا فعل مدير الجامعة . بل ماذا فعل طه غير أنه زاد على ذلك انذار الامة فى أبنائها أن دروس السنة الآتية ستكون في مناقشة القرآن من الوجهة الادبية . ويقول هذا وهو هو الذى كذب القرآن من الوجهة التاريخية فان صرح بعد أو خادع فما هو بمأمون البتة .

« استقلال الجامعة لأجل نظام التعليم العالي » هذه عبارة يقولها الأستاذ المدير باللغة العربية القديمة فاذا أنت أضفت لها معنى الزمن الحادث كانت هكذا « زرع الجامعة لقلع مايمكن قلعه . . . » إن الباطل لايجد أبداً قوته فى طبيعته بل تأتيه القوة من جهة أخرى فتمسكه أن يزول فاذا هي تراخت وقع وإذا زالت عنه اضمحل ، أما الحق فثابت بطبيعته قوي بنفسه فالجامعة إنما تخشى على باطلها فتريد له قوة القانون وحمايته ولو كانت ذات حق لقالت للناس — هذا عملي فانقضوه إن استطعتم . وهذا علمي فانقدوه إذا دخلكم منه شك . لكنها لجأت إلى هذا التمحل العجيب فى طلب الاستقلال وحرية التفكير وإنما هى بهذا الطلب تسب الأمة وتهينها فى علمها كما أهانتها فى دينها من قبل كأن الامة

جاهلة غبية تعادى الفكر الحر إذ لا تستطيع مجادلته ولا نقضه . فالجامعة من أجل ذلك تسأل النواب أن يحموا تفكيرها ويفصلو ما بين علمها العالي وبين جهل الأمة

لقد جادلنا هذه الجامعة وأفحمناها حتى ما تبدىء ولا تعيد فكأنها الآن بما تطلب من حرية التفكير تريد أن تفر من كل مجادلة ومناظرة وتجعل ذلك أصلا فى قانونها حتى لا ينتقدها أحد ولا يطمع أحد منها فى جواب وما عرفنا فى تواريخ الأمم أن أمة يقرر نوابها حرية الجهل فى أكبر مدرسة فيها .

ما هى قيمة حرية التفكير وأنت لا تجدها على أعظم شأنها وأكثر أسبابها وأوسع أشواطها إلا فى المعتوهين والموسوسين وألفافهم ؟ إنما الشأن فى سمو التفكير قبل حريته . فينبغى أن يكون الفكر قوياً على مصادمة النقد إذ يكون صحيحاً لا زائفاً وحقاً لا باطلا ومتى كان الفكر كذلك فما هو فى حاجة إلى قانون يحميه لأن قانونه مناظرته، أما إن كان على غير هذا فجاء ضعيفاً متخاذل الحجة واهي الدليل لا يقدر على دفع الاعتراض ثم كان قائما على أن يقول المفكر الباحث ماشاء ويقول المنتقدون ما شاؤوا بلا نتيجة هنا ولا هناك فلعمري إن هذه ليست حرية تفكير بل هى حرية الخطأ والخطأ دائما مقيد فى أي الأساليب جاء ومن أي الناس وقع

ولقد حدت للفكر كل الشرائع قيوداً وحدوداً من بعضها الحَجْر ومن بعضها العقوبة وهكذا . وفيم الشرطة والنيابة والمحاكم والقوّامون

والمحتسبون والشرائع والقوانين إلا أن تكون هذه كلها حدودا للافكار والاعمال كما قلنا من أن الخطأ يجب أبداً أن لا يمشى إلا فى قيد ؟ يظهر لنا أن الاستاذ مدير الجامعة لا يفهمنا حق الفهم وإلا فنحن لا نفهمه. إنه يقول حرية التفكير ونقول قيمة التفكير. وهو يريد حرية الرأى ونريد صحة الرأى. وهو يرى اطلاق الالسنة ونحن لا نرى إلا إطلاق الحقائق المتكلمة. فان صح رأيه وجب أن تطلق الحكومة كل من فى مستشفى المجاذيب ممن خرف وأهتر ولا ضرر إلا من لسانه إذ يجب أن يكون لهم قسطهم من حرية التفكير كما يكون للجامعة قسطها ؛ وإن صح رأينا وجب أن يظلوا فى قيود الطب لان لهذا الطب الولاية الشرعية على عقولهم وأفكارهم كما أن للبرلمان الولاية الشرعية على عقل الجامعة وتفكيرها . . .

هناك ضرب من التفكير هو شر على الناس من محق التفكير فان إهمال الفكر وانقياد الانسان إلى طباعه وغرائزه يبعث على غلطات مختلفة لا بد أن تقع لكنها تدل على نفسها بأنها غلطات إذ ليس معها إلا حقائقها وهى ظاهرة مكشوفة قد تعارفها الناس وعلموا علم عقولهم أنها خطأ أما ذاك النوع من سوء التفكير فيورّط أهله فى غلطات لا بد أن تكون فاذا كانت فلا بد أن تكابر فى انها غلطات وتذهب تخدع الناس وتموّه عليهم وتغر ضعافهم لان معها الجدل والعناد وسوء النية ومكر السيء وكل هذا مما يكتم حقائقها ويظهرها فى غير مظاهرها ويلبس باطلها من حلية الحق . وكتاب الجامعة (الشعر الجاهلي) آخر مثل

أخرجته الدنيا من هذا النوع كما علمته مما أوردناه فى الكسر عليه :

فان كانت الجامعة انما هذا تريد فهو تلبيس وغش وخداع وان كان اسمه الرأي والفكر والاجتهاد والجديد وما شاءوا . واذا أباحه البرلمان للجامعة وجب أن يفرض عليها معه إنشاء درس تسميه درس الغلط . . . ليكسب هذا الدرس تلاميذها المساكين دربة ومرانا على إدراك خطأ الاستاذ بأنفسهم فيستطيعوا أن يصححوا لمثل طه حسين غلطاته كلها أو أكثرها أو أفحشها على الاقل . نحن لا ننكر على الجامعة ولا نعترضها اذا هي قدمت السم فى زجاجة السم فلو أنها فعلت ذلك لهلك من هلك عن بيّنة وما يشعركم أن طلبها من البرلمان ليس الا طلب الترخيص لها فى السموم الادبية والعلمية — ولكن الذي ننكره عليها أن تقدم السم فى زجاجة الدواء فتغش ، وتسقيه الناس فتقتل ، وتأخذ على ذلك أجرا فتسرق ، وهذا كله مما نجلها عنه اجلالا شديداً ولكن هذا كله قد وقع فى درس طه حسين .

يقول الاستاذ المدير فى حكمته الذهبية « أترى لو أنك تفكر تحت وصاية الغير هل أنت تفكر . فاذا تعلقت منازع التدريس بغير جماعة المدرسين كان التقدم العلمي خيالا فى خيال » ونحن نقره على هذا لانه من حجتنا عليه فلسنا نقول بترك منازع التدريس فى الجامعة لمصلحة التنظيم مثلا . بل نحن ممن يرون ترك كل صناعة الى أهلها ومن يثقفونها . ولنضرب علم الأدب مثلا بيننا وبين الجامعة فهل كل (جماعة المدرسين) فى الأدب هم طه حسين الذي ليس فى الجامعة للأدب سواه أم تجد منهم

في وزارة المعارف وفي الازهر وفي وظائف الحكومة وفي الصحف وغيرها؟ ان كان الاول بطل كلامنا ولنكسر هذا القلم ولنرح أنفسنا من مجادلة العالم الأصغر المسمى طه حسين ... وان كان الثاني فدرس الأدب في الجامعة يجب أن يكون مقيدا بآراء (جماعة المدرسين) فان أبت الجامعة فعليها مناظرة من يجادلها فيه. لا مناص من احداهما ولكنها لا تقبل احداهما.

ولو كانت هذه الجامعة ذات قيمة علمية وكانت لا تطوي تحت العلم نية أخرى لدعت هي الأدباء والعلماء الى مناظرتها وأثابتهم على ذلك ولم تسكت عن مثلنا ولم تغلق بابها في وجه صديقنا الاستاذ الخضري بك[1] ولم تعمل في إسكاته واسكات غيره إما بكلامها ورجائها واما بسكوتها وإهمالها.

بل الذي هو أخزى من هذا أن أستاذها نفسه يقول في أول كتابه صفحة ١٤: وأنت ترى انني غير مسرف حين أطلب منذ الآن .. الى الذين لا يستطيعون أن يبرؤا من القديم. «أن لا يقرؤا هذه الفصول» هكذا بنصه وتالله لو أن الجامعة مدرسة كالمدارس تدرك معنى العلم وتعرف أنه أمانة وعهد وميثاق لأوجعت استاذها بالعقوبة على هذه الكلمة وحدها لانه يفضحها شر فضيحة وينفي الثقة بها وبعلمها

---

(١) أعد الاستاذ محاضرة مسهبة في الرد على طه حسين وكتب الى الجامعة يستأذنها في القائها على الطلبة فوسعت له وقالت انها تقدس حرية الفكر وانها تخصه بأوسع غرفة لمحاضرة الطلبة بيد أنها سألته أن يبعث اليها بما كتب فلما اطلعت عليه رأت أن تستر على نفسها وأغلقت الباب وقالت لاقفالها دافعي أيتها الاقفال المتينة . . .

إذ لا ثقة برأي الا بعد تمحيصه ونقده ولن يكون النقد نقداً اذا كان من انصارك ومؤازريك بل هو النقد اذا جاء من المعارضين لك والمنكرين عليك ثم لا يتم له معناه الا اذا كان من أقواهم فكرا وأصحهم رأياً وأبلغهم قلما . فان لم ينتقدك هذا ومثله فادفعهم اليك دفعاً وتحدَّهم تحديا وارمهم بالعجز اذا لم يفعلوا فان الحجة ليست لك ولا هي لهم وانما تنحاز الى الغالب منكما . وحتى الحجة الصحيحة فانها أبدا فى حاجة ماسَّة الى حجة أخرى تؤيدها أو تفسرها أو تحدها أو تمنع اللَّبس بينها وبين غيرها فكل شيء فانما صحته وتمامه فى معارضته ونقده إذ المعارضة نصف الحق وان هى لم تكن حقاً لانها تبينه وتجلوه وتقطع عنه الالسنة وتنفي عنه الظِّنة . ومن هنا يظهر لك السر المعجز الغريب البالغ منتهى الدقة فى القرآن الكريم فان هذا الكتاب من دون الكتب السماوية والارضية هو وحده الذي انفرد بتحدّي الخلق واثبات هذا التحدي فيه وبذلك قرر أسمى قواعد الحق الانساني ووضع الأساس الدستوري الحر لايجاد المعارضة وحمايتها وأقام البرهان لمن آمنوا على من كفروا وكان العجز عنه حجة دامغة معها من القوة كالذى مع الحجة الأخرى فى إعجازه قسما بالحجتين جميعا ؛ وذلك هو المبدأ الذي لا استقلال ولا حرية بغيره وما الصواب اذا حققت الا انتصار فى معركة الآراء ولا الخطأ الا اندحار فيها لا أقل ولا أكثر وبهذا وحده يقوم الميزان العقلي فى هذه الانسانية

يقول الاستاذ المدير « أترى لو أنك تفكر تحت وصاية الغير هل

أنت تفكر » ؟ فاذا لم أكن تحت وصاية الغير يا سيّدي المدير ولكني أفكر تحت وصاية رغبة مجنونة ونية خبيثة شهدت عليها الأمة كلها فهل أنا عندك أفكر ؟ ألا تراني حينئذ اذا كنت رجلا عادلا أني في أشد الحاجة الى حمايتي من وصاية ضارة بوصاية لا أقل من أن تمنع الضرر . وما الفرق بين رغبة تمسني من غيري فتفسد عليَّ تفكيري وبين رغبة تمس غيري مني فتفسد عليه بتفكيري . وهل كان طه يكفر في الجامعة لتكتب عنه الملائكة أم ليكتب عنه الطلبة ؟

أني أخشى يا سيدى الاستاذ الجليل من استقلال الجامعة وحرية تفكيرها فان هذا الكلام اذا فسر بأعمال الجامعة كان معناه ومحصله أن البرلمان سيضيف الى الامتيازات الاجنبية المضروبة على هذه الامة امتيازاً لدولة قصر الزعفران ....

ذو الاقفال ...

نحن نعرف أن الاستاذ الفاضل مدير الجامعة رجل صُلْب مستغلق كالأبواب الحصينة بعضها من وراء بعض إن أنت عالجتَ بابا منها فانفتح لك بعد الكد والعناء وطول المزاولة قام من دونه باب اخر فاضطرك الى مثل ما كنت فيه واستأنفتَ ما فرغت منه فما تظفر من الرجل بطائل لانه فيلسوف منْطيق أريب مطلع يرجع من طبعه الذكى الى مثل كتب الفلاسفة ومن كتب الفلاسفة الى مثل طبعه الذكى فهو أبدا متحذر مستعد ولا تبرح أقفاله الفلسفية على مدّ يده فاذا هو وضع

الباب من أبواب الكلام بينك وبينه تناول القفل والقفلين والثلاثة واستغلق وتَعَسَّر فهو فى الرجال كالشاذِّ فى القاعـدة أما القاعدة فتستفيض فى كثير وأما الشاذ فهو قاعدة نفسه : ولنا بالاستاذ صحبـة قديمة فما نعرف الا أنه رجل منصف ولا نظن فيه الا خيرا ولما أصدرنا الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) كتب عنه افتتـاحية(الجريدة) وقال لنا بلسانه إنه قضى أسبوعا يخطب مجالس العاصمة فى هذا الكتاب وكان عمله وقوله (وسبب آخر) مما أغار تلميذه الفاضل الدكتور هيكل فاستقبلنا يومئذ بحبر ته ونَضَحَ الكتاب بمقالتين من العطر الأسود .... لم نردّ عليهما الى اليوم وهما فى كتابه الاخير الذى سماه (أوقات الفراغ) فيحسن بالقراء أن ينظروا فيهما لانا نعجب من الاذكياء بذكائهم ولا نبالى مايصيبنا منهم فان الصدور تجيش والطباع تغلب وفى الناس ما فيهم. ونحن اذا أمَّنا الخطأ من نفسنا لم يضرنا أن يخطيء الناس فينا . ولقد كلمنا يومئذ صديقنا الاستاذ حفنى بك ناصف فى الرد على هاتين المقالتين فقلنا له متى تم بناء (الهيكل) طهر الحائط المنحرف . وكان الهيكل لا يزال يُبْنى

نكتب هذا لان أستاذا كبيرا من مدرسى الادب العربى زعم لنا أن فكرة طه حسين التى يعمل لها فى الجامعة هى فكرة الاستاذ مدير الجامعة وان طه ليس فى كبير ولا صغير وانما هو كالبُوق ينسب اليه الصوت والصوت من غيره . قال وان طه يدل بمنزلته من الاستاذ فهو تلميذه وصاحب رأيه وحامل فكرته وان الاستاذ لذلك أخذه فى الجامعة ورد سواه ولبعض ذلك يدفع عنه كما يدافع ذو العقيدة عما اعتقد فالامر بين

الامة والجامعة فى هـذا الخلاف الذى شجر بينهما أشبه بالمصادمة بين دينين لابد من غلبة أحدهما ثم اذا غلب عم فالامة على مرحلة الى جاهلية أو إسلام ، وما ثم شيء اسمه حرية التفكير أو استقلال الجامعة انما هذه ألفاظ سياسية جدلية توضع على مقادير ظاهرة وعلى مقادير أخرى باطنة ليكون الظاهر مما يلي القول والباطن مما يلي العمل . ولولا ان ذلك كذلك لكان فى بعض غلطات طه حسين مايقذف به من فوق الحائط عجلة منهم فى إخراجه والتبرؤ منه اذ ينقطع صبرهم قبل أن يفتح له الباب ولكن أنى لهم وطه فى ذلك فكرة لا رجل وقد عرف من قبل سرّاء هذه العاقبة وضرّاءها وما ألقيت القنبلة من هذا المدفع وهى محشوة كفراً الا لتهدم الايمان القائم ومثل طه حسين ليس من مدافع العيد . . . بل هو مدفع ميدان . قال وعندنا قوانين كثيرة ولكن قانون الجامعة المصرية المعروض على البرلمان وضع لكسر القوانين والتفلت منها

عندنا قانون يسمونه قانون « المحلات المقلقة للراحة » ونحن الآن فى حاجة الى قانون اسمه قانون « المحالّ المقلقة للضمير » .انتهى كلام الاستاذ وأنا لا أعتقد هذا ولا أقول به وان كنت ألمح فيه لمحات ولكن ـ ترى ما سر هذا الصمت العجيب فى مدير الجامعة فلا يجيب الامة ولا يعتذر اليها ولا يعبأ بها ولا يعرف لها حقا وبينا هى تتلظى عليه وعلى جامعته وعلى استاذ جامعته نرى فى يده مروحة وفي يدي طه مروحتين ... ـ والعجب من هذا الاستاذ الفاضل كيف أصبحت الحوادث تنقله من منزلة الى منزلة وهو يخف في يدها لا يثقل به رأي ولا يرجح له عقل وما يزال يتنقل فى هذه الحادثة من سيء الى أسوأ وما زال يضيق على نفسه ولا

يفسح له ذكاؤه فكان فى غلطة صوابها قريب والعذر منها سهل والقول فيها يسير لكنه أصر عليها ومن نكد الدنيا ان الغلطات كالذباب تكون الواحدة منها فاذا هى بعد قليل صارت ألفا فما كان من اصرار مدير الجامعة الا أن جعل للتهمة جذورا وفروعا وكانت نبتة لا تماسك، وأنا لا يبلغ من ذكائى أن انفذ الى ذلك السر أو أكتنه حقيقته فانى رجل بليد اذا تطرق بى الفكر الى صلابة كصلابة الاستاذ لطفى السيد من أجل حمق كحمق طه حسين. غير أن نسختى من (كليلة ودمنة) ليست بليدة فقد رجعت اليها الساعة فاذا الماكر دمنة يقول: ولا يغرنك أنك على ثقة من غفلة مَنْ حولك فانك إن تكن على مسافة بعيدة من عاقبة غفلتهم فأنت على مسافة دانية من عاقبة مكرك . وإن القدر ان خلاك فلا يفلتك من يمينه الا ليأخذك بيساره فلا تَسْتَنِمْ الى مسافة مابين القبضتين اذا كان مامن الوقوع فى احداهما بد

وقد كان يقال إنه لا أحمق من الغفلة فى اثنين: الضارب فى الصحراء تلفحه شمسها ويتنفس النار من هجيرها فيغتسل بما يحمل من الماء فيبترد وَيسْتَرْوِح ويدفع عنه القيظ وقد أنسته اللذة العاجلة ما أمامه وعمي عن الصحراء ومَعاطِشها وظن ان قد غلبها فى راحة نفسه والترفيه من أمره فلن يكون منها بعد أن شربت ماءه فى موضع الا أن تشرب روحه فى موضع آخر ؛ وغفلة الماكر الغاش يطمئن الى دَسِّه وغشه وهو يعامل فيهما أمة كاملة فيوشك أن يلقى مالقي الرجل ذو الأقفال حين زمَّ باقفاله على فضيحتين فكانت أقفاله الفضيحة الثالثة . قال كليلة وكيف كان ذلك

قال دمنة زعموا أن رجلا حازما فيلسوفاً كان فى بلد كذا وكان مخلصا للناس مايبرح لهم فى حق يقضيه فكتب وألَّف زمنا ثم خطب وتكلم حينا ثم حل وعقد فى حبال السياسة ثم انهم أنشأوا مدرسة لهذه الامة فلم يجدوا غيره يتولاها اذ كانت الآمال فيها على قدر الثقة به . وانه كان رجلا سليم دواعى الصدر طيب النفس حسن الظن بمن يستخلصه وكان من جماعته ومريديه رجل مغرور ينتسب فى آرائه وعلمه الى هذا الاستاذ الجليل كما تكون النواة فى الثمرة الناضجة فهى مرارة تحت حلاوة وهي من أثر طين الارض فى أثر ماء الجنة وهى شيء لولا موضعه من الثمرة لم يكن له موضع الا بحيث ينبذ ويهمل ولكن الاقدار هي وضعته بذلك المكان فكأنه غلطة يغطيها الصواب

ثم إن هذا المغرور سعى سعيه وتحمَّل على الرجل الطيب بشفاعة غفلته الفلسفية فانه يقال إن لكل فيلسوف خصالا يفوق بها الناس ولكنها لن تجتمع له الا أحدثت فيه خصلة يفوقه الناس بها ما من ذاك بد ، لان المعنى الانسانى المحض لم يخلص فى أحد غير الانبياء فالانسانية فيهم مُصَفَّاة وفيمن عداهم كالماء تصفيه وتتركه فى سقائه فان لم ينشيء الترك فيه كدرا أنشأ فيه معاني الكدر فانت واجد بعدُ فى قرارته من الهوام والجراثيم وهي معاني ما يحمله الماء العكر من الأخلاط والغبار والطين أو هي شر منها . ولولا حكمة الله هذه وأنه لابد لكل فيلسوف من الغفلة والسقطة وان العلم لا يدفع من ذاك نوعا الا ليجلب نوعا آخر — لما رأيت عالما أسقط نفساً من جاهل ولا فيلسوفا يلعب به

العامة فى بعض أمور دنياه مما يتعامل عليه الناس كالبيع والشراء وتعاطي أسباب العيش .

قال دمنة ثم فاز المغرور وسهل له الفيلسوف تسهيلا عجيبا فاذا هو أستاذ فى تلك المدرسة فلما استوى له المنصب قال ما أحرى الناس جميعاً أن يكونوا مغفلين اذا كان صاحبي الفيلسوف كما أرى فلاً صنع له من العلم على نحو ما أدخلت عليه من الغش فانه لا يحسن مما أقول شيئاً وهو رقيق الدين كما هو رقيق النفس وما أراني معلناً عن نفسي بشيء كما يعلن عني الكفر فيقتحمني الدين وتردعني الفلسفة فأجمع خلالا ما اجتمعن لاحد قبلي وأكون كالراية يسقط الناس من حولها وهي قائمة . ثم انه انحط على العلم والأدب وسفّه كل من لا يجهل جهله ولا ينعب نعيبه وكان كالغراب الذى زعم أنه شاعر كاتب فيلسوف فلما سألوه فى الشعر قال « غاق » فسألوه فى الكتابة قال « غيق » فسألوه فى الفلسفة قال « غوق » . فقيل له فلسنا معك الا في غاق وغيق وغوق فاين الشعر والكتابة والفلسفة . ؟ قال قطع الله السنتكم أيها الناس فلو أن الله بدّلكم بها لسان غراب فصيح مثلي لوعيتم ما أقول ولكنكم قوم تجهلون

قال دمنة : فلما غوّقَ أستاذ المدرسة ذلك التغويق المنكر وأضحك الناس منه ومن مدرسته وعلوم مدرسته وطارت السخرية ووقعت ثم طارت ووقعت قال ذلك الفيلسوف لقد احتجت الآن الى عقلي وذكائي فان هذا الاحمق أنا انخدعت به ثم خدعت به الناس فانا من فضيحته الواحدة بين فضيحتين وهو مني بمنزلة الذيل من الجواد ان سبقت سبق

وما جرى ولا تعب ولم يُعانِ شيئاً مما أعانيه وليس الا أنه كَصيق بي .
ولقد أوقفني حمته في هذه المَزَلَّة فلن تحملني قدماي الا اذا جعلت ساقيهما
عمودين من حجر واستمسكت في الارض بجذور تجعل أصابع قدميّ
عشر شجرات

ثم أقوم بعد ذلك قومة جبل راسخ لا قَعْدة له الا بشَق الارض
من تحته . وأنا بعدُ ذو الأقفال ما من كلمة تفتح علي الا ولها عندي قفل .
فجهل هذا الاحمق قفله « حرية التفكير » إن فتحوا بذاك أقفلنا بهذا ،
وكفره نقفل عليه « بحرية البحث » وغروره الشنيع ماله قفل ولكن
لعل قولنا إنهم يحسدونه يصلح قفلا ، وسقوط المدرسة نجعل له قفلا من
« سنة تجربة » وسوء النتيجة لا يغلقه عنا الا قفل « التخبط في البداية »
وتدخّل الحكومة لتلافي الامر قفله « التفكير تحت وصاية الغير » . قال
وجعل ذو الأقفال يضع لكل مُخزية قفلا . . فضج الناس وفزعوا وكان لهم
دار ندْوَة وكان فيها زعيم يَغمرُ الناسَ جميعاً بذكائه وكأنما أنشأ فيه القدرُ
من أسباب القوة على قدر حاجة الامة كلها فما تراه في لسانه وبيانه وذكائه
وقلبه وهمته وعمله الا قلت من ههنا ينبعث التيار الإنساني ليعبّ به
البحر كله في هذه الامة

قال وجمع الفيلسوف أقفاله ووضع عليها كلها قفلا من معدن لا تذيبه
النار اسمه « استقلال المدرسة » وبعث بها الى دار الندوة ليقفل بها على
أفواه الناس وعقولهم فما هو الا أن رماها ذلك الزعيم بنظراته وأدارها
في يده حتى جعلت تتهاوى و تتفلّق واذا هي تنْماثُ كما يماث الملح ألقي

في الماء وكان كل قفل لا يسقط الا فتح عن سوءة أو غلطة أو مخزية من المخزيات : فقال الفيلسوف إنا لله . ما يصنع العناد الا صنعة واحدة أولها الحيلة وآخرها الخيبة ولقد كنت من هذا في غنى لولا أن هيجني ذلك الاحمق وغلبني على الرأي بمثل ما يغلب به الطفل أباه المخدوع فقد والله فضحني بنفسه ثم عاد ففضحني بنفسي وأسقطني بجهله مرة وبعلمي مرة .

ولقد سخرت مني الحوادث فهيأت لي أن أكون ذا الاقفال حتى اذا صرت ذا الاقفال رمتني بذي المفاتيح

***

لا جرم أن الاستاذ الجليل لطفي السيد قد تحول كل منطقه خيالا كالذي يظن أن أصابع قدميه عشر شجرات فلسنا نعرف له في حادثة الجامعة رأيا صحيحا ولا حجة قوية وقد أصبح اذا تكلم أخطأ منطقه واذا سكت أخطأ سكوته وما ذلك من ضعف لسان ولا فيالة رأي ولا تهافت منطق ولكنه يدافع مالا يدفع ويتولى رجلا وقدت عليه الجحيم ولعنه الله والملائكة والناس ، وماذا يثلج لوح الثلج اذا لم يقع إلا بين الواح الفحم المضطرمة ؟

كان للاستاذ لطفي السيد من علمه ورأيه وبعد نظره ما يعصمه أن ينزل نفسه هذه المنزلة وما هو بشاعر ولا أديب ولا صاحب لغة ولا مؤرخ أدب فيعيبه أن يكون قد انخدع في طه حسين ويزري بسقوط هذا الشيخ أو الخواجه ويلزمه من كل غلطة يقع فيها طه غلطتان احداهما من أنه أديب والثانية من أنه مدير للجامعة . ان الاستاذ رجل

قانوني وكاتب فاضل ومصلح اجتماعي ثماله ولطه وعلم طه ؟ لكنه أبى أن يكون مديراً للجامعة فى عمل ليس له فيه الا أن يكون مديراً ومن هنا رأينا العالم الكبير يحتج بأوهى الحجج ويتوكأ على كلمات من القش كحرية التفكير ، والتفكير تحت الوصاية وهدم الجامعة الخ الخ ويقول هذا وهو يعلم أن أحدا لا ينازعه فى هذه المعانى وإنما النزاع فى جهل الجامعة وسقوط الجامعة وكفر الجامعة وفوضى الجامعة فيدع ما نحن فيه ليجرنا الى ما لسنا فيه كأنه لا يعلم أن مثل هذا يعد فى أساليب الكلام من شر ما يقع فيه من توجهت عليه الحجة ولزمه الدليل فيظن أنه يتخلص به وهو لا يزيده الا تورطاً ولا يزيد الناس فيه الا بيانا

أنا اخطأت في رأي من العلم فتنكر أنت علي وتردنى فتأخذني الحميَّة وأكبِرْ ذلك منك ويشق على نفسي أنا أيها الأديب الكبير أن يقال عنى اخطأ وجهل وان يشيع ذلك في الناس فيكون سبة لأدبى وغَميزة في فأدع رأيى ورأيك وصوابك وخطأى وأقول انما أنت حسود وانما تتحامل علي وانما هذا من لؤمك وضغنك وأذهب أتكلم فى الحسد وما يتصل به وأتناول المعانى من اصولها البعيدة ولا ازال ابتعد عما كنا فيه فما أصنع شيئا الا أن أضيف الى عجزى عن الحجة عيب المكابرة فيها والى جهلي بالرأي جهلا آخر بأساليب البرهان وأمد فى النزاع مداً كلما طال بينى وبينك أخرج من سخرية الناس لى ما كنت منه في أسبغ ستر واوسع عافية . . ولا ازال ألج واتهافت ولا يزال الناس يضحكون ويسخرون فاذا أنا من الغلطة الواحدة فيما لا أحصى واذا هى ألوان كثيرة بعد ان كانت

ولا لون لها . وأتكلم ألف كلمة فلا أجيء الا بألف خطأ وتتكلم أنت واحدة فتجيء بألف صواب لان كل غلطة فى حمقي وعنادي وجهلي تنحاز اليك فتعد فى صوابك اذ الناس بيننا على الاصل الذى كنا فيه من الرأى العامى لاعلى الاصل الذى نزعتُ انا اليـه من الكلام فى الحسد والضغن وما يخرج منهما .

نقول للجامعـة الأدب والدين والتاريخ وهى تعرف أننا من ذلك فى موطن محاماة وأنه لا منفعة لنا ولا غاية الا الاصلاح وان الأمة بيننا وبينها وان هذه الأمة معنا وعليها فتلوذ الجامعة بالصمت عن كل هذا ولا تتكلم الا فى حرية التفكير وتوقّي الهدم وكذا وكذا ، ولو علمت لعلمت أنها ما تهدم نفسها الا بمثل هذا اذ الجامعة ليست مديرها ولا أستاذها وما إنْ لها فى مصلحة الصحة شهادة ميلاد ولا شهادة وفاة . وهى باقية وهما زائلان ومالم يوفق اليه مدير الجامعة اليوم فعسى ان يوفق اليه مدير آخر والأمور بحوادثها مرهونة والاشياء بأوقاتها والطبيعة بعد على مَساقها الذى تندفع فيه فان اكرهناها على غيره لم نفسدها وأفسدنا أعمالنا وأخطأتنا الفائدة منها . وكل هذا يعرفه الاستاذ مدير الجامعة بيد أن عمله يشعرنا أنه يعتقد ان الجامعة هي هو وانه ان فاتها صنيعه لم ينفعها صنيع أحد من بعده فكأنها فكرة بعينها ليس لها غيره وغير طه فاذا لم يكونا لم تكن لان غيرهما لايعمل فيها ثم كأن الفكرة مع ذلك لاتؤمَن عليها الامة ولا الحكومة . . . . ولا تستقيم مع اشرافهما . اذ يرى الاستاذ المدير ان تدخل الحكومة هدم هدم هدم . . ولن يكون هذا الرأي صحيحا بل لانخرج

له فى التأويل الا اذا كان تدخل الحكومة هدما للفكرة الشخصية والا الجامعة من هى . وكيف تنشئها الحكومة لتهدمها وماذا كانت قيمتها قبل ان تستلحقها وزارة المعارف ؟ ان الذى يعلن ان تدخل الحكومة «هدم» لأمره لن يمكن ان يدعو اليه الحكومة بأفصح ولا أبلغ من هذا الكلام الا اذا كانت هذه الحكومة قائمة فى رأيه على عداوة الامة والكيد لها وإفساد أعمالها النافعة . وما هكذا يحسن أن يعلن مدير الجامعة المصرية عن الحكومة المصرية ولكن العجيب ان الامة هى التى تطلب تدخل الحكومة ومدير الجامعة وحده هو الذى يأبى ذلك وينتحل فيه المعاذير الواهية ويضع له الأقفال الفاسفية . . .

فلقد صارت الامة والحكومة جميعا عدوتين للجامعة فى رأيه وهذا على أن الجامعة ليست له ولا هو خالد فيها فلم يبق اذن الا شيء واحد من شيئين : إما ان الاستاذ المدير هو وحده المخلص وهو وحده ذو الرأي الصحيح وهو وحده رجل الامة كلها . واما ان له وحده فكرة لا تقوم الا به وحده ويريد تسخير الجامعة لها . أرونى كيف يكون المنطق الذى يُخرج من هذين الرأيين رأيا ثالثا وأنا ألقى هذا القلم تحت (وابور الزلط . . .)ولا أعود أكتب حرفا عن الجامعة

ان النواميس لا تعرف استثناء ولا تخضع له وانما يتغير وصف الشيء فيتغير قانونه . هذا عاقل يهمّ بعظيمة ويجنيها فيعاقب وهذا معتوه يقترف إثما فيترك ولكل منهما حالة ، ولكل حالة قانونها . ففى أي شيء يريد الاستاذ مدير الجامعة ان لا يكون للحكومة إشراف عليها و تدخل فيها .

أهو أنشأها وهو يملكها وهو يرعاها ، أم حين لا يكون هو فى الامة لاتكون للامة جامعة ؟ ألا يجوز فى « التجربة » الا وجهٌ واحد من الجهل والفوضى والكفر فان قيل جربوا الايمان والتدقيق والنظام لم يكن ذلك شيئا الا عبثا من العبث . ما هو وجه الاستثناء بعد الفضيحة والخزى وتبيّن المكتوم وبعد سنة كاملة فى « التخبط » ولا بد من وجه للاستثناء اذا كان لا بد من قانون غير قانون الحالة التى أنت فيها والا كان هذا فسادا فى أصل النظام وعكسا للنواميس وكنا فيه كالذى ينقض من ركن فى بيته ليرمّ صَدْعا فى ركن آخر منه كأن كل ركن مستقل بنفسه مع أنها أربعة وفى خراب أحدها خراب جميعها لانها لا تراد لنفسها بل لما يحمل عليها. ومرض الخراب لايعدي بيتاً من بيت ولكنه يعدي ركناً من ركن . ومتى اختلفت الجامعة المصرية والأمة المصرية واستحرّ النزاع بينهما فما بقى فى حكم العقل أنها جامعة كالجامعات . بل هى وحدة قانونية . كالأقلية فى الأكثرية فان لم تكن فوحدة سياسية فى الأمة كالجيش المحتل فإن لم تكن فوحدة عامية كالطبيب فى المرضى فان لم تكن فوحدة عقلية كالعاقل فى المجانين وكل هذا سب للامة فى ظاهره وهو فى الحقيقة سب للجامعه ومهانة .

ولكن الأمة بخير وفيها أهل الحزم وأهل الرأي وأهل العقل فما قيمة رجل أو رجلين أو بضعة رجال توظفهم الحكومة فى الجامعة حتى يستبدوا بالامة هذا الاستبداد ويتخذوا الجامعة مرتعاً ويبلغ من غرورهم أن يسخروا من ألف عالم من علماء الدين ويزدروا كل أدباء البلاد

ويصرُّوا على ما فعلوا ويستكبروا استكبار إبليس ويهزؤا بالأمة ويلبّسوا عليها ويزعموا لها المزاعم العريضة كذباً وزوراً

لقد نشرت جريدة السياسة أن هذه الجامعة التقية الصالحة اشترت كتاب طه حسين وانتزعته من السوق فلا يباع ولا يقرأ وبهذا أسقطته اسقاطا ذهبياً . . . قالت السياسة وقد رضي صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر بهذا الحل وسكت فلم يبق من معنى لشكوى العلماء وذهابهم هنا وهنا [1] . والسياسة ترمى شيخ الازهر بالضعف فى رأيه وعلمه لأن ذلك إن صح فالشيخ يعلم أن طه لم يستَتَبْ ولم يجدد إسلامه وأن كتاب إيمانه . . . الذى نشرته الجامعة إنما كان هزؤا بالأزهر ومن فيه ورمياً لاهل هذا المعهد الجليل بأنهم مستعبدون للحروف والكلمات لا ينفذون إلى أغراضها ودواعيها . وقد كتب فى ذلك علامة الازهر الشيخ يوسف الدجوي وسمى كتاب طه حيلة بلهاء لا تجوز إلا على أبله

وهل يجوز فى رأى شيخ الازهر أن تنفق الجامعة على تعليم الكفر من أوقاف المسلمين ثم تعود فتنفق من هذه الاموال على شراء الكفر من صاحبه . وما هذا الشراء وما جدواه . ألم تعلم الأمة كلها بما فى الكتاب بعد أن نشرناه ونشره العلماء أنفسهم فى قرارهم الذى حكموا فيه ؟ إنما خسرت الامة مرتين ليربح طه مرتين وأخذ الكتاب من السوق وبقى المؤلف فى الجامعة ، وما أهون السرقة مرتين على من يسرق مرة ما دام لصا بطباعه وأخلاقه . ولكن أليس فى شراء الجامعة الكتاب

(١) كذبها العلماء فى ذلك وأعلنوا أن شيخ الازهر لم يرض ولم يسكت

ودفع ثمنه ما يومئ إلى اتجاه الابرة المغناطيسية فى هذه الجامعة وأنها إلى الجهة الشخصية المحضة ؟ ألا فنبئونى ما فائدة العدل فيما يسمى القانون إذا نحن لم نأمن الميل الشخصى فيمن يسمى القاضى ؟

وإذا جعلنا شراء الكتاب قياساً فقل لي أنت إن الدجاجة قد باضت ورقة بنك أقل لك أنا لا ريب أن فى جوفها مطبعة . . . قل لى استقلال الجامعة أقل لك إنه حماية بعض الاساتذة فيها . . . قل لى حرية التفكير أقل لك إنها حماية فكرة أثيمة . هى كما ترى أرجوحة منطقية لها صندوقان فلن تقول لى إن أحدهما قد علا إلا لقنتنى الجواب بأن الآخر قد سفل . . .

لسنا من أمر هذه الجامعة فى صندوقين . ولا شخصين إنما نحن فى عمل له ما بعده . وقد قلنا للجامعة غير مرة إن علم الادب الذى تخرجه سيكون علم الادب فى الشرق العربى كله فلم تفهم فلما أفسدته أفسدناه عليها ولو لم نفعل لكنا مجرمين آثمين وتالله لهدمُ الجامعة أخف ضرراً من هدم التاريخ لانها إن تغلق اليوم تفتح غداً ؟ ولكن التاريخ لو هدم فمن الذى يبنى هرم كيوبس غير كيوبس ؟

فيلسوفة النمل . . . .

لقد أضجرني بعض الناس وآذوني باحسانهم إذ جعلوا نسختي من (كليلة ودمنة) أكبر همهم من الادب وأكثر قولهم في الكتابة فأنا كل يوم أتلقى من كتبهم مالا أقضي منه عجباً ولا يدرون أنهم بذلك يسبُّون الجامعة المصرية إذ كيف يبلغ مثلي جسيما من الامر في البيان والكتابة وعندنا هذه الجامعة الكبرى وفيها شيءاسمهأستاذ الآداب العربية ؛ فلم لايسألون أستاذ الآداب هذا أن يبدع لهم فنا من فنون الكتابة ليدل به على قيمة نفسه ويعلمهم موضعه ثم يدل بقيمة نفسه وموضعه على مكانة الجامعة ، والعهد بكل جامعة فى الدنيا أن لايدرس فيها الادب إلا بليغ مخترع يحمل قلماً كهربائيا فى جمعه بين سلكي الشعر والكتابة وفى سطوع النور البياني منهما معا آخذا من هذا مادة ومن هذا مادة فيقذف بالعبارة المضيئة المشرقة تخطف خطف البرق وإنَّ فيها بعدُ لقوةَ السماء وروحا من روح الكون كله

فان قالوا إن أستاذ الاداب فى الجامعة المصرية رجل سوقيُّ الطبع غليظ الروح مطموس على قلبه تفضله العامة فى النكتة البيانية وفى استعداد الطبع الشعرى وفى رقة الروح وإنه لذلك يعادى البلاغة العربية بجهده لما يعرف من الوهن فى كلامه ومن ذلك مايزعم أنه «جديد» أى لايقاس الا بقياسه هو لا بقياس من فلان وفلان — إن زعموا ذلك قلنا فالجديد

فى كل هذا أن الجامعة المصرية تحمل الشهادة على نفسها من هذا الرجل بانها فى احدى اثنتين : اماغاشة مخادعةواما مغفلةمخدوعةفلوهاأيهماهي؟

أما إن طه حسين جديد على الدنيا غريب فيها بنبوغه منفيّ من ملكوت السموات محروم لذات الجنة مرسل الى مصر خاصةً ليجدد هذه الأمة ثم يعود إلى سمائه بعد هذا « الانتداب » الالهي . . . فقد قال كليلة : وإن الجنون قد يكون من بعض العقل وذلك حين يقطع العقل بالظن الضعيف ويحكم بالرأي الفائل وليس مع هذا الظن برهان ولا مع ذلك الرأي دليل كالذى كان من عقل فيلسوفة النمل . قال دمنة وكيف كان ذلك ؟ قال زعموا أن نملة خرجت تسعى فيما يسعى له النمل فابطأت على قبيلها أياما وافتقدها جماعتها وكان يقال لها (طاحين) [1] فلما طال غيابها قالت نملة: ياأيها النمل إن طاحين لبلاء علينا وهي لصيقة فينا تُعَدّ منا وليست هناك فانا نعمل فيما يسّرنا الله له من الكدح والدأب على مذهب أسلافنا وعلى العرق الذى فينا وهو ميزان فضائلنا وعيار مصالحنا وطاحين هذه أبداً تعمل على مذهب الزنابير فيما ليس تحته طائل ولا معه فائدة إلا الطنين يذهب فى الهواء فلا ينفعنا واللسع يذهب فى أجسامنا فيضرنا وهى تزعم أنها تريد العائدة لنا ولا تنفك تعمل بزعمها ثم لا تعمل إلا ضراً فما أحراها أن تذهب بنا جميعاً فى بعض حماقاتها . وإنى أحذركن ما تتورط فيه بجهلها فان المصيبة الواقعة بالناس من الرجل الأحمق يقع معها عذره

(١) كلمة من لغة النمل يقال انها منحوتة من طه حسين . . . .

فيكون مصيبة أخرى وإنا نجد فى كتب الحكمة أنه متى اغتر العاقل بالأحمق فتابعه وسكن إليه واتخذه دليلا لمراشد أموره كان فى الاحمق المأفون حماقة واحدة وفى ذلك العاقل حماقتان

قال فانتدبت لها كبيرة من النمل كانت من قبل أستاذة طاحين وقالت ويلك أيتها الجاهلة المغرورة بقديمك وأهل قديمك ألا تعلمين أن طاحين عالمة هذه القرية ومعلمتها منذ كذا وكذا وأنها لم تبرح فى ألم ومضض وعناء مما تفكر فى تجديدنا وإلحاقنا بأمة الزنابير والعصافير لتكون لنا مملكة فى الأرض ومملكة فى الهواء؟ أما إنه ليس من الهلاك أن نهلك معها فى سبيل التجديد بل الهلاك والله أن نحيا معك ومع أمثالك فى هذه المعيشة المملولة التى لافن فيها ولا جمال ولا متاع من متاع الطباع الجديدة العابثة الساخرة الكافرة المستهترة بالفنون ولذاتها ومناعمها فما نبرح نذأب الساعات الطويلة فى جر الحبة والذرة والهنة من الهنات بعد أن نكون أضعنا ساعات أطول منها فى التماسها والتفتيش عنها . ولو قد تشبهنا بغيرنا ولو قد طرنا لكانت الحياة أضعاف ما نحيا ، والأسباب مطلقة مباحة من غلب سلب والامور متروكة مخلاة من أقدم لها سخرت له وإن أعجز العجز أن لا نكون كما نريد ولا نريد أن نكون ولو صدقت همة النملة منا ثم أرادت أن تكون جواداً سابقاً أو فيلا عظيما لكانت

وما أرى طاحين إلا معدلة من طباعنا ومجددة فى حياتنا ثم بالغة بنا أسمى منزلة فى مصالح الدنيا وهى لا تجشمنا إلا أن نتبعها وما فى اتباعها

كبير تعب ولا صغيره وهى فيلسوفة وأنتن جاهلات فسبيلها ما شاءت لنفسها وسبيلكن ما شاءت لكن

قالت النملة العاقلة إن هذا فرع ليس من أصله وإنما نحن أمة من النمل ومعنا من فضيلة الكد والصبر عليه والدأب والمطاولة فيه ومن صحة التقدير وحسن التأتى للعواقب البعيدة ما لو وزن بمنافع الاجنحة كلها لرجح بعضه على جميعها وإذا كنا بطيئات وكنا نعمل أبداً فما ضرر ذلك إن كنا لا نسأم أبداً ؟ وان البطء والقوة إلى زيادة خير من السرعة والقوة إلى نقص وإنما مثلنا مثل الذى قال : هيهات إن عظمة لا تشترى بذهب الدنيا . قالت النمل وكيف كان ذلك

قالت زعموا أن رجلا فقيراً أيسر بعد الخلة الشديدة وأقبلت عليه الدنيا بعد إدبار طويل فكانت كالنهر مقبلا على منصبه. إنما همته ان يندفع لا يثنيه عن ذلك شيء وكانت لا تطلع شمس يوم إلا جاءته مع اشعتها أكياس الدنانير كأن له شمسين إحداهما ذهب وذلك من غنى الرجل وتيسيره . وجعلت الاقدار الجليلة تطرق عليه بابه لا تهدأ ولا تنقطع فما يستقبل نعمة إلا طرقت عليه أخرى واتخذ الدواب والحاشية والموكب ؛ فركب ذات يوم فنفرت به الدابة واعتراها ما يعتري أمثالها من الهيج والتقحم والمخاطرة فأذرته عن ظهرها ورمت به كما ترمي بخشبة أو حديدة فأصابت قدمه حجراً فكسرت كسراً لا انجبار له فكان لا ينهض بعدها الا متحاملا ولا يخرج الا محمولا وتضاعفت النعمة وجعلت تفشو وتمد كأن فيها روح تيار شديد ينبعث من السماء ، قالت ولما كان يوم العيد خرج على قومه في زينته فرآه

طالب علم فقير كان يمشي مع أستاذه وكان أستاذه حكيماً فبهره ما عاين من حال الرجل وقال يا سيدي ما أجمل النعمةَ وما أحسن أثرها على صاحبها وان الله ليدير حركة الأرض ولكنه ترك للمال أن يدير حركة أهل الأرض فَنَحَلَهُ بذلك شيئاً من الإلهية وما أشقى المحرومَ وأكثر عناءَ الفقير فهو المسخَّر ولا ريب ؛ وليس من البلاء أن مثلي لم يزل يحيا ولكن البلاء كيف يحيا ؟ فقال الأستاذ هوِّن عليك يا بني فان كل ما تراه فنعلك خير لك منه لانك تنتعل على قدم صحيحةوهذا الرجل ما جاءه الغنى يجري الا ليقعد هو فلا يمشي . وأنت تظن أنه يبتاع بذهبه كل ما أحب على أنه لا يحب الا عظْمة لقدمه المكسورة وهيهات أن تبيعه الحياة عظمةً بكل ذهب الارض

قال كليلة وطال الخلاف بين النمل فاذا (طاحين) مقبلة تسعى فقالت ما كنتنَّ فيه بعدى ؟ فذكرن لها ما تراجَعْنَ فيه القولَ وما كان الجدال عليه قالت ألا دَعْنَ مثل هذا النمل الدين وانما نحن نمل الدنيا . . . . وقد كشفتُ لكنَّ عن عالم جديد كان مجهولا وسآخذكن اليه فنعمره ونملكه فاتركن هذا القديم وما كنا نتعايش عليه وَهاَمُمْنَ الى العالم الجديد وافعلن ما آمركنَّ به . فقالت العاقلة ما أنا بذاهبة وما يكون الجديد جديدا باسمه ولكن بمنفعته ولا منفعة الا عن يقين ولا يقين الا بعد تجربة ولا تجربة الا في ملاءمة ومصلحة فاذا أنكر طبعى أنكرت وقد قالت العلماء إن ثلاثا لا تصلح مع ثلاث : الحياةُ مع المرض واليقين مع الشك والطبع مع التقليد فأنا آخذة بظاهر العمل والحيطَة وتاركة لكن باطنَ العلم والفلسفة وسترين وأرى ؛ قالت الكبيرة من النمل انما أنت من أنصار القديم ولن

تفلحي أبداً ونحن ذاهبات على حبك وكرهك وانما الدنيا ما يأتي لا ما يمضي وما يولد لا ما يدفن وستريننا في عالمنا الجديد أولاتِ أجنحة مَثْنَى وثُلاَثَ ورُبَاعَ ؛ ثم إنها نظرت لطاحين وقالت أما قلت آنفاً ان هواء ذلك الاقليم ينبت الاجنحة قالت بلى وإنْ هي لم تنبت فقد نظرت في هذا وسنصنع كما صنع الانسان حين لم يطر فاتخذ الطيارات ؛ وامتنعت عليه قدرة وسخرت له قدرة تكافئها فكان من هذا تعديل لهذه . وسنحتال لبعوضة فنأسرها ونذللها تذليل الآلة في العمل فتطير بنا مرة وتقع مرة حتى اذا رُضْنَاهَا وانقادت لنا وسوَّينا بين طباعها وطباعنا وأصبحت تطير وتنزل عن أمرنا وتَطَبَّعت على الطيران وَلَدَت لنا من بعدُ طيارات كثيرة . . . .

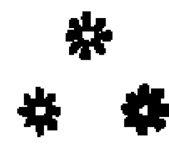
قال ثم انهن تزاحفن صفوفا مرصوصة ومضين يتبعن (طاحين) وهن يتهامسن أنه ما من منزلة في العلم بعيدة أو قريبة الا ولهذه الفيلسوفة خطوة هي بالغتها . . . . قال وينتهين الى العالم الجديد فاذا . . . وسكت كليلة .

قال دمنة ويحك فاذا ماذا ؟ قال فاذا كرة صبي ملقاة في ركن من الدار فقالت طاحين ههنا ههنا فهذه هي أرضنا الجديدة ؛ فلم يكن غير بعيد حتى غشينَّها من جميع جوانبها فاذا هي في رأي العين كأنها مكتوبة بالحبر . واستوتْ طاحين على حَدَبَة الكرة تفكر فيما تجدد لهن من واضح وخفيّ وظاهر ومُخَيَّل ؛ وما لبث الصبي أن عاد من المدرسة وفي جلده لَذَعَاتُ الضرب لانه لم يحسن كتابة درسه فأهْوَى الى الكرة بيده

ثم نظر فاذا هي سطور فوق سطور فقال لعن الله الكتابة أدعها فى المدرسة فتمشي حروفها الى الدار؟ ثم ركض الكرة بقدمه ركضة شديدة أتت على نصف النمل وطحنت أسفله بأعلاه فتهارب الباقيات يسعين الى نجائهن فى كل وجه ومهرب وهو يقتفيهن بحذائه ويدوسهن حيث عرضن فلم ينج منهن الا قليل ذهبن متضعضعات الى القرية فتلقتهن النملة العاقلة وقالت ما أمزجاه بكن من العالم الجديد . ؟

فتكلمت نملة وقالت لعن الله الجديد ومجدده وآخذه ومعطيه إنْ كان والله الا حذاء صبي خبيث ودوساً دوساً وحطماً حطماً فمن لم تهلك فان تنسى أبداً أنها من الهلاك رجعت .

ولقد محصنا الامتحان والابتلاء فما كان لنا من جديد مع طاحين المشئومة الا أن اشترينا حياة بعضنا بهلاك البقية ولا جديد فى عقل المجنون الا جنون العاقل



وبعد فسنفرغ لما كنا فيه من نقد كتاب طه حسين فقد أبلغنا الحجة على الجامعة حتى انقطعت ولبسها الخزى بإطراقه وذلته وما كانت أمثال (كليلة ودمنة) الا من أجلها وعلى تفصيلها فسندع تلك الامثال لنتم القول فى ذلك الكتاب وما ندعي أننا نتعقب جميع مسائله وفصوله وانما نختار منه اختيار اذ الغرض أن نومىء الى أصول الخطأ وندل على سقوط الكتاب وبلادة مؤلفه وأنه لا جديد عند هذه الفئة الا الوقاحة فى العلم . ولو أن طه يقبل منا أو تقبل الجامعة أو تقبل وزارة المعارف لجعلنا لمن يقبل أن يختار

أربع صفحات من هذا الكتاب تكون متتابعة متصلة وليخترها كيف شاء فان عجزنا عن اخراج غلط فى هذه الصفحات الأربع فالكتاب كله صواب وان فعلنا فالكتاب ساقط دفعة واحدة . وهذه مخاطرة كما ترى بل هي قمار فى النقد ولكنها تنهى المعركة بضربة ؛ وما نظن كتابا فى الادب لمتقدم أو متأخر مهما بلغ من السخف يمكن أن يقامر عليه فى النقد بمثل هذه الطريقة على حين ذلك ممكن فى كتاب الجامعة المصرية حتى ما من رأي فيه للمؤلف الا هو خطأ من المؤلف ولا تميز الجامعة السّهى من القمر

قال فى صفحة ١٤٥ وقد ذكر اختلاف الرواة فى معلقة أمرئ القيس فى بعض الفاظها وبعض أبياتها : وليس هذا الاختلاف مقصورا على هذه القصيدة وانما يتناول الشعر الجاهلي (كأنه رواه كله . . .) وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر : وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى نخيل اليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف وأن الوحدة لاوجود لها فى القصيدة وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضا وأنك تستطيع أن تقدم وتؤخر وان تضيف الى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجا أو جناحا مادمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية وقد يكون هذا صحيحا فى الشعر الجاهلى لان كثرة هذا الشعر منتحلة مصطنعة . فأما الشعر الاسلامى الذي صحت نسبته لقائليه فانا أتحدى أي ناقد ... أن يعبث به أقل عبث دون أن يفسده وأنا أزعم أن وحدة القصيدة فيه بيّنة وأن شخصية الشاعر

ليست أقل ظهورا منها فى أى شعر أجنبي وأنما جاء هذا الخطأ من اتخاذ هذا الشعر الجاهلى نموذجاً للشعر العربي مع ان هذا الشعر الجاهلي — كما قدمنا — لا يمثل شيئا ولا يصلح الا نموذجا لعبث القصاص وتكلف الرواة . انتهى

وقد كنا نصحنا لطه فى حديثنا معه ان يتثبت اذا كتب فى جملة جملة ومعنى معنى فاذا فرغ من الاملاء رجع الى كلامه فعارض بعضه على بعض ليتقي المناقضة فانه قد يبنى ويهدم على نفسه فى بضعة اسطر .

وأنت تراه هنا يزعم أن المستشرقين أنكروا الوحدة والشخصية فى الشعر العربي ثم يزعم ان ذلك انما جاءهم من اتخاذ الجاهلى نموذجا فكأن المستشرقين هؤلاء لم يقفوا على الشعر الاسلامى ولو اطلعوا عليه لوجدوا فيه الوحدة والشخصية كما وجدها طه . فاذا كان المستشرقون من الجهل بهذه المنزلة فما قيمة حكمهم واذا كانوا قرأوا الدواوين الاسلامية وطبعوا بعضها فما قيمة كلام طه ؟ فان قال إنهم اطلعوا على الشعر الاسلامى وجهلوا الوحدة والشخصية فيه قلنا فكيف يكون هذا الخطأ « انما جاءهم من اتخاذ الشعر الجاهلى نموذجا » وهم يعمّون الشعر العربى كله جاهليا واسلاميا بالحكم ؟

ولو لم يكن من العجيب الا أن أستاذ الادب فى الجامعة يجهل سبب اختلاف الرواة فى ألفاظ الشعر ومواضع أبياته . لقد كان فى ذلك وحده ما يخزي الجامعة أشد الخزى فان العرب انما كانوا يحفظون ويتناقلون وهم قوم كما قيل أناجيلهم فى صدورهم فلم يكتبوا ولم يدونوا ومع الحفظ النسيان قليلهُ وكثيرهُ فاذا نسى أحدهم الكلمة فى بيت من الشعر وضع

غيرها فى مكانها ليقميه إذ لا بد أن يرويه أو يتمثل به ثم يكون غيره لم ينس فيروي الشعر على أصله فتجمتع روايتان فاذا كانوا ثلاثة فتلك ثلاث روايات كل منها بلفظ غير لفظ الاخرى وهلم جرا .

وقد يحفظ أحدهم القصيدة فاذا ردها يوما على غيره قدم وأخر فى بعض أبياتها كما تتفق له حالة الذاكرة فى ساعته تلك لا كما حفظها من قبل إذ ليس عنده أصل مكتوب يعارض عليه ، ويصنع غيره مثل هذا الصنيع بضرب آخر من التقديم والتأخير كما يتهيأ لذاكرته ثم يكون غيرهما قد رواها وثبتت فى حفظه فلم تختلط فيأتى من ذلك فى القصيدة الواحدة ثلاث روايات متعارضة واذا كثرت أبياتها كثرت رواياتها على حساب ذلك . وقد فصلنا أسباب هذا الاختلاف على أكثر وجوهه فى الجزء الاول من (تاريخ آداب العرب) فلا محل لاعادته هنا . واذا كانت الوحدة والشخصية الشعرية لا توجد ان فى الشعر الجاهلى لانه من عمل القصاص وتكلف الرواة وكانتا موجودتين فى الشعر الاسلامى الذي صحت نسبته لقائليه فقد وجب اذن أن توجد فى الشعر المصنوع على الجاهلية شخصية صانعيه على الاقل لانه موضوع بعد الاسلام ولان نسبته الى قائليه صحيحة إذ لم تقله الحجارة وانما قاله شعراء علماء يضعون الشعر الجيد ويحسنون حوكه وصنعته : ومنذا يستطيع أن يضع على امرىء القيس والنابغة والاعشى وغيرهم ثم ينخدع له علماء الشعر فيحملون كلامه ويروونه الا اذا كان فحلا مجودا مبدعا يعرف كيف يصنع وكيف يحتذي ؟ فاذا كان كذلك فكيف يغفل هذا الفحل عن الوحدة والشخصية فيما يقلده وان غفل فأين

تذهب شخصيته هو ؟ وما هي هذه الشخصية الشعرية عند طه .

يقول فى صفحة ١٦٠ فى ترجمة مهلهل الذي قيل انه سمي بذلك لانه هلهل الشعر أى أرقه . وليس من شك فى أن شعر مهلهل مضطرب فيه هلهلة واختلاط ولكننا نستطيع أن نجد هذه الهلهلة نفسها فى شعر امرىء القيس وعبيد وابن قميئة وكثير غيرهم من شعراء العصر الجاهلى فقد كانوا جميعا مهلهلين اذن ؟ غير اننا لا نستطيع ان نطمئن الى ان يهلهل شعراء الجاهلية جميعا الشعر بحيث يصبح لكل واحد منهم شخصيات شعرية مختلفة تتفاوت فى القوة والضعف وفى الشدة واللين وفى الإغراب والسهولة واذن فمن الذي هلهل الشعر ؟ هلهله الذين وضعوه من القصاص والمنتحلين . انتهى .

فالشخصية عنده هى الجزالة والفخامة أو الرقة والسهولة كأن كل شاعر لا يكون شاعراً الا اذا لزم نمطا واحدا بعينه وهذا خطأ مبين وضلال بعيد فليس من شاعر قديم أو حديث بل ليس شاعر يعد شاعرا الا اذا أعطى المعانى خير ألفاظها جزلة فى مقام الجزالة ورقيقة فى مقام الرقة ولا تجد من يلزم طريقة واحدة فى اختيار اللفظ الا اذا لزم فنا واحداً فى المعنى كالشاعر الغزل المتهالك فى نسيبه فان هذا الغزل لا تحسن فيه الا ألفاظ فى رقة الدموع والتنهدات وانت تعرف ان بشار بن برد هو القائل .

اذا ما غضبنا غضبةً مُضَرِيَّةً

هتكنا حجابَ الشمس أو قطرتْ دَمَا

اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة
ذُرَا مِنْبَرٍ صلّى علينا وسلّما

وهو القائل في جاريته (ربابة) .

ربابة ربة البيت   تصب الخل في الزيتِ
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوتِ

وقد قيل له في ذلك فقال إن هذا في ربابة خير من قول أمرىء القيس في معلقته وذلك قول صحيح لانه يعبث بربابة ويداعبها ويكاد شعره يكون قرصةً رقيقة في جلدها .... وثم تعريف آخر للشخصية عند طه فان المضطرب لا يستقر على شيء قال في صفحة ١٧٧ وقد أورد شعر طرفة بن العبد

الا أيهذا الزاجري أحضُرَ الوَغى
وأن أشهد اللذاتِ هل أَنت مخلدي
فان كنتَ لا تستطيع دفعَ منيتي
فدعني أبادرْها بما ملكت يدى

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى   وجدِّك لم أحفِلْ متى قام عُوَّدى
فمنهن سبقي العاذلاتِ بشَربة   كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزبِدِ
وكرّى اذا نادى المضاف مُحَنَّباً   كسيدِ الغضا نبهته المتوردِ
وتقصيرُ يوم الدَّجْن والدجن معجب   ببهكنةٍ تحت الخباء المُعَمَّد

قال: في هذا الشعر شخصية بارزة قوية لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة منتحلة أو مستعارة وهذه شخصية ظاهرة البداوة

واضحة الإلحاد ... بينة الحزن واليأس والميل الى الاباحة ... فى قصد واعتدال ، هذه الشخصية تمثل رجلا فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل الى شيء (سبحان الله) ثم قال ولست أدري أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر وليس يعنيني أن يكون طرفة قائل هذا الشعر بل ليس يعنيني أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر وانما الذي يعنيني هو أن هذا الشعر صحيح ... لا تكلف فيه ولا انتحال انتهى .. فانظر كيف تفهم هذا الخبط وهل كل شعر يقوله شاعر ألا هو صحيح لا تكلف فيه ولا انتحال بالإضافة الى قائله ثم هو بعد ذلك اذا نسب الى غير قائله كان موضوعا على هذا الذى نسب اليه ؟ واذا نحن ذهبنا هذا المذهب فى كل ما يروى عن الجاهلية فقلنا لا يعنينا أن يكون قائل هذا الشعر فلانا أو غيره ولم ننظر الا الى الشعر فى نفسه فماذا يبقى من كتاب طه حسين وما فائدة بحثه فى الشعر الجاهلي وانما يقوم هذا البحث على اثبات الشعر لمن عُزي اليهم او نفيه عنهم بعد الإدلال بالحجة على هذا وعلى ذلك (ولا يعنيني) تطلق البحث من هـذين القيدين معا ؟ على ان معنى الشخصية هنا هو العاطفه والنزعة والفكرة الفلسفية فاذا قال طرفة هذه الابيات كانت فيها شخصيته الشعرية واذا قال أبياتا مثلها قوة ورصانة فى وصف الناقة لم يكن من سبيل الى ان تكون فيها شخصيته عند طه الا اذا كان الشاعر جملاً من الجمال .. كل هـذا وذلك خلط يقلد الرجل فيه الافرنج لانه لا يعرف ماهو الشعر العربى ولا كيف يصنع فان الشخصية فى هـذا الشعر ليست شخصية أفراد ولكن شخصية أحزاب

وجماعات . فجماعة يلزمون طريقة الجزالة والقوة فيقلد بعضهم بعضا في ذلك فيستوي شعرهم في الطريقة على اختلافهم وتعدد أشخاصهم وآخرون يؤثرون الرقة والسهولة ويأخذ أحدهم مأخذ الاخر فيتشابه شعرهم كذلك .

وقل مثل هذا في الصناعة البيانية ومثله في عمود الشعر كشعراء الشيعة وشعراء الفلسفة والحكم والامثال الخ الخ وكل نوع من هذه الانواع يجمع شخصية طائفة فلست بمستطيع أبدا أن تقول لى هذا غزل فلان وهذا غزل فلان تعرف ذلك من شخصية في كل منها . أو هذه أمثال فلان وهذه أمثال فلان . انما تختلف الطريقة والصنعة كبديع مسلم وابى تمام وطبقتهما وكطبع البحترى واشجع السامى وجماعتهما وأمثال ابن عبد القدوس والمتنبي ومن يذهب مذهبهما وفسق ابى نواس والخليع وأمثالهما وزندقة المعرى ومن اعماه الله بعماه وقس على ذلك فان الصناعة الواحدة تقارب بين اهلها ان كانت بديعا أو لغة أو غيرها . ومن المضحك قول طه إنه يتحدى أي ناقد ان يعبث بالشعر الاسلامى « اقل عبث » دون أن يفسده فليأت هو بقصيدة واحدة لا يمكن فيها تغيير لفظ بلفظ و تقديم بيت على موضعه أو تأخيره عن موضعه . وان كان هذا مما يفسد الشعر فاول من يعبث بالشعر قائله الذى وضعه لانك ترى الشاعر يعمل القصيدة وفيها البيت من الابيات وموقعه الثالث أو الرابع مثلا ثم يخرجها فاذا هذا البيت بعينه هو الثلاثون أو الاربعون ولا يختل نظم القصيدة ولا عمود الشعر ان كان هنا أو هنالك

وماهى وحدة القصيدة اذا كنت تبدأ بالنسيب ثم تخرج الى الوصف ثم تميل الى الحكمة ثم تنتهى الى المدح وأنت فى كل ذلك تفصل الكلام بالمثل بعد المثل ولو حذفت النسيب والأمثال من قصائد المدح لاستقام المدح ولم يفسد الشعر

إن الشعر العربي خاضع لقوافيه ما من ذلك بد فالقافية واختلاف معانيها قبل الشاعر وعمله وفكره وشخصيته وانظر كيف يصنع هذا الشعر قال ابن رشيق : كان ابو تمام ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز بالصدور وذلك هو التصدير فى الشعر ولا يأتى به كثيراً إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه . والصواب أن لا يصنع الشاعر بيتا لايعرف قافيته . قال ومن الشعراء من يسبق إليه بيت واثنان وخاطره فى غيرهما يجب أن يكونا بعد ذلك بأبيات أو قبله بأبيات وذلك لقوة طبعه وانبعاث مادته ومنهم من ينصب قافية بعينها لبيت بعينه من الشعر مثل أن تكون ثالثة أو رابعة أو نحو ذلك لايعدو بها ذلك الموضع إلا انحلّ عنه نظم أبياته « وذلك عيب فى الصنعة شديد ونقص بيّن » . ومنهم من إذا أخذ فى صنعة الشعر كتب من القوافى ما يصلح لذلك الوزن الذى هو فيه ثم أخذ مستعملها وشريفها وما ساعد معانيه وما وافقها واطرح ما سوى ذلك إلا أنه لا بد أن يجمعها ليكرر فيها نظره ويعيد عليها تخيّره فى حين العمل وهذا الذى عليه حذاق القوم

قلنا ولو كان شيخ الجامعة من (حذاق القوم) لعرف أنه لايعيب الشعر العربى ولا ينقصه إلا القافية كما أنه لايحسنه ويزينه إلا هذه القافية

نفسها فاذا قلنا الوحدة والشخصية عابته القافية من جهة ما وإذا قلنا التأثير والتمكين والموسيقى والنغم وقوة السبك والاتساع في المعاني . ودلالة بعض الكلام على بعض كانت القافية هي تمام الحسن . وهذه القافية الواحدة في القصيدة هي أعسر الأشياء في الشعر الافرنجي فلما انطلق شعراؤه منها جاءوا بالشعر كما يجيء أحدنا بالمقالة من النثر جملا معلقة على جمل وسطوراً مرتبطة بسطور فمن ثم معنى الوحدة في الشعر الافرنجي وما هي بشيء عندنا لأن لغتهم قليلة الزخرف ضئيلة المادة ؛ على أننا إذا نوعنا القوافي والبحور جاريناهم وسبقناهم لو أن عندنا أمة تطلب الشعر فان الشعر العربي بعد الأمويين لم يزل شعر فئة لا شعر أمة. وقد بينا هذا المعنى في مقالة نشرها المقتطف الأغر [1] ؛ إن للشعر العربي على طريقته المعروفة حيزاً من النفوس يجب أن يقر فيه ولا يعدوه فان مداره على التأثير فاذا أردته على غير ذلك كنت كالذي يتناول العود أو الكمنجة ليتخذ من أحدهما هراوة يضرب بها

ونمسك الآن عن اتمام هذا البحث لأن له موضعاً في الجزء الثالث من كتابنا (تاريخ آداب العرب) ونحن ندخره لموضعه . غير أنا نختم القول بطرفة بديعة في الشخصية . قالوا كان ابن ابي المولى من شعراء

---

(١) أراد شيخ المجلات بعد أن بلغ الخمسين من عمره المبارك المديد ان شاء الله أن ينشر مباحث يتناول فيها ما تقلبت عليه الفنون والعلوم في هذه الحقبه التي عاصرها. فكتبنا مقالة (الشعر العربي في خمسين سنة) ونشرت في عدد شهر يناير من سنة ١٩٢٦ وأستاذنا العلامة الكبير الدكتور يعقوب صروف منشيء المقتطف على أنه من أعظم الثقات في علوم الغرب هو من أشد الناس تعصباً للفضيلة الشرقية وحرصاً عليها ومباهاة بها

المدينة وكان موصوفاً بالعفة وطيب الإزار فأنشد عبد الملك بن مروان شعراً رقيقاً يقول فيه :

وأبكي فلا ليلَى بكت من صبابة　　لباكٍ ولا ليلَى لذى البذل تبذلُ
وأخنعُ بالعُتبَى اذا كنت مذنباً　　وان اذنبتْ كنتُ الذى أتنصلُ

فرقّ له عبد الملك وأخذته هذه الشخصية العاشقة المحترقة فقال من ليلى هذه ان كانت حرة زوجتكها وان كانت أمة لأشترينّها لك بالغة ما بلغت قال الشاعر كلا يا أمير المؤمنين ما ليلى التى أنسب بها الا قوسي هذه سميتها ليلى .... لان الشاعر لا بد له من النسيب

فيا ليلَى يا ليلَى
« كل يغنّي على ليلاهُ » متخذاً
ليلى من الناس أو ليلى من الخشب ....

مسلم لفظا لامعنى ....

كنت أوردت فى المقال الذى عنوانه (قال دمنة . . .) مثل الخطيب الزنديق الذى غره الضعف من نفسه طيشاً ولؤماً كما غرته القوة من الناس حلماً وتكرما فطاش ولؤم بمقدار ما تغافلوا وكرموا وزعم له شيطانه أن الكفر لن يكون في مثل هؤلاء الجامدين كفراً إلا فى المسجد الجامع وعلى المنبر وفى يوم الجمعة . ولما أوفى دمنة على مهوى المثل وانشأ ينحدر إليه كانت بقية الصحيفة مقطوعة من نسختى فقلت لعل فى القراء من تكون عنده نسخة غيرها فيعارض عليها ويأتينا بما يكمل هذا النقص فلم يتمه أحد إلى اليوم وقد كاد ينسلخ الشهر .

ثم إن جريدة السياسة اليومية نشرت مقالا لطه حسين يرمى فيه علماءنا بالجمود والجهل ويغري بهم نواب الأمة وشيوخها ويخرجهم مخرجه المتطفلين على هذه الأمة وعلى التاريخ والعصر وكأنه حسب أصلحه الله أن البرلمانيين نسخ من نفسه أخرجتها مطبعة الجامعة . . . أو كأنه لا يعلم أن نفسه هذه كتاب مهما تجهد الأبالسة فى نشره لا تنشر منه فى أمة يكون فيها الأزهر وعلماؤه والعربية وأدباؤها أكثر من عشر نسخ نصفها فى الجامعة المصرية وحدها . . .

ثم خرجت السياسة الأسبوعية وفيها مقال آخر للشيخ أبى مرغريت

فى فلسفة العلم والدين والجمع بينهما فلم يعد يسعنى فى الدين وهو ميثاق. ولا يجمل بى فى الأدب وهو أمانة إلا أن أجد بقية مثل الخطيب. فنفضت بيت كتبي نفضا حتى أصبت القسيمة الضائعة من تلك الصحيفة. فاذا فيها ما نسخته :

قال دمنة فلما كانت الجمعة والتقى الناس لأداء المكتوبة جاء الخطيب وكان رجلا ضريراً فشق المسجد حتى صعد المنبر فتنحنح وسعل وقال أيها الناس لقد وقع فى قلبي الرثاء لكم وداخلتنى الشفقة عليكم فما أغشكم بعد اليوم ولقد غششت من قبل إذ كنت لا أقول ما أعلم فلن أجمع على نفسي بين ما ترونه كفراً وما أراه غشا ؛ لقد كنت أقول لكم يا عباد الله وإنما أنتم عباد أنفسكم فان رجلا عربيا وضع لكم شرعا وكتابا لفّق فيه من خرافات الأعراب الذين يبولون على أعقابهم ثم مضى لسبيله فتوهمتم ديناً وإلها وتعبدتم لهذا وتعلقتم بذاك فوهمكم تعبدون وأنفسكم تؤلهون، وزعمتم أن الوحي كان ينزل كلاما ولو نزل كلاما للمهتدين لنزل حجارة على الكافرين .

ولما انتهى إلى هذه الكلمة من قوله أصابته حصاة فى وجهه حَصَبَهُ بها رجل من عُرض الناس فقال ها . كأنكم توهمونى أن السماء ترد علي بهذه الحصاة ولكن من أين جاءت ؟ جاءت من ناحية الباب لا من ناحية السقف وليس أحد على الباب وليس أحد إلا فى المسجد فمن المسجد أُصبت وهذا هو المنطق . فرماه أحدهم بنعل صكّت وجهه فقال وهذا دليل آخر فما كانت السماء لترسل نعالا وهذه النعل كما أتحسّسها .

نعل (مطينة) وليس فى السماء طين فمن أين جاء الطين ؟ جاء من الارض وكانت النعل فى قدم أحدكم فالتاث بها فمنكم أصبت وهذا هو المنطق فتصايح الناس وقالوا أيها الشيخ إن أول الغيث قطر وينسكب وهذا هو المنطق . . . ثم انهمرت عليه نعالهم حتى ملأت جوف المنبر ودفنوه فيها دفناً ثم تركوه وتركوها له ومشوا حفاة يرون أنهم يغبّرون أقدامهم فى سبيل الله

قال دمنة ثم إن شيخاً كان معهم فخالفهم إلى المسجد وتسوّر المنبر حتى علاه فكشف عن وجه الخطيب المسكين وكان فى برزخ بين الدنيا والآخرة فتنفس حتى ثابت إليه روحه ثم قال له أيها الغبي لقد كنت عالماً تكفر فى نفسك وفى رأيك فتركوا لك رأيك ونفسك ولم يضطروك إلى ما تكره وخلاك ذم . ولكنك كنت رجلا حَمِقاً مخذولا لا تعرف موضع رأسك من مواضع رؤوس الناس فلما أبيت إلا أن يكون على كل عنق مثل وجهك الدميم وأبيت إلا حملهم على كفرك وجعلت باطلك أمير حقوقهم وأبيت إلا أن تسمى فيهم رأساً وما يعرفونك إلا ذيلا كان منهم ما رأيت فعرّفوك أيها العالم العظيم قيمة علمك إذ أهدوا إليك مكتبة عظيمة كل « مجلداتها » نعال . . . فقال الخطيب ولكنهم أهانوا المسجد وانتهكوا حرمته وأبطلوا الصلاة . . . . . .

فقال الشيخ : يا رقيع ما أراك الساعة تتكلم إلا بلسان من نعل . . . . قم أخزاك الله فلو أنهم عرفوك بهذا الثقل لأهدوا إليك مكتبة أخرى من الحجارة

***

قرأنا ما كتب طه فى العلم والدين فاذا منزلة الاستاذ فى العلم كمنزلته فى الأدب وهو مقلد فيهما جميعاً لا يصحح شيئاً على وجهه لأن ملكة التمييز فيه ضعيفة ومن ضعفها ما استطال على الحقائق غروراً ومكابرة وجرءة يحسب فى ذلك تغطيةً لجهله وخطأه إذ كان فى منصب علمى كبير وليس معه من وسائل العلماء فى حدة الذكاء وصحة الاستنباط ولا من أخلاقهم فى الأناة والتثبت ولا من أوصافهم فى الاقرار والتسليم إذا توجهت الحجة وقام الدليل بل هو ماترى من خبط إلى هوج إلى حمق إلى سَوْرة كسورة السكارى فى الهذيان والعربدة . . . .

ولقد يقتلع المرء جبلا من الأرض يمتلخه من عروقه فيفرغ منه ولا يقتلع غلطة من نفس طه وإن شهد الملأ من الناس على أنها غلطة وعلى أنه لا يقوم فيها عذر ؛ حدثنى فلان قال ناظرت هذا الشيخ طه يوما فلما ضيقت عليه وانقطع وصار بين التسليم أو البهت قال لا أريد أن أقتنع . . . وانظر أنت أى رأى يستقيم فى هذه الدنيا مع « لا أريد أن أقتنع » وهى كلمة تأكل الأدلة والبراهين كما تأكل النار الحطب كلما ازدادت من الأكل ازدادت من الجوع .

مهد طه لرأيه بأن أعلن لشيخ الأزهر ولعلماء الدين أنه مثلهم مسلم ثم قال « والفرق بينى وبين الشيوخ أني مسلم حقاً أفهم الاسلام على وجهه » ، فياأرض ابلعي فهذا مستنقع لا رجل . أهو مسلم حقا وشيخ الأزهر والعلماء مسلمون لا « حقا » وهم لا يفهمون الاسلام على وجهه

مثل طه لأنهم لم يكذبوا القرآن ولم ينكروا النبوة مثل طه . . .

لا يستقيم الكلام على مانفهم من أوضاع اللغة العربية إلا إذا كان لطه شيء خاص يسميه إسلاماً فمن ثم تنشأ الفروق الكثيرة بينه وبين شيخ الأزهر والعلماء . وهذا الشيء الخاص على مايظهر هو حرية الفكر والرأى يفهم على قدر ضعفه ويعمل على قدر ميله فيخطىء والخطأ عنده إسلام ويضل والضلال إسلام ويفجر والفجور إسلام ويكفر والكفر إسلام ويسب الاسلام وذلك إسلام أيضاً

ليت شعرى إلى كم يتنطع هؤلاء المساكين فى معنى حرية الفكر والرأى فاسمع ياطه قال دمنة :

ثم إن هذه الدجاجة كانت تزعم لنفسها حرية الفكر وتنسى أن للفكر شروط كثيرة لم تجتمع لها وأن حرية الفكر فى مثلها هى حرية الجناية عليها وحرية الجناية منها فرأت جملا بازلا كالقصر العظيم يقوده طفل صغير فهالها مارأت من عظمه وقوته ووقع من نفسها ماتلمت من لينه ومطاوعته فقالت للدجاج اني قد فكرت في الترفيه عنا فسنتخذ لنا خادما قوياً نمتهنه فى أعمالنا وهو على قوته وديع ساكن وعلى دعته لبق متصرف ، ثم إنها ذهبت فأخذت فى منقارها زمام الجمل وجاءت به تقوده فلم يكد يضع خفه فى تلك التماريد (الأقفاص) حتى هشمها وتفلق البيض وهلكت الفراريج وطاح الدجاج فى كل ناحية وفهمن من مصيبتهن مالم يفهمن من عقولهن وهذا كله على أن الجمل لم يضع إلا رجله فى بيت الدجاج فكيف لو ذهب وجاء فيه كما يفعل الخادم فى الخدمة . . . ؟

ثم قال طه . « إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها . وإذن فالدين فى نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وانما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها وإن رأي « دور كيم » أن الجماعة تعبد نفسها أو بعبارة أدق أنها تؤله نفسها (يريد أنها تخترع الاله بفكرها ثم تعبده فهى تعبد فكرها وتؤله نفسها) . وأن النصيحة أن يقال الحق للناس وهو أن الدين فى ناحية والعلم فى ناحية أخرى وليس إلى لقائهما سبيل . . . وأن العلم لا يقبل تأويلا فهو إذا زعم لك أن الأرض كرة وأنها تدور حول الشمس لن يقبل منك أن تؤوله أو تحوله عن وجهه كما انه لن يقبل منك ان تؤول أو تحول قواعد الحساب وأصول الرياضة ... وإذن فالتأويل يتناول نصوص الدين وحدها وهؤلاء المؤولون يفسدون نصوص التوراة والقرآن ويحملونهما غير معناها ليوفقوا بينهما وبين العلم هم يأتون بتوراة جديدة وقرآن جديد وهم يفهمون التوراة والقرآن (لا يذكر إلا التوراة والقرآن أما الانجيل فيظهر لنا أنه فى شفاعة زوجه المسيحية . . .[1])

---

(١) هي سيدة فرنسية عاقلة تكمل عقل زوجها وتعينه برأيها فان اتفق له فكر حسن فهو منها ولو أنها كانت تعرف العربية لكانت لجاما لهذا الرجل ؛ نشر طه فى السياسة يوماً أنها ذهبت به الى مدينة لورد فى فرنسا وهذه المدينة تحدث فيها كل سنة معجزة فى شفاء المرضى فرجت السيدة أن تقع المعجزة لطه غير أنه هناك غلبت عليه شقوته فبدأ ينتقد ويكفر فردت كلامه الى حلقه وقالت له « أبق هذا لنفسك» فأطرق وسكت والأمة كلها اليوم تقول لطه « أبق هذا لنفسك»

فهما لو سئل عنه السلف من المسلمين واليهود (أما النصارى ففى شفاعة ...) لأنكروه أشد الانكار ؛ ثم يرى طه أن من الممكن أن يكون الانسان ذا دين يؤمن بما لم يثبته العلم ويكون عالما لا يقر مالم يثبته العلم قال : « فكل امرئ منا يستطيع إذا فكر قليلا أن يجد فى نفسه شخصيتين ممتازتين احداهما عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل (يعني وتكفر) وتغير اليوم ماذهبت إليه أمس . والأخرى شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب فى غير نقد ولا بحث ولا تحليل وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا لانستطيع أن نخلص من إحداهما فما الذى يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى . وأنا أؤكد أن هذا اللون من الحياة النفسية وحده هو الذى يكفل السلم بين العلم والدين وهو أيسر على المسلم منه على اليهودى والنصرانى .

فأما أن تقف موقف المؤولين فتغير النص وتحمله مالا يطيق فانك لاتنصر الدين ولا تؤيده وانما تفسده وتنزله عند إرادة العلم وتعترف بأن السلف كله كان خاطئاً حين فهم الكتاب على غير مانفهم وعلى غير مايفهم العلم . . . مالك لاتدع للعلم حركته وتغيره وللدين ثباته واستقراره إنك انما تجعل الدين هزؤا وسخرية باخضاعه لهذا النوع من العبث الذى يسمى تأويلا وخير من هذا النحو من العبث وإفساد النصوص « الالحاد الصريح » .

انتهى كلام طه بحروفه وتلك خلاصة مقاله لم ندع منها إلا

الحشو وإلا ماهو زيادة في الكفر أو مالا طائل تحته وأنت تراه يدير الكلام على نفسه ويقيم لنفسه المعاذير مما فعل في دروس الجامعة ومما سيفعل فان مقاله هذا مصارحة للأمة كلها بالعداء وإصرار على ما أنكرته منه واعلان إليها أنه لن يتغير وأنه سيجحد ملء نفسه وعقله وأنه مُرصِد لها ولدينها ، ثم يزعم للناس أنه مع ذلك مسلم مؤمن . والمقال بجملته تفسير وتوجيه وتعليل لكفر الرجل بحجة العلم يريد أن يثبت فيه أنه من الممكن أن يكون مثله كافراً أشد الكفر على اعتبار أنه عالم يبحث بعقله ثم لا يمنع ذلك أن يكون مؤمناً أقوى الايمان على اعتبار أنه شاعر يحتوي الايمان في شعوره ؟ وليس يخفى أن الشعور محل الغفلة كما أن العقل محل الخطأ فلم يكون الشيخ كافراً ومؤمناً في عقله وشعوره ولا يكون في فلسفته هذه مغفلا من ناحية ومخطئاً من ناحية أخرى ؟ وهل يجتمع هذا التناقض إلا في عقل واهن ضعيف كعقل الأستاذ ؟ وإلا فمن هذا الذي يعقل أن نفي النبوة والوحي وتكذيب الكتب السماوية هو على وصف من الأوصاف علم وعقل وعلى وصف آخر دين وإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ويكون اجتماع الوصفين في رجل واحد شخصيتين لهذا الرجل الواحد . وفي أي عقل أن في النفي إثباتاً لما تنفيه وهما نقيضان ولا يجتمع نقيضان معاً في هذا الكون كله فان هذا الكون نواميس لا تعرف حرية البحث ولا حرية الرأي وليس فيها ناموس مختل اسمه طه حسين ؛ وحكم الشرع انك متى كفرت فقد كفرت لا يقبل منك عدل ولا صرف حتى ترجع عن رأيك وتتوب منه وتجدد إسلامك .

ثم من الذى يسمى الشعور شخصية والعقل شخصية أخرى وفى أى تقسيم هذا؟ وعلى هذا القياس . فالنسيان شخصية والذكر شخصية والانسان كله شخصيات أى كله أناس . إنما الشخصيتان فى عرف العلماء أن يكون لامرئ من الناس حالة معينة من عيشه وعمله فيؤخذ عن نفسه بضرب من الذهول يغيره ويحيله إلى شخص آخر فتراه ينكر اسمه ونفسه وأهله وعمله ويذهب فى نحوٍ غير ذلك من الحياة كأنه رجل غير الذى كان بل كأن روحاً أخرى تقمصته ثم يزول ما اعتراه فيرجع إلى شخصه الأول ويعود إلى سيرته الأولى وذلك عندنا محض هذيان فانا لا نقول بالتقمص ولا بالتسر بل ولا نرى مثل هذا الا قد اعتراه شىء فى مركز من مراكز المخ فجعل يقظته كأنها حلم حتى إذا زال العارض رجع إلى وعيه وثاب إلى نفسه (١) .

يخلط طه فى معنى العلم ومعنى الدين فيذكر أنهما لا يلتقيان إلا إذا نزل أحدهما للآخر عن شخصيته ويزعم أن العلم لا يرى الدين إلا قد خرج من الأرض كما تخرج الجماعة ، فمتى قطع العلم على أن الجماعة الانسانية خرجت من الأرض وقد أخذ مذهب داروں يتصدع ويتخرب على زلازل العلم وانحياز ناموس النشوء عن هذه الجهة الحيوانية (٢) .

ومتى كان العلم يبحث فى الأديان على أنه علم وكيف له أن يبحث فيها وهو مقصور بطبيعته وتحديد هذه الطبيعة على ما يدخل فى باب

---

(١) علم النفس فى أحدث ما انتهى اليه ينقض كلام طه فى مسئلة الذات العاقلة والذات الشاعرة ولايقبل هذا التقسيم

(٢) أثبت عالم المانى أن القرد من الانسان

الادلة الحسية ولا وسائل له إلا وسائل الحس المعروفة من البحث والاستقراء والمقابلة والاستنباط دون ما يتصل بالمعاني العقلية المحضة مما هو نظرى فلسفى كالمعاني التى يرجع إليها الدين ؛ إنه ليس بعلم ما يجاوز تلك الحدود المسوَّرة بأسوار البحث والامتحان بحيث لا تخرج منه النتيجة الصريحة التى برهانها الحس واليقين دون الظن والجدل

وما العلم فى حقيقته إلا سؤال هذا الكون الغامض بالوسائل التى يستطيع الانسان أن يسأله بها ثم تلقي الجواب منه بالطريقة التى تجيب بها الطبيعة من إظهار منافعها ومضارها وعللها ونواميسها . وهذا الانسان لا وسيلة له فيما وراء عقله فلن يستطيع أن يسأل الكون من ذلك عن شيء . وإن هو سأل كما ترى من بعض الملحدين الذين ينتحلون العلم انتحالا فان الطبيعة لن تجيبه بشيء إذ كان السؤال لا ينتهي اليها بالطريقة التى تستخرج منها جواباً أو تقتضيها عملا ومن أجل ذلك لم تكن أمثال هذه الأسئلة إلا لحادية إلا اضطراباً فى عقول أصحابها أو تعنتاً منهم على الأديان وأهلها وما هى من العلم ولا هو منها فى سبب ولا غاية فقول طه مثلا أن قصة بناء الكعبة خرافة وإن إبرهيم واسماعيل شخصان وهميان لا يعد علماً بل هو حمق محض فاذا اعتذر منه بالعلم أضاف إلى حمقه جهلا فاذا أصر على قوله واعتذاره زاد على الجهل والحمق الغفلة

إن فرقاً بعيداً بين النظرين العامى والعقلى فالمذهب العامى طرق ممهدة إلى غايات بعينها قد انتهت إليها هذه الطرق ؛ أو طرق أخرى

لاتزال تمهد ولكنها لا تتأدى إلا لمثل تلك الغايات فهو حركة تدفعها الارادة وتحددها وتصرفها . أما المذهب العقلي فبينما هو يمشى إذا هو يطير إذا هو ينساح كما ينساح الضوء فلا ضابط له إلا من جهة كونه كلاماً معقولا أو غير معقول . وقد يكون هذا المذهب فى بعض الناس هو انتظار المذهب لانهم مذبذبون لايستقرون على شىء وقد يكون هو الشك فى كل مذهب وقد يكون فى نقض مذهب معروف وكل هذا من تفاوت قوى العقل لامن تفاوت قوى العلم كما ترى من التباين بين غير المحدود وبين المحدود . وقد كان عند أسلافنا من علماء الكلام تعبير لغوى بديع يمثل لك المذهب العقلى كله فيقولون إن فلاناً يتكلم فى هذه المسئلة على البور والنظر وهو يبورها وينظر فيها إذا كان يمتحنها امتحاناً عقليا جدلياً محضاً بين استغلاق بدليل وفتح بدليل آخر ولا غاية له من ذلك إلا التضريب بين الادلة وتغليب بعضها على بعض والانتهاء بالاقيسة المنطقية إلى منقطع الغاية . فالكفر بالشبهة عمل عقلى والايمان بالدليل عمل عقلى آخر والعلم عمل غير هذين ولكن إذا قوى العقل وتمكن وأصاب وأمدته البصيرة النافذة والخيال اللامح الذى يلحق بالالهام تبعه العلم فمال اليه لامحالة لأن هذا العلم لايكشف عن شىء إلا هتك عن سر من أسرار الطبيعة ولا يبين عن سر إلا أوضح منه ضرباً من ضروب الكمال فى الخليقة ؛ والكمال فى نفسه دليل على المبدع والابداع الالهي فى كل معانيه إعجاز للعقل الانسانى واعجاز العقل هو وسيلة الايمان الصحيح

فالعلم على هذا من وسائل الايمان التى تؤدى إليه فى الغاية لا فى الطريقة بشرط أن يكون العقل سليما صحيحا فزعم طه أنه لايلتقى مع الدين وأنه ليس لالتقائهما من سبيل إنما هو مبني على ما فى عقله من التناقض أو على ما فى نفسه من المرض

إن هناك حقيقتين تعلوان بالدين علواً كبيراً حتى يفوت العلم أو العقل معاً ويخضعهما جميعاً . فالأولى أن العقل لايدرى كيف يعقل ولا كيف يفهم وما العلم فى هذا بأعلم منه فعمل هـذه الخارقة المجهولة هو الدليل على وجودها وهي بعد معرفة غير معروفة . والثانية أننا نخضع لنواميس كثيرة متضاربة لايعرف العقل ولا العلم ما هى فى كنهها وذاتها ولـكن ما يقع من آثارها توازناً واختلالا هو الدليل على اثباتها وهي كذلك معرفة غير معروفة، فليس مع هاتين الحقيقتين مايمنع العقل والعلم أن يخضعا للدين وما الدين إلا اقرار الالهية والاستدلال عليها بآثارها وهي معرفة غير معروفة بالذات ومتى تناول الدين شئون الناس والحياة وسن طرق الاجتماع والمعاملة كما عندنا فى ديننا الحنيف فقد توثقت الصلة بينه وبين العلم ووجب التوفيق بينهما فيما يختلفان عليه وإلا كان أحـدهما لغواً وعبثاً .

وهذا يكشف لك خبث أستاذ الجامعة فانه يقول بترك الدين على استقراره ليكون العلم رداً عليه فيهدم الدينُ نفسه بهذا الجمود ويهدمه العلم بالتغيير والتحول فلا يبقى فى الناس من يرى فى هذا الدين الجامد شيئاً معقولا ولا شيئاً صحيحاً ويصبح كأنه ضريبة على النفوس إن لم

تكن وراءها قوة الحكومة لا تجد من يحملها ولا من يؤديها وما هى إلا أعوام بعد ذلك حتى يصبح علماء هذا الدين فى الأزهر كعلماء الآثار فى دار الآثار

والعلم وإن كان لا يعمل للدين ولكنه في أشد الحاجة إليه إذا اعتبرنا هذا العلم ذريعة من ذرائع الانسانية فى نظامها ومصالحها فهو يسخر لها الطبيعة ويؤتيها المنافع والمضار غير أنه لن يستطيع أن يحمي المنفعة من تعادي الناس وتناحرهم عليها ولن يستطيع أن يمسك المضرة حتى لا يقع بها التعادي والتناحر ، وهنا موضع الدين فهو وحده القائم على النفس الانسانية لحماية المنفعة وإمساك المضرة ولولا أن الانسان حيوان تقى ، وأن فى نظام اجتماعه نظام دينه وفى قانون جسمه قانون قلبه لأكل الناس بعضهم بعضا . وقد يقال إن الحكومات والقوانين تغنى عن الدين فى ذلك أو تغنى غناءه وهذا وهم جربته الانسانية لعصرنا فى حكومة البلشفيك فأسقطت الدين وأقامت القانون فلم يكن من ذلك إلا سقوط الانسانية نفسها وصارت القوانين لحماية الرذائل بعد أن كانت للحماية منها وما فشأ الالحاد في أمة من الأمم إلا مسخ من نفوس أهلها فنزل بها حالة بعد حالة حتى لتعرفها فى عاقبة الأمر نفوس حمير وبغال وسباع وقردة ونحوها لا نفوسا إنسانية

فعلماء الأديان مادة ضرورية في تركيب الاجتماع الانساني إن خلا مكانها فيه لم يسده شيء . والدين الاسلامى خاصة بما فيه من الأعمال والآداب التى لا تقوم الانسانية على أفضل ولا أثبت ولا أقوى منها

كما بيناه فى كتابنا « إعجاز القرآن » — يجعل لعلمائه من الشأن مالا يستطيع انكاره إلا أحمق مدخول العقل أو مفسد مدخول النية

قد يأتي لهذه الدنيا رجل ذكى فيلسوف يرى ما رأى الفيلسوف روسو مثلا من أن رجال الدين قوم يعيشون في غير عصرهم أو فى عصر غيرهم. ولكن مثل هذا الذكى الذى تقبله أوربا ينقلب ذكاؤه بلادة أشد بلادة إذا هو ظهر فى العالم الاسلامى فلن يستطيع أن يثبت أن علماء هذا الدين متطفلون على الحياة إذ الاسلام يقوم على أصول خمسة منها أربعة عملية اجتماعية ونحن متى اسقطنا علم الحلال والحرام ووسائله الكثيرة من علوم الاثر والتفسير والأصول والعربية وما يداخلها لم يبق من الاسلام إلا ما يريد طه وأمثاله ولم يعد الاسلام إلا كلمة يسعها اللسان كما يسع نقيضها فاذا ذهب أربعة أخماس الدين لم يبق لعلماء الدين موضع ولعل هذا هو الذى شعر به طه فنطق به ففضح فيه نفسه إذ هو لا يقيم من أعمال الاسلام شيئا فظهرت له فروق كثيرة بينه وبين شيخ الأزهر وعلماء الدين ورأى علومهم لغواً وعبثاً وغفلة من غفلات الأمة . وكل ذلك مما تتكلم به نفس الرجل عن الرجل وهو لا يدرى . كأنه يقول إن المسلم لفظة فما حاجة اللفظة إلى أحكام وإلى علماء بهذه الأحكام وكأنه يرى أن هذا الدين العظيم كان فى تاريخه جسما ثم صار الذراعَ من الجسم ثم الكفَّ من الذراع ثم الاصبعَ من الكف ثم الأنملةَ من الأصبع ثم الظفرَ من الأنملة ثم القُلامةَ من الظفر تقص اليوم وترمى ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما ماخبط الرجل فيه من أن التأويل يفسد نصوص الدين ويكون اعترافاً منا بأن السلف كله كان مخطئاً فى فهم الكتاب على غير ما نفهم وعلى غير ما يفهم العلم، فهذا كله من جهله العجيب ومن أنه لايدرى معاني ما يقول إذ يُساهل نفسَه فى كل ما يسنح له من فكر أو رأي بلا تمحيص أو التمحيص ليس من قوته، أفيريد هذا الأستاذ أن تتغير الدنيا والعقول والعلوم ثم نكون نحن الجامدين على بعض معان لغوية قارة فى ألفاظها؟

ألا يعلم أستاذ الأدب فى الجامعة أن من أوضح أسرار الاعجاز فى القرآن الكريم أن ألفاظه تكشف لكل عصر من المعانى بمقدار ما يتقدم العقل الانسانى فى اسرار الأشياء فكأن فيها حياة أبدية وكأنها مقدرة على طبقات العقل والعصور وهى مع ذلك لاتتغير وأنه لولا هذا السر لماتت هذه الألفاظ من زمن بعيد فلم يكن السلف مخطئاً فى الفهم وإنما كانت الطبيعة مخطئة فى إفهامه ولو كشفت له كما كشفت لنا وبقى على ذلك الفهم كما يريدنا الاستاذ أن نبقى عليه لكان هذا باباً من الجهل ليس فى الجهل أوسع منه على أن مثل هذه المسائل العلمية معدودة والشأن كله فيما عداها من مسائل الانسانية وقد أفضنا الكلام عليها فى كتابنا « إعجاز القرآن » فلا حاجة بنا لأكثر من الاشارة إليها.

وههنا سر من الاسرار العجيبة وذلك أنه قد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم قبض ولم يفسر من القرآن إلا قليلا جداً وتركه للعصور وعلومها وآلاتها فلو هو فسّر لثبتت ألفاظ القرآن على معنى واحد فناقضت العلم

ولكان ذلك وجهاً يتطرق منه إلى الطعن في الإعجاز وفي الدين نفسه إذ لا يسع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يفسر للعرب على قدر أفهامهم وذرائعهم القليلة فاذا تقدم العقل وانكشفت الحقائق أصبح ذلك لغواً .

أفلا يكفي هذا المعنى سببا لوجوب التأويل كما هو معنى من أظهر معاني الاعجاز .

رأيي فى الحضارة الغربية

علمَ الله ما فتن المغرورين من شباننا إلا ما أخذهم من هذه الحضارة فان لها فى زينتها ورونقها أخذة كالسحر فلا يميزون بين خيرها وشرها ولا يفرقون بين مبادئها وعواقبها ثم لا يفتتنون منها إلا بما يدعوهم إلى ما يميت ويصدهم عما يُحيي وما يحول بينهم وبين قلوبهم فليس إلا المتابعة والتقليد ، وسأوجز فى هذا الرأى ما استطعت وسأجعل كلامى فيه أشبه بلغة النظر تأتى اللمحة القصيرة على ما تطول العبارة فيه وتمتد

إن هذه الحضارة لا تظهر أبداً على حقيقتها إذ كانت حقيقتها لم تجتمع بعد وقد أنشأها جيل قريب منا وورثها من بعده وترك معها أخلاقه وطباعه فما برح الناس يشبهون الناس وانما صبغت الحياة ولونت ودخلها التمويه والزخرف والخطب فى هذا يسير إذ كان الأصل الانسانى لا يزال باقياً وأكثره لا يزال سليما وبعض الرؤوس التى اخترعت ماغيَّر الدنيا لا تزال بعدُ فى الدنيا

ولكن الشأن حين تتناسخ الأجيال خَلقاً بعد خَلق ويظهر على هذه الأرض الانسان الميكانيكى الوارث أخلاقه وطباعه من الآلات أكثر مما يرثها من النفوس فيومئذ لا يكون القول فى الحضارة موضع حسبان وظن كما هو الآن.

وعلى أن الدنيا لاتزال بخير وعلى أن الحضارة الغربية لم تعدُ من الانسانية موقع الألوان والتحاسين فقد غمر شرها وكثر أذاها وأخذ أهلها يتدافعونها ويتذممون منها وألزموها الإثم وألحقوا بها الفساد وأبكى عقلاءهم وحكماءهم ما جلبت عليهم من الأخانيث والمضاحيك والمهازل والمفاسد وكبائر الاثم والفواحش ولم يقم خيرها بشرها ولا غطت مصالحها على مفاسدها.

يحمل الانسان فى نفسه نقيضين هما عقله وهواه أو دافعه ووازعه فاذا أطلقهما معاً أفسداه واذا قيدهما معاً أفسداه كذلك ولكن تمام الانسان ونظامه أن يطلق العقل ويحدّ الهوى فيصفّى بعضه فى بعض فاذا هو قد خلص وتحرر. وما دامت الأهواء مقيدة فى حدودها فليس فى العقل إلا محض الخير فاذا تركا جميعاً لغاياتهما طمّ شىء على شىء ورجعت الحياة صراعاً حيوانياً واحتالت العقول لتغيير الوضع الانسانى وتواضع الناس على الاخلاق البهيمية الفاسدة يدخلونها فى آدابهم فلا ينكرونها ولا يردونها ولا يرون الأدب يكون بغيرها أدباً.

فالحضارة الغربية أطلقت العقول تجدُّ وتبتدع وأطلقت من ورائها

الأهواء تلذ وتستمع وتشتهي فضربت الخير بالشر ضربة لم تقتل ولكنها تركت الآثار التي هي سبب القتل إذ لاتزال تمدُّ مدَّها حتى تنتهي إلى غايتها ، وذلك هو السر في أنه كلما تقادمت الازمنة على هذه الحضارة ضج أهلها وأحسوا عللا اجتماعية لم تكن فيهم من قبل . ولو قد عمت الحضارة وتغشت أوربا كلها فلم يبق في تلك الأرض سواد ريفي أقرب إلى الطبيعة وأشكل بها ولا يزال في الحياة على إرثه القديم كالسواد الأعظم الذي يعمر قراها ويملأ صميمها في كل مملكة منها — لرأيت أفظع ما ترى العين من بلاد متعادية متنابذة لما يتنازع أهلها من طلب المنافع الشخصية والتكالب عليها والاستهتار بالشهوات والتناحر على تكاليف حياتهم الثقيلة المملولة المستوخمة ، بيد أن ريف أوربا وقراها وما فيها من نزعة الدين ومن معاني الطبيعة البعيدة عن الحضارة ومن الاخلاق السوية الصحيحة التي لم تُزِغها المدنية — كل ذلك هو الذي يمسك هذه القارة أن تنهار ويحفظها أن تنحلل وهو كالبداوة المحضة بإزاء الحضارة في معانيها المستهلكة فهو بذلك مادة التجديد الانساني في أوربا على حين أن هذه المدنية هي مادة التجديد الحيواني بما تصرف إليه الحواس من المتاع واللذة ، والحواس رُوَّاد القلب فما أدت إليه أصلحه أو أفسده ، ولقد قرأت في هذه الايام رواية يقال إن كاتبها نادرة أوربا فما فرغت منها إلا وأنا أعتقد أن كاتب أوربا هذا هو حيوان أوربا . . . إن العقول الناضجة المميزة لاتهب منها الحكمة الإلهية بقدر ما تهب من الأهواء ولا بعض ذلك بل هي من قسط الافراد الذين لا يبلغون فصلا في الكتاب.

الانساني الكبير أما الشهوات فهى للجنس كله إذ هى غايات طبيعية فى تركيب الاجسام . ولذا قامت الاديان على سنة حكيمة كافلة للمصلحة وهى ابعاد الشهوات عن المجتمع وإباحة القليل منها بشروط وقيود واعتبار درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة وذلك وإن لم يُؤتِ الناس عقلا فان العقل لا يؤتيهم غيره فى آداب الحياة . ولكن الحضارة قامت على اطلاق العقل والهوى فاستباحت الدين فى طوائف من الناس وتركته بلا أثر فى طوائف أخرى فكانت تحكيما للشهوات في الخَلْق وتمكينا لأسبابها فى الاجتماع ومن ثم أخذت تقتلع الاخلاق الانسانية من أصولها وما أعرف أكثر مظاهر المدنية إلا امراضا مسماة بغير اسمائها وهى كلها جميلة سائغة مشرقة لانها كلها تؤلف حلما مريضا كأحلام الخمر والافيون . . .

يحسب هذا الغربى المتحضر أنه قهر الطبيعة وسخرها فانتصر عليها ولا يعلم أن الطبيعة تهزأ به لأن هذا النصر بعينه هو الذى يسلطها عليه فتهزم أخلاقه وتوهن قوته الروحية وتطحن لبه فى قشرته وتمكّن فيه لأعراض الانحلال والسقوط فهو لا يغير الطبيعة وإن انتصر عليها وهى تغيره ثم تتركه يسمي نفسه المنتصر فتضيف إلى حماقاته حماقة الغرور . أصبح الغربى المتحضر عصبياً ثائراً حساساً يدلف إلى الجنون بخطى بطيئة لكنها سائرة متحركة وابتلته المدنية بأمراضها التى لم تكن فى أسلافه كالسرطان وغيره وضربته الشهوات بخدَر الحاسة الروحية وخمولها فأصبح يعمل للغرض الأسمى بوسائل معكوسة لا تؤدى إلا إلى الغرض الأسفل

ورجع كأنه غريب عن الطبيعة الخشنة التى لابد له من خشونتها ليبقى قويا بها وقويا فيها وقويا عليها ، وتغير من كل ذلك تاريخ عقله وأعصابه فضعف النبوغ الفنى وأصبح النمط العالي منه خاصا بالتاريخ القديم وحده مع أنه ليس بين القديم وبين الجديد إلا طبيعة هذه الحضارة وأثرها على العقول ، أما الانسان فهو هو بيد أنه فى الحضارة الأولى المتخشنة كان كالدينار الجديد رزينا خشنا فأصبح فى هذه الحضارة الناعمة كالدينار الأملس مسحته الأيدى وأزالت حُرشته فهو إلى ضعف وإلى نقص

اتخذت الحضارة المرأة الغربية من وسائلها فى ترقيق الطباع وإرهاف الملكات ومع المرأة ما معها من فنون الدعابة والمغازلة والمفاكهة والاغراء وما تحت هذه من الطباع والاخلاق فاذا العالم المتحضر فى صبغة من الانوثة متى أخذ الدهر مأخذه فيها استحالت من بعدُ صبغة من الفجور يشمل هذا العالم . ويقولون الجمال والفن ولا يعلمون أنهما إذا استفاضا وعمّا جاء منهما الخيال والهوس وخرج من اجتماع كل ذلك الانحلال والسقوط كما وقع فى التمدن الرومانى والحضارة العربية

إني لا أرى أكثر مظاهر هذه الحضارة الا أسلحة قاتلة تقتل الخير والرحمة في قلوب الناس فهي ترفع تكاليف الحياة وتزيد فيها وتعسر آمالها فتنشىء بذلك الفقر المدقع وتخرج معه الفوضى والاختلال وتحدث به الاخلاق السافلة كالتلصص والدهاء والخبث والحسد ونحوها. ويزيد العالم كل يوم بأسباب كثيرة تبدعها الحضارة فلا تكون الزيادة الا عبثاً وشراً ومضايقة لان ما كان يكفى الجماعة ذات العدد أصبح لا يكفى

الا فرداً واحداً ويومئذ لا تستقيم الانسانية الا بأن يغتذي بعضها من بعض فيكثر القتل والاسترقاق والاباحة ولكن في ألفاظ وتعابير مدنية ... والآفة يومئذ أن الانسانية تكبر والارض لا تكبر فتضيق الحياة بأهلها وتزيدها مطامعهم ضيقاً فيتقرر عندهم نظام التقتيل ويصبح قانونًا إنسانياً عامًّا وما أرى هذا القانون سينفذ الا في الأجنّة في بطون أمهاتهن بحيث يكون في كل أسرة ميزان للموت لا يعطي الدنيا من إحدى كفتيه طفلاً حيًّا إلا بعد أن يجتمع في الكفة الأخرى أربعة موتى أو أقل أو أكثر

ولن يجدوا علاجاً من داء الحضارة الا بالحمية منها فيوشك اذا هم تنبهوا الى ذلك أن يحرموا الناس من بعض فنون هذه الحضارة بقوة القانون وأن يفرضوا عليهم بعض الجهل فرضاً يؤخذون به ليبقى تاريخ العالم متصلاً وليجد النوع الانساني على هذه الأرض من يوجده بصفاته وخصائصه . فان الأخلاق في تلك الحضارة قائمة على غير قواعدها اذ لم يكن من سبيل لتغيير البناء الانساني الا بتغيير هذه القواعد . وأنا أرى أنه لو انتزع من هذه المدنية أكثر حسناتها لذهب في ذلك أكثر سيئاتها اذ كانت الحسنة هي التي تخرج السيئة فالغنى الواسع بازاء الفقر الأوسع والرفاهية السّرية بازاء الشيوعية والفوضى وهكذا ونعيم هذه الحضارة نعيم في أقله وشقاء في أكثره. وهو يفسد من يناله بإضعاف أخلاقه القوية الصالحة ويفسد من لم ينله بتقوية أخلاقه الضعيفة الفاسدة ، ذاك تسقط به مؤاتاة الشهوات إياه وهذا يسفل به امتناعها عليه وهي لغيره معرضة ، ذاك يفسده ما في نفسه وهذا يفسده ما في

نفسه وما في غيره . ولا يذهبنَّ عنك أن الحضارة تقرر في جميع الناس هذين الاصلين العظيمين الحرية والمساواة فينشأ الناشيء عليهما ويترشح لهما في الحياة حتى اذا شب وانتهى الى الواقع وجد تلك الحضارة بعينها هي التي تقتلع الاصلين وترمى بهما في وجهه فليس في الواقع الا أشراف ووضعاء والا علية وسفلة والا أفراد معدودون من كل طبقة يراغمون سائر الناس من العمال والمهّان والمساكين ونحوهم كأن أساطين المال والسياسة هم وحدهم أصابع الدنيا تأخذ بهم ماهي آخذة ، وبذلك ترجع عقيدة المساواة وإنها لعقيدة الظلم وتعود فكرة الحرية وهي فكرة الاستعباد فاذا سواد العالم المتحضر هو الناقم على الحضارة المستريب بها وهو على سخطه ونقمته مسخَّر لمعيشته الضيقة المقسومة بالجرام من أيدي أصحاب القناطير يعطيهم دمه بخبزه ويشتري موته بعيشه وذلك كله مما يجعله متربصاً بالفتن سريعاً فيها اذا وقعت تابعاً لكل من يدعوه اليها أو يستجيشه عندها متوثباً على ما يدري وما لا يدري كما يقع الآن في أوربا

فالكبير في هذه الحضارة ظالم هو أشبه بمظلوم والصغير مظلوم وهو أشبه بظالم وكأن الحقيقة نفسها خرجت من موضعها فكل شيء حقيقة وكل شيء زور

والروح الانسانية متى أصبحت موتورة ساخطة متبرمة بأسباب مختلفة كأسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية لم تكن روح الحياة ولكن روح القتل وما في حكمه ومن ثم فلا بد في هذه الحضارة من انفجارات حربية مستمرة ولا بد لها أن تجد من تقتله ومن تظلمه ومن تستعبده . واذا تحاجزت الدول وتتاركت زمناً فانما يُسمن بعضها

بعضاً فى مراعي السلم والعيش وكل أمة عينها على شحم الأخرى ....

ولقد كانت الحرب العظمى تنقيحاً إلهياً عنيفاً لهذه الحضارة الزائغة فوضع الله يده عليها فمحت أكثر حسناتها ورقائقها وطُرَفها البديعة وأُميتت طباع الترف لتنبعث طباع القوة وقرّ فى الرجل معنى الرجل وفى المرأة معنى المرأة وكانا قبل ذلك وانّ الرجل نصف امرأة وإن المرأة ضعف نفسها .. فكأن الحرب كانت مِصفَاةً للحضارة تقوبها الخرائب والخنادق والقبور ، ومتى جَمَّت الأوساخ بعد زمن فالمصفاة باقية ....

لست أنكر أن الحضارة زينة الحياة الدنيا وبهجتها ولكن آفتها أن غايتها التى تجري اليها انماهي المتعة واللذة وانتهاب العمر فهي بذلك تؤتي جميع لذات الحياة لمن أطاق واتسع كما تؤتي جميع مكارهها لمن حرم وقتر عليه وبهذين توجد ألفا من السفلة والحشوة وسقاط الناس إذا هى أوجدت واحدا من أهل الفضل والرحمة والانسانية . ولا قصد فيها بل هى إسراف من طرفيها لا يألو أن يدفع الناس من حد إلى حد إلى غير حد علواً وسفلا ، فالنزاع فى المادة والنزاع فى العاطفة ذاهبان إلى ملتقى واحد هو سخط الانسان على الانسان سخطا شقيا مدنِفا إذ لا أشقى فى الاجتماع من ساخط على من لا يتراضاه . هى حضارة على المجاز إذا توسعنا فى العبارة لتنعم الناس فاذا حققنا فى صريح هذا المجاز رأينا فيها الذلة والمسكنة والتهلكة بوسائل هى العز والغنى والحياة

المجدد الجرىء ....

قال كليلة : واحذر يا دمنة مصارع الجرءة فى الرأى وما يكون مثله من الرجل الَحمِق اذا تكلمت حماقته في لسانه فان الرأى ميزان لغتهُ على الوفاء والنقص مما يوزن فيــه لا من اليد التى تزن به فان هو تُرِكَ لما يلقى عليه أبانَ فصدق وحدّد واذا عَبِثتْ به اليد إمالة أو تعويجا أبان فكذب وغش ، وان الجرءة هي علم الجاهل حين يكون له علم وجهل العالم حين يكون للعالم جهل وقد قالت الحكماء إن هذه الجراءة كانت امرأة فتزوجها العلم وتحفّى بها وبالغ فى إكرامها ورعايتها وفلسفَ لها الحياةَ ما شاء فلما ولدت ولدت له الحمق فقال واسوءتاه نزع الولد الى أمه الخبيثة وسبقت حكمة الله أن لا يخلق حياً الا من اثنين كى تلد الأمهات النعمة مضاعفة والمصيبة مضاعفة أو لينقص شيء من شيء غيره أو لتزيد أمر في أمر سواه أو ليبطل عمل من عمل آخر وما يخرج النقيضان ولا المتجاذبان الا من اثنين . ثم إنه بتّ عقدَة الجراءة وطلقها فخلف عليها الجهل وكان بعلا سيئا عنيفا جعل يمكر فى أذاها كلّ حيلة ويغلظ عليها بكل سوء ويعسفها عسف الأجير دابتَه فلما ولدت ولدت له السخرية فقال وامصيبتاه جاءت نعل طِبَاقَ نعل .

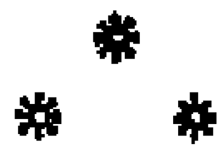
ثم شب الحمق والسخرية معا فتشاتما يوما وتغالظا وأبت عليهما الطباع الا أن يكون لكل منهما القهر والغلبة ففزع كلاهما الى أبيه وجاء به

فذهب العلم يحتج ومضى الجهل يخاصم فأقبلت الجراءة على صوتهما وقالت ويحكما فيم هذا النزاع ؟ ثم ارادتهما على الصلح فالتفت الجهل الى العلم وقال يا أخى يا أبا الحمق . . . قال العلم لا غرو يا أبا السخرية . . . فانما هى الجراءة اللئيمة ولدت لى وولدت لك فجمعتنا بولديها وجعلتنى أخا سوء وأبا سوء وعم سوء .

قال كليلة وما أشبهك يا دمنة بالرجل الجرىء الذى طوّعت له الجرءة وسولت له أنه أعلم الناس فذهب يؤتيهم عامه وزعم لهم أن البناء ثمر؛ قال دمنة وكيف كان ذلك ؟ قال زعموا أنه وقعت بمدينة كذا زلزلة فتصدع أكثر دورها فجاء أصحابها بالمهندسين فشدوها بعمد غليظة من الخشب ليصلحوا البناء من فوقها وهو ثابت لا ينهار ، فهبط المدينة شيخ جرىء أحمق فرأى الدور من كثرة أعمدتها كأنها قائمة على شجر ورأى البنائين يعملون أعمالهم فقال لبعض وجوه المدينة إن بلدكم هذا الى يوم الناس هذا لم ينزل به عالم غيرى فيما أرى وان لكم عندى رأيا إن تأخذوا به جاءتكم هذه الدور جديدة كيوم نشأت فأنكم تفسدونها بهذا الاصلاح وتغرمون فيها الغرامة الكثيرة ولا تزيدون على هدمها فاجمع لى الناس لأعرفكم ما تصنعون . قال فشاع ذلك عنه وتعالمه أهل المدينة فمشى بعضهم الى بعض وقالوا هذا رجل عالم وما يكون ذلك له رأيا الا من خبرة وتجربة وعلى بصيرة ونظر فلا يوحشنّ أنفسكم منه سوء ظن به حتى تأتوه وتسمعوه وتعرفوا ما عنده .

ثم انهم اجتمعوا للرجل وقالوا له أيها الحكيم قد رأيت ما صنعت

الزلزلة ونحن فى سنة شديدة جمعت علينا بين قحط الارض وارتفاع السعر وخراب البناء فاعل الله قد بعثك الينا رحمة من هذه الثلاثة الآكلة ، قال فانى ان شاء الله مارجوتم واني فيئَةٌ لكم مما أُصبتم به تلوذون بمامى ورأيي ولكن اتقوا الجهل من بعدى وتعلموا واعتبروا فان ذا العلم حقيق أن لا يعدم فى كل خطب حيلة وإن ذا الجهل خليق أن لا يجد فى أى خطب حيلة ، ولم يزل يعظهم بهذا وشبهه حتى ضجوا فقال قائلهم أصلحك الله متى أقمنا الدور فرغنا لك فتعظنا وتعلمنا أما الآن فهلم رأيك الذى وعدتنا قال فاسمعوا ويحكم أما رأيتم شجرة ألقت ثمرها ثم جاءت به من قابل ؟ قالوا كل الشجر يفعل ذلك . قال فما رأيتم للشجر جذوعا متى قطعت نبتت وبسقت فروعها وأثمرت ؟ قالوا ثم ماذا ؟ قال أخزاكم الله فكيف عميتم عن الرأى وذهبتم عن الحيلة أفما تنظرون هذه الجذوع التى تحمل بيوتكم فلو قد نشرتموها بالمناشير لتلقى ما فوقها من هذه الدور الخربة لنبتت والله من قابل تحمل بيوتا جديدة صفراء وحمراء وألوانا شتى . . .



نحن لانرى فى علم الاستاذ طه حسين وأمثاله إلا الجراءة وهى خلة من خلال المجانين فانها أقرب إلى التهور والحمق وما دام صاحبها لايضبط على رأيه ولا يأخذ على نفسه ولا يتوقى ولا يفهم شيئا على الاصل الذى كان عليه بل على الاصل الذى يريد هو أن يكون عليه . وفصل ما بين المجنون الجرىء والمجدد الجرىء . . . ان جراءة المجنون من عمل أعصابه

المريضة وجراءة المجدد من عمل نفسه المريضة وأمراض النفس كثيرة منها التقليد ومنها حب الصيت والشهرة والمحمدة ومنها الغرور والاستطالة والتعنت ومنها الكفر والالحاد . فاذا رأيت مجددا من أصحابنا فثق أنك منه بإزاء رجل مريض النفس ولا يقذفنّ فى روعك أنه فيلسوف أو علاّمة أو أديب فهذه الصفات وأشباهها لاقيمة لها ألبتة إذا عريت من الخلق الذى يقوم به أمر الأمة وتصلح الأمة عليه من دين وأدب وفضيلة . والقوة المدمرة التى تعمل فى نقض النظام تفتك فى كل معنى بسلاحه الذى هو أقطع فيه فهي كما تظهر في أهل الفسق والدعارة واللصوصية وأهل الظلم والتعسف ، تظهر بمقادير أخرى في بعض الفلاسفة والعلماء والأدباء لأن هذه القوة تلون الرذائل كما تلون الاثمار ، وانظر ما الفرق بين ثمرة كالحة مرة وأخرى ناضرة مرة أو بين حمراء وصفراء تستويان فى كراهة المذاقة ولؤم الطعم أو بين عالم مفسد برأيه ولص مفسد بعمله أو بين فاجر ساقط النفس وبين أستاذ لئيم النفس ؟ أما إنها كلها أسلحة تعمل عملا متشابها وإن اختلفت فى أنواع التمزيق ومقاديره . وليس يشفع فى إرادة الشر أنه جاء من رجل عالم أو أديب أو مدرس فى الجامعة المصرية كما لايزيد فيه مجيئه من فاجر أو عيار أو متشطر أو سفّاح إذ هو هو فى جميعهم وإنما هؤلاء وأولئك أساليب إنسانية ليس غير

وقد أصبح طه حسين فى زعمه حرية الرأى كالحيلة على القانون تقع معها الجريمة ثم تكون بها البراءة وكم من لص ومزور وفاتك وأشباههم قد برأتهم المحاكم كما برأت الجامعة المصرية طه حسين فى أسلوب واحد

لمكان الحيلة لا لموضع البراءة ، وكم من غفلة جازت على القانون ما دام قائما على إيجاد المجرم أولا ثم يجيء القاضي فى المحل الثانى وكان الوجه أن يقوم على رد الناس عن الجريمة قبل وقوعها . وهذا فرق ما بين القانون والدين : فالدين قانون الأمة كلها وقانون الفضيلة الانسانية عامة وهو العقل العام للخلق . أما القانون فهو للمجرمين وللرذيلة خاصة وهو العقل الخاص لبعض الخلق ، واذا أهملوا الأول وغنوا عنه بالثانى دفعوا بالأمة كلها فى سبيل الإجرام والرذيلة ومن ثم تعرف مكان علماء الدين من الأمة وهم ثم الذين يعمل طه وأمثاله فى تحقيرهم وتهوين أمرهم حماقة وجهلا وسوء نظر وسوء دخلة . يعتذرون لطه بحرية الرأى وكأنهم لا يعلمون أن بعض الحرية فى التقييد وبعضها فى السلب وأنه إذا تعارضت منفعة الفرد فى إطلاق الحرية له ومنفعة الامة فى حدها أو سلبها وجب «نزع ملكية» هذه الحرية ولو على الوجه الذى تؤخذ به دور الناس لتطريق شارع . . .

وهذا كله يوضح لك غفلة الجامعة المصرية غفلة تحتاج إلى غسل عينيها بمحلول مطهر . . . فالامة تنظر إلى الجامعة على أنها منها والجامعة تنظر إلى جمالها فى مرآة من وجه طه حسين فكل ما رأته الأمة شمالا رأته هي فى وجه طه يمينا وما من هذا العكس بد مادام النظران مختلفين ، والعكس ينشيء الغلط فمن الطبيعي فى أحد النظرين أن تكون الجامعة موضع غلط الامة وفى النظر الآخر أن تكون الامة موضع غلط الجامعة . . .

قلنا إن علم طه حسين جرءة فهو لا يأتى بكلام فصل بل بكلام

جرىء وذلك إن كان غلطا لكنه غلط الجهل لاغلط العلم فلا عذر منه ولا يجوز الاحتجاج له إذ كان العالم الحقيق لايعرف الجراءة ولا يتعاطاها فان وجدت من إمره ما تحمله عليها فاعلم أنها جراءة أدلته وقوة منطقه وشدة يقينه فان خلا من هذه وأصبته جريئاً فهو الجاهل المغرور المتوقح الذى لايعتمد على قوته وعلمه بل على حماقته وشره وعلى ضعف الناس وغفلتهم . ومارأينا قوة طه وأمثال طه إلا من هذه الناحية فهم كالثعابين تخيف بالوهم وان لم تلدغ وإن كان السم قد فرغ من أنيابها ، ولولا أن هذا من أمرها وأمر الناس للعب الصبيان بها واتخذوها حبالا

انظر كيف يجهل أستاذ الأدب فى الجامعة المصرية هذا الجهل الغريب قال فى صفحة ١٧ وهو يريد القرآن :

كان كتابا عربياً لغته هي اللغة العربية الأدبية التى كان يصطنعها (كذا) الناس فى عصره أى فى العصر الجاهلي . وفى صفحة ٣٥ ولست أنكر أن اختلاف اللهجات كان حقيقة واقعة بعد الاسلام . ولست أنكر أن الشعر قد استقام للقبائل كلها رغم هذا الاختلاف . ولكنى أظن أنك تنسى شيئاً يحسن أن لا تنساه وهو أن القبائل بعد الاسلام قد اتخذت للادب لغة غير لغتها وتقيدت فى الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت فى لغتها الخاصة . فلم يكن التميمي أو القيسى حين يقول الشعر فى الاسلام يقوله بلغة تميم أو قيس ولهجتها إنما كان يقوله بلغة قريش ولهجتها ؛ ثم جاء الشيخ بمثل من أدب اليونان ثم قال : وكذلك فعل العرب بعد الاسلام . عدلوا فى لغتهم الأدبية عن كل ما كانت تمتاز به لغتهم ولهجتهم

الخاصة إلى لغة القرآن ولهجتها ثم ضرب مثلا من موطنه الجديد . . . فرنسا ثم قال : وأنا أشعر بالحاجة إلى أن أضرب مثلا آخر قد يدهش له الذين يدرسون الأدب العربي لأنهم لم يتعودوا مثله من الباحثين عن تاريخ الأدب . ذلك أن فى لغتنا المصرية العصرية لهجات مختلفة وأنحاء متباينة من أنحاء القول فلأهل مصر العليا لهجاتهم ولأهل مصر الوسطى لهجاتهم ولأهل القاهرة لهجتهم ولأهل مصر السفلى لهجاتهم ، وهناك اتفاق مطرد بين هذه اللهجات وبين ما للمصريين من شعر في لغتهم العامة. فأهل مصر العليا يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل القاهرة ولا أهل الدلتا وهؤلاء يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل مصر العليا : وهذا ملائم لطبيعة الاشياء فما كان للشعر أن يخرج عما أنف أصحابه من لغة ولهجة فى الكلام ومع هذا كله فنحن حين ننظم الشعر الأدبي أو نكتب النثر الأدبي والعلمي نعدل عن لغتنا ، ولهجتنا الاقليمية إلى هذه اللغة واللهجة التى عدل إليها العرب بعد الاسلام وهى لغة قريش ولهجة قريش؛ انتهى خلط الشيخ

وقد أثبت فى كلامه أن لغة القرآن الكريم هى « اللغة الأدبية » التى كان ينتحلها العرب فى العصر الجاهلي فاذا كان ذلك وكان فى العصر الجاهلي لغة أدبية للعرب فكيف ينكر طه على الشعر الجاهلي أن يكون متفق اللهجة وكيف يجزم أن عدم اختلاف اللهجات فيه دليل على أنه موضوع مكذوب كما مر بك فى موضعه وكيف يتناقض هذه المناقضة المكشوفة ؛ على أن هذه « اللغة الأدبية » وهم سخيف من أوهام

المستشرقين تبعهم فيه طه لانه رجل مقلد سَرُوق فان اللغة الادبية لا تنشأ ولن تستقيم إلا إذا كانت مكتوبة مدونة متدارسة إذ الكتابة قيد من التغيير والتبديل وهى نص فى عموم الاحتذاء والمحاكاة لانها فى مكان ما هى فى كل مكان غيره

ولو لم تكن فى مصر لغة واحدة مكتوبة متدارسة هى العربية الفصحى لما كان لها شعر أدبى ولا نثر أدبى ومن ههنا يريد الذين فى قلوبهم أمل من المستعمرين والذين فى قلوبهم مرض من المجددين أن يجعلوا العامية لغة الكتابة والدرس لانها متى دونت وتدارسها النشء محت الفصحى محواً وأتت على كتبها وآدابها ودينها وقد كتبنا فى هذا فلا نطيل به ...

فهل يستطيع شيخ الجامعة أن يأتينا بدليل أو شبه دليل على أن القبائل فى العصر الجاهلى أو بعد الاسلام كانت تكتب وتدرس فى باديتها باللغة الادبية التى يزعمها حتى نصدق أنه كانت لكل قبيلة لغتان كما لنا فى مصر ؟ والعجيب أن يخلط الشيخ هذا الخلط وهو قد قرأ الجزء الاول من تاريخ آداب العرب وذكره فى كتابه فكيف ذهب عنه أن الرواة لم يكونوا يعبأون بالعربى الذى ينطق بلحن غير لحن قومه ولا يعدونه حجة فى اللغة ، وأن العربى القح السليم الفطرة لم يكن يستطيع أن يقيم لسانه إلا بلحن واحد ولهجة واحدة حتى أن سيبويه لما اختلف مع الكسائى فى مسئلة (ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى أو فاذا هو إياها) وجاءوا بالأعراب الذين كانوا بباب يحيى البرمكى

ورشوهم على أن يوافقوا الكسائى فى جواز اللغتين لم يزيدوا على أن قالوا فى الموافقة إن القول ما قال الكسائى فلما رأى سيبويه ذلك منهم قال ليحيي مرهم أن ينطقوا فان ألسنتهم لا تَطُوعُ به

ولا بأس هنا أن ننقل هذه العبارة من الجزء الاول من تاريخ آداب العرب في صفحة ٣٤٨ : ومهما جهدتَ بالاعرابى أن ينطق بغير لحن قومه وإن كان أفصح منه فانه لايستطيع إلا من ضعف لأن تقليده فى الصواب كتقليده في الخطأ واللغة إنما تؤخذ عن السليقة وهى سنة واحدة . قال الاصمعي جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبى عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو ، ما شيء بلغنى عنك تجيزه قال وما هو ؟ قال بلغنى أنك تجيز ليس الطِّيبُ إلا المسك قال أبو عمرو نمتَ وأدلج الناس ليس فى الارض حجازي إلا وهو ينصب ولا فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع ثم قال قم يا يحي يعنى اليزيدي وأنت يا خاف يعنى خلف الاحمر فاذهبا إلى أبى المهدى (أعرابي الحجاز) فلقناه الرفع فانه لايرفع واذهبا إلى أبى المنتجع (أعرابى تميم) فلقناه النصب فانه لاينصب . قال فذهبنا فأتينا أبا المهدى فاذا هو يصلى فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال ماخطبكما قلنا جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب قال هاتيا فقلنا كيف تقول ليس الطيب إلا المسك (بالرفع) فقال تأمرانى بالكذب على كبر سنى فقال له خلف ليس الشراب إلا العسل (بالرفع) قال اليزيدى فلما رأيت ذلك منه قلت ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ الله والعمل بها (بالرفع) فقال

فقال هذا كلام لا دَخَلَ فيه ثم أعادها بالنصب فرفعا ثانية فقال ليس هذا لحنى ولا لحن قومى . قالا فكتبنا ما سمعنا منه ثم أتينا أبا المنتجع فلقناه النصب وجهدنا به فلم ينصب وأبى إلا الرفع . انتهى ، وقد كان هذا منهم فى أواخر القرن الثانى واللغة إلى ضعف واضطراب فأين تجد هذه اللغة الأدبية التى يهذي بها الشيخ ، وانظر ما يبلغ الفرق بين قول إمام العربية أبي عمرو « ليس فى الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس فى الأرض تميمي إلا وهو يرفع » وبين قول أبى مرغريت . . . ولم يكن التميمى والقيسى حين يقول الشعر فى الاسلام يقوله بلغة قيس أو تميم ولهجتها ؛ فأيما أقرب إلى العلم والصدق . من كان في زمن العرب وحكى عنهم أم من يكون بينه وبين العرب جهله وحماقته وأربعة عشر قرنا في الموتى ؟

ومما هو فى هذا السبيل من كتاب طه وهو أعجب مما تقدم قوله فى صفحة ١٠٣ : والرواة أشد انخداعا حين يتصل الأمر بالبادية اتصالا شديداً وذلك فى هذه الاخبار التى يسمونها أيام العرب أو أيام الناس فهم سمعوا بعض هذه الاخبار (بعضها فقط . . .) من الأعراب ثم رأوها تُقَصُّ مفصلة مطولة فقبلوا ما كان يروى منها على أنه جد من الأمر ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوا منه تاريخ العرب مع أن الأمر فيه لا يتجاوز ما قدمناه فليست هذه الاخبار إلا المظهر القصصى لهذه الحياة العربية القديمة ذكره العرب بعد أن استقروا فى الأمصار فزادوا فيه ونموه وزينوه بالشعر كما ذكر اليونان قديمهم . . . فخرب

البسوس وحرب داحس والغبراء وحرب الفساد وهذه الأيام الكثيرة التى وضعت فيها الكتب ونظم فيها الشعر ليست فى حقيقة الامر — ان استقامت نظريتنا — إلا توسيعاً وتنمية لاساطير وذكريات كان العرب يتحدثون بها بعد الاسلام . انتهى

ولعلنا لم نر فى كتاب طه كلمة تدل على العقل إلا قوله في هذه العبارة « إن استقامت نظريتنا » وتعليقه الرأى على هذا الشرط وهو شرط بليغ ثم هو بعيد عما يأخذ فيه الشيخ من مَعَاسف الرأي وَمَعَاميه وهو كذلك من أدب العلم إذ لاحكم إلا بيقين فاذ كان الشك ترك الحكم معلقاً : غير أن طه لم يتجاوز هذا العقل بعشرة أسطر حتى هاج به داؤه واعترته النوبة فاذا هو يقول :

« وكل مايروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها ومايتصل بذلك من الشعر خليق أن يكون موضوعا والكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك » فهذا رجل معتوه يسخر من نفسه كما ترى وكلامه إلى السماجة أقرب منه إلى العلم وكأن فى هذا الشيخ طبعاً غير طبع الانسان ففضله بكثرة عيوبه لا بكثرة محاسنه . كم يوما من أيام العرب تعرف أيها الشيخ وفى كم كتاب هى وكم ديوانًا وضع فيها من الشعر وما هى وأين هى وما الذى وقفت عليه منها حتى تقطع على كل ذلك بأنه من عمل القصاص وأنه زيادة وتوسعة فى الاساطير؟

إن أيام العرب هي حروبهم ومغازيهم ولو لم يصح لهم شىء من كل ما روي عنهم لصحت أخبار هذه الايام وحدها ففيها نعيمهم ومصائبهم،

ومنها حياتهم وموتهم ولها محامدهم ومثالبهم وهي عندهم مادة التاريخ السياسي ولذا كان ذكرها في ألسنة شعرائهم إذ كان شاعر القبيلة كأنه وزير الخارجية فيها . على أنه لم توضع قصيدة واحدة لا صدقا ولا كذباً في وصف يوم من هذه الايام وقصة ماجرى فيه وإنما كانوا يذكرون أيامهم في الفخر والمهاجاة فيومئون إليها ويشيرون إلى مواضع الذم أو المدح لا يَعْدُون ذلك وبهذا استطاع الرواة والعلماء أن يستخرجوا أسماء هذه الايام ويستشهدوا على بعض ما كان فيها من شعر النقائض وهو ما يكون بين شعراء القبائل في الهجاء والفخر يقول أحدهم فينقض عليه الآخر وأنت تراها في شعر جرير والفرزدق والاخطل والطرماح وغيرهم من الاسلاميين كما تراها في شعر الجاهلية مما يثبت أنها تاريخ يتوارثونه بينهم ؛ وماذا تورث القبيلة أبناءها إلا أنسابها وأخبار سيوفها ومكارم أجوادها وأقوال شعرائها وقد قال الاول

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقتُ ولكنّ الرماح أجَرَّتِ

فهذه الرماح هي الالسنة التاريخية التي تكتب بالدم ذلك الشعر الأحمر . وإذا لم يكن للقبيلة حروب ووقائع لم يكن لها بأس ولا فيها نجدة ولا عندها منعة وسقطت بذلك أنسابها وذهبت مكارمها وقل شعرها إذ كانت هذه الثلاث هي مادة الشعر المأثور فيهم الدائر على أفواههم وكانوا قوما كأن حياتهم ثمر من زرع القتل

قال ابن سلام : وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأَحياء نحو حرب الأَوس والخزرج أو قوم يغيرون ويُغار عليهم ولذلك

قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا وذلك الذى قلل شعر عمان والطائف

ومع كل هذا فقد سقط أكثر الشعر وأكثر الخبر ولم تكن الايام من علم القصاص بل محصها العلماء وتناقلوها وكانت تقرأ عليهم وكانوا يميزون بينها وبين الأقاصيص المولدة . قال الجاحظ يذكر ما صنع الناس من أخبار عمرو بن ود فارس قريش الذى قتله علي بن أبي طالب : « قرأت على العلماء كتاب الفجار الاول والثاني والثالث وأمر المطيبين والأحلاف ومقتل أبي أزيهر ومجيء الفيل وكل يوم جمع كان لقريش فما سمعت لعمرو هذا فى شيء من ذلك ذكراً » . وكانت قصة عمرو كقصة عنترة مما يضعه العامة ولا يذهب عن العلماء أنه موضوع لا خطر له

وكل ما يعرف من أيام العرب أنواع ثلاثة : فنها أيام قديمة وهى قليلة جداً كيوم خزاز وأخبارها موجزة ومنها أيام وقعت بعد الاسلام كيوم الوقيظ كان فى فتنة عثمان بن عفان ويوم الهراميت كان فى أيام عبد الملك ويوم الصريف كان فى أيام الرشيد وكل ذلك يروون أخباره ويذكرونه فى شعرهم . ومنها أيام جاهلية وهى المادة العظمى بين هذين الطرفين الدقيقين وترجع إلى ما قبل الاسلام بستين أو سبعين سنة أو حواليها وأبعدها لا يتجاوز فى تاريخه مائة سنة وهى رواية جيلين يلقيها الأب إلى إبنه أو الجدّ الى حفيده على أن كل ما يعرف منها على ايجاز أخباره لا يوفي سبعين يوما . وقد نصوا على أن كبارها ثلاثة : يوم شعب جبلة وكان قبل الاسلام بسبع وخمسين سنة ويوم ذي قار وقد شهده النبي صلى الله عليه

وسلم[1] ويوم كلاب ربيعة ولم نقف على تاريخه فلو كانت هذه الأيام أساطير وأقاصيص وكانت « كثرتها المطلقة موضوعة من غير شك » كما يتوهم أستاذ الجامعة لجعلوا هذه الثلاثة فى حد الثلاثين ما داموا يريدون أن يتكثَّروا ويكذبوا فى تعظيم العرب

* * *

وأما بعد فانا نتجاوز عما بقى لنا على أستاذ الجامعة فى كتابه وحسابه ـ وهو كثير ـ فقد أعسر أشد العسر بل أنفَضَ بل أفلس ، والذى نرجوه أن يكون قد علم كيف يعلم وعقل كيف يعقل وأن يكون قد استيقن انه إذا كان معنا لم يزدنا وإذا كان علينا لم ينقصنا وإنما نفسَهُ ينقص ونفسَهُ يزيد وكفى بالمرء جهلا إذا أُعجب برأيه فكيف به معجباً ورأيه الجهل بعينه؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ونستغفر الله مما جمح فيه القلم أو طغى به الفكر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



(١) وذكره عليه الصلاة والسلام فقال « هذا أول يوم انتصر فيه العرب على العجم وبى نصروا »

الجامعة فى مجلس النواب

ثم كان يوم الأحد الثانى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ فعرضت ميزانية الجامعة فى مجلس النواب فاذا غضبُ الله واذا مَقْتُ الأمة كما ترى فيما ننقله عن جريدة الاهرام الغراء بحروفه محصلاً من مضبطة المجلس

قال الاستاذ صبرى أبو علم بعد أن أتى على تاريخ الجامعة وبدئها والحاقها بوزارة المعارف وانها بعد ذلك لم تكن الا قانونا ومكانا واعلانا من اعلانات السياسة :

ان كل الظواهر تدل على انها اخرجت المشروع بدون ان تستكمل بحث الوسائل الفنية والادارية التى يتم بها المشروع . ودليلى على ذلك انه عند البدء فى انشاء القسم العلمي كانت محاضرات الكيمياء لم يبدأ فى تدريسها الا فى أوائل نوفمبر بسبب اشتغال استاذ الكيميا فى وظيفة سكرتير عام الجامعة أما دروس الكيمياء العملية فلم تبدأ الا فى ٣ يناير لعدم اعداد المعامل اللازمة لها وكذلك تدريس علم الجيولوجيا لم يبدأ الا فى أوائل فبراير وسبب ذلك ان استاذ ذلك العلم كان عميد الكلية وقد استغرقت ظروف تنظيم كلية العلوم وتكوينها كل أوقاته وجهوده ولم يكن هناك بناء خاص للمعامل كما ان الأدوات العلمية اللازمة لم ترد الا قبل الامتحان ببضع أسابيع من ذلك سيتضح انه كان هناك سر خفي يدفع القائمين بالأمر الى اعلان افتتاح الجامعة من غير تهيئة الوسائل

اللازمة لها من حيث استعداد الطلبة وأهليتهم لتلقى الدروس ومن حيث اختيار الأساتذة وفهمهم لأحوال الطلبة الذين سيتابعونهم فى تلقى الدروس منهم ، مع ان القانون الصادر بتكوين الجامعة تكوينا جديدا صدر بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٢٥ على ان يعمل به من يوم نشره

اذكر اننا عند بحثنا فى تصرفات وزير المعارف السابق سمعنا من سعادته ان معظم الاصلاحات التي أشار بادخالها على مناهج التعليم كان الغرض منها تغذية الجامعة المصرية بطلبة يمكنهم أن يتابعوا دروسها . ومعنى هذا انه اذا كانت الفكرة من هذه الاصلاحات اعداد طبقة من الطلاب تكون قادرة على تلقى علوم الجامعة ، فكان من الواجب ان يتأخر انشاء هذه الاقسام حتى يتسنى للطلاب الالتحاق بالجامعة. ولذا لا افهم السر فى انشائها بمثل هذه السرعة وفى محاولة الهروب من رقابة البرلمان فى الوقت الذى تعيش فيه الجامعة على الاموال العامة .ظهرت الجامعة وعليها طابع الاستعجال ،فمن سرعة فى تقرير انشائها الى اندفاع في تكوينها وفى تعيين المدرسين اللازمين لها

انشئت بقرار من مجلس الوزراء وهذا غير كاف من الوجهة العلمية فلا أظن ان جامعة تنشأ بين يوم وليلة إذ ان الجامعات نتيجة تطور مستمر للعلوم والمعارف، انها تنمو و تتطور أو تتكون و تتشرب بالنظام الاجتماعي والسياسى والاقتصادى

ثم أفاض الخطيب فيما وقع من الخلط والخبط في الجامعة وتوظيف رجالها

جلسة يوم الاثنين

خطبة الاستاذ عبد الخالق عطيه

حضرات النواب ! نصف مليون جنيه نصف مليون جنيه . أجل نصف مليون جنيه احتملته خزانة البلاد ثمنا لقصر الزعفران ومصروفات الجامعة المصرية التي لم تنشأ على صورتها الحاضرة الا منذ سنة ١٩٢٥ دون ان تقول البلاد كلمتها فى هذا الشان، والآن يطلب منكم أن تصادقوا على ثلاثمائة الف جنيه أخرى لتكون مصروفات لهذه الجامعة فى السنة الحالية . مبالغ ضخمة . وارقام جسيمة يضج وياطول ما يضج من ثقلها صغار الممولين ودافعو الضرائب من هذه البلاد

أقول ذلك ولا أراني مبالغا ، ولكني أود أيضا الا تستروحوا من كلامى رائحة الكراهية للعلم أو للصد عن ورود مناهله ومعاهده فانى اعتقد ان كل مال وان عزيهون فى جانب الغاية العظمى والغرض الاسمى الذى من أجله أنشئ وينشأ مثل هذا المعهد ، ولكني أعود وأقول ان الشرط كل الشرط لذلك ان نبتدىء فى اعمالنا من حيث يجب الابتداء والقيد كل القيد ان تكون الأنظمة التي وضعت والأساليب التى روعيت من شأنها أن تؤدى الى هذه الغاية وتحقق ذلك الغرض . عند ذلك يستحب الانفاق بل يجب السخاء

يا حضرت النواب ! بالأمس تكلم حضرة الزميل الاستاذ صبرى أبو علم عن الغرض من إنشاء الجامعة والغاية منها ولكنه كان فى بيانه

مجملا فقد مر على ذلك مر النسيم وانى أرجو واستميحكم عذرا فى ان أرانى، مضطراً اليوم لابداء شيء من التفصيل فى هذا الموضوع حتى تكون المقدمات مرتبطة مع النتائج التى اقترحنا ارتباطا واضحا منسجما وهذه النتائج هي ذات العلاقة والرابطة فيما يتعلق بالمال المطلوب منا التصديق عليه اليوم

ان الجامعة ، فى أى بلد من بلاد العالم ، خاضعة دائما ككل كائن لنواميس العمران . تبتدىء جنينا أي فكرة ثم تخرج طفلا ومن هنا يبتدىء دور الانشاء ثم تترعرع فتصير صبيا بعناية اصحابها ، ثم تنمو فتصبح شابا ثم كهلا ثم شيخا يجمع اختبارات القرون وتجاربها وحينئذ تكون جديرة بالبذل حرية بالاسعاد

أيها السادة

كلنا نعرف ان ماينفق على الطفل أقل مما ينفق على الصبي وما يقتضيه حال الصبي أقل مما يقتضيه حال الشاب ، وهكذا الحال بالنسبة للكهل والشيخ خصوصا فى مثل المسألة التى نحن في صددها

اذا فهمنا ذلك ووعيناه فماذا ينبغى ان أقول وماينتظر ان أرمى اليه ؟

دخلت الجامعة فى دور جديد فأصبحت أميرية منذ مارس سنة ١٩٢٥ وأصبحت تعتمد فى حياتها الجديدة على الاموال المشتركة أي على المال العام وهو مال الأمة . فيحق لحضراتكم بما لكم من الولاية على هذا المال ويقضى عليكم واجب التحري والذمة أن تعرفوا اذا طلب منكم ان تصرفوا لماذا تصرفون وكم تصرفون . والواجب ان نشجع عند ما يجب

التشجيع وننتقد عند ما يجب الانتقاد بحيث لا نترك مسألة تمر علينا دون تشجيعها أو انتقادها على حسب ما تقضي به المصلحة

لقد كنت أريد أيها السادة ان الذين ادخلوا الجامعة فى الدور الجديد يفطنون الى أن الطبيعة تأبى الطفرة . كنت أرجو ذلك ولكن بكل أسف أقرر ان السياسة التى تملكتها شهوة التغيير والتبديل ، والتى ركب اكتافها شيطان العجلة فكانت تسعى الى المظاهر لا الى الحقائق والى الأشكال لا الى الموضوعات . وهكذا أبرزت لنا وللبلاد جامعة فى ثياب العمالقه ، بينما هي لا تزال قزما من الاقزام . وأرادت أن تقوم تلك الجامعة على ارجلها كأنها خلق سوي بينما هى طفلة فى المهد . ولو كان الأمر وقف عند هذا الحد لهان ، ولكن الذى لا يهون اننا احتملنا مبالغ ضخمة فى سبيل الاشكال لا فى سبيل الموضوعات، واننا مستهدفون اذا لم نبادر الى علاج حاسم لمصروفات لابد ان تتضخم تضخما كبيرا

ثم أفاض الاستاذ فى الكلام على ادارة الجامعة ومدرسيها واسرافها وتخبطها ببيان مستفيض ثم قال :

﴿ مسألة طه حسين ﴾

هذا فيما يختص بأمر التعليم

بقيت هناك نقطة أخرى لابد من التنبيه اليها :

حدث ياحضرات الأعضاء حادث بالجامعة المصرية ، وقام من ناحيتها صوت أفقدها عطف الكثيرين ، قد أدى إلى فتنة أو كاد والأشد

والأنكى أن البلاد لم ينلها حظ ولم تنلها مصلحة ظاهرة أو خفية من اثارة ذلك الموضوع الذى تعرض له صاحب ذلك الصوت حتى كان يقال ولو من طريق التساهل — إن الحسنات تكافأت مع السيئات . وأظن أن حضراتكم بعد هذا البيان قد فطنتم إلى ما أريد وتبينتم أن الصوت المعني بقولى هذا هو كتاب (الشعر الجاهلى) ذلك الذى تضمن طعناً ذريعاً على الموسوية الكريمة والعيسوية الرحيمة ، وعلى الاسلام : دين الدولة المصرية بنص الدستور

أيها السادة : إن العقائد كانت وما زالت فى الشرق وفى الغرب أيضاً عواطف حساسة متوثبة متيقظة متأججة ولو ظهرت خامدة . فالرجل العاقل يجب عليه أن يبتعد عن كل ما يهيجها ، والرجل العالم حقاً الذى يفهم البيئة التى يعيش فيها والوسط الذى يكتنفه يجد من علمه متسعاً لا نهاية له لمعالجة الاصلاح والعيوب الكثيرة دون أن يجد نفسه مضطراً فى وقت ما إلى أن يلج هذا الباب الذى قد يترتب على ولوجه الكثير من الحوادث الجسام والأمور العظام

يا حضرات النواب ، أرجو أن لا يتأول علينا متأول أو يتقول علينا متقول أو يمتنّ علينا ممتن بأنه أشد منا غيرة على حرية العلم والتعليم وأعظم منا رغبة فى تأييد حرية الرأى والتفكير . إنه لا توجد فى العالم حريات مطلقة ، ولو كان الأمر كذلك لنهشت أعراض بحكم حرية الرأى ولو كان الأمر كذلك لقام فى البلاد من يهاجم نظام الحكم اعتماداً على حرية الرأى ، ولو كان الأمر كذلك لقام فى البلاد من يبث مبادئ

الفوضوية أو الباشفية استناداً إلى حرية الرأى ولكن الحرية — ياحضرات الأعضاء — محددة وتنتهى عند ما يبتدئ بالتصادم مع مقتضيات النظام والقانون . أنت حر فى كل ماتريد ، ولكن حاذر أن تقع تحت سلطة القانون .

ان التعليم حر بنص الدستور ، وليس منا من يعارض فى ذلك ولكن الدستور قال أيضاً ان التعليم حر إلا إذا أخل بالنظام العام إذا كان منافياً للأدب . والاخلال هنا معناه أن يترتب على تقرير الرأى حدوث فتنة أو احتمال حدوثها وعند ذلك يقف القانون حداً حائلا ، لأن المصالح العامة مقدمة على الشهوة . فعلى الذين يفهمون حرية الرأى كما حددها القانون ، وعلى الذين يعقلون حرية التعليم كما يعنيها القانون ، أن يفهموا أننا إذا تعرضنا لهذه المسألة فانما نريد أن نكون دائماً فى دائرة القانون

أيها السادة : ان تصرف هذا الشخص كان أيضاً مخالفاً للذوق فانه مدرس بالجامعة المصرية وهى معهد أميرى يعيش من أموال الحكومة الممثلة للأمة فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التى دينها الاسلام . فلم يكن من المفهوم ولا من المعقول ولا من حسن الذوق أن يقوم هذا الشخص فيبصق فى وجه الحكومة التى يتقاضى مرتبه من أموالها بالطعن على دين رعيتها من أقلية أو أكثرية . إننا إذ نسلم أولادنا للحكومة ليتعلموا فى دورها نفعل ذلك معتمدين على أن بيننا وبينها تعاقدا ضمنيا على أن الديانات محترمة . لا أقول تعاقدا ضمنياً فقط بل

صريحاً لأن الحكومة تعنى بتعليم الدين فى مدارسها ء وتضعه فى مناهجها وإذا كان الأمر كذلك فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الإلحاد أن يحرقوه فى قلوبهم لأنهم أحرار فى عقائدهم أو أن يحرقوه فى منازلهم لأنهم أحرار فى بيئاتهم الخاصة اما أن يطلقوه فى أجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن أن نفهمه بأى حال من الأحوال (تصفيق حاد) وأغرب مافى هذ التصرف إن صح ما بلغنى أن إدارة الجامعة اشترت من مؤلف هـذا الـكتاب كتابه ! ؟ اشترته ياحضرات النواب من أموال الأمة الموتورة بهذا العمل ! فان كان هذا الـكتاب سيدرس فى الجامعة فتلك ثالثة الاثافي، وليس لنا على هذا الأمر تعليق . أما إذا كان الغرض من شراء الـكتاب اتقاء ضرر انتشاره فهذا أيضاً تصرف غير معقول لأن مال الأمة لايجوز أن يدفع أجراً ومكافاة على إساءة للأمة ، ولأن هذا التصرف فى حد ذاته من المكافأة وهذه المكافأة قد حلت حيث كانت تجب الاساءة وحيث كانت تجب المجازاة هذا كله إن صح ماسمعته من أن إدارة الجامعة قد اشترت هذا الـكتاب

وزير المعارف — أما فيما يختص بمسألة كتاب (في الشعر الجاهلى) فقد قلت لحضراتكم فى الجلسة الماضية اننا نطمع فى أن تكون الجامعة معهداً طلقاً للبحث العلمي الصحيح وليس معنى هذا أننا نرضى أن تكون كراسى الأساتذة منابر تلقى فيها المطاعن فى أى دين من الأديان قصد النيل من كرامته أو التهجم على حرمته ، وانما واجب الأساتذة أن يتحاشوا ذلك فى كتاباتهم ومحاضراتهم وحادثة كتاب (فى الشعر الجاهلي) حصلت

كما تعلمون فى عهد الوزارة السابقة . فلما توليت الوزارة أردت أن أقف على حقيقة الأمر فسألت سعادة مدير الجامعة عن الاجراءات التى اتخذها إزاء هذه الحادثة فأجاب بأن الجامعة منعت انتشار الكتاب بشراء جميع النسخ من المكاتب وحصرتها فى مخازنها كما اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ أخرى منه وقد أكد لى سعادته أن ما يؤاخذ عليه المؤلف لم يلقه على طلبته فى الجامعة كما ظن . وأن المؤلف صرح على صفحات الجرائد بأنه مسلم ولم يقصد الطعن في دين من الأديان أو المس بكرامته (ضجة)

هذا ما أكده لى مدير الجامعة أما فيما يختص بالمبلغ الذى دفع ثمناً للكتاب فانى أصرح بأنى لو كنت مسئولا لما رضيت بهذا التصرف وانى موافق على استرداده إذا كان لايوجد مانع قانونى يحول دون ذلك

أما فيما يختص بالاجراءات الأخرى فلا يخفى على حضراتكم أن المؤلف مسافر إلى أوربا من شهر يونيو عقب تأليف الوزارة مباشرة ولم يعد بعد . فلا يمكن أن اتخذ من الآن اجراءات فى غيابه وعلى كل حال فانى أعد ببحث المسألة

الرئيس[1] — ترفع الجلسة للاستراحة

فرفعت الجلسة

ثم أعيدت

(١) هو رجل الامة العظيم ونابغة الشرق كله ونادرة الفلك صاحب الدولة سعد باشا زغلول .

خطبة الأستاذ القاياتى

الشيخ القاياتى — سادتى النواب . كان بودى أن تمر بنا ميزانية الجامعة فنتقبلها هاتفين مصفقين . لأنها ميزانية أمنيّة طالما تمنيناها ، وغاية كثيراً ما رجوناها . لأننا نعتقد أن وجود جامعة مصرية إنما هو طريق الى الفلاح المرجو ، وإلى الحرية المطلوبة ، وإلى الاستقلال الحقيقى المنشود . ولكن الله تعالى أراد أو أن غير الله ممن يجرؤون على مالا يجوز لهم أن يجرؤوا عليه أرادوا أن تمر علينا هذه الميزانية ونحن نئن من الألم ، ونتضجر من الحزن ، ونبكى من المصيبة التى كنا نرجو أن تكون نعمة كبرى . أنا لا أريد أن أتكلم عن الجامعة باعتبار إدارتها ولا باعتبار مايدرس فيها ولا باعتبار كفاية مدرسيها وموظفيها بعد الذى أدلى به حضرات الأعضاء المحترمين من البيانات فى هذا الشان . ولكن الذى أريد الكلام فيه من غير إطالة هو موضوع كتاب (فى الشعر الجاهلى) الذى ألفه الدكتور طه حسين وهو ابن الجامعة البكر الذي كانت تنفق عليه من مال الأمة ؛ وما كان يظن أبداً أن يقابل هذا الاحسان بالعقوق إلى درجة أن يضربها بضرب دين الاسلام دين الاغلبية

ذكر حضرة النائب الاستاذ عبد الخالق عطيه ملاحظات كثيرة عن هذا الكتاب ، وعن وقعه على الأمة ، وتأثيره فى قارئيه وسامعيه ، حتى لقد قال بحق « إنه أثار فتنة أو كاد » . والحق يقال انه ما كان من المظنون أن يوجد بين المسلمين فى مصر من يجرؤ على الدين إلى هذا الحد الذى بلغه الشيخ طه حسين

قبائح متعددة : ما بين تكذيب لصحيح التاريخ وتكذيب لنصوص القرآن ونسبة التحايل إلى الله وإلى النبي محمد وإلى موسى عليه السلام .

وقبل أن أتعرض لسرد ماجاء فى هذا الكتاب أو سرد شيء منه أريد أن أظهر لكم شدة اندهاشي مما نقله معالى وزير المعارف عن حضرة مدير الجامعة من أن هذا الكتاب لم يلق على الطلبة ، يعنى أن الدكتور طه حسين لم يلق على طلبته ما جاء فى هذا الكتاب . اندهشنا من هذا القول لأن المؤلف نفسه صرح فى مقدمة كتابه أنه ألقاه على الطلبة . ولست أدري كيف يمكن أن يكون حقاً ما قيل من أنه لم يلقه على طلبته بعد أن يقرر هو بنفسه بأنه ألقاه عليهم

أصوات — ماذا قال ؟

الشيخ القاياتي — قال فى مقدمة الكتاب « هذا نحو من البحث فى تاريخ الشعر العربى لم يألفه الناس عندنا من قبل وأكاد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه وبأن فريقاً آخر سيزورون عنه ازورارا ولكني على سخط اولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده ، فقد اذعته قبل اليوم حين تحدثت به الى طلابي في الجامعة ، وليس سراً ما تتحدث به الى أكثر من مائتى شخص »

هذا قول المؤلف فى مقدمة الكتاب . ولست أفهم كيف يقال بعد ذلك انه لم يلق هذا الكتاب على طلبة الجامعة ، وان يترتب على ذلك ما رتبته الجامعة من منع استاذ ان يرد عليه فى الجامعة بعد أن سمحت له بذلك بعلة ان الكتاب لم يلق على الطلبة حتى يرد عليه فى نفس الجامعة

لقد جاء فى هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن ، ونسبة جريمة للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه متحايل ، وكذب صريح على التاريخ ؛ لا يجوز أبدا أن نهمل ولا أن نترك صاحبه دون تدقيق معه فى البحث ويكون حسابنا معه عسيراً. انني اعرف انه من الكرم والمروءة أن يعفو الانسان عمن أساء اليه ، ولكن من الظلم والتهجم على المصلحة أن يعفو الانسان عمن أساء الى غيره ، أو عمن طعن فى وطنه أو دينه (تصفيق) ان الدولة أعلنت في دستورها انها دولة اسلامية ، وان دولة اسلامية لا تحافظ على دينها من أن يمس ولا على كرامتها ان تجرح لهي دولة أعوذ بالله ان تكون مصر من امثالها

لقد بلغت الدرجة بالدكتور طه حسين ان يذكر فى كتابه ان حادثة ابراهيم واسماعيل — التى نص الكتاب العزيز عليها — حادثة لا يعول عليها التاريخ ولا يمكن التسليم بها وانما هى حادثة أرجعها المسلمون لسبب مخصوص هو سبب سياسى أكثر منه دينياً

وقد جاء فى كتابه بالصفحة ٢٦ ما يأتى : —

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل ؛ وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى »

معنى هذا أن دعوى الله أن شيئاً حصل لا ينهض دليلا على أن هذا الشىء حصل والله يعلم أن هذا يساوى فى قوله أن الله كذاب فيما قال

ثم جاء بالصفحة المذكورة : —

«فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة انما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الدين كانوا يقيمون فى هذه البلاد وانتهت بشىء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذى استقر عليه الرأى بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل فأولئك وهؤلاء ساميون »

وقد جاء بالصحيفة ٢٧ ما يأتى :

«وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة فى القرن السابع للمسيح »

كلمة الاسطورة يا حضرات الزملاء لا تقال الا للخرافات أو الترهات ، فالقول بأن هذه القصة التى وردت فى كتاب الله العزيز خرافة يعنى ان الله يخرف ونحن نؤمن بتخريفه (مقاطعة)

أنا والله لا أريد التشنيع ولكننى أريد أن أذكر حقيقة ، أريد أن أقول لأقوام لا يرون رأينا ويدعون ان البحث أمر واجب وحر وانه لا يجوز لنا أن نقيد حرية الناس فى آرائهم أقول لهم اننا لا نقيد حريتهم فى عقائدهم ولكننا نقيد آراء تلقن أولادنا وتشاع على أفراد الأمة مابين متعلم وغير متعلم ، ولا بد أن يكون ذلك داعية الضلال والفسوق . فاذا لم أطل بينكم الليلة فى سرد النصوص الواردة فى هذا الكتاب وذكر العبارات الشنيعة التى لا تدل الا على زندقة فلأنى لا أريد ادخال الحزن على قلوبكم ، ولأنى لا أود أن أرى دموعكم تسيل جزعاً على دينكم وشرف دولتكم

اننا لا نتكلم فى هذا الا بباعث المحافظة على الدين ، وليس ذلك بالأمر الذى يهم المسلم دون غيره ، فان كرامة الأديان على السواء يجب أن تكون محفوظة

انى لا أسمح ولا أقبل أن يطعن أحد فى دين المسيح عليه السلام ، ولا أقبل أن يطعن فى دين موسى عليه السلام ، بالنسبة التى لا يرضى بها أحد أن يطعن على دين محمد عليه السلام ؛ فان حرمات الأديان يجب أن تكون موفورة

إنى لا أخشى أن يقال إننا نتكلم متعصبين تعصباً دينياً ، لأنه إذا كان التعصب الدينى هو المحافظة على كرامة الأديان جميعاً فانى أول المتعصبين

كنت أود بعد أن قرأت لكم كلمات المؤلف أن أقرأ لكم كلمات الله

فيما كذبه المؤلف ، ولكنى لا أظن أنكم فى حاجة إلى ذلك

نريد أن نثبت فى تاريخ عملنا أننا لا نقبل أبداً أن يتهور متهور على الدين تهوراً يحط كرامته وكرامة الدولة ، فان الطعن فى دين الدولة طعن فى الدولة ، هو طعن فى كل فرد من أفرادها . لا نرضى أن يسجل علينا التاريخ أنه قد فتح بيننا هذا الباب ، ونشر بينناهذا الكتاب ، وقامت عليه الضجة التى قامت ، ثم يمر علينا كما يمر السحاب دون أن ينال المسىء جزاء إساءته لا أريد أن يقال طعن فى الدين وشهّر به ومر الأمر على مجلس النواب وخرج الطاعن نظيفاً شريفاً بدون جزاء

إن الرحمة واجبة ولكن ليس فى الدين . وقد أوجب الدين أن يرجم بعض من يرتكب الجرم فما بالكم فيمن يدعي أن الله كاذب ، وأن النبى كاذب ، وأن المؤمنين جاهلون لا يفرقون بين الحق والباطل

ولا يجوز أن يكتفى مطلقاً بأن المؤلف شرح فى الصحف أنه مسلم وانى ألفت نظركم إلى أن الدكتور المؤلف لم تسمح له نفسه مع أن الموقف كان شديداً والالحاح عليه كثيراً أن يكتب كلمة يشرح بها ماقال وأن يؤوله بمعنى يفهم منه خلاف مافهمناه

إذا كان قد ارتد بكتابه ثم رجع إلى الاسلام بعد ذلك فهو مسلم ولكن التوبة لا تغفر الذنب ولا تعفي من العقوبة . وقد كنت أريد أن اقترح اقتراحا خاصا ولكنى اطلعت على اقتراح لحضرة عبد الحميد البنان بك ووافقته عليه

الرئيس — تلا اقتراح حضرة عبد الحميد البنان بك ونصه :

أقترح على المجلس الموقر تكليف الحكومة

أولا — مصادرة واعدام كتاب طه حسين المسمى « فى الشعر الجاهلى » بمناسبة ما جاء فيه من تكذيب القرآن الكريم واتخاذ مايلزم لاسترداد المبلغ المدفوع إليه من الجامعة ثمنا لهذا الكتاب

ثانياً — تكليف النيابة العمومية برفع الدعوى العمومية على طه حسين مؤلف هذا الكتاب لطعنه على الدين الاسلامى دين الدولة

ثالثاً — الغاء وظيفته من الجامعة وذلك بتقرير عدم الموافقة على الاعتماد المخصص لها

ثم تلي اقتراح حضرة محمود لطيف بك وهذا نصه : —

اقترح بعد البيانات التى سمعها المجلس الموقر عن كتاب « فى الشعر الجاهلى » أن يقرر المجلس رغبته إلى الوزارة فى معاقبة مؤلف هذا الكتاب الذى أهان فى مؤلفه الشرائع السماوية والأنبياء وأهان فيه دين الدولة الرسمى وأن تتخذ الوزارة مايحفظ المعاهد العامية من أن تكون مقاما لمثل هذا التهجم ، مع اتخاذ اللازم لاعدام النسخ الموجودة من هذا الكتاب

الرئيس — هل يريد مقدم الاقتراح الأول أن يؤخذ الرأى على اقتراحه فقرة فقرة ؟

عبدالحميد البنان افندى — نعم

محمود وهبه القاضى بك — اذكر أن الشيخ طه حسين كتب فى الجرائد أنه مؤمن بالله ونبيه وكتبه ورسله واليوم الآخر (ضجة)

معنى هذا انى ممتنع عن الكلام مادمتم غير راغبين فيه

بيان رئيس الحكومة

رئيس مجلس الوزراء — أريد أن أقول كلمة فى هـذا الموضوع فقد ذكر معالى وزير المعارف العمومية أن هذا الكتاب طبع ونشر فى عهد الوزارة السابقة . وحين تشكلت هذه الوزارة وجدت برئاسة مجلس الوزراء خطاباً من حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر يطلب فيه من الحكومة أن تتخذ اجراءات خاصة فى موضوع هذا الكتاب واذكر منها رفع الدعوى الجنائيـة على المؤلف . فطلبت من وزير المعارف بحث هذا الموضوع فبحثه وكتب لى خطاباً بين فيه نتيجة بحثه باشتراك مدير الجامعة وما رأى اتخاذه من التدابير اللازمة لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل فى المستقبل . وقد وافقته على ما رآه وكتبت لفضيلة شيخ الازهر بما قرره وزير المعارف ووافقته عليه من حبس الكتاب أي منع انتشاره وبان المؤلف قد اعتذر بما بينه معالى وزير المعارف واخبرت فضيلته ايضاً بما اعتزمته الحكومة من اتخاذ التدابير لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل من أي استاذ بالجامعة . فموافقتى على ماقرره وزير المعارف يعتبر عملا حكوميا صدر من رئيس وزارة مسؤول عنه . واني افهم ان يظهر المجلس استياءه من الكتاب أو ان يترك لوزير المعارف الحرية فى اتخاذ اجراءات علاوة على ما اتخذ من قبل اما ان يقرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذته الوزارة من الاجراءات

أو ان يلزمها بالقيام بعمل معين زيادة على ماعملته وبما وعد به وزير المعارف فيكون هـذا انتقاداً لاجراءاتها فى هـذا الموضوع ويعرضها للمسؤولية الوزارية

الرئيس — لم أفهم القصد من هـذا القول فهل تريد الا يتخذ المجلس قرارا ؟

رئيس مجلس الوزراء — الاقتراح المعروض الآن يعتبر فى نظرى انتقاذا للوزارة ويعرضها لمسألة الثقة

الرئيس — تريد اذن طرح مسئلة الثقة بالوزارة

رئيس مجلس الوزراء — نعم

الرئيس — حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يرى انه اذا قرر المجلس قرارا يخالف ماتخذه من الاجراءات فان ذلك يدعو الى طرح الثقة بالوزارة

رئيس مجلس الوزراء — قلت انه اذا قرر المجلس قرارا مايخالف الاجراءات التى اتخذت وما وعد به وزير المعارف العمومية فان ذلك يدل على عدم ثقة المجلس بالوزارة

وزير المعارف — قلت ان مؤلف هذا الكتاب غير موجود بمصر ووعدت انه عند حضوره ابحث المسألة . وأسأله فيها وبعد ذلك يتخذ ما يتراءى من الاجراءات ونعرض كل ذلك على المجلس

الرئيس — ولكن المجلس ينظر الآن فى الغاء وظيفة

رئيس مجلس الوزراء — لاشك ان من حق المجلس الغاء أية وظيفة شاء . وهذا لا أعارض فيه مطلقا

الرئيس — أنت اذن تعارض فى احالة المؤلف على النيابة

رئيس مجلس الوزراء — أعتبر ان فى تكليفنا بذلك عدم ارتياح لما قمنا به من الاجراءات وهذا يدعونى . . .

الرئيس — يعنى ان الوزارة لا تود تكليف النيابة بالتحقيق ؟

وزير المعارف العمومية — لا تعارض الوزارة فى ذلك بعد سؤاله واذا تبين لها ان هناك جريمة

الرئيس — يعنى ان الوزارة تعد بتكليف النيابة بالتحقيق اذا اتضح لها بعد سؤال المؤلف ان هناك جريمة ؟

رئيس مجلس الوزراء — قلت اننا اتخذنا مايجب اتخاذه من الاجراءات

الرئيس — ولكن للمجلس الحق فى ابداء رغبات .

رئيس مجلس الوزراء — اذا كان الغرض ابداء رغبة فهذا شيء آخر أما تكليف الحكومة أمراً فلا يعد ابداء رغبة من المجلس

الرئيس — يجوز للمجلس ان يكلف الحكومة بأشياء بماله عليها من حق الرقابة الداخلة فى اختصاصه . فهل تأبى الحكومة ذلك ؟ فاذا كنتم تعدوننا بقبول ذلك فهذا حسن ، والا فان ذلك يكون أساسا لمبدأ جديد يلزم بحثه

رئيس مجلس الوزراء — هذه المسئلة من اختصاص السلطة التنفيذية وللمجلس الحق فى ابداء رغبات بخصوصها فتبحث الحكومة هذه الرغبات

لترى اذا كان من الممكن تنفيذها أم لا فاذا تأكد للحكومة ان هناك جريمة امكن معاقبته

الرئيس — هل حضراتكم موافقون على الرغبات التى تليت عليكم أعنى المصادرة وتكليف النيابة العمومية برفع الدعوى والغاء الوظيفة .

محمود لطيف بك — ان الاقتراح الذي قدمته برغبة يوفق بين رأي المجلس والوزارة

الرئيس — هناك اقتراح برغبة فاما ان ترفضوه أو تقبلوه

فكرى أباظه بك — ان فى نصوص هذه الرغبة متناقضات مثلا انه غير ممكن مصادرة الكتاب الا بحكم

الرئيس — قيل ان ادارة الجامعة اشترت هذا الكتاب وحبسته لتمنع بذلك تداوله . فهل يكتفى حضرة مقدم الاقتراح بذلك أم يريد اعدامه ؟

عبد الحميد البنان افندي — أريد اعدامه

الرئيس — هل تمانع وزارة المعارف فى اعدام هذا الكتاب

وزير المعارف — ان وزارة المعارف لا تمانع فى ذلك

الرئيس — بقيت النقطة الثانية وهى تكليف النيابة العمومية باقامة الدعوى ضد المؤلف فهل ترى الحكومة — اذا وافق المجلس على ابداء هذه الرغبة — فى ذلك اعتداء على اختصاصها ؟

عبد الخالق عطيه افندي — أرى ان المسألة تتعلق بالصيغة أكثر منها بالموضوع لأنه ربما يتبادر الى الذهن ان المقصود بلفظة « تكليف »

الزام النيابة برفع الدعوى العمومية فلذلك اقترح ان تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف »

الرئيس - اذا استبدلت كلمة « تكليف » المذكورة بالاقتراح بكلمة « تبليغ » فهل لدى الحكومة ما يمنعها من تنفيذ هذه الرغبة اذا وافق المجلس على ابدائها ؟

رئيس مجلس الوزراء — لقد تصرفت الحكومة فى هذا الموضوع بما رأته مناسبا . فتكليف المجلس إياها بأن تقوم بأكثر مما فعلت يفيد ان ما اتخذته من الاجراءات لم يكن كافيا . وأرى لهذا انه يجب علي أن أعارض فى ذلك

الرئيس — لا يمكننا ان نقبل هذا مطلقا لأن للمجلس اختصاصات وحقوقا : فله ان يبدى رغبات ، ويطلب طلبات فاذا لم تستطع الحكومة تنفيذها وجب عليها ان تبين له أسباب ذلك — أما اذا رأت الحكومة انه ليس للمجلس مبدئيا — ان يكلفها أو يدعوها الى العمل فاننا لا نقبل ذلك ولا يمكننى ان أرأس هذا المجلس اذا لم يكن ذلك من اختصاصه (تصفيق حاد)

لقد ابدى المجلس فيما مضى رغبات أهم من هذه بكثير ، فلم تعترض على تنفيذها . وبصفتى رئيس مجلس النواب لا يمكننى أن أقبل ما تقوله الحكومة من أنه ليس من اختصاص المجلس أن يبدى رغبة كهذه ، خصوصا وانها ترمى الى اعطاء القضاء ماهو من حقوق القضاء

رئيس مجلس الوزراء — لا تقول الحكومة انه ليس من اختصاص

المجلس ابداء رغبات ولكنها تقول انها تصرفت فى الموضوع ، فاذا وافق المجلس على هذه الرغبة فكأنه يقول ان ما قامت به الحكومة لم يكن كافياً

الرئيس — اذا كانت موافقة المجلس على إبداء هذه الرغبة تفيد أن تصرف الحكومة فى هذه المسألة لم يكن كافياً فان له هذا الحق

رئيس مجلس الوزراء — للمجلس الحق ، إلا ان هذا يعتبر اعتراضا على تصرف الحكومة

الرئيس — انه اعتراض بلا شك . ولكن اذا رأى المجلس ان هذا الاعتراض فى محله فما رأى الحكومة فى ذلك ؟

فكرى أباظه بك — حضرات الزملاء المحترمين

أشار حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء الى تصرفات الحكومة فى هذا الموضوع إجمالا ولكننا لم نطلع على تفاصيل هذه الاجراءات . فمع تمسكنا بما لنا من ابداء رغبات يهمنا أن نطلع على تفاصيل ما قامت به من التصرفات حتى يمكننا ان نحكم عليها ولكن بما أن الفرصة لا تسمح لنا ولا تمكننا من أن نحكم فيها اذا كانت هذه التصرفات كافية أم لا فلذلك اقترح تأجيل النظر فى هذا الموضوع حتى نطلع على التفاصيل التى أشرت اليها

الرئيس — ان الحكومة لم تبين لنا هذه التفاصيل ولكنها تقول ان مطالبة المجلس إياها بالقيام بغير ما قامت به يعتبر اعتراضا على تصرفاتها حقيقة ان طلب المجلس يعتبر اعتراضا ولكنه فى محله

فكرى أباظه بك — يمكنها استيفاء الموضوع فى فترة التأجيل

الرئيس — ان الموضوع مستوفى

وزير الحقانية — يظهر لى ان المسألة تكاد تكون من اختصاص وزير الحقانية

يريد المجلس الموقر أن يبدى رغبة بتقديم مؤلف كتاب (الشعر الجاهلى) الى المحاكمة

وتقول الحكومة انها تصرفت فى هذه المسألة بطريقة مخصوصة قبل أن تثار فى المجلس ويقول معالى وزير المعارف ان هذه المسألة محل نظر الوزارة وانها ستتخذ فيها ماتراه من الاجراءات فهل هناك فارق بين رغبة المجلس وما وعد به معالى وزير المعارف ؟ لا أظن ان هناك فارقا للمجلس أن يبدى رغبة بتبليغ النيابة العمومية لاقامة الدعوى ضد الكتاب ولمعالى وزير المعارف ان ينظر فى هذه الرغبة ويتصرف فيها بما رآه وأظن أن هذا أليق بكرامة المجلس لأنه وهو الهيئة التشريعية اذا أمر برفع الدعوى العموميه وجاء الحكم فيها مخالفا لرأيه فيكون معنى هذا ان رأى المجلس لم يكن فى محله . أما اذا تركت المسألة للحكومة ورأت أن تقيم الدعوى العمومية ثم صدر الحكم ببراءة المؤلف فلا يؤاخذ المجلس بشىء وتتحمل الوزارة وحدها مسؤولية تصرفها

الرئيس — يجوز ان يكون تبليغ النيابة من ضمن الاجراءات التى تتخذها الوزارة فى هذه المسألة . وتبليغ النيابة هذا لا علاقة له بالحكم فى الدعوى

وزير الحقانية — الذى فهمته ان الاقتراح يومئ الى تكليف النيابة برفع الدعوى العمومية

الرئيس — ستستبدل كلمة « تبليغ » بكلمة « تكليف » وأظن أن تبليغ النيابة عن جريمة ارتكبت حق وواجب على كل فرد

وزير الحقانية ـ لا نزاع فى ذلك

عبد الحميد البنان افندى ـ أوافق على أن تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة (تكليف)

وزير الحقانية ـ يمكننى ان أقول ان سبب عدم تبليغ النيابة ربما كان مبنيا على أن كتاب (الشعر الجاهلى) مكروه من الأصل وكان من الواجب احتقاره وعدم اذاعته بين الجمهور . ولما كان التبليغ يقتضى نشر الكتاب فى الجرائد وإذاعته بين أفراد الأمة رأت الوزارة أن لا تبلغ النيابة استهانة بما احتواه الكتاب وتحقيراً لشأنه

فاذا رأى المجلس مع ذلك ضرورة لتبليغ النيابة فلا مانع من أن يبدى هذه الرغبة على أن تكون من ضمن الاجراءات التى تتخذها الحكومة

الرئيس — تقدم اقتراح برغبة

عبد الحميد البنان بك — لا مانع عندى من أن تكون هذه الرغبة ضمن ما تتخذه الوزارة من الاجراءات

الرئيس — هل يعد معالى وزير المعارف بذلك لأن هناك جريمة ارتكبت ويريد المجلس التبليغ عنها

وزير الحقانية — إننا نقدر رغبات المجلس حق قدرها ولم يبد المجلس أى رغبة إلا نفذتها الحكومة . فلماذا يطلب من معالى وزير المعارف أن يعد من الآن

الرئيس — ما الداعى لهذه المعارضة الشديدة ؟ المسألة فى غاية البساطة وهي هل توافق الحكومة على تنفيذ هذه الرغبة أم لا ؟

عبد الحميد البنان بك — أعدل اقتراحي بأن يضع معالى وزير المعارف هذه المسألة موضع البحث حتى إذا رأى ...

وزير المعارف — أوافق على هذا التعديل

الرئيس — لقد تقدم الاقتراح ومن حق المجلس أن يصدر قراراً بخصوصه فهل يوافق معالى وزير المعارف على تبليغه النيابة ؟

وزير المعارف — إنى موافق على تعديل حضرة عبد الحميد البنان بك

الرئيس — التعديل هو أن يقوم معالى وزير المعارف بتبليغ النيابة فهل تعد بذلك ؟

الدكتور احمد ماهر — أرجو أن ترفع الجلسة للاستراحة

الرئيس — ترفع الجلسة للاستراحة عشر دقائق



كلمة جريدة الاهرام الغراء

الوزارة تعرض مسألة الثقة

رشدى باشا وعدلى باشا فى بيت الأمة ليلا

تفاصيل المسألة ـ تسويتها

عرضت أمس وأول من أمس على مجلس النواب ميزانية الجامعة. ومن أسبوعين مضيا انتشرت فى الجو إشاعات مختلفة عن الجامعة فان روح التذمر والاستياء التى بدت بين النواب من تصرفات وزير المعارف السابق فى شئون وزارة المعارف تناولت تصرفاته فى أمر الجامعة أيضا. وهي تصرفات اجتمعت الكلمة على أنها خرقت القانون في كثير من المسائل الهامة بل قامت على أساس من الفوضى التى لم تراع فيه للقانون حرمة . . .

ومنذ ذلك الحين راجت اشاعات شتى فقيل ان هناك فكرة ترمى إلى إلغاء قانون الجامعة وترك كل مدرسة عالية أو كلية قائمة مستقلة مع ابقاء كليتى الآداب والعلوم كل كلية منها على حدة الى أن يتيسر انشاء جامعة بالمعنى الصحيح على أساس متين منظم. وراجت غير ذلك من الاشاعات ورأينا مدير الجامعة الأستاذ احمد لطفى السيد بك يتردد على بيت الامة

عـدة مرات قابل فيها دولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول للدفاع عن الجامعة أو عن مصير الجامعة

ومن المسائل التي ثارت حولها الاشاعات أيضاً مسألة كتاب «الشعر الجاهلي» الذى أخرجه الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة واستنكر العلماء وغير العلماء بعض ما احتواه من العبارات الماسة بالدين فان كثيرين من النواب يستنكرون بقاء الدكتور طه أستاذاً بالجامعة بعد أن اجتمعت كلمة العلماء على خروجه على الدين . وكان صاحب الفضيلة النائب المحترم الشيخ مصطفى القاياتى قد أعلن عزمه على استجواب رئيس الوزارة فى هذا الشأن ثم بذلت مساع حثيثة لحمله على العدول عن الاستجواب ثم أبدل الاستجواب بسؤال نشرناه منذ أيام على أن يكون الرد عليه كتابة

ولم يردّ رئيس الوزراء على السؤال وأشيع أن كثيرين من النواب سيعرضون مسألة الدكتور طه على المجلس أثناء بحث الميزانية وقيل ان بعضهم سيطلب الغاء وظيفته فبذل أصدقاء الدكتور طه حسين مساعي حثيثة للوصول إلى اقناع الذين ينوون المطالبة بالغاء الوظيفة بالعدول عن ذلك على أن يكتفى فى المجلس باستنكار عمل الاستاذ طه

وحدث أمس أن ثارت المناقشة في مجلس النواب فى شأن كتاب «الشعر الجاهلي» ومؤلفه وألقيت الخطب مما يراه القراء بنصه في محضر جلسة المجلس المنشور في غير هذا المكان

وقدم النائب المحترم عبد الحميد بك البنان نائب الجمالية اقتراحاً من

ثلاثة أقسام : (١) ابادة كتاب الشعر الجاهلى (٢) إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة (٣) إلغاء وظيفته

وقد سلم معالى وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح وتكلم دولة عدلى باشا رئيس الوزراء عن القسم الثاني وجرت بينه وبين دولة الرئيس الجليل مناقشة اشترك فيها وزيرا المعارف والحقانية انتهت بأن ذكر عدلى باشا أن قرار المجلس باحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرفات الحكومة وذكر مسألة الثقة بالوزارة

وكان الأمر قد أبلغ إلى دولة رشدى باشا فترك مجلس الشيوخ مسرعا إلى مجلس النواب

وكان جو المجلس مملوءاً كهرباء فاقترح النائب المحترم الدكتور احمد ماهر رفع الجلسة عشر دقائق للاستراحة ولما رفعت ذهب الرئيس الجليل إلى مكتبه بمجلس النواب وتبعه إليه عدلى باشا ورشدى باشا وبقيا معه عشر دقائق

وكان دولة الرئيس الجليل سعد باشا متعباً فاستقل سيارته إلى داره

واتفق بعض النواب على تأجيل الجلسة إلى غد لأن الساعة كانت قد أوشكت على العاشرة تقريباً وليكون هناك متسع من الوقت لتسوية المسألة . .

وأعيدت الجلسة فى الساعة العاشرة وثلث برئاسة حضرة صاحب السعادة مصطفى النحاس باشا فطلب أعضاء كثيرون التأجيل لتأخر الوقت فأجلت . .

وعلى أثر انصراف دولة سعد باشا قصد دولة عدلى باشا ومعه دولة رشدى باشا إلى بيت الأمة كما قصد إليه صاحبا المعالى فتح الله بركات باشا ومحمد محمود باشا . وتكلم عدلى باشا فى ظروف الحادث وذكر أنه قام على سوء تفاهم فانه لم يقصد تحدى المجلس فى سلطته . وظل عدلى باشا ورشدى باشا فى بيت الأمة إلى ما قبل منتصف الليل بثلث ساعة . وبعد انصرافهما سألنا بعض الوزراء عن النتيجة فقالوا لنا « ان الحادث سوي وانتهى وأصبح كأنه لم يكن »

وعلى أثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالى فتح الله بركات باشا إلى النادى السعدى حيث كان بعض أصحاب المعالى الوزراء وبقى هناك نحو نصف ساعة مع كثيرين من أعضاء مجلس النواب والشيوخ يتسامرون

ولا شك أنه كان مما يؤسف له كثيراً أن ينتهى الدور البرلمانى الحاضر بخلاف يقوم حول مسألة كمسألة أمس بعد أن سار مجلس النواب والوزارة فى مختلف شئون الدولة الخطيرة بتمام الاتفاق والوئام وأن تثير الحكومة مسألة الثقة بسبب كتاب سلمت إذ أقرت مصادرته وقبلت إبادته بضرر ما فيه كتاب نعرف أن الاغلبية العظمى من الأمة — وفى مقدمتهم العلماء والمتعلمون — لا ترضى عنه ولا عن مؤلفه

جلسة يوم الثلاثاء

الرئيس — ننتقل إلى استئناف النظر فى ميزانية الجامعة

عبد الحميد البنان افندى — قدمت اليوم بلاغا إلى النيابة العمومية

للتحقيق مع الدكتور طه حسين فيما كتبه طعناً على الدين الاسلامى وبناء على ذلك لم يبق محل للقسم الثانى من اقتراحي الذي قدمته أمس فى هذه المسألة . وبما أن مصادرة الكتاب لايمكن أن تكون إلا بحكم وهـذا تابع بطبيعة الحال للقضية المطلوب تحقيقها فانه لم يبق محل للقسم الأول أيضاً فى اقتراحى وأما فيما يختص بالقسم الثالث فانى أكتفى بتصريح دولة رئيس الوزراء ومعالى وزير المعارف بالنظر فى هذه المسألة وبحثها بما تستحقه من العناية وبناء على كل هذا قد سحبت اقتراحي

الرئيس — وهو كذلك

نقول وتسلَّمت النيابة الدكتور طه حسين وتم طبع هذا الكتاب وهو معلّق بعدُ فى ميزانها إما الى وإما الى . . . . . .



خطأ وصوابه

وقعت فى الكتاب هفوات مطبعية لا تخفى صحتها وقد رأينا أن نشير الى أهمها

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٢	وأرتصخ	وأرتضخ
٣٤	١٠	لمبدئ	لمبدأ
٦٠	١٤	الوِسْع	الوُسْع
٧٨	١٧	لم يحرم منه	لم يحْرِمْهُ
٨٠	١٨	تُعتَب	تعْتِب
١٠٤	٦	أ آخذه	أنه آخذه
١٢٣	٢٠	لا بلمه	لا بعلمه
١٤٠	١٧	فاقدف	فاقذف
١٦٣	١٤	عامضة	غامضة
١٧٧	١١	نتيجة	نتيجته
١٩٣	٥	أمهَ	أمةّ
١٩٤	٣	أهل باد	أهل بادية
١٩٧	٢	بننذ	بنبذ
٢١٧	١٨	ابو البرت	ابو كلود
٢٣٨	١٧	ك ب	كذب
٢٥٣	١٨	يعد	بعد
٢٧٣	٧	يتحاوز	يتجاوز
٢٩٢	٢	الشعَ	الشعرَ
٣٧٣	١٠	الدحاجة	الدجاجة
٣٧٣	١١	شروط	شروطا
٣٧٤	٧	ثم تعيده	ثم تعبده
٣٨١	٢	هذا الذين	هذا الدين
٣٨١	١٤	وما فشأ	وما فشا
٣٨٩	١٩	أخلاقه القو	أخلاقه القوية

فهرست الكتاب

يقع فى جزئين كبيرين وثمنهما ٢٥ قرش صاغ

مدنية العرب

فى الجاهلية والاسلام — ثمنه ٦ قروش صاغ

كشكول جمال

مجموعة علم وأدب وفكاهة ، ظهر منها حتى اليوم جزآن وثمنهما ١٠ قروش صاغ

ديوان الرصافى

هو شاعر العراق السيد معروف الرصافى ثمنه ١٠ قروش صاغ

ديوان الشاب الظريف

طبعة جديدة مزيد فيها كثير من شعره المتفرق ثمنه ٣ قروش صاغ

الانتداب وروح السياسة الانجليزية

تأليف راشد طباره من أدباء بيروت ، ثمنه ١٥ قرش صاغ

دروس التاريخ الاسلامى

تأليف الشيخ محيي الدين الخياط ، وهو فى خمسة أقسام

القسم الأول

يشتمل على مجمل تاريخ صاحب الشريعة الاسلامية — ثمنه ٣ قروش

القسم الثانى

يشتمل على مجمل تاريخ دولة الخلفاء الراشدين ، ثمنه ٣٥ مليما

القسم الثالث

يشتمل على مجمل تاريخ دولة بنى أمية فى الشرق — ثمنه ٣٥ مليما

القسم الرابع

يشتمل على مجمل تاريخ الدولة العباسية — ثمنه ٩ قروش

القسم الخامس

يشتمل على مجمل تاريخ الدول الاسلامية الصغرى — ثمنه ٩ قروش

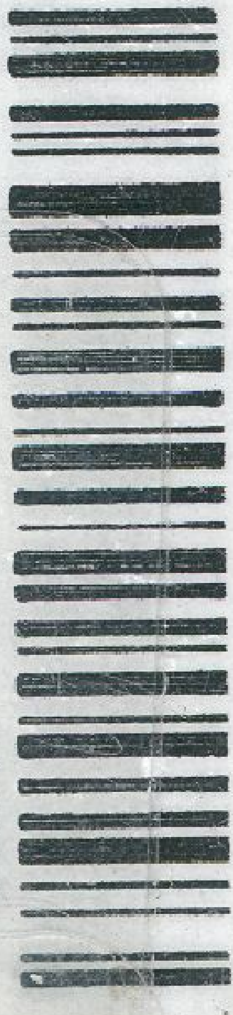
كليلة ودمنة

مزدانة بخمس وثمانين صورة — ثمنها ١٢ قرش صاغ

بلاغة العرب

فى القرن العشرين « طبعة جديدة » — ثمنها ١٠ قروش صاغ

وكلها تطلب من مركز المكتبة الاهلية بشارع غيط العدة نمرة ٣٠ — بمصر


Bibliotheca Alexandrina
06956624
